الكشــــــاف

(الجزء الرابع)

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

- سورة يس
- سورة الصافات
- سورة ص
- سورة الزمر
- سورة المؤمن
- سورة فصلت
- سورة الشورى
- سورة الزخرف
- سورة الدخان
- سورة الجاثية
- سورة الأحقاف
- سورة القتال
- سورة الفتح
- سورة الحجرات
- سورة ق
- سورة والذاريات
- سورة الطور
- سورة النجم
- سورة القمر
- سورة الرحمن
- سورة الواقعة
- سورة الحديد
- سورة المجادلة
- سورة الحشر
- سورة الممتحنة
- سورة الصف
- سورة الجمعة
- سورة المنافقون
- سورة التغابن
- سورة الطلاق
- سورة التحريم
- سورة الملك
- سورة ن
- سورة الحاقة
- سورة المعارج
- سورة نوح
- سورة الجن
- سورة المزمل
- سورة المدثر
- سورة القيامة
- سورة الإنسان
- سورة المرسلات
- سورة عم يتساءلون
- سورة النازعات
- سورة عبس
- سورة التكوير
- سورة الانفطار

- سورة المطففين
- سورة الانشقاق
- سورة البروج
- سورة الطارق
- سورة الأعلى
- سورة الغاشية
- سورة الفجر
- سورة البلد
- سورة الشمس
- سورة الليل
- سورة الضحى
- سورة الشرح
- سورة التين
- سورة العلق
- سورة القدر
- سورة البينة
- سورة الزلزلة
- سورة العاديات
- سورة القارعة
- سورة التكاثر
- سورة العصر
- سورة الهمزة
- سورة الفيل
- سورة قريش
- سورة الماعون
- سورة الكوثر
- سورة الكافرون
- سورة النصر
- سورة المسد
- سورة الإخلاص
- سورة الفلق
- سورة الناس

سورة يس

مكية وآياتها 83

بسم الله الرحمن الرحيم

{يس والقرآن الحكَيم إِنَكَ لَمِنَ اَلمُرسَلِينَ عَلى صِرَاط مستقيم تَنزيلَ اَلعزيزِ اَلرحَيم لِتنذِرَ قوماً ما أُنذرَ آباؤُهُم فَهُمْ غافِلوُنَ لَقَد حَقَ اَلقَول عَلى أكثرهم فَهُم لا يؤمِنونَ} قرىء: " يس " بالفتح كأين وكيف.

أو بالنصب على: اتل يس وبالكسر على الأصل كجير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحيث.

وفخمت الألف وأميلت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: معناه يا إنسان في لغة طيىء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما قالوا في القسم: م اللّه في أيمن اللّه " اَلحكَيمِ " ذي الحكمة.

أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي.

أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به " على صراط مستقيم " خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين.

فإن قلت: أي حاجة إليه خبراً كان أو صلة وقد علم المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم قلت: ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وأيضاً فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة لا يكتنه وصفه وقرىء: " تنزيلُ العزيز الرحيم " بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجر على البدل من القرآن " قوماً ما أنذر آباؤهم " قوماً غير منذر آباؤهم على الوصف ونحوه قوله تعالى: " لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك " القصص: 46 " وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " سبأ: 44 وقد فسر " مَآ أُنذرَ أباؤهم " على إثبات الإنذار.

ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية لتنذر قوماً إنذار آبائهم أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني لتنذر قوماً ما أنذره آباؤهم من العذاب كقوله تعالى: " إنا أنذرناكم عذاباً قريباً " النبأ:.

4 فإن قلت: أي فرق بين تعلقي قوله: " فَهُم غَفِلوُنَ " على التفسيرين قلت: هو على الأول متعلق بالنفي أي: لم ينفروا فهم غافلون على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم على الثاني بقوله: " إِنَكَ لَمِنَ اَلمُرسَلِينَ " لتنذر كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل.

أو فهو غافل.

فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر قلت: لا مناقضة: لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم.

فإن قلت: في أحد التفسيرين أن آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر فما تصنع به.

قلت: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد " لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون " " القَول "ُ قوله تعالى " لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين " السجدة: 13 يعني تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون " ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين: في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قلت: ما معنى قوله: " فَهِىَ إِلَى اَلأذَقَّانِ " قلت: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن.

فلا تخليه يطأطىء رأسه ويوطىء قذاله فلا يزال مقمحاَ.

والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره.

يقال: قمح البعير فهو قامح: إذا روي فرفع رأسه ومنه شهراَ قماح لأن الإبل ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيهما وهما الكانونان.

ومنه: اقتمحت السويق.

فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق - وبذلك يسمى جامعة - كان ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي قلت: الوجه ما ذكرت لك والدليل عليه قوله: " فَهُم مقمحَونَ " ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله: " فَهِىَ إِلَى الأذقانِ " ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً على أن هذا الإضمارَ فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه ترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج.

فإن قلت: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: " في أيديهم " وابن مسعود: " في أيمانهم " فهل تجوز على هاتين القراءتين أن يجعل الضمير للأيدي أو للأيمان قلت: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت.

وقرىء: " سداً " بالفتح والضم.

وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح وما كان من خلق اللّه فالبضم " فأغ)شيناهم " فأغشينا أبصارهم أي: غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي وعن مجاهد: فأغشيناهم: فألبسنا أبصارهم غشاوة.

وقرىء: بالعين من العشا.

وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك: أْن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم فقال مخزومي آَخر: أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى اللّه عينيه.

وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون غنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم " فإن قلت: قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار ثم قفاه بقوله: " إنما تُنذِرُ " وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفياً.

قلت: هو كما قلت ولكن لما كان ذلك نفياً للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان ففي بقوله: " إنَمَا تُنذر " على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر: وهو القرآن أو الوعظ الخاشون ربهم.

" إن نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في أمام مبين " " نحيي الموتى " نبعثهم بعد مماتهم.

وعن الحسن: إحياؤهم: أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان " ونكتب ما " أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه أو مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك.

أو سيئ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدث فيها تخسيرهم وشيء أحدث

فيه صد عن ذكر الله: من ألحان وملاه وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها.

ونحوه قوله تعالى: " ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر " القيامة: 13 أي: قدم من أعماله وأخر من آثاره.

وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد.

وعن جابر: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتانا في ديارنا وقال: يا بني سلمة بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد فقلنا: نعم بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية فقال: عليكم دياركم.

فإنما تكتب آثاركم.

قال فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح.

والإمام: اللوح.

وقرىء: " ويُكتَبُ ما قدموا وآثارهم " على البناء للمفعول " وكل شيء " بالرفع.

" واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون " " وَاضرِب لهم مثلاً " ومثل لهم مثلاً من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا أي: من هذا المثال وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد.

والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية.

والمثل الثاني بيان للأول.

وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية.

والقرية أنطاكية.

و " اَلمُرسَلُونَ " رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان.

أرسل إليهم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية فقالا: نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا.

قالا: نعم من أوجدك وآلهتك فقال: حتى انظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما.

وقيل: حبسا.

ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه فقال: لا حال الغضب بيني وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما قالا: اللّه الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال: صفاه وأوجزا.

قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قال: وما آيتكما قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلهك حتى يضع مثل هذا فيكون لك وله الشرف.

قال: ليس لي عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم يصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك: ومن هم قال شمعون: وهذان فتعجب الملك.

فلما رأي شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم ومن لن يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا " فَعززنَا " فقوينا.

يقال: المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها وتعزز لحم الناقة.

وقرىء: بالتخفيف من عزه يعزه: إذا غلبه أي: فغلبنا وقهرنا " بثالث " وهو شمعون.

فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به قلت: لأن الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وذل الباطل وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض مطرح.

ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق الغرض المسوق إليه: قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه " ما أنتم إلا بشر مثلنا " إنما رفع بشر هنا ونصب في قوله: " ما هذا بشراً " يوسف: 31 لأن إلا تنقض النفي فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه فلا يبقى له عمل.

فإن قلت: لم قيل: " إنا إليكم مرسلون " أولاً وإنَا إليكمُ لَمرسلوُنَ " آخراً قلت: لأن الأول ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار.

" قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين " وقوله: " ربنا يعلم " جار مجرى القسم في التوكيد وكذلك قولهم: شهد اللّه وعلم الله.

وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم: " وما علينا إلا البلاغ المبين " أي الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته وإلا فلو قال المدعي: والله إني لصادق فيما أدعي ولم يحضر البينة كان قبيحاً.

" قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون " " تطيرنا بكم " تشاءمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا كما حكى الله عن القبط: " وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه " الأعراف: 131.

وعن مشركي مكة: " وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك " النساء: 78.

وقيل: حبس عنهم القطر فقالوا ذلك.

وعن قتادة: إن أصابنا شيء كان من أجلكم " وطائركم معكم " وقرىء: " طيركم " أي: سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفرهَم ومعاصيهم.

وقرأ الحسن " أطيركم " أي تطيركم.

وقرىء: " أئن ذكرتم " بهمزة الاستفهام وحرف الشرط.

و " ءائن " بألف بينهما بمعنى: أتطيرون إن ذكرتم وقرىء: " أأن ذكرتم " بهمزة الاستفهام وأن الناصبة يعني: أتطيرتم لأن ذكرتم وقرىء: أن وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار أي تطيرتم لأن ذكرتم أو إن ذكرتم تطيرتم.

وقرىء: " أين ذكرتم ": على التخفيف أي شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم وإذا شئم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم " بَل أنتم قوم مسرِفوُنَ " في العصيان ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل اللّه وتذكيرهم أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل اللّه.

" وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ءأتخذ من دونه إلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى إذاً لفي ضلال مبين إنى ءامنت بربكم فاسمعون " " رجل يسعى " هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن من بنبي أحدَ إلا بعد ظهوره.

وقيل: كان في غار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرةَ فقالوا: أو أنت تخالف ديننا فوثبوا عليه فقتلوه.

وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره.

وقيل: رجموه وهو يقول: اللهم اهد قومي وقبره في سوق أنطاكية فلما قتل غضب اللّه عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام.

وعن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: " سُباق الأمم ثلاثة: " لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون " " مَن لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون " كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي: لا تخسرون معهم شيئاً من ديناكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ولقد وضع قوله: " وَمَا لِىَ لا أَعَبُدُ الذي فَطَرَني " مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم.

ألا ترى إلى قوله: " وإليه ترجعون " ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: " ءَامَنتُ بِرَبكمُ فاسمَعُونِ " يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه: أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز.

وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: " إِني ءَامَنتُ بِرَبكمُ فاسمَعُون " أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به.

وقرىء: " إن يردني الرحمن بضر " بمعنى: إن يوردني ضراً أي يجعلني مورداً للضر.

" قِيلَ اَدخل الجَنةَ قَالَ ياليتَ قَومي يَعلَمُون بِمَا غَفَرَ لِي رَبِي وجَعَلَنِي مِنَ اَلمُكرَمِينَ " أي لما قتل ِ" قيلَ " له " أدخُلِ الجَنة " وعن قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق أراد قوله تعالى: " بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين " آل عمران: 169 وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها.

فإن قلت: كيف مخرج هذا القول في علم البيان قلت: مخرجه مخرج الاستئناف لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأن قائلأ قال: كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل: قيل ادخل الجنةِ ولم يقل قيل له لاَنصبابِ الغرضِ إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلوماً وكذلك " قَالَ ياليتَ قَوميِ يَعلَمُون "

مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم وإنما تمنى علم قومه بحاله بكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة.

وفي حديث مرفوع: " نصح قومه حياً وميتاً " وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه.

ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام.

ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور.

والأول أوجه.

وقرىء: " المكرمين " فإن قلت: " ما " في قوله تعالى: " بِمَا غفَرَ لِى رَبِّ " أي المآت هي قلت: المصدرية أو الموصولة أي: بالذي غفره لي من الذنوب.

ويحتمل أن تكون استفهامية يعني بأي شيء غفر لي ربي يريد به ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل إلا أن قولك: " بم غفر لي " بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً يقال: قد علمت بما صنعت هذا أي: بأي شيء صنعت وبم صنعت.

" وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة المعنى: أن اللّه كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق فإن قلت: وما معنى قوله: " وَمَا كُناَ مُنزِلِينَ " قلت: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء وذلك لأن اللّه تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: " فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا " العنكبوت.

فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق.

قال تعالى: " فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها " الأحزاب: 9 " بألف من الملائكة مردفين " الأنفال: 9 " بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين " آل عمران: 124 " بخمسة آلاف من الملائكة مسومين " آل عمران: 125 قلت: إنما كان يكفي ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكن اللّه فضل محمداً صلى الله عليه وسلم بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار وأولاهُ من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء وكأنه أشار بقوله: " وَمَا أنزلنا " " وَمَا كُنَأ مُنزِلِينَ " إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك وما كنا نفعله بغيرك " إن كانت إلا صيحة واحدة " إن كانت الأخذة أو العقوبة إلاّ صيحة واحدة.

وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامة أي: ما وقعت إلا صيحة والقياس والاستعمال على تذكير الفعل لأن المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر

اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل ومثلها قراءة الحسن: " فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم " وبيت ذي الرمة: وَمَا بَقِيَتْ إِلا الضلُوعُ الْجَرَاشِعُ وقرأ ابن مسعود " إلازقية واحدة " من زقا الطائر يزقو ويزقي إذا صاح.

ومنه المثل: أثقل من الزواقي " خمِدُونَ " خمدوا كما تخمد النار فتعود رماداً كما قال لبيد: وَمَا المرءُ إلا كَالشهَاب وَضَوئِه يَحُورُ رَمَاداً بَعدَ إِذ هُوَ سَاطِعُ " ياحسرةً عَلَى اَلعِبَاد مَا يَأتيهم مِّن رَّسُولٍ إِلا كانوُا به يستهزءون " " ياحسرةً عَلَى اَلعِبَاد " نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل.

والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون.

أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة من قرأ: " يا حسرتاه " تعضد هذا

الوجه لأن المعنى: يا حسرتي.

وقرىء: " يا حسرة العباد " على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من حيث أنها موجهة إليهم.

ويا حسرة على العباد: على إجراء الوصل مجرى الوقف.

" ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون وإن كل لما جميع لدينا محضرون " " أَلم يَروا " ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في " كم " لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ فيِ الجملة كما نفذ في قولك: ألم يروا إن زيداً لمنطلق وإن لم يعمل في لفظه.

و " أنْهُم إِليهم لا يَرجعُونَ " بدل من " كم أَهلَكنَا " على المعنى لا على اللفظ تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم.

وعن الحسن كسر إن على الاستئناف.

وفي قراءة ابن مسعود: " ألم يروا من أهلكنا " والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال وهذا مما يرد قول أهل الرجعة.

ويحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة فقال: بئس القوم نحن إذن: نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه.

"لما " قرىء: " لما " بالتخفيف على أن ما صلة للتأكيد " وإن " مخففة من الثقيلة وهي متلقاة باللام لا محالة.

و " لما " بالتشديد بمعنى: إلا كالتي في مسألة الكتاب.

نشدتك باللّه لما فعلت وإن نافية والتنوين في " كل " هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه كقولك: مررت بكل قائماً.

والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة.

وقيل: محضرون معذبون.

فإن قلت: كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد قلت: ليس بواحد لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت منهم أحد والجميع: معناه الاجتماع وأن المحشر يجمعهم.

والجميع: فعيل بمعنى مفعول يقال حي جميع وجاؤا جميعاً.

" وآيَة لهَمٌ اَلأَرض الميتَةُ أحييناها وَأَخرَجنا منهَا حباً فَمِنهُ يأكُلوُنَ وَجَعلنَا فِيهَا جَنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون " القراءة الميتة على الخفة أشيع لسلسها على اللسان.

و " أحييناها " استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية وكذلك نسلخ ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما فعوملا معاملة النكرات في وصفهما با لأفعال ونحوه: وَلَقَد أمُر عَلَى اللئِيمِ يَسُبني وقوله: فَمنهُ يَأكُلوُنَ " بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس وإذا قل جاء القحط ووقع الضر وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء.

قرىء: " وفجرنا " بالتخفيف والتثقيل والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى.

وقرىء: " ثمره " بفتحتين وضمتين وضمة وسكون والضمير للّه تعالى والمعنى:

ليأكلوا مما خلقه اللّه من الثمر " و " مَن " ما عملتهُ أَيدِيهِم " من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه وفيه آثار من كد بني آدم وأصله من ثَمرنا كما قال: وجعلنا وفجرنا فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره.

ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤبة: فِيهَا خُطُوطٌ من بَيَاض وَبَلَقْ كَأنَّهُ فِي الجِلدِ تولِيع الْبَهَق فقيل له فقال: أردت كأن ذاك ولك أن تجعل " ما " نافية على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه.

وقرىء على الوجه الأول وما عملت من غير راجع وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير " اَلأزوج " الأجناس والأصناف " وَمما لا يعلَمُونَ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق اللّه تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: لم " ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه " فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ونحوه: " فلا

تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين " السجدة: 17 وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دل على عظم قدرته واتساع ملكه.

" وإيَة لهُمُ الليلُ نسلَخُ منهُ اَلنَهَارَ فإذَا هُم مظلمُونَ " سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله.

ومنه: سلخ الحية لخرشائها فاستعير لإزالة الضوء أو كشفه عن مكان الليل وملقى ظله " مظْلِمُون " داخلون في الظلام يقال: أظلمنا كما تقول: أعتمنا وأدجينا.

" والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " " لِمستَقَر لّهَا " لحد لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لاتعدوه أو لحد لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب.

وقيل: مستقرها أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها وقرىء: " تجري إلى مستقر لها " وقرأ ابن مسعود: " لا مستقر لها " أي: لا تزال تجري لا تستقر.

وقرىء: " لا مستقر لها " على أن لا بمعنى ليس " ذَلِكَ " الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور المحيط علَماً بكل معلوم قرىء: " والقمرُ " رفع على الابتداء أو عطفاً على الليل يريد: وَمن آياته القمر ونصباً بفعل يفسره قدرناه ولا بد في " قَدرنَاهُ مَنَازِلَ " من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقديم نفس القمر منازل والمعنى: قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستوٍ لا يتفاوت يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين ثم يستتر ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهر وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة وهي: السرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الفراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوا السماك الغفر الزبا ني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا.

فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس و " عَادَ كالعرجونِ القَدِيم " وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة.

وقال الزجاج: هو " فعلون " من الانعراج وهو الانعطاف.

وقرىء: " العرجون " بوزن الفرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون والقديم المحول واذا قدم دق فانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجه.

وقيل: أقْل مدة الموصوف بالقدم الحول فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حر.

أو كتب ذلك في وصيته: عتق منهم من مضى له حول أو أكثر.

وقرىء: " سابق النهار ".

على الأصل والمعنى: أن الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسماً من الزمان وضرب له حداً معلوماً على المعاقبة وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان

على حياله "َأن تدرِكَ القَمَرَ " فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ولا يسبق الليلَ النهار يعني آية الليل اية النهار وهما النيران ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل اللّه ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ويُطلع الشمس من مغربها فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق قلت: لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطىء سيرها عن سير القمر والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره " وكل " التنوين فيه عوض عن المضاف إليه والمعنى: وكلهم والضمير للشموس والأقمار على ما سبق ذكره.

{وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين " " ذريتهم " أولادهم ومن يهمهم حمله.

وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهن مزارعها وفي الحديث: أنه نهى عن قتل الذراري يعني النساء.

" مِن مثله " من مثل الفلك " ما يرَكبُونَ " من الإبل وهي سفائن البر وقيل " الفلكِ المَشحوُنِ " سفينة نوح ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح.

و "ِمن مثله " من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق " فلا صَرِيخَ " لا مغيث.

أو لا إغاثة.

يقال: أتاهم الصريخ " ولا هم يُنقذون " لا ينجون من الموت بالغرق " إِلا رَحمَةَ " إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة " إلى حِين " إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق.

ولقد أحسن من قال: وَلم أَسلَم لِكَي أَبقى وَلَكِن سَلِمتُ مِنَ الحِمَامِ إِلَى الحِمَام وقرأ الحسن رضي اللّه عنه: " نغرقهم ".

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من ءاية من ءايت ربهم إلا كانوا عنها معرضين " " اتقوا مَا بَين أَيدِيكم وَمَا خلفَكم " كقوله تعالى: " أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض " سبأ: 9 وعن مجاهد: ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر.

وعن قتادة: ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت يعني من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة " لَعَلكمُ ترحمَوُن " لتكونوا على رجاء رحمة الله.

وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله: " إلا كانوُا عَنهَا مُعرِضِينَ " فكأنه قال: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا.

ثم قال: ودأبهم الإعراض عند كل َآية وموعظة.

" وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين " كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً ولو شاء لأعزه ولو شاء لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله.

ومعناه: أنطعم المقول فيه هنا القول بينكم وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا واللّه أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل: كانوا يوهمون أن اللّه تعالى لما كان قادراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك.

نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله يعنون قوله: " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً " الأنعام: 136 فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم.

" إن أنتم إِلا فيِ ضَلاَلِ مبين " قول اللّه لهم.

أو حكاية قول المؤمنين لهم.

أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

" ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون " قرىء " يخصمون " بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها وإتباع الياء الخاء في الكسر ويختصون على الأصل.

ويخصمون من خصمه.

والمعنى: أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون.

ومعنى يخصمون: يخصم بعضهم بعضاً وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون " فَلا يستَطيعُونَ " أن يوصوا شيء من أمورهم " توَصيَةَ " ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة.

ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون " قرىء: " الصور " بسكون الواو وهو القرن أو جمع صورة وحركها بعضهم و " الأجداث " القبور.

وقرىء: بالفاءَ " ينسِلُون " يعدون بكسر السين وضمها والنفخة الثانية.

وقرىء: " يا ويلتنا " عن ابن مسعود رضي اللّه عنه: " من هبنا " من هب نومه إذا انتبه وأهبه غيره وقرىء: " من هبنا " بمعنى أهبنا: وعن بعضهم: أراد هب بنا فحذف الجار وأوصل الفعل: وقرىء: " من بعثنا " ومن هبنا على من الجارة والمصدر و " هذا " مبتدأ و " مَا وَعَدَ " أخبره وما مصدرية أو موصولة.

ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد وما وعد: خبر مبتدأ محذوف أي: هذا وعد الرحمن أي: مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعد " الرَحمن وَصدق اَلمُرسلُونَ " حق.

وعن مجاهد: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا: من بعثنا وأما " هذا مَا وعد الرَحمن " فكلام الملائكة.

عن ابن عباس.

وعن الحسن: كلام المتقين.

وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً.

فإن قلت: إذا جعلت ما مصدرية: كان المعنى: هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق فما وجه قوله: " وَصدق المُرسلونَ " إذا جعلتها موصولة قلت: تقديره: هنا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون بمعنى: والذي صدق فيه المرسلون من قولهم: صدقوهم الحديث فيْ القتال.

ومنه صدقني سن بكره.

فإن قلت: " مَن بَعَثَنَا مِن مرقدنَا " سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جواباً قلت: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلا أنه جيء به على طريقة: سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع وهو الذي وعده اللّه في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين.

" إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم " " " إلا صيحة واحدة " قرئت منصوبة ومرفوعة " فاليوم لا تظلَمُ نَفْس شيئاً.

إنَ أصحاَبَ الجَنةَ اليومَ فِي شُغُلِ " حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم.

وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود وتمكين له في النفوس وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره " في شُغُل " في أي شغل وفي شغل لا يوصف وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم ووقع في تلك الملاذ التي أعدها الله للمرتضين من عباده ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم وذلك بعد الوله والصبابة والتقصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية وتخطي الأهوال وتجاوز الأخطار وجواز الصراط.

ومعاينة ما لقى العصاة من العذاب وعن ابن عباس: في افتضاض الأبكار.

وعنه: في ضرب الأوتار.

وعن ابن كيسان: في التزاور.

وقيل: في ضيافة الله.

وعن الحسن: شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه.

وعن الكلبي: هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم لئلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم.

قرىء: " في شغل " بضمتين وضمة وسكون وفتحتين وفتحة وسكون.

والفاكه والفكه: المتنعم والمتلذذ.

ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به.

وكذلك الفكاهة وهي المزاحة.

وقرىء: " فكهون " وفكهون بكسر الكاف وضمها كقولهم: رجل حدث وحدث ونطس ونطس.

وقرىء: " فكهين " وفكهين على أنه حال والظرف مستقر " هُم " يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيداً للضمير في " فِي شُغُلٍ " وفي " فَكِهُونَ " على أن أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال.

وقرىء: " في ظلل " والأريكة: السرير في الحجلة.

وقيل: الفراش فيها.

وقرأ ابن مسعود: " متكين " " يَدَعُونَ " يفتعلون من الدعاء أي: يدعون به لأنفسهم كقولك: اشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه.

قال لبيد: فَاشتَوَى لَيلَةَ رِيح وَاجتَمَل ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه كقولك: ارتموه وتراموه.

وقيل: يتمنون من قولهم: ادع علي ما شئت بمعنى تمنه علي وفلان في خير ما أدعى أي في خير ما تمنى.

قال الزجاج: وهو من الدعاء أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

و " سلام " بدل مما يدعون كأنه قال لهم: سلام يقال لهم " قَولاً مِن " جهة " رب رَحيم " والمعنى: أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم ولهم ذلك لا يمنعونه.

قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين.

وقيل.

" مَا يَدَعُونَ " مبتدأ وخبره سلام بمعنى: ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه.

و " قَولاً " مصدر مؤكد لقوله تعالى: " وَلَهُم مَا يَدَعُونَ سَلاَم " أي: عدة من رب رحيم.

والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه.

وقرىء: " سلم " وهو بمعنى السلام في المعنيين.

وعن ابن مسعود: سلاماً نصب على الحال أي لهم مرادهم خالصاً.

" وَامتَازُوا " وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة.

ونحوه قوله تعالى: " ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا " الآية الروم: 14.

يقال: مازه فانماز وامتاز.

وعن قتادة: اعتزلوا عن كل خير.

وعن الضحاك: لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى.

ومعناه: أن بعضهم يمتاز من بعض.

" ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم " العهد: الوصية وعهد إليه: إذا وصاه.

وعهد الله إليهم: ما ركز فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع.

وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم.

وقرىء: إعهد بكسر الهمزة.

وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء.

وأعهد بكسر الهاء.

وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب.

وأحهد: بالحاء.

وأحد وهي لغة تميم.

ومنه قولهم: دحا محا " هذا " إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن إذ لا صراط أقوم منه ونحو التنكير فيه ما في قول كثير: لئن كان يهدى برد أنيابها العلى لأفقر مني إنني لفقير أراد: إنني لفقير بليغ الفقر حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه في وإلا لم يستقم معنى البيت وكذلك قوله: " هذا صِراَط َمستقِيم " يريد صراط بليغ في بابه بليغ في استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه.

ويجوز أن يراد: هذا بعض الصرط المستقيمة توبيخاً لهم على العدول عنه والتفادي عن سلوكه كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكةُ كأنه قيل: أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا

يضل السالك كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده: هذا فيما أظن قول نافع غير ضار توبيخاً له عن الإعراض عن نصائحه.

" ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون " قرىء: " جبلاً " بضمتين وضمة وسكون وضمتين وتشديدة وكسرتين وكسرة وسكون وكسرتين وتشديدة.

وهذه اللغات في معنى الخلق.

وقرىء: " جبلاً " جمع جبلة كفطر وخلق وفي قراءة علي رضي الله عنه: واحد الأجيال جيلاً.

" اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشد أرجلهم بما كانوا يكسبون " يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا

" يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيز علي شاهداً إلا من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل " وقرىء: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم.

وقرىء: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام كي والنصب على معنى: ولذلك نختم على أفواههم: وقرىء: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

" ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون " الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة " فَاستَبَقُوا اَلصراطَ " لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل.

والأصل: فاستبقوا إلى الصراط.

أو يُضمن معنى ابتدروا.

أو يجعل الصراط مسبوقاً لا مسبوقاً إليه.

أو ينتصب على الظرف.

والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي ترددوا إليها كثيراً - كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم - لم يقدروا وتعايى عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره.

أو لو شاء لأعماهم فلوا أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف - كما كان ذلك

هجيراهم - لم يستطيعوا.

أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً يعني أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتمون فيما ألفوا وضروا به من المقاصد دون غيرها على مكانتهم وقرىء: على مكاناتهم والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام.

أي: لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضي ولا رجوع واختلف في المسخ فعن ابن عباس: لمسخناهم قردة وخنازير.

وقيل: حجارة.

وعن قتادة: لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم.

وقرىء: " مضياً بالحركات الثلاث فالمضي والمضي كالعتي والعتي.

والمضي كالصبي.

" ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون " " ننكسه في الخلق " نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسمه وخلو من عقل وعلم ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله.

قال عز وجل: " ومنكم من يردَ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً " الحج: 5 " ثم رددناه أسفل سافلين " التين: ه وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه - قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد: وقرىء بكسر الكاف " وننِكسه " و " ننكسه " من التنكس والإنكاص أفَلا يعَقلونَ " بالياء والتاء.

" وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين " كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: شاعر وروى أن القائل: عقبة بن أبي معيط فقيل: " محضرون فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون " اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقووا بهم ويتعضدوا بمكانهم والأمر على عكس ما قدروا حيث هم جند لآلهتهم معقدون " محضرونَ " يخدمونهم ويذبون عنهم ويغضبون لهم والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر أو اتخذْوهم لينصروهم عند ا! لّه ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقوداً للنار.

وقرىء: " فلا يحزنك " بفتح الياء وضمها من حزنه أحزنه.

والمعنى: فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم " وَمَا يُعلنوُن " وإنا مجازوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن.

فإن قلت: ما تقول فيمن يقول: إن قرأ قارىء: " أنا نعلم " بالفتح: انتقضت صلاته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى: كفر.

قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام وقياس مطرد وهذا معناه ومعنى الكسر سواء.

وعليه تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الحمد والنعمة لك " كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل.

والثاني: أن يكون بدلاً من " قَولهُم " كأنه قيل: فلا يحزنك أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون.

وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقديرك فتفصل إن فتحت بأن تقدر معنى التعليل ولا تقدر البدل كما أنك تفصل تقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدر معنى المفعولية ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن على كون الله عالماً بسرهم وعلانيتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئاً ألا ترى إلى قوله تعالى: " فلا تكونن ظهيراً للكافرين " القصص: 86 " أو لم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون " قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ ودلّ على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار وشرز صفحته لمجادلته ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاءه من موات وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها وروى: أن جماعة من كفار قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل العاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي: ألا ترون إلي ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات ثم قال: واللات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه وأخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم قال صلى الله عليه وسلم: " نعم ويبعثك ويدخلك جهنم " وقيل: معنى قوله: " فَإِذَا هُوَ خَصِيم مبين " فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين: معرب عما في نفسه فصيح كما قال تعالى: " أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين " الزخرف: 18.

فإن قلت: لم سمى قوله: " مَن يُحيي العظامَ وَهيَ رَمِيم " مثلاً قلت: لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

أو لما فيه من التشبيه لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى فإذا قيل: من يحي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه كان تعجيزاً لله وتشبيهاً له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه.

والرميم: اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات فلا يقال: لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام ويقول: إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها.

وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة وكذلك الشعر والعصب ويزعمون أن الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ويقولون: المراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت

عليه غضة رطبة في بدن حي حساس " وَهُوَ بكل شيء عليم " يعلم كيف يخلق لا يتعاظمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها.

ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي يوري بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار وفي أمثالهم: في كل شجر نار.

واستمجد المرخ والعفار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب.

قالوا: ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين.

قرىء: " الأخضر " على اللفظ.

وقرىء: " الخضراء " على المعنى: ونحوه قوله تعالى: " من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم " الواقعة: 54.

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر وفي معناه قوله تعالى: " لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس " غافر: 57.

وقرىء: " يقدر " وقوله: " أن يخلُقَ مثلَهُم " يحتمل معنيين: أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به " وَهُوَ اَلخلاق " الكثير المخلوقات " اَلعليم " ِ الكثير المعلومات.

وقرىء: " الخالق " " إنَمَآ أمره " إنما شأنه " إذَآ أَرَادَ سيَئاً " إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف " أَن يَقولَ لَهُ كنُ " أن يكونه من غير توقف " فَيَكون "ُ فيحدث أي: فهو كائن موجود لا محالة.

فإن قلت: ما حقيقة قوله: " أَن يَقُولَ لَه كنُ فَيكَوُن " قلت: هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.

فإن قَلت: فما وجه القَراءتين في فيكون قلت: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها: فهو يكون معطوفة على مثلها وهي أمره أن يقول له كن.

وأما النصب فللعطف على يقول والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما لا يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه من المباشرة بمحال القدرة واستعمالّ الآلات وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة " فَسُبحاَنَ " تنزيه له مما وصفه به المشركون وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا: " بِيده مَلَكوُتُ كل شيء " هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته.

وقرىء: " ملكة كل شيء " " ومملكة كل شيٍء " " وملك كل شيء ".

والمعنى واحد " ترجعُونَ " بضم التاء وفتحها.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية.

" إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله تعالى له وأعطي مثل الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان ولايحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان.

وقال عليه الصلاة والسلام: " إن في القرآن سورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس ".

سورة الصافات

مكية وهي مائة وإحدى وثمانون آية وقيل: واثنتان وثمانون

" وَالصافاَتِ صفاً فاَلزجِرتِ زجراً فالتاليات ذكراً إن إلهكم لواحد رب السموت والأرض وما بينهما ورب المشرق " أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة من قوله تعالى: " وإنا لنحن الصافون " الصافات: 165 أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله " فالزجِرت " السحاب سوقاً " فَالتلِيت " لكلام اللّه من الكتب المنزلة وغيرها.

وقيل: " وَآلصَّفت ": الطير من قوله تعالى: " والطير صافات " النور: 41 والزاجرات: كل ما زجر عن معاصي اللّه.

والتاليات: كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزجرات بالمواعظ والنصائح فالتاليات آيات اللّه والدراسات شرائعه أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو الذكر مع ذلك لا تشغلها عنه تلك الشواغل كما يحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله: يَا لَهفَ زيابة لِلحَرثِ الصابِحِ فَالغَانِمِ فَالآيِبِ كأنه قيل: الذي صبح فغنم فآب.

وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك: خذ الأفضل فاكمل واعمل الأحسن فالأجمل.

وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات فإن قلت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده قلت إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على أن ترتب الصفات في التفاضل وإن ثلثته فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل: إما

إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة وإما على العكس وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة.

وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على أخر فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل أعني أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس وكذلك إذا أردت بالصافات: الطير وبالزاجرات: كل ما يزجر عن معصية.

وبالتاليات: كل نفس تتلو الذكر فإن الموصوفات مختلفة.

وقرىء: بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال " رب السموت " خبر بعد خبر.

أو خبر مبتدأ محذوف.

و " المشرِق " ِ ثلثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب: تشرق الشمس كل يوم في مشرق وتغرب في مغرب ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين.

فإن قلت: فماذا أراد بقوله: " رب المشرقين ورب المغربين " الرحمن 7 قلت: أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما.

" الدنيا " القربى منكم.

والزينة: مصدر كالنسبة واسم لما يزان به الشيء كالليقه اسم لما تلاق به الدواة ويحتملهما قوله: " بزينة الكوكب " فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي: بأن زانتها الكواكب وأصله: بزينة الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي: بأن زان اللّه الكواكب وحسنها لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها وأصله " بِزينة الكوكب " وهي قراءة أبي بكر والأعمش وابن وثاب وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان: أن تقع الكواكب بياناً للزينة لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به وأن يراد ما زينت به الكواكب.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: بزينة الكواكب: بضوء الكواكب ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء وغير ذلك ومطالعها ومسايرها.

وقرىء: على هذا المعنى: بزينة الكواكب بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال.

ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلاً من محل بزينة " وحفظاً " مما حمل على المعنى لأن المعنى: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين كما قال تعالى: " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين " الملك: ه ويجوز أن يقدر الفعل المعلل كأنه قيل: حفظاً " من كل شيطن " زيناها بالكواكب وقيل: وحفظناها حفظاً.

والمارد: الخارج من الطاعة المتملس منها.

" لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من

الضمير في " لا يسمعون " لكل شيطان لأنه في معنى الشياطين.

وقرىء بالتخفيف والتشديد وأصله: يتسمعون.

والتسميع: تطلب السماع.

يقال: تسمع فسمع أو فلم يسمع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم يتسمعون ولا يسمعون وبهذا ينصر التخفيف على التشديد

فإن قلت: لا يسمعون كيف اتصل بما قبله قلت: لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان أو استئنافاً فلا تصح الصفة لأن الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له وكذلك الاستئناف لأن سائلاً لو سأل: لم تحفظ من الشياطين فأجيب بأنهم لا يسمعون: لم يستقم فبقي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة.

أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة فعندها تعاجله الهلكة بإتباع الشهاب الثاقب.

فإن قلت: هل يصح قول من زعم أن أصله: لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك: جئتك أن تكرمني فبقي أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها كما في قول القائل: أَلاَ أَيهَا ذَا الزاجِرِي أَحضُرُ الوَغى قلت: كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات على أن صون القران عن مثل هذا التعسف واجب.

فإن قلت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث وسمعت إليه يتحدث وسمعت حديثه وإلى حديثه.

قلت المعدى بنفسه يفيد الإدراك والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك والملأ الأعلى: الملائكة لأنهم يسكنون السماوات والإنس والجن: هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة.

وعنه: أشراف الملائكة " مِن كل جانب " من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق " دحوراً " مفعول له أي: ويقذفون للدحور وهو الطرد أو مدحورين على الحال أو لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى فكأنه قيل: يدحرون أو قذفاً.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بفتح الدال على قذفاً دحوراً طروداً.

أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع.

والواصب: الدائم وصب الأمر وصوباً يعني أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع " مَن " في محل الرفع بدل من الواو في " لا يسمعون " أي: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي " خطف الخطفة " وقرىء: " خطف " بكسر الخاء والطاء وتشديدها وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها أصلها: اختطف.

وقرىء: " فأتبعه " " وفاتبعه ".

" فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقنهم من طين لازب " الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها فلذلك قيل: فَأستَفِتهِم "

أي استخبرهم " أهم أشد خلقاً " ولم يقل: فقررهم والضمير لمشركي مكة.

قيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة وكني بذلك لشدة بطشه وقوتْه " أَم مَن خلقنا " يريد: ما ذكر من خلائقه: من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب والشهب الثواقب والشياطين المردة وغلب أولي العقل على غيرهم فقال: من خلقنا والدليل عليه قوله بعد عد هذه الأشياء: " فاستَفتهم أهم أَشَد خلقَاً أَم مَّن خلقنا " بالفاء المعقبة.

وقوله: " أم من خلقنا " مطلقاً من غير تقييد بالبيان اكتفاء ببيان ما تقدمه كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم الذي خلقناه من ذلك ويقطع به قراءة من قرأ: " أم من عددنا " بالتخفيف والتشديد.

و " أشد خلقاً " يحتمل أقوى خلقاً من قولهم: شديد الخلق.

وفي خلقه شدة وأصعب خلقاً وأشقه على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون.

وخلقهم " من طين لازب " إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: " أئذا كنا تراباً " الرعد: ه.

وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث.

وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية وليس هذا القول بملائم.

وقرىء: "بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا ءاية يستخسرون " " بل عجبت " من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة و هم " يَسخَرُونَ " منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث وقرىء بضم التاء أي: بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أني عجبت منها فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يصف الله تعالى بالقدرة عليه.

فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء والله تعالى لا يجوز عليه الروعة قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام والثاني: أن يُتخيل العجب ويفرض.

وقد جاء في الحديث: " عجب ربكم من ألكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم " وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: إن الله لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم فقال إبراهيم النخعي: إن شريحاً كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم يريد عبد الله بن مسعود وكان يقرأ بالضم.

وقيل: معناه: قل يا محمد بل عجبت.

" وإذا ذكروا " ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به " وإذا رأوا ءاية " من آيات الله البينة كانشقاق القمر ونحوه " يستسخرون " ويبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم من

" وقالوا إن هذا إلا سحر مبين أءذا متنا وكنا تراباً وعظماً أءنا لمبعوثون أو ءاباؤنا الأولون قل نعم وأنتم دخرون فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون " " أو ءاباؤنا " معطوف على محل " إن " واسمها.

أو على الضمير في مبعوثون والذي جوز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام.

والمعنى: أيبعث أيضاً آباؤنا على زياد الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل.

وقرىء: " أو آباؤنا " " قل نعم " وقرىء: " نعم " بكسر العين وهما لغتان.

وقرىء: " قال نعم " أي: الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: نعم تبعثون " وَأَنتم دَخرُون " صاغرون " فإنما " جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان ذلك فما " هي " إلا " زَجرَة واحدة " وهي لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها.

ويجوز: فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية.

والزجرة الصيحة من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليها فريعت لصوته.

ومنه قوله: زَجرَ أَبِي عُروَةَ السبَاعَ إِذَا أَشفَقَ أَن يَختَلِطنَ بالغَنَم يريد تصويته بها " فإذا هم " أحياء بصراء " يَنظُرُونَ ".

" وقالوا يويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون " يحتمل أن يكون " هذا يوم الدين " إلى قوله: " احشروا " من كلام الكفرة بعضهم مع بعض وأن يكون من كلام الملائكة لهم وأن يكون " يويلنا هذا يوم الدين " كلام الكفرة.

و " هذا يوم الفصل " من كلام الملائكة جواباً لهم.

ويوم الدين: اليوم الذي ندان فيه أي: نجازى بأعمالنا.

ويوم الفصل: يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

" احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صرط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون " " احشروا " خطاب الله للملائكة أو خطاب بعضهم مع بعض " وأزوَجَهُم "! وضرباءهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة: أهل الزنا مع أهل الزنا وأهل السرقة مع أهل السرقة.

وقيل: قرناؤهم من الشياطين.

وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم " فَاهدوهم " فعرفوهم طريق النار حتى يسلكوها.

هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجر عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين " بل هم اليوم مستسلمون " قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر.

وقرىء: " لا تتناصرون " ولا تناصرون بالإدغام.

" وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطن بل كنتم قوماً طغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون

فأغوينكم إنا كنا غوين فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون " اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ويزاولون أكثر الأمور ويتشاءمون بالشمال ولذلك سموها: الشؤمى كما سموا أختها اليمني وتيمنوا بالسانح وتطيروا بالبارح وكان الأعسر معيباً عندهم وعضدت الشريعة ذلك فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين وأراذلها بالشمال.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن في كل شيء.

وجعلت اليمين لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيئات ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء يؤتاه بشماله استعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل: أتاه عن اليمين أي: من قبل الخير وناحيته فصده عنه وأضله.

وجاء في بعض التفاسير: من أتاه الشيطان من جهة اليمن أتاه من قبل الدين فليس عليه الحق.

ومن أتاه من جهة الشمال: أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه: أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب.

ومن أتاه من خلفه: خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة.

وقلت: قولهم: أتاه من جهة الخير وناحيته مجاز في نفسه فكيف جعلت اليمين مجازاً عن المجاز قلت: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق وهذا من ذاك ولكن أن تجعلها مستعارة للقوة والقهر لأن اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش.

والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه.

وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم والغواة لشياطينهم " بل لم تكونوا مؤمنين " بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر.

غير ملجئين إليه " وما كان لنا عليكم " من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم " بل كنتم قوماً " مختارين الطغيان " فحق علينا " فلزمنا " قول ربنا إنا لذائقون " يعني: وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون لكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم.

ونحوه قول القائل: لَقَد زَعَمَت هَوَازِنُ قَل مَالِي ولو حكى قولها لقال: قل مالك.

ومنه قول المحلف للحالف: احلف لأخرجن ولتخرجن: الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء لإقبال المحلف على المحلف " فأغوينكم " فدعوتاكم إلى الغي دعوة محصلة للبغية لقبولكم لها واستحبابكم الغي على الرشد " إنا كنا غوين " فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا " فإنهم " فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً " يومئذ " يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية " إنا " مثل ذلك الفعل " نفعل " بكل مجرم يعني أن سبب العقوبة هو الإجرام فمن ارتكبه استوجبها " إنهم كانوا إذا " سمعوا بكلمة التوحيد نفروا و استكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

" ويقولون أئنا لتاركوا ءالهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون " " لشاعر مجنون " يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم " بل جاء بالحق " رد على المشركين " وصدق المرسلين " كقوله: " مصدقاً لما بين يديه " البقرة: 97 وقرىء: " لذائقوا العذاب " بالنصب على تقدير النون كقوله: وَلاَ ذَاكِراً اللهَ إِلا قَلِيلاً بتقدير التنوين.

وقرىء: على الأصل " لذائقون العذاب " " إلا مَا كنتم تعملون " إلا مثل ماعملتم جزاء سيئاً بعمل سيىء.

{إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرت الطرف عين كأنهن بيض مكنون} {إلا عباد الله} ولكن عباد اللّه على الاستثناء المنقطع.

فسر الرزق المعلوم بالفواكه: وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة يعني أن رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فكل ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذذ.

ويجوز أن يراد: رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها: من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر.

وقيل: معلوم الوقت كقوله: " ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً " مريم: 62 وعن قتادة: الرزق المعلوم الجنة وقوله " فِي جَنَتِ " يأباه وقوله: " وَهُم مُكرَمُونَ " هو الذي يقوله العلماء في حد الثواب على سبيل المدح والتعظيم وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوي الهمم كما أن من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم.

التقابل: أتم للسرور وآنس.

وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

ويقال للزجاجة فيها الخمر: كأس وتسمى الخمر نفسها كأساَ قال: وَكَاسٍ شَرِبتُ عَلَى لَذة وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر وكذا في تفسير ابن عباس " من معين " من شراب معين.

أو من نهر معين وهو الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون: وصف بما يوصف به الماء لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء قال الله تعالى: " أو أنهار من خمر "

محمد: 15 " بيضاء " صفة للكأس " لذة " إما أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها: أو هي تأنيث اللذة ولذ كطعم الصرخدي تركته بأرض العدا من خشية الحدثان يريد النوم.

الغول: مِن غاله يغوله غولاً إذا أهلكه وأفسده.

ومنه: الغول الذي في تكاذيب العرب.

وفي أمثالهم: الغضب غول الحلم و " ينزفون " على البناء للمفعول من نزف الشارب إذا ذهب عقله.

ويقال للسكران: نزيف ومنزوف.

ويقال للمطعون نزف قَمات إذا خرج دمه كله.

ونزحت الركية حتى نزفتها: إذا لم تترك فيها ماء.

وفي أمثالهم: أجبن من المنزوف ضرطاً.

وقرىء: " ينزفون " من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه.

قال: لعمري لئن أنزفتمو أو صحوتمو لبئس الندامى كنتمو آل أبجرا ومعناه: صار ذا نزف.

ونظيره: أقشع السحاب وقشعته الريح وأكب الرجل وكببته وحقيقتهما: دخلا في القشع والكب.

وفي قراءة طلحة بن مصرف: ينزفون: بضم الزاي من نزف ينزف كقرب يقرب إذا سكر.

والمعنى: لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ولا هم يسكرون وهو أعظم مفاسدها فأفرزه وأفرده بالذكر " قصرت الطرف " قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم كقوله تعالى: " عرباً " الواقعة: 37 والعين: النجل العيون شبهن ببيض النعام المكنون في الأداحي وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور.

" فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم أني كان لي قرين يقول أءنك لمن الصدقين أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرءاه في سوء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين " فإن قلت: علام عطف قوله: " فأقبل بعضهم على بعض " قلت: على يطاف عليهم.

والمعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب قال: وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام فيقبل بعضهم على بعض " يتساءلون " عما جرى لهم وعليهم في الدنيا إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في أخباره.

قرىء: " من المصدقين " من التصديق.

ومن المصدقين مشدد الصاد من المتصدق وقيل: نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال: وأين مالك قال: تصدقت به ليعوضني الله به في الآخرة خيراً منه فقال: أئنك لمن المصدقين بيوم الدين.

أو من المتصدقين لطلب الثواب.

واللّه لا أعطيك شيئاً " لمدينون " لمجزيون من الدين وهو الجزاء أو لمسوسون مربوبون.

يقال: دانه ساسه.

ومنه الحديث: " العاقل من دان نفسه " " قَال " يعني ذلك القائل: " هل أنتم مطلعون " إلى النار لأريكم ذلك القرين.

قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار.

وقيل: القائل هو اللّه عز وجل.

وقيل: بعض الملائكة يقول لأهل الجنة: هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.

وقرىء: " مطلعون " فاطلع.

وفأطلع بالتشديد على لفظ الماضي والمضارع المنصوب: ومطلعون فاطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارع والمنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى واحد والمعنى: هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضاً.

أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه فاطلع هو بعد ذلك.

وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره فالمعنى: أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم وهو من آداب المجالسة.

أن لا يستبد بشيء دون جلسائه فكأنهم مطلعوه.

وقيل: الخطاب على هذا للملائكة.

وقرىء: " مطلعون " بكسر النون أراد: مطلعون إياي فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله: هم الفاعلون الخير والآمرونه أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتآخ بينهما كأنه قال: تطلعون وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر " في سوء الجحيم " في وسطها يقال: تعبت حتى انقطع سوائي وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي إن مخففة من الثقيلة وهي تدخل على كاد كما تدخل على كان ونحوه " إن كان ليضلنا " واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والإرداء: الإهلاك.

وفي قراءة عبد الله: لتغوين " نِعمَةُ ربي " هي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من قرين السوء.

أوُ إنعام الله تعالى بالثواب وكونه من أهل الجنة " من المحضرين " من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك.

" أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين " الذي عطفت عليه الفاء محذوف معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين.

وقرىء: بمائتين والمعنى أن هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم يتمنون فيه الموت كل ساعة وقيل لبعض الحكماء: ما شر من الموت قال: الذي يتمنى فيه الموت.

" إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون " يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله واغتباطاً بحاله وبمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له يزيد به تعذباً وليحكيه اللّه تعالى فيكون لنا لطفاً وزاجراً.

ويجوز أن يكون قولهم جميعاً وكذلك قوله " إن هذا لهو الفوز العظيم " أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه.

وقيل: هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له.

وقرىء: " لهو الرزق العظيم " وهو ما رزقوه من السعادة.

" أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشيطين فإنهم لأكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوباً من

حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم إنهم ألفوا ءاباءهم ضالين فهم على آثرهم يهرعون " تمت قصة المؤمن وقرينه ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال: " أذلك " الرزق " خير نزلاً " أي خير حاصلاً " أم شجرة الزقوم " وأصل النزل: الفضل والريع في الطعام يقال: طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشيء وحاصل الرزق المعلوم: اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم: الألم والغم وانتصاب نزلاً على التمييز ولك أن تجعله حالاً كما تقول: أثمر النخلة خير بلحاً أم رطباً لِعني أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة.

وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير في كونه نزلاً.

والنزل: ما يقام للنازل بالمكان من الرزق.

ومنه أنزال الجند لأرزاقهم كما يقال لما يقام لساكن الدار: السكن.

ومعنى الأول: أن للرزق المعلوم نزلاً ولشجرة الزقوم نزلاً فأيهما خير نزلاً.

ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم " فتنة للظالمين " محنةً وعذاباً لهم في الآخرة.

أو ابتلاء لهم في الدنيا وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا.

وقرىء: نابتة " في أصل الجحيم " قيل: منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها: والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها: إما استعارة لفظية أو معنوية وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان كأنه رأس شيطان وإذا صوره المصورون:

جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله كما أنهم اعتقدوا في المَلَكِ أنه خير محض لا شر فيه فشبهوا به الصورة الحسنة.

قال الله تعالى: " ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم " يوسف: 31 وهذا تشبيه تخييلي.

وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورةَ قبيحة المنظر هائلة جداً.

وقيل: إن شجراً يقال له الأستن خشناً منتناً مراً منكر الصورة يسمى ثمره: رؤوس الشياطين.

وما سمت العرب هذا الثمر رؤوس الشياطين إلا قصداً إلى أحد التشبيهين ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلاً ثالثاً يشبه به " مِنهَا " من الشجرة أي من طلعها " فَمَالِئُونَ " بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها ليكون باباً من العذاب فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شراباً من غساق أو صديد شوبه: أي مزاجه " من حميم " يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم كما قال في صفة شراب أهل الجنة " ومزاجه من تسنيم " المطففين: 127.

وقرىء: الشوبا بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول تسمية بالمصدر.

فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله: " إن لهم عليها لشوبا " وفي قوله: " ثم إن مرجعهم"

قلت: في الأول وجهان أحدهما: أنهم يملؤن البطون من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد ما ملىء تعذيباً بذلك العطش ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم.

والثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه.

ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يتملؤا ويسقون بعد ذلك ثم يرجعون إلى دركاتهم ومعنى التراخي في ذلك بين وقرىء: " ثم إن منقلبهم " ثم إن مصيرهم ثم إن منفذهم إلى الجحيم: علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين واتباعهم إياهم على الضلال وترك اتباع الدليل والإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثاً.

وقيل: إسراع فيه شبه بالرعدة.

" ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين " " ولقد ضل قبلهم " قبل قومك قريش.

" منذرين " أنبياء حذروهم العواقب.

" المنذرين " الذين أنذروا وحذروا أي أهلكوا جميعاً " إلا عباد الله " الذين آمنوا منهم وأخلصوا لله دينهم أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

" ولقد نادنا نوح فلنعم المجيبون ونجينه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين

وتركنا عليه في الآخرين سلم على نوح في العلمين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين " لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف وتقديره: فوالله لنعم المجيبون نحن.

والجمع دليل العظمة والكبرياء.

والمعنى إنا أجبناه أحسن الإجابة وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون " هم الباقين " هم الذين بقوا وحدهم وقد فني غيرهم فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده.

أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة.

قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح.

وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث.

فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج " وتركنا عليهم في الآخرين " من الأمم هذه الكلمة وهي: " سلم على نوح " يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك: قرأت: " سورة أنزلناها " النور: ا فإن قلت: فما معنى قوله: " في العلمين " قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم

جميعاً وأن لا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل: ثبت اللّه التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم.

علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ويرغبك في تحصيله والازدياد منه.

" وإن من شيعته لإبرهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكاً إلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين " " مِن شيعته " أي ممن شايعه على أصول الدين وان اختلفت شرائعهما.

أو شايعه على التصلب في دين اللّه ومصابرة المكذبين.

ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: من أهل دينه وعلى سنته وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان: هود وصالح وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة.

فإن قلت: بم تعلق الظرف قلت: بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم أو بمحذوف وهو: اذكر " بقلب سليم " من جميع آفات القلوب.

وقيل: من الشرك ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها.

فإن قلت: ما معنى المجيء بقلبه ربه قلت: معناه أنه أخلص للّه قلبه وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك " أئفكاً " مفعول له وتقديره: أتريدون آلهة من دون لله إفكاً وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم.

ويجوز أن يكون إفكاً مفعولاً به يعني: أتريدون به إفكاً.

ثم فسر الإفك بقوله: " آلهة " من " دون الله " على أنها إفك في أنفسهما.

ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أتريدون آلهة عن دون الله آفكين " فما ظنكم " بمن هو الحقيق بالعبادة لأنه من كان رباً للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام: والمعنى: أنه لا يقدر في وهم ولا ظن ما يصدعن عن عبادته.

أو فما ظنكم به أي شيء هو من الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أنداداً.

أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره " فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين " " في النجوم " في علم النجوم أو في كتابها أو في أحكامها وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال: حبيب أنظر إليه ومحتاج أنظر له وكتاب أنظر فيه.

كان القوم نجامين فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم على أنه يسقم " فقال إني سقيم " إني مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالأصنام ما فعل.

فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب قلت: قد جوّزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين.

والصحيح: أن الكذب حرام إلا إذا عرض وورى والذي قاله إبراهيم عليه السلام: معراض من الكلام ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم.

ومنه المثل: كفى بالسلامة داء.

وقول لبيد: فدعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داء وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح فقال أعرابي.

أصحيح من الموت في عنقه.

وقيل: أراد: إني سقيم النفس لكفركم.

" فراغ إلى ءالهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين " " فراغ إلى ءالهتهم " فذهب إليها في خفية من روغة الثعلب إلى آلهتهمَ: إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة كقوله تعالى: " أين شركائي " النحل: 27.

" ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون " استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها " فراغ عليهم " فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال: فضربهم " ضرباً " لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم.

أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً.

أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً.

وقرىء: " صفقاً " و " سفقاً " ومعناهما: الضرب.

ومعنى ضرباً " باليمين" ضرباً شديداً قوياً لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما.

وقيل: بالقوة والمتانة وقيل: بسبب الحلف وهو قوله: " تاللّه لأكيدن أصنامكم ".

" فأقبلوا إليه يزفون " " يَزِفونَ " يسرعون من زفيف النعام.

ويزفون: من أزف إذا دخل في الزفيف.

أو من أزفه إذا حمله على الزفيف أي: يزفّ بعضهم بعضاً.

ويزفون على البناء للمفعول أي: يحملون على الزفيف.

ويزفون من وزف يزف إذا أسرع.

ويزفون: من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضاَ لتسارعهم إليه فإن قلت: بين هذا وبين قوله تعالى: " قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم " الأنبياء 59 - 60 كالتناقض حيث ذكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به وذكر ثم أنهم سألوا عن الكاسر حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم يذمهم فلعله هو الكاسر ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها وفي الآخرة أنهم استدلوا بذمهِ على أنه الكاسر.

قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفراً منهم دون جمهورهم وكبرائهم فلما رجع الجمهور والعلية من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك وقالوا: من فعل هذا بها.

ثم لم ينم عليه أولئك النفر نميمة

صريحة ولكن على سبيل التورية التعريض بقولهم " سمعنا فتى يذكرهم " لبعض الصوارف.

والثاني: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد ويكون إقبالهم إِليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر.

وقولهم: " قالوا: فأتوا به على أعين الناس " الأنبياء: 61.

" قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون " " والله خلقكم وما تعملون " يعني خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام كقوله: " بل ربكم السموات والأرض التي فطرهن " الأنبياء: 56 أي فطر الأصنام.

فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله معمولاً لهم حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعاً قلت: هذا كما يقال: عمل النجار الباب والكرسي وعمل الصائغ السوار والخلخال والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها والأصنام جواهر وأشكال فخالق جواهرها الله وعاملوا أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه.

فإن قلت: فما أنكرت أن تكون ما مصدرية لا موصولة ويكون المعنى: والله خلقكم وعملكم كما تقول المجبرة قلت أقرب ما يبطِل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب: أن معنى الآية يأباه إباء جلياً وينبو عنه نبواً ظاهراً وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذي

عمل صورة المعبود وشكله ولولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها ولو قلت: واللّه خلقكم وخلق عملكم لم تكن محتجاً عليهم ولا كان لكلامك طباق.

وشيء آخر: وهو أن قوله: " وما تعملون " ترجمة عن قوله: " ما تنحتون " و " ما " في " ما تنحتون " موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلامتعسف متعصب لمذهبه من غير نظر في علم البيان ولا تبصر لنظام القرآن.

فإن قلت: اجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت وأريد: وما تعملونه من أعمالكم.

قلت: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق وذلك أنك جعلتها موصولة فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين كحالك وقد جعلتها مصدرية وأيضاً فإنك قاطع بذلك الصلة بين ما تعملون وما تنحتون حيث تخالف بين المرادين بهما فتريد بما تنحتون: الأعيان التي هي الأصنام وبما تعملون: المعاني التي هي الأعمال وفي ذلك فك النظم وتبتيره كما إذا جعلتها مصدرية.

" قالوا ابنوا له بنيناً فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلنهم الأسفلين " " الجحيم " النار الشديدة الوقود وقيل: كل نار على نار وجمر فوق جمر فهي جحيم.

والمعنى: أن اللّه تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً وأذلهم بين يديه: أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر وقهرهم فمالو إلى المكر فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين" وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصلحين فبشرنه بغلام حليم " أراد بذهابه إلى ربه: مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام كما " قال إني مهاجر إلى ربي " العنكبوت: 26 " سيهدين " سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني ويعصمني ويوفقني كما قال موسى عليه السلام: " كلا إن معي ربي سيهدين " الشعراء: 62 كأن اللّه وعده وقال له: سأهديك فأجرى كلامه على سنن موعد ربه.

أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده.

أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى اللّه.

ولو قصد الرجاء والطمع لقال كما قال موسى عليه السلام: " عسى ربي أن يهديني سواء السبيل " القصص: 22َ.

" هب لِي مِنَ اَلصلِحِينَ " هب لي بعض الصالحين يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: " ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً " مريم: 53 قال عزْ وجل: " ووهبنا له إسحاق ويعقوب " الأنعام: 84 " ووهبنا له يحيى " الأنبياء: 95 وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم - حين هنأه بولده علي أبي الأملاك -: شكرتالواهب وبورك لك في الموهوب.

ولذلك وقعت التسمية بهبة الله وبموهوب ووهب وموهب وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليماً وأي حلم أعظم عن حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: " ستجدني إنه شاء الله من الصابرين" ثم استسلم لذلك.

وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نفت الله.

به إبراهيم في قوله: " إن إبرهيم لأواه حليم " التوبة: 114 " إن إبرهيم لحليم أواه منِيب " هود: 75 لأن الحادثة شهدت بحلمهما جميعاً.

" فلما بلغ معه السعي قال يبني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين " فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه.

فإن قلت: " مَعَهُ " بم يتعلق قلت: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ أو بالسعي أو بمحذوف فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي ولا بالسعي لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه فبقي أن يكون بياناً كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل: مع من فقال مع أبيه.

والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس به وأعطفهم عليه وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة.

والمراد: أنه على غضاضة سنة وتقلبه في حد الطفولة كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم: أتي في المنام فقيل له: اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة فلهذا قال: " إني أرى في المنام أني أذبحك " فذكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة وقيل: رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن اللّه هذا الحلم أو من الشيطان.

فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من اللّه فمن ثم سُمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر.

وقيل: إن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال: هو إذن ذبيح اللّه.

فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له: أوف بنذرك " فا نظر ماذا ترى " من الرأي على وجه المشاورة.

وقرىء: " ماذا ترى " أي: ماذا تبصر من رأيك وتبديه.

وماذا ترى على البناء للمفعول: أي: ماذا تريك نفسك من الرأي " إفعل ما تؤمر " أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله: # أمرتك الخير فافعل ما أمرت بهأو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول وتسمية المأمور به أمراً.

وقرىء: " ما تؤمر به " فإن قلت: لم شاوره في أمر هو حتم من الله.

قلت: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء اللّه فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله لأن المغافصة بالذبح مما يستسمج وليكون سنة في المشاورة فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك.

فإن قلت: لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة قلت: كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه وكما وُعِدَ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام في المنام وما سوى ذلك من منامات الأنبياء وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

" فلما أسلما وتله للجبين وندينه أن يإبرهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلؤا المبين وفدينه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلم على إبرهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين " يقال: سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد.

وقد قرىء بهن جميعاً إذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك: سلم هذا لفلان إذا خلص له.

ومعناه: سلم من أن ينازع فيه وقولهم: سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه وحقيقة معناهما: أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة وكذلك معنى: استسلم: استخلص نفسه لله.

وعن قتادة في " أسلما " أسلم هذا ابنه وهذا نفسه " وتله للجبين " صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان.

وروى أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منى.

وعن الضحاك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

فإن قلت: أين جواب لما قلت: هو محذوف تقديره: فلما أسلما وتله للجبين " وندينه أن يإبرهيم قد صدقت الرؤيا " كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب وقوله: " إنا كذلك نجزي المحسنين " تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة والظفر بالبغية بعد اليأس " البلؤا المبين " الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم.

أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها.

الذبح: اسم ما يذبح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكبش الذي قربه هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل.

وعن الحسن: فدى بوعل أهبط عليه من ثبير.

وعن ابن عباس: لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم " عظيم " ضخم الجثة سمين وهي السنة في الأضاحي.

وقوله عليه السلام.

" استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم " وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم.

وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقيت سنة في الرمي وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده.

وروى أنه لما ذبحه قال جبريل: اللّه أكبر اللّه أكبر فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم عليه السلام: الله أكبر ولله الحمد فبقي سنة وحكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر.

فقال له اشدد رباطي لا أضطرب واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واشذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز علي ليكون أهون فإن الموت شديد واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل.

لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه فقال له: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح فكبر جبريل والكبش وابراهيم وابنه وأتى المنحر من منى فذبحه.

وقيل: لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج.

وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة فإن قلت: من كان الذبيح من ولديه قلت: قد اختلف فيه فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من التابعين: أنه إسماعيل.

والحجة فيه: أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: " أنا ابن الذبيحين " وقال له أعرابي: يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال: إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر للّه: لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان مجتهد بني إسرائيل يقول إذا دعا: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل فقال موسى عليه السلام: يا رب ما لمجتهد بني إسرائيل إذا دعا

قال: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل وأنا بين أظهرهم فقد أسمعتني كلامك واصطفيتني برسالتك قال: يا موسى لم يحبني أحد حب إبراهيم قط ولا خير بيني وبين شيء قط إلا اختارني.

وأما إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه.

وأما إسرائيل فإنه لم ييأس من روحي في شقق نزلت به قط ويدل عليه أن الله تعالى لما أتم قصة الذبيح قال: " وبشرناه بإسحاق نبياً " الصافات: 112 وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز: هو إسماعيل فقال عمر: إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى يهودي قد أسلم فسأله فقال: إن اليهود لتعلم أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ويدل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت.

وعن الأصمعي قال: سألت أبا عميرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحاق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ومما يدل عليه أن الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله: " وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين " الأنبياء: 5 وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد في قوله: " إنه كان صادق الوعد " مريم: 54 لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ولأن اللّه بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله: " فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " هود: 71 فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفاً للموعد في يعقوب وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين: أنه إسحاق.

والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولداً ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به.

ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف: من يعقوب إسرائيل اللّه ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم صلواتالله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح وقيل له: " لقد صدقت الرؤيا " وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ولم يصح قلت: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح: من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً بل يسمى مطيعاً ومجتهداً كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه.

فان قلت: اللّه تعالى هو المفتدى منه لأنه الآمر بالذبح فكيف يكون فادياً حتى قال: " وفدينه " قلت: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام والله عز وجل وهب له الكبش ليفدى به وإنما قال: " وفدينه " إسناداً للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته.

فإن قلت: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح.

فما معنى الفداء والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل قلت: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه

مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل ولكن في نفس الكبش بدلاً منه.

فإن قلت: فأي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان.

قلت: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد المأمور به من كل وجه.

فإن قلت: لم قيل ههنا " كذلك نجزي المحسنين " وفي غيرها من القصص: إنا كذلك قلت: قد سبقه في هذه القصة: إنا كذلك فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية.

" وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين " " نبياً " حال مقدرة كقوله تعالى: " فادخلوها خالدين " الزمر: 73.

فإن قلت: فرق بين هذا وبين قوله: " فادخلوها خالدين " وذلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول والخلود غير موجود معهما فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيماً وليس كذلك المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعم المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة لأن الحال حلية والحلية لا تقوم إلا بالمحلى وهذا المبشر به الذي هو إسحاق حين وجد لن توجد النبوة أيضاً بوجوده بل تراخت عنه مدة متطاولة فكيف يجعل نبياً حالاً مقدرة والحال صفة أو فاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به فالخلود وإن يكن صفتهم عند دخول الجنة فتقديرها صفتهم لأن المعنى مقدرين الخلود وليس كذلك النبوة فإنه سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق.

قلت هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك والذي يحل الإشكال: أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف وذلك قولك: وبشرناه بوجود إسحاق نبياً أي بأن يوجد مقدرة نبوته فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة وبذلك يرجع نظير قوله تعالى: " فادخلوها خالدين " الزمر: 73 " من الصلحين " حال ثانية وورودها على سبيل الثناء والتقريظ لأن كل نبي لا بد أن يكون من

الصالحين.

وعن قتادة: بشره الله بنبوة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه وهذا جواب من يقول الذبيح إسحاق لصاحبه عن تعلقه لقوله: " وبشرنه بإسحق " قالوا: ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوته معاً لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبياً " وبركنا عليه وعلى إسحق " وقرىء: " وبَركنا " أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا كقوله: " وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين " العنكبوت: 27 وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحاق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه.

وقوله: " وظالم لنفسه " نظيره: " قال ومن ذريتي قال: لا ينال عهدي الظالمين " البقرة: 24.

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرها على العرق والعنصر فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر.

وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة وأن المرء يعاد بسوء فعله ويعاتب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

" ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصرط المستقيم وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين " " من الكرب العظيم " من الغرق.

أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم " ونصرنهم " الضمير لهما ولقومهما في قوله: " ونجينهما وقومهما ".

" الكتاب المستبين " البليغ في بيانه وهو التوراة كما قال: " إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور " المائدة: 44 وقال: ومن جوز أن تكون التوراة عربية أن تشتق من ورى الزند فوعلة منه على أن التاء مبدلة من واو " الصرط المستقيم " صراط أهل الإسلام وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

" وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخلقين الله ربكم ورب ءابائكم الأولين فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين وتركنا عليه في الآخرين سلم على إل ياسين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين " قرىء: " إلياس " بكسر الهمزة وإلياس: على لفظ الوصل.

وقيل: هو إدريس النبي.

وقرأ ابن مسعود: " وإن إدريس " في موضع إلياس.

وقرىء: " إدراس " وقيل: هو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسى " أتدعون بعلاً " أتعبدون بعلاً وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل.

وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوف - بعل - ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك.

وقيل: البعل: الرب بلغة اليمن يقال: من بعل هذه الدار أي: من ربها.

والمعنى: أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة اللّه " الله ربكم ورب ءابئكم " قرىء: بالرفع على الابتداء وبالنصب على البدل وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع: وقرىء: " على إلياسين " وإدرسين.

وإدراسين.

وإدرسين على أنها لغات في إلياس وإدريس.

ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى.

وقرىء: " على الياسين " بالوصل على أنه جمع يراد به إلياس وقومه كقولهم: الخبيبون والمهلبون.

فإن قلت: فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع وأخواته قلت: لو كان جمعاً لعرف بالألف واللام.

وأما من قرأ: " على آل ياسين " فعلى أن ياسين اسم أبي إلياس أضيف إليه الآل.

" وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجينه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغبرين ثم دمرنا الآخرين وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وباليل أفلا تعقلون " " مصبحين " داخلين في الصباح يعني: تمرون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلاً ونهاراً فما فيكم عقول تعتبرون بها.

" وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فنبذنه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلنه إلى مائة ألف أو يزيدون فئامنوا فمتعنهم إلى حين " قرىء: " يونس " بضم النون وكسرها.

وسمي هربه من قومه بغير إذن ربه: إباقاً على طريقة المجاز.

والمساهمة: المقارعة.

ويقال: استهم القوم إذا اقترعوا.

والمدحض: المغلوب المقروع.

وحقيقته: المزلق عن مقام الظفر والغلبة.

روى: حين ركب في السفينة وقفت فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده وفيما يزعم البحارون السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال: أنا الآبق وزج بنفسه في الماء " فالتقمه الحوت وهو مليم " داخل في الملامة.

يقال: رب لائم أي يلوم غيره وهو أحق منه باللوم.

وقرىء: " مليم " بفتح الميم من ليم فهو مليم كما جاء: مشيب في مشوب مبنياً على شيب.

ونحوه: مدعي بناء على دعى " مِنَ اَلمسبحِين " من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس.

وقيل: هو قوله في بطن الحوت " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " الأنبياء: 87 وقيل: من المصلين.

وعن ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة.

وعن قتادة: كان كثير الصلاة في الرخاء.

قال: وكان يقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر وإذا صرع وجد متكأ.

وهذا ترغيب من اللّه عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله وإقباله على عبادته وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد " للبث في بطنه " الظاهر لبثه فيه حياً إلى يوم البعث.

وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة.

وروي أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت: إني جعلت بطنك له سجناً ولم أجعله لك طعاماً.

واختلف في مقدار لبثه فعن الكلبي: أربعون يوماً وعن الضحاك: عشرون يوماً.

وعن عطاء سبعة.

وعن بعضهم: ثلاثة.

وعن الحسن: لم يلبث إلا قليلاً ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقم فيه.

وروي: أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا: وروي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل.

والعراء: المكان الخالي لا شجر فيه ولا شي يغطيه " وهو سقيم " اعتل مما حل به وروي: أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد واليقطين: كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا قام به.

وقيل هو: الدباء.

وفائدة الدباء: أن الذباب لا يجتمع عنده وقيل لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم: إنك لتحب القرع.

قال: " أجل هي شجرة أخي يونس " وقيل: هي التين وقيل: شجرة الموز تغطى بورقها.

واستظل بأغصانها وأفطر على ثمارها.

وقيل: كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها.

وروي: أنه مر زمان على الشجرة فيبست فبكى جزعاً فأوحى الله إليه: بكيتعلى شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر فإن قلت: ما معنى " وأنبتنا عليه شجرة " قلت: أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنب البيت على الإنسان " وأرسلنه إلى مائة ألف " المراد به ما سبق عن إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى.

وقيل: هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين.

أو إلى غيرهم.

وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم وقال لهم: إن الله باعث إليكم نبياً " أو يزيدون " في مرأى الناظر أي: إذا

رآها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر والغرض: الوصف بالكثرة " إِلى حِين " إلى أجل مسمى وقرىء: " ويزيدون " بالواو. و " حتى حين ".

" فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين " " فاستفتهم " معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهما المسافة أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات اللّه مع كراهتهم الشديدة لهن ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن.

ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر أحدها: التجسيم لأن الولادة مختصة بالأجسام والثاني: تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم كما قال: " وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم " الزخرف: 17 " أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين " الزخرف: 8 والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق اللّه عليه وأقربهم إليه حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة أو شكلك شكل النساء للبس لقائله جلد النمر ولانقلبت حماليقه وذلك في أهاجيهم بين مكشوف فكرر الله سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرات ودلّ على فظاعتها في آيات: " وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً " مريم: 88 - 89 " وقالوا اتخذ الرحمان ولداً سبحانه بل عباد مكرمون " الأنبياء: آية 2 " وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض " البقرة: 116 " بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد " الأنعام: 151 " ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله " الصافات: 151 152 " وجعلوا له من عباده جزءاً " الزخرف: 15 " ويجعلون لله بنات سبحانه ولهم ما يشتهون " النحل: 57 " أم له البنات ولكم البنون " الطور: 39 " ويجعلون لله ما يكرهون " النحل: 62 " أصطفى البنات على البنين " الصافات: 153 " أم أتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين " الزخرف: 16 " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً " الزخرف: 119.

" أم خلقنا الملئكة إنثاً وهم شهدون ".

فإن قلت: لم قال: " وهم شهدون " فخص علم المشاهدة قلت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل لهم وكذلك قوله: " أشهدوا خلقهم " الزخرف: 19 ونحوه قوله: " ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم " الكهف: 51 وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم.

ولا بإخبار صاعق ولا بطريق استدلال ونظر.

ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك كالقائل قولاً عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

وقرىء: " ولد الله " أي الملائكة ولده.

والولد فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

تقول: هذه ولدي وهؤلاء ولدي.

فإن قلت: " اصطفى البنات " بفتح الهمزة: استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات.

قلت: جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم: " وَلَدَ اللهُ " وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما.

وهذه القراءة - وإن كان هذا محملها - فهي ضعيفة والذي أضعفها: أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها وذلك قوله: " وإنه لكذبون ".

" ما لكم كيف تحكمون " فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين.

وقرىء: " تذكرون " من ذكر " أم لكم سلطن " أي حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات اللّه.

" فأتوا بكتبكم " الذي أنزل عليكم في ذلك كقوله تعالى: " أم أنزلنا عليهم سلطناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون " الروم: 35 وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لأقاويلهم شديدة وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش وتجهيل نفوسها واستركاك عقولها مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بالٍ ويحدث به نفساً فضلاً أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهباً.

" وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت " وَجَعَلوُا " بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة " نسَبَاً " وهو زعمهم أنهم بناته والمعنى: جعلوا بما قالوا: نسبة بين الله وبينهم وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة.

فإن قلت: لم سمي الملائكة جنة قلت: قالوا: الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شراً كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم.

وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم.

وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك.

ومثاله: أن تسوي بين الملك وبين بعض خواصه ومقربيه فيقول لك: أتسوى بيني وبين عبدي.

لماذا ذكره في غير هذا المقام وقره وكناه.

والضمير في " إنهم لمحضرون " للكفرة.

والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون والمراد المبالغة في التكذيب.

حيث أضيف إلى علم الذين آذعوا لهم تلك النسبة.

وقيل: قالوا إن اللّه صاهر الجن فخرجت الملائكة.

وقيل: قالوا: إن الله والشيطان أخوان.

وعن الحسن: أشركوا الجن في طاعة الله.

ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين: أن يكون الضمير في " فإنهم لمحضرون " لهم والمعنى أن الشياطين عالمون بأن الله يحضرهم النار ويعذبهم ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم " إلا عِبَادَ اللهِ المخلصين " استثناء منقطع من المحضرين: معناه ولكن المخلصين ناجون.

وإن الله: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه.

ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون أي: يصفه هؤلاء بذلك ولكن المخلصون براء من أن يصفوه به.

" فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفتنين إلا من هو صال الجحيم " والضمير في " عليه " لله عز وجلّ ومعناه: فإنكم ومعبودكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلاّ أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها.

فإن قلت: كيف يفتنونهم على الله قلت: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم من قولك: فتن فلان على فلان امرأته كما تقول: أفسدها عليه وخيبها عليه.

ويجوز أن يكون الواو في " وما تعبدون " بمعنى مع مثلها في قولهم: كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته وأن كل رجل وضيعته جاز أن يسكت على قوله: " فإنكم وما تعبدون " لأن قوله: " وما تعبدون " ساد مسد الخبر لأن معناه: فإنكم مع ما تعبدون.

والمعنى: فإنكم مع آلهتكم أي: فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ثم قال: " ما أنتم عليه " أي: على ما تعبدون " بفتنين " بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال " إِلا مَن هُوَ صَال " مثلكم.

أو يكون في أسلوب قوله: "فإنك والكتاب إلى علي كدابغة وقد حلم الأديم وقرأ الحسن " صالُ الجحيم " بضم اللام.

وفيه ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف.

فإن قلت: كيف استقام الجمع مع قوله: " من هو " قلت: من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه في آية واحدة.

والثاني: أن يكون أصله صائل على القلب ثم يقال صال في صائل كقولهم شاك في شائك.

والثالث: أن تحذف لام صال تخفيفاً ويجري الإعراب على عينه كما حذف من قولهم: ما باليت به بالة وأصلها بالية من بالي كعافية من عافى.

ونظيره قراءة من قرأ: " وجنى الجنتين دان " الرحمن: 54 " وله الجوار المنشات " الرحمن: 24 بإجراء الإعراب على العين.

" وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن السبحون " " وما منا " أحد " إلا له مقام معلوم " فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كقوله: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا بكفي كان من أرمى البشر مقام معلوم في العبادة والانتهاء إلى أمر اللّه مقصور

عليه لا يتجاوزه كما روى: فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه " لنحن الصفون " نصف أقدامنا في الصلاة أو أجنحتنا في الهواء.

منتظرين ما نؤمر.

وقيل: نصف أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين.

وقيل: إنَ المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية.

وليس يصطف والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله: " سبحن الله عما يصفون " الصافات: 159 من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله: " ولقد علمت الجنة " الصافات: 158 كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا: سبحان الله فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد اللّه المخلصين وبرؤهم منه وقالوا للكفرة فإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلوه إلا من كان مثلكم ممن علم اللّه - لكفرهم لا لتقديره وإرادته تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - أنهم من أهل النار وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة.

وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً خشوعاً لعظمته وتواضعاً لجلاله ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين وكما يجب على العباد لربهم.

وقيل: هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني.

وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله: " عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً " الإسراء: 79 ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

" وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون " هم مشركو قريش كانوا يقولون: " لو أن عندنا ذكراً " أي كتاباً " من كتب " الأولينَ " الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة للّه ولما كذبنا كما كذبوا ولما خالفنا كما خالفوا فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب الذي معجز من بين الكتب فكفروا به.

ونحوه " فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً " فاطر: 42 فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الإنتقام.

و " إن " هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدِين للقول جادين فيه فكم بين أول أمرهم وآخره.

" ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغلبون " الكلمة: قوله: " إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغلبون " وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدة لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة وقرىء: " كلماتنا " والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة كما قال: " والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة " البقرة: 212 ولا يلزم انهزامهم في بعض المشاهد وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولمن

بعدهم في العاقبة وكفى بمشاهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها وعبراً يعتبر بها.

وعن الحسن رحمه الله: ما غلب نبي في حرب ولا قتل فيها ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه: الظفر والنصرة - وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة -

والحكم للغالب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة.

وفي قراءة ابن مسعود: " على عبادنا " على تضمين سبقت معنى حقت.

" فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون " " فتول عنهم " فأعرض عنهم وأغض على أذاهم " حتى حين " إلى مدة يسيرة وهي مدة الكف عن القتال.

وعن السدي: إلى يوم بدر.

وقيل: إلى الموت وقيل إلى يوم القيامة " وأبصرهم " وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة.

والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك.

وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه.

وقوله: " فسوف يبصرون " الوعيد كما سلف لا للتبعيد.

" أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون " مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل وقرأ ابن مسعود: " فبئس صباح ".

وقرىء: " نزل بساحتهم " على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل على: ونزل العذاب.

والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا لأن ساء وبئس يقتضيان ذلك.

وقيل: هو نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بمكة.

وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر - وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي - قالوا: محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم.

فقال عليه الصلاة والسلام: " الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنفرين " وإنما ثنى " وتول عنهم " ليكون تسلية على تسلية.

وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد.

وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة.

وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآَخرة.

" سبحن ربك رب العزة عما يصفون وسلم على المرسلين والحمد لله رب العلمين " أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق.

ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلآ وهو ربها ومالكها كقوله تعالى: " تعز من تشاء " آل عمران: 26: اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المرسلين " والحمد لله رب العالمين " على ما قيض لهم من حسن العواقب والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد.

وعن علي رضى اللّه عنه: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: " من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين ".

سورة ص

مكية وآياتها ثمان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

"ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق " " ص " على الوقف وهي أكثر القراءة.

وقرىء: بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم: الله لأفعلن كذا بالنصب أو بإضمار حرف القسم والفتح في موضع الجر كقولهم: الله لأفعلن بالجر وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها بمعنى السورة وقد صرفها من قرأ " ص " بالجر والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل وقيل: فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة.

ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ومعناه: عارض القرآن بعلمك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه.

فإن قلت: قوله: " ص والقرءان ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق " كلام ظاهره متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه.

قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مر في أوّل الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كأنه قال: " والقرءان ذي الذكر " إنه لكلام معجز.

والثاني: أن يكون " ص " خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم لسورة كأنه قال: هذه ص يعني: هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول: هذا حاتم واللّه تريد: هذا هو المشهور بالسخاء واللّه وكذلك إذا قسم بها كأنه قال: أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق للّه ورسوله وإذا جعلتها قسماً بها وعطفت عليها " والقرءان ذي الذكر " جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله وأن تريد السورة بعينها.

ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر كما تقول: مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ولا تريد بالنسمة غير الرجل.

والذكر: الشرف والشهرة من قولك: فلان مذكور " وإنه لذكر لك ولقومك " الزخرف: 144 أوالذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد.

والتنكير في " عِزَةِ وَشِقَاقِ " للدلالة على شدتهما وتفاقمهما وقرىء: " في غرة " أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

" كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص " " كَم أهلَكنَا " وعيد لذوي العزة والشقاق " فَنَادَوا " فدعوا واستغاثوا وعن الحسن.

فنادوا بالتوبة " ولات " هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتوكيد وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضييها: إما الإسم وإما الخبر وامتنع بروزهما جميعاً وهذا مذهب الخليل وسيبويه.

وعند الأخفش: أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان.

و " حين مناص " منصوب بها كأنك قلت: ولا حين مناص لهم.

وعنه: أن ما ينتصب بعده بفعل مضمر أي: ولا أرى حين مناص ويرتفع بالابتداء: أي ولا حين مناص كائن لهم وعندهما أن النصب على: ولات الحين حين مناص أي: وليس الحين حين مناص والرفع على ولات حين مناص حاصلاً لهم.

وقرىء: " حين مناص " بالكسر ومثله قول أبي زبيد الطائي: طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء فإن قلت: ما وجه الكسر في أوان قلت: شبه بإذ في قوله: وأنت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لأن الأصل: ولات أوان صلح.

فإن قلت: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم.

قلت: نزل قطع المضاف إليه من مناص لأن أصله حين مناصهم منزلة من قطعه من حين لاتحاد المضاف والمضاف إليه وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى في متمكن.

وقرىء: " ولات " بكسر التاء على البناء كجير.

فإن قلت: كيف يوقف على لات.

قلت: يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التأنيث.

وأما الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة.

وأما قول أبي عبيد: إن التاء داخلة على حين فلا وجه له.

واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبث به فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط.

والمناص: المنجا والفوت يقال: ناصه ينوصه إذا فاته.

واستناص: طلب المناص.

قال حارثة بن بدر: "غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل " وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكفرون هذا سحر كذاب أجعل الألهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجاب " " منذر منهم " رسول من أنفسهم " وقال الكفرون " ولم يقل: وقالوا: إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلآ الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم: " أولئك هم الكافرون حقاً " النساء: 151 وهل ترى كفراً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدقه اللّه بوحيه كاذباً ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته.

روي: أن إسلام عمر رضي الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحاً شديداً وشق على قريش وبلغ منهم فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يريدون: الذين دخلوا في الإسلام وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ماذا يسألونني " قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال عليه السلام: " أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم فقالوا: نعم وعشراً أي نعطيكها وعشر كلمات معها فقال: " قولوا: لا إله إلآ الله " فقاموا وقالوا: " أجعل الألهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجاب " أي: بليغ في العجب.

وقرىء: " عجاب " بالتشديد كقوله تعالى: " مكراً كبارا " نوح: 2 وهو أبلغ من المخفف.

ونظيره: كريم وكرام وكرام: وقوله: " أجعل الألهة إلهاً وحداً " مثل قوله: " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً " الزخرف: 19 في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم كأنه قال: أجعل الجماعة واحداً في قوله لأن ذلك في الفعل محال.

" وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على ءالهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الأخرة إن هذا إلا اختلق " " المَلأ " أشراف قريش يريد: وانطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض " امشُوا وَاَصبِروا " فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد " إن هذا الأمر " الأمر لشيء يراد " أي: يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه: أو إن دينكم لشيء يراد أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه.

و أن بمعنى أي: لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول ويجوز أن يراد بالانطلاق: الاندفاع في القول وأنهم قالوا: امشوا أي: أكثروا واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها.

ومنه: الماشية للتفاؤل كما قيل لها: الفاشية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ضموا فواشيكم " ومعنى " واصبروا على ءالهتكم ": واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها وقرىء: " وانطلق الملأ منهم امشوا " بغير أن على إضمار القول.

وعن ابن مسعود: " وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا " " في الملة الأخرة " في ملة عيسى التي هي آخر الملل لأن النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة.

أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا.

أو ما سمعنا بهذا كائناً في الملة الآخرة على أن يجعل في الملة الآخرة حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين.

والمعنى: إنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله.

ما " هذا إلا اختلق " أي: افتعال وكذب.

" أءنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا العذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموت والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسبب جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب " أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤوسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: " لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم " الزخرف: 31 وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم " بل هم في شك " من القرآن يقولون في أنفسهم: إما وإما.

وقولهم: " إن هذا إلا اختلق " كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد " بل لما يذوقوا عذاب " بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ يعني: أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه " أم عندهم خزائن رحمة ربك " يعني: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها عمن شاؤوا ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام.

وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها: العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله كما قال: " أهم يقسمون

رحمت ربك نحن قسمنا " الزخرف: 32 ثم رشح هذا المعنى فقال: " أم لهم ملك السموت والأرض " حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا يحق له " فليرتقوا في الأسبب " فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويحبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ثم خسأهم خساءة عن ذلك بقوله: " جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب " يريد: ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون.

وما مزيدة وفيها معنى الاستعظام كما في قول امرىء القيس:

إلا أنه على سبيل الهزء

و " هُنَالك " إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك.

"كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب لئيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب وما ينظر هؤلاء إلا صيحة وحدة ما لها من فواق " " ذو الأوتاد " أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده قال: والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر كما قال الأسود: فِي ظِلِ مُلكٍ ثَابِتِ الأَوتَادِ وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار: كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت.

وقيل: كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات.

وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه " أولئك الأحزاب " قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب.

ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها: بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوهم جميعاً.

وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص: أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ثم قال: " فحق عقاب " أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم " هؤلاء " أهل مكة.

ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر أو لأنهم كالحضور عند الله.

والصيحة: النفخة " ما لها من فواق " وقرىء: بالضم: ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع.

يعني: إذا جد وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: " فإذا جاء أجلهم لا يستئخرون ساعة " النحل: 61 وعن ابن عباس: ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة.

وفواق الناقة: ساعة ترجع الدر إلى ضرعها يريد: أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

" وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب " القط: القسط من الشيء لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه.

ويقال: لصحيفة الجائزة: قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بهما قوله تعالى: " عجل لنا قطنا " أي نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله تعالى: " ويستعجلونك العذاب " الحج: 47 وقيل: ذكر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين بالجنة فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها.

أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

" اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وءاتينه الحكمة وفضل الخطاب " فإن قلت: كيف تطابق قوله: " اصبر على ما يقولون " وقوله: " واذكر عبدنا داود " حتى عطف أصدهما على صاحبه قلت: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية اللّه في أعينهم بذكر قصة داود وهو أنه نبي من أنبياء اللّهّ تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها.

على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجمد النظر إليها والندم عليها فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم أو قال له صلى الله عليه وسلم: اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على اللّه كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي " ذا الأيد " ذا القوة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه كان على نهوضه بأعباء النبوة والملك يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل.

يقال: فلان أيد وذو أيد وذا آد.

وأياد كل شيء: ما يتقوى به " أواب " تواب رجاع إلى مرضاة اللّه.

فإن قلت: ما دلك على أن الأيد القوة في الدين قلت: قوله تعالى: " إنه أواب " لأنه تعليل لذي الأيد " والإشراق " وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي: تضيء ويصفو شعاعهاوهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال: شرقت الشمس ولما تشرق.

وعن هانىء: دخل علينا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحىوقال: " يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق ".

وعن طاووس عن ابن عباس قال: هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن قالوا: لا فقرأ: " إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق " وقال: كانت صلاة يصليها داود عليه السلام.

وعنه: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية.

وعنه: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها في هذه الآية " يسبحن بالعشي والإشراق " وكان لا يصلي صلاة الضحى ثم صلاها بعد.

وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب اللّه صلاة بعد طلوع الشمس فقال: أنا أوجدك ذلك في كتاب الله تعالى يعني هذه الآية.

ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ومنه قوله تعالى: " فأخذتهم الصيحة مشرقين " الحجر: 73 وقول أهل الجاهلية: أشرق ثبير ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق.

ويسبحن: في معنى ومسبحات على الحال.

فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلت: نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا

لذلك وهوالدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح.

ومثله قول الأعشى: "إلى ضوء نار في يفاع تحرقولو قال: محرقة لم يكن شيئاً.

وقوله: " محشورة " في مقابلة: يسبحن إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً.

وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن - على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء والحاشر هو اللّه عز وجل - لكان خلفاً لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها.

وقرىء: " والطير محشورة " بالرفع " كل له أواب " كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أي: لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه.

ووضع الأواب موضع المسبح: إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب - وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته - من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه.

وقيل: الضمير للّه أي: كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح " وشددنا ملكه " قويناه قال تعالى: " سَنَشُدُ عَضُدَكَ " القصص 35 وقرىء: و " شددنا " على المبالغة.

قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم يحرسونه وقيل: الذي شد الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة: أن رجلاً ادعى عنده على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة

فأوحى الله تعالى إليه في المنام: أن اقتل المدعى عليه فقال: هذا منام فأعيد الوحي في اليقظة فأعلم الرجل فقال: إن اللّه عز وجلّ لم يأخذني بهذا الذنب ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة فقتله فقال الناس: إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه فقتله فهابوه " الحكمة " الزبور وعلم الشرائع.

وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة.

الفصل: التميز بين الشيئين.

وقيل للكلام البين: فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنهم قالوا: كلام ملتبس وفي كلامه لبس.

والملتبس: المختلط فقيل في نقيضه: فصل أي: مفصول بعضه من بعض فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه: أن لا يخطىء صاحبه مظانّ الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه ولا يتلو قوله: " فويل للمصلين " الماعون: 4 إلا موصولاً بما بعده ولا " والله يعلم وأنتم " حتى يصله بقوله: " لا تعلمون " البقرة: 232 ونحو ذلك وكذلك مظان العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات.

وعن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

هو قوله: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه وهو من الفصل بين الحق والباطل ويدخل فيه قول بعضهم: هو قوله " أما بعد " لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي شأن بذكر اللّه وتحميده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه: فصل بينه وبين ذكر الله بقول: أما بعد.

ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل.

ومنه ما جاء في صفة كلام رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: نصل لا نذر ولا هذر.

" وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصرط " كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها.

وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها فاستحيا أن يرده ففعل فتزوجها وهي أم سليمان فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك: لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به.

قْيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن

مع كثرة نسائه.

وأما ما يذكر أن داود عليا السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله فأوحى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها: قد ابتلي إبراهيم بنمروذ وذبح ولده وإسحاق بذبحه وذهاب بصره ويعقوب بالحزن على يوسف.

فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه: إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا فاحترس فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت في كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء.

أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح اللّه على يده أو يستشهد ففتح اللّه على يده وسلم فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته.

فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء.

وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور: أن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء.

وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب اللّه فما ينبغي أن يلتمس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب.

فإن قلت: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح قلت: لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة.

ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة بأن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح.

وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستمسج حال نفسه وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله ومقياساً لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة.

فإن قلت: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه قلت: ليحكم بما حكم به من قوله: " لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه " ص: 24 حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعترفاً على نفسه بظلمه " وهل أتك نبؤا الخصم " ظاهره الاستفهام.

ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد والتشويق إلى استماعه والخصم: الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف.

قال الله تعالى: " حديث ضيف إبراهيم المكرمين " الذاريات: 124.

لأنه مصدر في أصله تقول: خصمه خصماً كما تقول: ضافه ضيفاً.

فإن قلت: هذا جمع.

وقوله: خصمان تثنية فكيف استقام ذلك قلت: معنى خصمان: فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من قرأ: خصمان بغى بعضهم على بعض ونحوه قوله تعالى: " هذا خصمان اختصموا في ربهم " الحج: 19.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: " إن هذا أخي " ص: 23 وهو دليل على اثنين قلت: هذا قول البعض المراد قوله بعضنا على بعض.

فإن قلت: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان.

قلت: معناه أن التحاكم كان بين ملكين ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون.

فإن قلت: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعاً خصماً في قوله: " نبؤا الخصم " و " خصمان " قلت: لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به.

إن قلت: بم انتصب إذ قلت: لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك أو بالنبأ أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لأن إتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبأ لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن أردت بالنبأ: القصة في نفسها لم يكن ناصباً فبقي أن ينتصب بمحذوف وتقديره: وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم.

ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل.

وأما إذ الثانية فبدل من الأولى " تسوروا المحراب " تصعدوا سوره ونزلوا إليه.

والسور: الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية: تسنمه إذا علا سنامه وتذراه: إذا علا فروته.

روى: أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب فلم يشعر إلآ وهما بين يديه جالسان " ففزع منهم " قال ابن عباس: إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخواص أموره ويوماً يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم فجاءوه في غير يوم القضاء ففزع منهم ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه " خصمان " خبر مبتدأ محذوف أي: نحن خصمان " ولا تشطط " ولا تجر.

وقرىء: " ولا تشطط " أي: ولا تبعد عن الحق.

وقرىء: " ولا تشطط " ولا تشاطط وكلها في معنى الشطط: وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق.

و " سواء الصرط " وسطه ومحجته ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

" إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة وحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب " " أخي " بدل من هذا أو خبر ل " إن " والمراد أخوة الدين وأخوة الصداقة والألفة وأخوة

الشركة والخلطة لقوله تعالى: " وان كثيراً من الخلطاء " ص: 24 كل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم.

وقرىء: " تسع وتسعون " بفتح التاء.

ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ولَقوَةٌ وَلِقوَة " أكفلنيها " ملكنيها.

وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي " وعزنني " وغلبني.

يقال: عزه يعزه.

قال قَطَاة عَزهَا شَرَكٌ فَبَاتَت يُجَاذِبُهُ وَقَد عَلِقَ الْجَنَاحُ يريد: جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرده به.

وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاج المجادل أو أراد: خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني.

وقرىء: " وعازني " من المعازة وهي المغالبة.

وقرأ أبو حيوة: " وعزني " بتخفيف الزاي طلباً للخفة وهو تخفيف غريب وكأنه قاسه على نحو: ظلت ومست.

فإن قلت: ما معنى ذكر النعاج قلت: كأن تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا وللتنبيه على أنه أمر يستحيا من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته.

ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده والدليل عليه قوله: " وإن كثيراً من الخلطاء " ص: 24 وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة.

فإن قلت: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم.

قلت: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجه استعارة عن المرأة كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله: يَاشَاةُ مَاقَنَص لمِنِ حَلتْ لَهُ فَرَمَيتُ غَفلَةَ عَينِيهِ عَن شَاتِهِ وشبهها بالنعجة من قال: كنعاج الملا تعسفن رملاً لولا أن الخلطاء تأباه إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم.

فإن قلت: الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم قلت: هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي كما تقول في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما فخلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد وتقول أيضاً في تصويرها: لي أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها.

ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعها.

فإن قلت: ما وجه قراءة ابن مسعود: " ولي نعجة أنثى " قلت: يقال لك امرأة أنثى للحسناء الجميلة.

والمعنى: وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها.

ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال.

وقوله: فتور القيام قطيع الكلام وقوله: تمشي رويداً تكاد تنغرف " لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين ءامنوا وعملوا الصلحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتنه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب " " لَقَد ظَلَمَكَ " جواب قسم محذوف.

وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه.

والسؤال: مصدر مضاف إلى المفعول كقوله تعالى: " من دعاء الخير " فصلت: 49 وقد ضمن معنى الإضافة فعدى تعديتها كأنه قيل بإضافة " نعجتك إلى نعاجه " على وجه السؤال والطلب.

فإن قلت: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه.

قلت: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم.

ويروى أنه قال: أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة فقال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه و " الخلطاء " الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد: خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية والشافعي رحمه الله يعتبرها فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أن مراحهما ومسقاهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة: فهما يزكيان زكاة الواحدة فان كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة.

وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد.

وعند أبي حنيفة: لا تعتبر الخلطة والخليط والمنفرد عنده واحد ففي أربعين بين خليطين: لا شيء عنده وفي مائة وعشرين بين ثلاثة: ثلاث شياه.

فإن قلت: فهذه الخلطة ما تقول فيها.

قلت: عليهما شاة واحدة فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله وعند أبي حنيفة لا شيء عليه فإن قلت: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام قلت: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه وأن له في أكسر الخلطاء أسوة.

وقرىء: " ليبغي " بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: أضرِبَ عَنكَ الهُمُومَ طَارِقَهَا وهو جواب قسم محذوف.

وليبغ: بحذف الياء اكتفاء منها بالكسرة و ما في " وقليل ما هم " للإبهام.

وفيه تعجب من قلتهم.

وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرىء القيس: # وَحَدِيث مَا عَلَى قِصَرِهوانظر هل بقي له معنى قط لما كان الظن الغالب يداني العلم استعير له.

ومعناه: وعلم داود وأيقن " أنما فتنه " أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل وقرىء: " فتناه " بالتشديد للمبالغة.

وأفتناه من قوله: " لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت وفتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين.

وعبر بالراكع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد.

وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود.

وعن الحسن: لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ويجوز أن يكون قد استغفر اللّه لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة فيكون المعنى: وخر للسجود راكعاً أي: مصلياً لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة و " أَنَابَ " ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل.

وروى أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بد منه ولا

يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع وجهد نفسه راغباً إلى اللّه تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له: إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه واجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه.

وروى أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها.

وقيل: إن الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما: إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري والثاني: معسراً ماله إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فزع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته.

" يداود إنا جعلنك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " " خليفة في الأرض " أي: استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها.

ومنه قولهم: خلفاء الله في أرضه.

أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق.

وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير " فاحكم بين الناس بالحق " أي بحكم الله تعالى إذ كنت خليفته " ولا تتبع " هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا " فيضلك " الهوى فيكون سبباً لضلالك " عَن سَبِيلِ اللَّهِ " عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها و " يوم الحساب " متعلق بنسوا أي: بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي: لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله.

وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا قال: وما هو قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية.

فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية.

" وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " " بطلاً " أي خلقاً باطلاً لا لغرض صحيح وحكمة بالغة.

أو مبطلين عابثين كقوله تعالى: " وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق " الدخان: 39 وتقديره: ذوي باطل أو عبثاً فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنيئاً موضع المصدر وهو صفة أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أن خلقناها نفوساً أودعناها العقلوالتمييز ومنحناها التمكين وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم.

و " ذلك " إشارة إلى خلقها باطلاً والظن: بمعنى المظنون أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا.

فإن قلت: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللّه " لقمان: 25 فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة.

قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقاً كلا إقرار.

" أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصلحت كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار " " أم " منقطعة.

ومعنى الاستفهام فيها الإنكار والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ومن سوى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً.

" كتب أنزلنه إليك مبرك ليدبروا ءايته وليتذكر أولوا الألبب " وقرىء: " مباركاً " وليتدبروا: على الأصل ولتدبروا: على الخطاب.

وتدبر الآيات: التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها.

وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده حتى إن أحدهم ليقول: واللّه لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله

ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء.

اللهم اجعلنا من العلماء المتحبرين وأعذنا من القراء المتكبرين.

"ووهبنا لداود سليمن نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصفنت الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ربي حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق " قرىء: " نعم العبد " على الأصل والمخصوص بالمدح محذوف.

وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً رجاعاً إليه بالتوبة.

أو مسبحاً مؤؤباً للتسبيح مرجعاً له لأن كل مؤوب أواب.

والصافن: الذي في قوله: # ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيراًوقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل: هو المتخيم.

وأما الصافن: فالذي يجمع بين يديه.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " من سره أن يقوم الناس له صفوفاً فليتبؤا مقعده من النار " أي: واقفين كما خدم الجبابرة.

فإن قلت: ما معنى وصفها بالصفون قلت: الصفون لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخلص.

وقيل: وصفها بالصفون والجودة ليجمع بين الوصفين المحمودين: واقفة وجارية يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها.

وروى أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس.

وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة.

وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوماً بعد ما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو ورد من الذكر كان له

وقت العشي وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لما فاته فاسترها وعقرها مقرباً للهّ وبقي مائة فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها أبدله الله خيراً منها.

وهي الريح تجري بأمره.

فإن قلت: ما معنى: " أحببت حب الخير عن ذكر ربي " قلت: أحببت: مضمن معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل: أحب الخير عن ذكر ربي.

أو جعلت حب الخير مجزياً أو مغنياً عن ذكر ربي.

وذكر الفتح الهمداني في كتاب التبيان: أن " أحببت " بمعنى: لزمت من قوله: # مثل بعير السوء إذ أحباوليس بذاك.

والخير: المال كقوله: " إن ترك خيراً " البقرة: 180 وقوله " وإنه لحب الخير لشديد " العاديات: 18 والمال: الخيل التي شغلته.

أو سمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: " ما وُصف لي رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل " وسماه زيد الخير.

وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستبقون: من السابق فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال له الرجل: أردت الخيل.

فقال: وأنا أردت الخير.

والتواري بالحجاب: جاز في غروب الشمس عن تواري الملك.

أو المخبأة بحجابهما.

والذي دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشي ولا بد للمضمر من جري ذكر أو دليل ذكر.

وقيل: الضمير للصافنات أي: حتى توارت بحجاب الليل يعني الظلام.

ومن بدع التفاسير: أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه " فطفق مسحاً " فجعل مسح مسحاً أي: يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها يعني: يقطعها.

يقال: مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه.

وعن الحسن: كسف عراقيبها وضرب أعناقها أراد بالكسف: القطع ومنه: الكسف في ألقاب الزحاف في العروض.

ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف.

وقيل: مسحها بيده استحساناً لها إعجاباً بها.

فإن قلت: بم اتصل قوله: " ردوها على " قلت: بمحذوف تقديره: قال ردوها علي فأضمر وأضمر ما هو جواب له كأن قائلاً قال: فماذا قال سليمان لأنه وضع مقتض للسؤال اقتضاءً ظاهراً وهو اشتغال نبي من أنبياء اللّه بأمر الدنيا حتى تفوته الصلاة عن وقتها.

وقرىء: " بالسوق " بهمز الواو لضمتها كما في أدؤر.

ونظيره: الغؤر في مصدر غارت الشمس.

وأما من قرأ بالسوق فقد جعل الضمة في سين كأنها في الواو للتلاصق كما قيل: موسى ونظير ساق وسوق: أسد وأسد.

قرىء: " بالساق " اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الإلباس.

" ولقد فتنا سليمن وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب " قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة.

وملك بعد الفتنة عشرين سنة.

وكان من فتنته: أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك فكان يغدوه في السحابة فما راعه إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وتاب إليه.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال سليمان: " لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّه ولم يقل: إن شاء الله فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل " والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل فرساناً أجمعون " فذلك قوله تعالى: " ولقد فتنا سليمن ".

وهذا ونحوه مما لا بأس به وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فاللّه أعلم بصحته.

حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جراعة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ لدمعها حزناً على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهن في ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر - وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر - على صورة سليمان فقال - يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في

بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلنا: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة.

وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فْيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو الخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها سد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر.

وقيل: لما افتتن كان سقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقر في يدك فتب إلى الله عز وجل.

ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل.

وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح وأما اتخاذ تماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع.

ألا ترى إلى قوله " من محاريب وتماثيل " سبأ: 11 وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه.

وقوله: " وألقينا على كرسيه جسداً " نابٍ عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبواً ظاهراً.

" قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب " قَدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم " لا ينبغي " لا يتسهل ولا يكون.

ومعنى " من بعدي " من دوني.

فإن قلت: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره قلت: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلاً على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم وأن يكون معجزة حتي يخرق العادات فذلك معنى قوله: " لا ينبغي لأحد من بعدي " وقيل: كان ملكاً عظيماً فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت الملائكة: " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك " البقرة: 30 وقيل: ملكاً لا أسلبه ولا يقوم غيري فيه مقامي كما سلبته مرة وأقيم مقامي غيري.

ويجوز أن يقال: علم اللّه فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجبت الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من اللّه على الصفة الذي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده.

أو أراد أن يقول ملكاً عظيماً فقال: " لا ينبغي لأحد من بعدي " ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان للناس أمثال ذلك ولكنك تريد تعظيم ما عنده.

وعن الحجاج أنه قيل له: إنك حسود فقال: أحسد مني من قال: " وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي " وهذا من جرأته على اللّه وشيطنته كما حكى عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته فقال: " فاتقوا الله ما استطعتم " التغابن: 16 وأطلق طاعتنا فقال: " وأولى الأمر منكم " النساء: 59.

" فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشيطين كل بناء وغواص وءاخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب " قرىء: " الريح " والرياح " رخاء " لينة طيبة لا تزعزع.

وقيل: طيعة له لا تمتنع عليه " حيث أصاب " حيث قصد وأراد.

حكى الأصمعي عن العرب: أصاب الصواب فأخطأ الجواب.

وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما فقال: أين تصيبان فقالا: هذه طلبتنا ورجعا ويقال: أصاب الله بك خيراً " والشيطين " عطف على الريح " كل بناء " بدل من الشياطين " وءاخرين " عطف على كل داخل في حكم البدل وهو بدل الكل من الكل: كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وهو أول من استخرج الدر من البحر وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد.

وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع.

والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول علي رضي الله عنه: من برك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك.

ومنه قول القائل: غل يداً مطلقها وأرق رقبة معتقها.

وقال حبيب: إن العطاء إسارة وتبعه من قال: ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا وفرقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه كوعده وأوعده أي: " هذا " الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة " عطاؤنا " بغير حساب يعني: جماً كثيراً لا يكاد يقدر على حسبه وحصره " فامنن " من المنة وهي العطاء أي: فأعط منه ما شئت " أو أمسك " مفوضاً إليك التصرف فيه.

وفي قراءة ابن مسعود: هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب أو هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب أي لا حساب عليك في ذلك " واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطن بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب " " أيوب " عطف بيان.

و " إذ " بدل اشتمال منه " أني مسني " بأني مسني: حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بأنه مسه: لأنه غائب.

وقرىء: " بنصب " بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وبفتحهما وضمهما فالنصب والنصب: كالرشد الرشد والنصب: على أصل المصدر والنصب: تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب والمشقة.

والعذاب: الألم يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب.

وقيل: الضر في البدن والعذاب في ذهاب الأهل والمال.

فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه اللّه على أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب قلت: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه اللّه به من النصب والعذاب نسبه إليه وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو.

وقيل: أراد ما كان يوسوس بهإليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان: إن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه.

وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه.

وقيل: أعجب بكثرة ماله " اركض برجلك " حكاية ما أجيب به أيوب عليه السلام أي: اضرب برجلك الأرض.

وعن قتادة: هي أرض الجابية فضربها فنبعت عين فقيل: " هذا مغتسل بارد وشراب " أي: هذا ماء تغتسل به وتشرب منه ليبرأ باطنك وظاهرك وتنقلب ما بك قلبة.

وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها " رحمة منا وذكرى " مفعول لهما.

والمعنى: أن الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم " وخذ " معطوف على اركض.

والضغث: الحزمة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك.

وعن ابن عباس: قبضة من الشجر كان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ فحلل اللّه يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهذه الرخصة باقية.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه أتى بمخدج وقد خبث بأمة فقال: " خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة " ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إما أطرافها قائمة وأما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فحرج صدره وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام.

وقيل: قال لها الشيطان: اسجدي لي سجدة فأرد عليكم مالكم وأولادكم فهمت بذلك فأدركتها العصمة فذكرت ذلك له فحلف.

وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك.

وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق " وجدنه صابراً " علمناه صابراً.

فان قلت: كيف وجده صابراً وقد شكا إليه ما به واسترحمه قلت: الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعاً ولقد قال يعقوب عليه السلام: " إنما أشكو بثي وحزني إلى الله " يوسف: 6 وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها فإذا صح أن يسمى صابراً مع تمني العافية وطلب الشفاء فليسم صابراً مع اللجإ إلى اللّه تعالى والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان.

ويروى: أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهبني ما ملكت يميني ولم آكل إلا ومعي يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان فكشف الله عنه.

" واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " " إبرهيم وإسحق ويعقوب " عطف بيان لعبادنا.

ومن قرأ: عبدنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ثم عطف ذريته على عبدنا وهي إسحاق ويعقوب كقراءة ابن عباس: وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي أو كان العمال جذماً لا أيدي لهم وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا: " أولي الأيدي والأبصر " يريد: أولي الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمني الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم.

وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما.

وقرىء: أولى الأيادي على جمع الجمع.

وفي قراءة ابن مسعود: " أولي الأيد " على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة.

وتفسيره بالأيد - من التأييد - قلق غير متمكن " أخلصناهم " جعلناهم لنا خالصين " بخالصة " بخصلة خالصة لا شوب فيها ثم فسرها بذكرى الدار شهادة بذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدور عنها وقرىء: على الإضافة.

والمعنى: بما خلص من ذكرى الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر إنما همهم ذكرى الدار لا غير.

ومعنى " ذكرى الدار ": ذكراهم الآَخرة دائباً ونسيانهم إليها ذكر الدنيا.

أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الحياة كما هو شأن الأنبياء وديدنهم.

وقيل: ذكرى الدار.

الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

فإن قلت: ما معنى " أخلصنهم بخالصة " قلت: معناه: أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها.

أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها.

وتعضد الأول قراءة من قرأ: " بخالصتهم " " المصطفين " أي المختارين من أبناء جنسهم.

و " الأخيَارِ " جمع خَير أو خير على التخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت.

" واذكر إسمعيل واليسع وذا الكفل وكل منالأخبار " " وَاَليسًعَ " كأن حرف التعريف دخل علىَ يسع.

وقرىء: والليسع كأن حرف التعريف دخل على ليسع فيعل من اللسع.

والتنوين في " وَكل " عوض منالمضاف إليه ومعناه: وكلهم من الأخيار.

" هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مئاب جنت عدن مفتحة لهم الأبوب متكئين فيها يدعون فيها بفكهة كثيرة وشراب وعندهم قصرت الطرف أتراب " " هذا ذكر " أي: هذا نوع من الذكر وهو القرآن.

لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها.

قال: " هذا ذكر " ثم قال: " وإن للمتقين " كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر: هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه: أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار.

قال: " هذا وإن للطاغين " وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل ويذكرون به أبداً.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه: هذا ذكر من مضى من الأنبياء " جنت عدن " معرفة لقوله: " جنات عدن التي وعد الرحمن " مريم: 61 وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب.

و " مفتحة " حال والعامل فيها ما في " للمتقين " من معنى الفعل.

وفي " مفتحة " ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره: مفتحة هي الأبواب كقولهم: ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل الاشتمال.

وقرىء: " جنات عدن مفتحة " بالرفع على أن جنات عدن مبتدأ ومفتحة خبره.

أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو جنات عدن هي مفتحة لهم كأن اللدات سمين أتراباً لأن التراب مسهن في وقت واحد وإنما جعلن على سن واحدة لأن التحاب بين الأقران أثبت.

وقيل: هن أتراب لأزواجهن أسنانهن كأسنانهم.

" هذا ما توعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ما له من نفاد " قرىء: " يوعدون " بالتاء والياء " ليوم الحساب " لأجل يوم الحساب كما تقول: هذا ما تدخرونه ليوم الحساب أي: ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

" هذا وإن للطغين لشر مئاب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وءاخر من شكله أزوج هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار " " هذا " أي الأمر أي هذا: أو هذا كما ذكر " فبئس المهاد " كقوله: " لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش " الأعراف: 41 شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم أي: هذا حميم فليذوقوه.

أو العذاب هذا فليذوقوه ثم ابتدأ فقال: هو " حميم وغساق " أو: هذا فليذوقوه بمنزلة " وإياي فارهبون " البقرة: 40 أي ليذوقوا هذا فليذوقوا والغساق - بالتخفيف والتشديد -: ما يغسق من صديد أهل النار يقال: غسقت العين إذا سال دمعها.

وقيل: الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده.

وقيل: لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق.

وعن الحسن رضي الله عنه.

الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثواباً في قوله: " أفلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين " السجدة: 17 وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة.

" وءاخر " ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة " أزوج " أجناس.

وقرىء: و " آخر " أي: وعذاب آخر.

أو مذوق آخر.وأزواج: صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله.وقرىء: " من شكله " بالكسر وهي لغة.

وأما الغنج فالبكسر لا غير " هذا فوج مقتحم معكم " هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي: دخل النار في صحبتكم وقرانكم والاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها.

والقحمة: الشدة.

وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أي: يقولون هذا.

والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب " لا مرحبا بهم " دعاء منهم على أتباعهم.

تقول لمن تدعو له: مرحباً أي: أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً: أو رحبت بلادك رحباً ثم تدخل عليه " لا " في دعاء السوء.

و " بهم " بيان للمدعو عليهم " إنهم صالوا النار " تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم.

ونحوه قوله تعالى: " كلما دخلت أمة لعنت أختها " الأعراف: 8 وقيل: هذا فوج مقتحم معكم: كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم.

و " لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار " كلام الرؤوساء.

وقيل: هذا كله كلام الخزنة " وقالوا " أي الأتباع " بل أنتم لا مرحبا بكم " يريدون الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم: " أنتم قدمتموه لنا " والضمير للعذاب أو لصليهم.

فإن قلت: ما معنى تقديمهم العذاب لهم قلت: المقدم هو عمل السوء.

قال الله تعالى: " ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم " الأنفال: 51 ولكن الرؤوساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتوه لنا فجعل الرؤوساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم فجمع بين مجازين لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤساؤهم والعمل هو المقدم لا جزاؤه.

فان قلت: فالذي جعل قوله: " لا مرحبا بهم " من كلام الخزنة ما يصنع بقوله: " بل أنتم لا مرحبا بكم " والمخاطبون - أعني رؤسائهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم قلت: كأنه قيل: هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوي فارتكبوه فقيل للمزينين: أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم.

فقال المزين لهم للمزينين: بل أنتم أولى بالخزي منا فلولا أنتم لم نرتكب ذلك " وقالوا " هم الأتباع أيضاً " فزده عذاباً ضعفاً " أي: مضاعفاً ومعناه: ذا ضعف: ونحوه قوله تعالى: " ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً " الأعراف: 38 وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله عز وجل " ربنا آتهم ضعفين من العذاب " الأحزاب: 8 وجاء في التفسير " عذاباً ضعفاً " حيات وأفاعي.

" وقالوا ما لنا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار أتخذنهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصر " " وَقَالُو " الضمير للطاغين " رِجَالاً " يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم " من الأشرار " من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً " أتخذنهم سخرياً " قرىء: بلفظ الإخبار على أنه صفة ل " رجالاً " مثل قوله: " كناَ نَعُدمُ مِنَ الأشرارِ " وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستخسار منهم.

وقوله: " أم زاغت عنهم الأبصر " له وجهان من الاتصال أحدهما: أن يتصل بقوله: " مَا لنَاَ " أي: مالنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها: قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار.

إلا أنه خفي عليهم مكانهم.

والوجه الثاني: أن يتصل باتخذناهم سخرياً إما أن تكون أم متصلة على معنى: أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم والتحقير وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم على

معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم وعن الحسن: كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم.

وإما أن تكون منقطعة بعد مضي اتخذناهم سخرياً على الخبر أو الاستفهام كقولك: إنها إبل أم شاء وأزيد عندك أم عندك عمرو ولك أن تقدر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته لأن " أم " تدل عليها فلا تفترق القراءتان: إثبات همزة الاستفهام وحذفها.

وقيل: الضمير في " وَقَالُوا " لصناديد قريش كأبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال: عمار وصهيب وبلاَل وأشباههم.

وقرىء: " سخرياً " بالضم والكسر.

" إن ذلك لحق تخاصم أهل النار " " إنَ ذلك " أيَ الذي حكينا عنهم الحَق لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال هو " تخاصم أهل النار ".

وقرىء: بالنصب على أنه صفة لذلك لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس.

فإن قلت: لم سمى ذلك تخاصماً.

قلت شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأن قول الرؤساء: لا مرحباً بهم وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة فسمي التقاول كله تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

" قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار رب السموت والأرض وما بينهما العزيز الغفار " قل " يا محمد لمشركي مكة: ما أنا إلا رسول " منذر " أنذركم عذاب الله للمشركين وأقول لكم: إن دين الحق توحيد الله وأن يعتقد أن لا إله إلا الله " الوحد " بلا ند ولا شريك " القهار " لكل شيء وأن الملك والربوبية له في العالم كله وهو " العزيز " الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة وهو مع ذلك " الغفر " لذنوب من التجأ إليه.

أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

" قل هو نبؤا عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين " " قل هو نبؤا عظيم " أي: هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله واحد لا شريك له: نبأ عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة.

ثم احتج لصحة نبؤته بأن ما ينبىء به عن الملأ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله " إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير " أي: لأنما أنا نذير.

ومعناه: ما يوحى إلي إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه.

ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إلي إلا هذا وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده

وليس إلي غير ذلك وقرىء: " إنما " بالكسر على الحكاية أي: إلا هذا القول وهو أن أقود لكم: إنما أنا نذير مبين ولا أدعى شيئاً آخر.

وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد وعن ابن عباس: القرآن.

وعن الحسن: يوم القيامة.

فإن قلت: بم يتعلق " إذ يختصمون " قلت: بمحذوف لأن المعنى: ما كان ليمن علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم و " إذ قال " بدل من " إذ يَختصَمونَ ".

فإن قلت: ما المراد بالملأ الأعلى.

قلت: أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم فإن قلت: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين اللّه تعالى وبينهم لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم وقالوا له فأنت بين أمرين: إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول: التقاول كان بين الله وبينهم فقد جعلته من الملأ الأعلى.

قلت: كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فصح أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملأ الأعلى.

والمراد بالاختصام: التقاول على ما سبق.

" إذ قال ربك للملائكة إني خلق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكفرين " فإن قلت: كيف صح أن يقول لهم " إني خلق بشراً " وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل قلت: وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم " فإذا سويته " فإذا أتممت خلقه وعدلته " ونفخت فيه من روحي " وأحييته وجعلته حساساً متنفساً " فقعوا " فخروا كل: للإحاطة.

" ونفخت فيه من روحي " وأحييته وجعلته حساساً متنفساً " فقعوا " فخروا كل للإحاطة.

وأجمعون: للاجتماع فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات فإن قلت: كيف ساغ السجود لغير اللّه.

قلت: الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل إلآ أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه فإن قلت كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن.

قلت: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله: " فسجد الملئكة " ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثنا متصلاً " وكان من الكفرين " أريد: وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً لأن كان مطلق في جنس الأوقات الماضية فهو صالح لأيها شئت.

ويجوز أن يراد: وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم اللّه.

" قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أم كنت من العالمين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" فإن قلت: ما وجه قوله: " خلقت بيدي ": قلت: قد سبق لنا أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما حتى قيل في عمل القلب: هو مما عملت يداك وحتى قيل لمن لا يدي له: يداك أوكتا وفوك نفخ وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته وهذا مماعملته يداك.

ومنه قوله: " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي " ص: 75 قلت: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف منه أنه سجود لمخلوق فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار.

ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعز عباده عليه وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ويستنكفوا من السجود له من غيرهم ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوه قدام أعينهم ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه: كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرى بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أي: ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي - لا شك في كونه مخلوقاً - امتثالً لأمري وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعني: كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتباراً لسقوطه فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علي سقوطه.

يريد: هلا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت اعتبار سقوطه وفيه: أني خلقته بيدي فأنا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه: من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له مال يصرفني عن الأمر بالسجود له.

وقيل: معنى " لما خلقت بيدي " لما خلقت بغير واسطة وقرىء: بيدي كما قرىء: "بمصرخي"

وقرىء: بيدي على التوحيد " من العالمين " ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالين حيث " أنا خير منه " وقيل: استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين.

ومعنى الهمزة: التقرير.

وقرىء: " استكبرت " بحذف حرف الاستفهام لأن أم تدل عليه.

أو بمعنى الإخبار.

هذا على سبيل الأولى أي: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي " خلقتني مِن نَارٍ " مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

" قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين "ِ " منهَا " من الجنة.

وقيل: من السماء.

وقيل: من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً.

والرجيم: المرجوم.

ومعناه: المطرود كما قيل له: المدحور والملعون لأن من طرد رمي بالحجارة على أثره.

والرجم: الرمي بالحجارة.

أو لأن الشياطين يرجمون بالشهب.

فإن قلت: قوله: " لعنتي إلى يوم الدين " كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع.

قلت: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: " فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين " الأعراف: 44 ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت.

" قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم " فإن قلت: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم قلت: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى.

ويومه: اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه.

ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.

" فبعزتك " إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

قرىء: " فالحق والحق " منصوبين على أن الأول مقسم به كاللّه في: إن عليك الله أن تبايعا وجوابه " لأملأن " والحق أقول: اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ومعناه: ولا أقول إلا الحق.

والمراد بالحق: إما اسمه عز وعلا الذي في قوله: " إن الله هو الحق المبين " النور: 25 أو الحق الذى هو نقيض الباطل: عظمه اللّه بإقسامه به.

ومرفوعين على أن الأول مبتدأ محذوف الخبر كقوله: لعمرك أي: فالحق قسمي لأملأن.

والحق أقول أي: أقوله كقوله كله لم أصنع ومجرورين: على الأول مقسم به قد اضمر حرف قسمه كقولك: الله لأفعلن.

والحق أقول أي: ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به.

ومعناه: التوكيد والتشديد.

وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضاً.

وهو وجه دقيق حسن.

وقرىء: برفع الأول وجره مع نصب الثاني وتخريجه على ما ذكرنا " مِنكَ " من جنسك وهم الشياطين " وممَن تبعك منهم " من ذرية آدم فإن قلت: " أجمعين " تأكيد لماذا قلت: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك.

ومعناه: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً.

أو لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

" قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعلمين ولتعلمن نبأه بعد حين " " عليه من أجر " الضمير للقرآن أو للوحي " وما أنا من المتكلفين " من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن " إن هو إلا ذكر " من الله " للعلمين " للثقلين.

أوحى إلي فأنا أبلغه.

وعن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: " للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لايعلم " " ولتعلمن نبأه " أي: ما يأتيكم عند الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه من صحة خبره وأنه الحق والصدق.

وفيه تهديد.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير ".

سورة الزمر

قل يا عبادي الذين أسرفوا.

" الآية وتسمى سور الغرف وهي خمس وسبعون آية.

وقيل: ثنتان وسبعون آية.

بسم اله الرحمن الرحيم " تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كذب كفار لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحنه وهو الله الوحد القهار " " تنزيل الكتاب " قرىء بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف.

أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل كما تقول: نزل من عند الله.

أو غير صلة كقولك: هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر.

أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل الكتاب هذا من اللّه أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة وبالنصب على إضمار فعل نحو: اقرأ والزم.

فإن قلت: ما المراد بالكتاب.

قلت: الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن وعلى الثاني: أنه السورة " مخلصاً له الدين " ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر.

وقرىء: " الدين " بالرفع.

وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً - بفتح اللام - كقوله تعالى: " وأخلصوا دينهم لله " النساء: 146 حتى يطابق قوله: " ألا لله الدين الخالص " والخالص والمخلص: واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي.

كقولهم: شعر شاعر وأما من جعل " مخلصاً " حالاً من العابد و " له الدين " مبتدأ وخبرا فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك: لله الدين " ألا لله الدين الخالص " أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها.

وعن قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله.

وعن الحسن: الإسلام " والذين اتخذوا " يحتمل المتخذين وهم الكفرة والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في " اتخذوا " على الأول راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوماً والراجع إلى الذين محذوف والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء " والذين اتخذوا " في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قلت: فالخبر ما هو قلت: هو على الأول إما " إن الله يحكم بينهم " أو ما أضمر من القول قبل قوله: " ما نعبدهم ".

وعلى الثاني: أن الله يحكم بينهم.

فإذ قلت: فإذا كان " إن الله يحكم بينهم " الخبر فما موضع القول المضمر قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال أي: قائلين ذلك.

ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أن المبدل منه كذلك.

وقرأ ابن مسعود بإظهار القول: " قالوا ما نعبدهم " وفي قراءة أبي: ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به آلهتهم.

وقرىء: " نعبدهم " بضم النون إتباعاً للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر والتنوين في " عذاب اركض " الزمر: 3 والضمير في " بينهم " لهم ولأوليائهم.

والمعنى: إن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم.

واختلافهم: أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعادونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى.

وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض أقروا وقالوا: اللّه فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في " بينهم " عائد إليهم وإلى المسلمين والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين والمراد بمنع الهداية: منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم وأنهم في علم الله من الهالكين.

وقرىء: كذاب وكذوب وكذبهم: قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء: بنات الله ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله: " لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء " يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه.

وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على اللّه وملائكته غالين في الكفر ثم قال: " سبحنه " فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء.

ودل على ذلك بما ينافيه وهو أنه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد وهو معنى قوله: " أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة " الأنعام: 101.

وقهار: غلاب لكل شيء ومن الأشياء آلهتهم فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء.

" خلق السموت والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار" ثم دلَّ بخلق السموات والأرض وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك قهار لا يغالب.

والتكوير: اللف واللي يقال: كار العمامة على رأسه وكورها.

وفيه أوجه منها: أن الليل والنهار خِلفَة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس.

ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب: تلوي الثنايا بأحقيها حواشيه لي الملأ بأبواب التفاريج ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار.

ومنها: أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض " ألا هو العزيز " الغالب القادر على عقاب المصرين " الغفر " لذنوب التائبين أو

الغالب الذي يقدر على أن يعاجله بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فسمى الحلم عنهم: مغفرة.

" خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنا

فإن قلت: ما وجه قوله: " ثم جعل منها زوجها " وما يعطيه من معنى التراخي قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عقدها دالاً على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذ الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه إلا أن إحداهما جعلها الله عمدة مستمرة والأخرى لم تجريها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود.

وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدت ثم شفعها الله بزوج.

وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالبر ثم خلق بعد ذلك حواء " وأنزل لكم " وقضى لكم وقسم لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول من السماء حيث كتب في اللوح: كل كائن يكون.

وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات.

والنبات لا يقوم إلا بالماء.

وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها.

وقيل: خلقها في الجنة ثم أنزلها.

" ثمانية أزواج " ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز.

والزوج: اسم لواحد معه آخر فإذا انفرد فهو فرد ووتر.

قال الله تعالى: " فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى " القيامة: 9 " خلقاً من بعد خلق " حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف والظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة.وقيل: الصلب والرحم والبطن " ذلكم " الذي هذه أفعاله هو " الله ربكم.

فأنى تصرفون " فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

"إن تكفروا فإن الله غني عنك ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور " " فإن الله غني عنكم " عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان " وَلا يَرضى لِعِبَادِهِ الكفر " رحمة لهم لأنه يوقعهم في الهلكة " وإن تشكروا يرضه لكم " أي يرض الشكر لكم لأنه سبب فوزكم وفلاحكم فإذاً ما كره كفركم ولا رضي شكركم إلا لكم ولصلاحكم لا لأن منفعة ترجع إليه لأنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة.

ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام الذي أريد به الخاص وما أراد إلآ عباده الذين عناهم في قوله: " إن عبادي ليس لك عليهم سلطان " الإسراء: 5 يريد: المعصومين كقوله تعالى: " عيناً يشرب بها عباد الله " الإنسان: 6 تعالى الله عما يقول الظالمون وقرىء: " يرضهُ " بضم الهاء بوصل وبغير وصل وبسكونها.

" وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار " أعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم ذرا من خول مخول وفي حقيقته وجهان أحدهما: جعله خائل مال من قولهم: هو خائل مال وخال مال: إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة.

والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر " وفي معناه قول العرب: " # إن الغني طويل الذيل مياس " نسي ما كان يدعو إليه " أي نسي الضر الذي كان يدعو اللّه إلى كشفه.

وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه وما بمعنى من كقوله تعالى: " وما خلق الذكر والأنثى " الليل: 3 وقرىء: " ليضل " بفتح الباء وضمها بمعنى أن نتيجة جعله لله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة: قد تكون غرضاً في الفعل وقد تكون غير غرض.

وقوله: " تَمَتَّع بِكفرِك " من باب الخذلان والتخلية كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك وتؤمر بتركه: مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه

لأنه لا مبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على عكس ما أمر به.

ونظيره في المعنى قوله: " متاع قليل ثم مأواهم جهنم " آل عمران: 197.

" أمن هو قانت ءاناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتفكر أولوا الألباب " و قرىء: " أمن هو قانت " بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من وبالتشديد على إدخال " أم " عليه.

ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره: أمن هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جري ذكر الكافر قبله.

وقوله بعده: " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " وقيل: معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر.أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل.والقانت: القائم بما يجب عليه من الطاعة.ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: " أفضل الصلاة طول القنوت " وهو القيام فيها. ومنه القنوت في الوتر لأنه دعاء المصلي قائماً " سَاجدَاً " حال.

وقرىء: " ساجد وقائم " على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين.

وقرىء: " ويحذر عذاب الآخرة " وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم.

وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند اللّه جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون.

وقيل: ونزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال: هذا تمن وإنما الرجاء قوله وتلا هذه الآية.

وقرىء: " إنما يذكر " بالإدغام.

" قل يا عبادي الذين ءامنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " "فِي هَذه الدينَا " متعلق بأحسنوا لا بحسنة معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة.

وهي دخول الجنة أي: حسنة غيرَ مكتنهة بالوصف.

وقد علقه السدي بحسنة ففسر بحسنة بالصحة والعافية.

فإن قلت: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر فما معنىَ تعليقه بحسنة ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه.

قلت: هو صفة لها إذا تأخر فإذا تقدم كان بياناً لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق وإن لم يكن التعلق وصفاً ومعنى " وأرض الله واسعة " أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة.

حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه قيل لهم: فان أرض الله واسعة وبلاده كثيرة فلا تجتمعوا مع العجز وتحولوا إلى بلاد أخر واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم.

وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه كقوله تعالى: " ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها " النساء: 97.

وقيل: هي أرض الجنة.

و " الصبرون " الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى غيرها.

من تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير " بغَيْرِ حِسَاب " لا يحاسبون عليه.

وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفاً وهو تمثيل للتكثير.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: لا يُهتدى إليه حساب الحساب ولا يُعرف.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " ينصب اللّه الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين.

ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً قال الله تعالى: " إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

"قل إني أمرت أن أعبد الله مخلص له الدين وأمرت بأن أكون أول المسلمين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين " " قل إني أمرت " بإخلاص الدين و "َأمِرت " بذلك " لي " أجل " لأن أكون أول المسلمين " أي مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة والمعنى: أن الإخلاص له السبقة في الدين فمن أخلص كان سابقاً.

فإن قلت: كيف عطف " أمرت " على " أمرت " وهما واحد قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء لماذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما عوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله: " وأمرت أن أكون من المسلمين " يونس: 72 " وأمرت أن أكون من المؤمنين " يونس: 104 " وأمرت أن أكون أول من أسلم " الأنعام: 4 وفي معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً.

وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون وأن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعني: أن الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكل شوب بدليلي العقل والوحي.

فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم وذلك حين دعوه إلى دين آبائه.

فإن قلت: ما معنى التكرير في قوله: " قل إني أمرت أن

اعبد الله مخلصاً له الدين " وقوله: " الله اعبد مخلصاً له ديني " قلت: ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص.

والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله: " فاعبدوا ما شئتم من دونه " والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية على ما حققت فيه القول مرتين.

قل إن الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه: هم " الذِينَ خَسِروا أَنفُسَهُم " لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها وخْسروا " وَأَهلِيهم " لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده إليهم.

وقيل: وخسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة يعني: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: " ألا ذلك هو الخسران المبين " حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين.

" لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده با عباد فاتقون " يتوعد الله " به عباده " ويخوفهم ليجتنبوا ما يوقعهم فيه " يا عبادي فاتقون " فلا تتعزرضوا لما

" والذين اجتنبوا الطغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هدهم الله وأولئك هم أولوا الألبب " " الطغوت " فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدراً وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأن البناء بناء مبالغة فإن الرحموت: الرحمة الواسعة والملكوت: الملك المبسوط والقلب هو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها ههنا الجمع.

وقرىء: " الطواغيت " " أن يعبدوها " بدل من الطاغوت بدل الاشتمال " لهم البشرى " هي البشارة بالثواب كقوله تعالى: " لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة " يونس: 64 اللّه عز وجل يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين وحين يحشرون.

قال اللّه تعالى: " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات " الحديد: 12 وأراد بعباده " الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة فوضع الظاهر موضع الضمير وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب حراصاً على ما هو أقرب عند الله وكثر ثواباً ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر وأبينها دليلاً أو أمارة وأن لا تكون في مذهبك كما قال القائل: ولا تكن مثل عير قيد فانقادا يريد المقلد وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن.

وقيل: يستمعون أوامر اللّه فيتبعون أحسنها نحو: القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإحفاء لقوله تعالى: " وأن تعفو أقرب للتقوى " البقرة: 237 " وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم " البقرة: 271 وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه.

ومن الوقفة من يقف على قوله " فبشر عبادي " ويبتدىء: " الذين يستمعون " يرفعه على الا بتداء وخبره " أولئك " " أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار " أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب تقديره: أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ووضع " مَن فِي اَلنار " موضع الضمير فالآية على هذا جملة واحدة.

ووجه آخر: وهو أن تكون الآية جملتين: أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه " فأنت تنقذ في النار " وإنما جاز حذف: فأنت تخلصه لأن " أفأنت تنقذه " يدل عليه: نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار حتى نرل اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكده نفسه في دعائهم إلى الإيمان في منزلة إنقاذهم من النار.

وقوله: " أفانتَ تُنقِذ " يفيد أن اللّه تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده لا يقدر على ذلك أحد غيره فكما لا تقدر أنت أن تنقد الداخل في النار من النار لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

" لكن الذين اتقموا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد " " غرف من فوقها غرف " علالي بعضها فوق بعض.

فإن قلت: ما معنى قوله: " مبنية ".

قلت: معناه - والله أعلم -: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها " تجرِى مِن تَحتهَا اَلأنهرُ " كما تجري تحت المنازل من غير تفاوت بين العلوّ والسفل " وَعدَ اَللّه " مصدر مؤكدة لأن قوله لهم غرف في معنى وعدهم اللّه ذلك " لا يخلف الله الميعاد ".

" ألم ترى أن الله أنزل من السماء ماء سلكه ينبيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألونه ثم

" أنزل من السماء ماء " هو المطر.

وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله " فَسَلَكَه " فأدخله ونظمه " ينبيع فيِ اَلأَرضِ " عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد " مختلفاً ألونه " هيئاته من خضرةَ وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها " يَهيجُ " يتم جفافه عن الأصمعي لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب " حطماً " فتاتاً ودريناً " إنَ فِي ذَلِك لَذِكرىَ " لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال.

ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى: " إنما مثل الحياة الدنيا " يونس: 24 " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا " الكهف: 45.

وقرىء: " مصفاراً ".

" أفمن شرح الله صدره للإسلم فهو على نور من ربه فويل للقسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلل مبين " " أفمَنَ " عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب ونور الله: هو لطفه وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقيل: يا رسول اللّه كيف انشراح الصدر قال: " إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح " فقيل: يا رسول اللّه فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت وهو نظير قوله: " أمن هو قانت " الزمر: 9 في حذف الخبر " من ذكر الله " من أجل ذكره أي: إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى: " فزادتهم رجساً إلى رجسهم " التوبة: 125

وقرىء: " عن ذكر الله " فإن قلت: ما الفرق بين من وعن في هذا قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله فالمعنى ما ذكرت من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه وإذا قلت: عن ذكر الله فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه.

ونظيره: سقاه من العيمة أي من أجل عطشه وسقاه عن العيمة: إذا أرواه حتى أبعمه عن العطش.

" الله نزل أحسن الحديث كتاب متشبهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد " عن ابن مسعود رضي اللّه عنه: أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له: حدثنا فنزلت وإيقاع اسم الله مبتدأ وبناء " نزل " عليه: فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الأحاديث.

و " كِتَب " بدل من أحسن الحديث.

ويحتمل أن يكون حالاً منه " مُتَشَبهَاً " مطلق في مشابهة بعضه بعضاً فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت ويجوز أن يكون " مثاني " بياناً لكونه متشابهاً لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة.

والمثاني: جمع مثنى بمعنى مردد مكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه.

وقيل: لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد.

ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قول تعالى: " ثم ارجع البصر كرتين " الملك: 4 بمعنى كرة بعد كرة وكذلك: لبيك وسعديك وحنانيك.

فإن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع قلت: إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب ألا أنك تركت الموصوف إلى الصفة وأصله: كتاباً متشابهاً فصولاًمثاني.

ويجوز أن يكون كقولك: برمة أعشار وثوب أخلاق.

ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ويكون منتصباً على التمييز من متشابهاً كما نقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل والمعنى: متشابهة مثانية.

فإن قلت: ما فائدة التثنية والتكرير قلت: النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عوداً عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم.

اقشعر الجلد: إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد.

يقال: قشعر جلده من الخوف وقَف شعره وهو مثل في شدة الخوف فيجوز أن يريد به اللّه سبحانه التمثيل تصويراً لإفراط خشيتهم وأن يريد التحقيق.

والمعنى: أنهم إذا سمعوا للقران وبآيات وعيده: أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة: لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

فإن قلت: ما وجه تعدية لان بإلى.

قلت: ضمن معنى فعل متعد بإلى كأنه قيل: سكنت.

أو اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة راجية غير خاشية.

فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة قلت: لأن أصل أمره الرحمة والرأفة ورحمته لي سابقة غضبه فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رؤوفاً رحيماً.

فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بها القلوب ثانياً قلت: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل: تقشعر جلولدهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة ليناً في جلودهم " ذَلِكَ " إشارة إلى الكتاب وهو " هُدى اللَهِ يهدي به " يوفق به من يشاء يعني: عباده المتقين حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء كما قال: " هدى للمتقين " البقرة: " وَمَن يضللِ اللّهُ " ومن يخذله من الفساق والفجرة " فما لهِ من هَادٍ " أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله أي: أثر هداه وهو لطفه فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى " يهدي به " بهذا الأثر " من يشاء " من عباده يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشين راجين فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم " وَمَن يضُلِلِ اللّهُ " ومن لم تؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره " فما له من هاد " من مؤثر في بشىء قط.

" أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " يقال.اتقاه بدرقته.

استقبله بها فوقي بها نفسه إياه واتقاه بيده.

وتقديره: " أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب " كمن أمن العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره و " سوء العذاب ": شدته.

ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز

أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى: مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلاّ بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية ومحاماة عليه.

وقيل: المراد بالوجه الجملة وقيل: نزلت في أبي جهل.

وقال لهم خزنة النار " نُوقُوا " وبال " مَا كنُتُم تكَسِبُونَ.

مِن حَيثُ لا يشَعُرُونَ " من الجهة التي يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم.

والخزي: الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء وما أشبه ذلك من نكال الله.

" ولقد ضربنا للناس في هذا القرءان من كل مثل لعلهم يتذكرون قرءاناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون " " قرءاناً عربياً " حال مؤكدة كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً ويجوز أن ينتصب على المدح " غير ذي عوج " مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف فإن قلت: فهلا قيل: مستقيماً: أو غير معوج قلت: فيه فائدتان إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال: " ولم يجعل له عوجاً " الكهف: 1 والثانية: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان وقيل: المراد بالعوج: الشك واللبس وأنشد: وَقَد أَتَاكَ يَقِين غيرُذِي عِوَجِ مِنَ الإلهِ وِقَول غَيرُ مَكذُوبِ لِله بَل أَكثرهنُم لا يعلَمُونَ " واضرب لقومك مثلاً وقل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع: كل واحد منهم يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة وإذا عنت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سادر قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته.

وعلى أيهم يعتمد في حاجاته.

وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له فهو معتنق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه فهمه واحد وقلبه مجتمع أفي هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل شأناً والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا كما قال تعالى: " ولعلا بعضهم على بعض " المؤمنون: 91 ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد.

وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه.

وممن يلتمس رفقه.

فهمه شعاع وقلبه أوزاع وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب من أجله.

و " فِيهِ " صلة شركاء كما تقول: اشتركوا فيه.

والتشاكس والتشاخس: الاختلاف تقول: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه سالماً لرجل خالصاً

وقرىء: " سلماً " بفتح الفاء والعين وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين وهي مصادر سلم.

والمعنى: ذا سلامة لرجل أي: ذا خلوص له من الشركة من قولهم: سلمت له الضيعة.

وقرىء بالرفع على الابتداء أي: وهناك رجل سالم لرجل وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقي به أو سعد فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك " هَل يستويان مثلاً " هل يستويان: صفة على التمييز والمعنى: هل يستوي صفتاهما وحالاهما وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس.

وقرىء: " مثلين " كقوله تعالىَ: " وأكثر أموالاً وأولاداً " التوبة: 9 مع قوله: " أشد منهم قوة " ويجوز فيمن قرأ: مثلين أن يكون الضمير في يستويان "ِللمثلين لأن التقدير: مثل رجل ومثل رجل والمعنى.

هلَ يستويان فيما يرجع إلى الوصفية كما تقول: كفى بهما رجلين " الحمد لله " الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه أي: يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه وحده والعبادة فقد ثبت أنه لا إله إلآ هو " بَل أكثرهم لا يعلَمُونَ " يشركون به غيره.

" ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين " كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنى للتربص وشماتة الباقي بالفاني.

وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه ونعى إليكم أنفسكم.

وقرىء: مائت ومائتون والفرق بين الميت والمائت: أن الميت صفة لازمة كالسيد.

وأما المائت فصفة حادثة تقول: زيد مائت غداً كما تقول: سائد غداً أي سيموت وسيسود.

وإذا قلت: زيد ميت فكما تقول: حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت.

والمعنى في قوله: " إنَكَ مَيت وإنَهُم ميتُونَ " إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى لأن ما هو كُائن فكأن قد كان " ثُم إِنكَم " ثم إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب " تختَصِمونَ " فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ويعتذرون بما لا طائل تحته تقول الأتباع: أطعنا سادتنا وكبراءنا وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضاً حتى يقال لهم: " لا تختصموا لدي " ق: 28 والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج وأهل القبلة يكون بينهم الخصام.

قال عبد الله بن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا وديننا ونحن نرى أن هذه الآيَة أنزلت فينا وفي أهل الكتاب قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها أنزلت فينا.

وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة.

فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا

وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة.

والوجه الذي يدل عليه كلام اللّه هو ما قدمت أولاً.

ألا ترى إلى قوله تعالى: " فَمَنْ أَظلَمُ مِمَن كذَبَ عَلىَ اَللهِ " وقوله تعالى: " والذي جاء بالصدق وصدق به " الزمر: 33 وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة " كذَبَ عَلىَ اَللَهِ " افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه " وكذَبَ بِاَلصدِق "ِ بالأمر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم " إِذ جاءه " فاجأه بالتكذيب لما

سمع به من غير وقفة لإِعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون مثوى للكَفِرينَ " أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق واللام في " للكفرينَ " إشارة إليهم.

" والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوء الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون " " والذي جاء بالصدق وصدق به " هو رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: جاء بالحق وآمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: " ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون " المؤمنون: 49 فلذلك قال: " أُولئك هُمُ اَلمتقون " إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم.

ويجوز أن يرِد: والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته الذي صدقوا به.

وفي قراءة ابن مسعود: " والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به " وقرىء: " وصدق به " بالتخفيف أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به يعني: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف وقيل: صار صادقاً به أي: بسببه لأن القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ولا يجوز أن يصدق إلآ الصادق فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة وقرىء: " وصدق به " فإن قلت: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا ومما معنى التفضيل فيهما قلت: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك: الأشج أعدل بني مروان.

وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية والحسن الذي يعلمونه هو عند اللّه الأحسن لحسن إخلاصهم فيه فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن.

وقرىء: " أسوأ الذي عملوا " جمع سوء.

" أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن ضلل الله فما له من هاد ومن يهدي الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذو انتقام " " أليسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبده " أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها.

وقرىء: " أبكاف عبده " وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكاف عباده لم وهم الأنبياء وذلك: أن قريشاً قالت لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وإنا نخشى عليك معرتها لعيبك إياها.

ويروى: أنه بعث خالداً إلى العزى ليكسرها فقال له سادنها: أحذركها يا خالد إن لها لشدة لا يقوم لها شيء فعمد خالد إليها فهشم أنفها.

فقال الله عز وجل: " أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف ".

وفي هذا تهكم بهم لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضر.

أو ليس اللّه بكاف أنبياءه ولقد قالت أممهم نحو ذلك فكفاهم الله وذلك قول قوم هود: " إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء " هود: 54 ويجوز أن يريد: العبد والعباد على الإطلاق

لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم.وقرىء: " بكافي عباده " على الإضافة.يكافي عباده.

ويكافي: يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعله من الكفاية كقولك: يجازي في يجزى وهو أبلغ من كفى وبنائه على لفظ المبالغة.

والمباراة: أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة لما تقدم من قوله: " ويجزيهم أجرهم " " بِالذَيِنَ مِن دُونه " أراد: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه " بعَزِيزٍ " بغالب منيع " ذي انتقام " ينتقم من أعدائه وفيه وعيد لقريش " ولئن سألتهم من خلق السموت والأرض ليقولن الله قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كشفت ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكت رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون " قرىء: " كاشفاتٌ ضرَّه " و " ممسكات رحمتَه " بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف.

فإن قلت: لم فرض المسألة في نفسه دونهم قلت: لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخبيلها فأمر بأن يقررهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده.

ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل.

أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما.

هل هؤلاء اللاتي خوفتموني إياهن كاشفات عني ضره أو ممسكات رحمته حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفه قال: " حَسبىَ الله " كافياً لمعرة أوثانكم " عَلَيهِ يَتوكل المتوكلون " وفيه تهكم.

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم فسكتوا فنزلُ " قل حسبي الله " فْإن قْلت: لما قيل: كاشفْات وممسكات على التأنيث بعد قوله تعالى: " ويخوفونك بالذين من دونه " قلت: أنثهن وكن إناثاً وهن اللات والعزى ومناة قال الله تعالى: " أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى " النجم: 19 - 21 ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة كأنه قال: الإناث اللاتي هن اللآت والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهنْ وأعجز وفيه تهكم أيضاً.

" قل يا قومي اعملوا على مكانتكم إن عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم " " على مكانتكم " على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها والمكانة بمعنى المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث للزمان وهما للمكان فإن قلت: حق الكلام: فإني عامل على مكانتي فلم حذف قلت: للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأن حاله لا تقف وتزداد كل يوم قوة وشدة لأن اللّه ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله.

ألا ترى إلى قوله: " فسوف تعلمون من يأتيه " كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباَ عليهم في الدنيا والآخرة لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه وبذل ذليل من أعدائه " يخزِيه " مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب أي: عذاب مخزٍ له وهو يوم بدر وعذاب دائم وهو عذاب النار.

وقرىء: " مكاناتكم " " إن أنزل عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن يضل فإنما يضل عليها وما أنت " لِلنَاسِ " لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينفروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية.

ولا حاجة إلى ذلك فأنا الغني فمن اختار الهدي فقد نفع نفسه ومن اختار الضلالة فقد ضرها.

وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى فإن التكليف مبني على الاختياردون الإجبار.

" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لأيت لقوم يتفكرون " " الأنفس " الجمل كما هي وتوفيها: إماتتها وهو أن تسلب ما هي به حية حساسة دراكة: من صحة أجزائها وسلامتها لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت " والتي لم تمت في مَنَامِها " يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى.

ومنه قوله تعالى: " وهو الذي يتوفاكم بالليل " الأنعام: 6 حيث لا يميزون ولا يتصرفون كما أن الموتى كذلك " فيمسك " الأنفس " التي قضى عليها الموت " الحقيقي أي: لا يردها في وقتها حية " ويرسل الأخرى " النائمة إلى أجل مسمى إلى وقت ضربه لموتها.

وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها ويقضيها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز.

قالوا: فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس.

ورووا عن ابن عباس رضي اللّه عنهما: في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه ولم يقبض روحه والصحيح ما ذكرت أولاً لأن الله عز وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعاً بالأنفس وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام " إنَ في ذلِك " إن في توفي الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة اللّه وعلمه لقوم يتفكرون لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون.

وقرىء: " قُضِيَ عليها الموتُ " على البناء للمفعول.

" أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيءً ولا يعقلون قل لله الشفعة جميعاً له ملك السموت والرض ثم إليه ترجعون " " أم اتخذُوا " بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار " مِن دوُنِ اَللَّهِ " من دون إذنه " شفعاء " حِين قالوا: " هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه " يونس: 18 ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

ألا ترى إلى قوله تعالى " قُل للهَ الشَفعَةُ َجميعَاً " أي: هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى وأن يكون الشفيع مأذوناً له.

وهنا الشرطان مفقودان جميعاً " أَوَلَو كانوا " معناه: يشفعون ولو كانوا " لا يَملِكوُنَ شيئاً وَلا يعقلون " أي: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط حتى يملكوا الشفاعة ولا

عقل لهم " له ملك السموت والأرض " تقرير لقوله تعالى: " لِله اَلشَفعَةُ جميعَاً " لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكاً لها.

فإن قلت: بم يتصل قوله: " ثم إليه ترجعون " قلت: بما يليه معناه: له ملك السموات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرةَ.

" وإذا ذكر الله وحده أشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون " مدار المعنى على قوله " وحده " أي: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا " أي: نفروا وانقبضوا " وإذا ذكر الذين من دونه " وهم آلهتهم ذكر الله معهم إو لم يذكر أْستبشروا لافتتانهم بها ونسيانهم حق اللّه إلى هواهم فيها.

وقيل: إذا قيل لا إلا الله وحده لا شريك له نفروا لأن فيه نفياً لآلهتهم.

وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر آلهتهم حين قرأ والنجم عند باب الكعبة فسجدوا معه لفرحهم ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل.

والاشمئزاز: أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه.

فإن قلت: ما العامل في " وإذا ذكر " قلت: العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت

" قل اللهم فاطر السموت والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون " بعِل رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى وقل: أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ولا حيلة لغيرك فيهم.

وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ووعيد لهم.

وعن الربيع بن خثيم وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين رضي اللّه وسخط على قاتله وقالوا: الآن يتكلم فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا.

وقرأ هذه الآية وروى أنه قال على أثره: قتل من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

" ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيمة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون " " وبدا لهم من الله " وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدته وهو نظير قوله تعالى في الوعد: " أفلا تعلم نفس ما أخفي لهم " السجدة: 17 والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم.

وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هى سيئات.

وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء.

وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له فقال: أخشى آية من كتاب الله وتلاها فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه " وبدا لهم سيئات ما كسبوا " أي سيئات أعمالهم التي كسبوها.

أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم كقوله تعالى: " أحصاه اللّه ونسوه " المجادلة: وأراد بالسيئات: أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا فسماها سيئات كما قال: " وجزاء سيئة سيئة مثلها " الشورى: 40 " وَحَاقَ بِهِم " ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

" فإذا مس الإنسن ضر دعانا ثم إذا خولنه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون " التخويل: مختص بالتفضل.

ويقال: خولني إذا أعطاك على غير جزاء " على علم " أي على علم مني أني سأعطاه لما في من فضل واستحقاق.

أو على علم من الله بي وباستحقاقي أو على علم مني بوجوه الكسب كما قال قارون: " على علم عندي " القصص: 78 فإن قلت: لم ذكر الضمير في " أوتيته " وهو للنعمة.

قلت: ذهاباً به إلى المعنى لأن قوله: " نعمة منا " شيئاً من النعم وقسماً منها.

ويحتمل أن تكون ما في إنما موصولة لا كافة فيرجع إليها الضمير.

على معنى: إن الذي أوتيته على علم " بل هي فتنة " إنكار قوله كأنه قال: من خولناك من النعمه لما تقول بل هي فتنة أي: ابتلاء وامتحان لك أتشكر أم تكفر فإن قلت: كيف ذكر الضمير ثم أنثه.

قلت: حملاً على المعنى أولاً وعلى اللفظ آخراً ولأن الخبر لما كان مؤنثاً أعني " فِتنَة ": ساغ تأنيث المبتدأ لأجله لأنه في معناه كقولهم: ما جاءت حاجتك.

وقرىء: " بل هو فتنة " على وفق " إنما أوتيته ".

فإن قلت: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو قلت: السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله: " واذا ذكر اللّه وحده اشمأزت " الزمر: 45 على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر اللّه ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره وما بينهما من الآي اعتراض.

فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه.

قلت: ما في الاعتراض من دعاء رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ربه بأمر منه وقوله: أنت تحكم بين عبادك ثم ما عقبه من الوعيد العظيم: تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترؤن عليك مثل هذه الجراءة ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت.

قوله: " ولو أن الذين ظلموا " الزمر: 47 متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل: ولو أن لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به.

حين أحكم عليهم بسوء العذاب وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة في أكمامها.

وأما الآَية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو كقولك: قام زيد وقعد عمرو.

فإن قلت: من أي وجه وقعت مسببة والاشمئزاز عن ذكر اللّه ليس بمقتض لالتجائهم إليه بل هو مقتض لصدوفهم عنه.

قلت: في هذا التسبيب لطف وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن باللّه فإذا مسه ضر التجأ إليه فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه ثم تقول: زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر.

ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله.

" قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لأيت لقوم يؤمنون " الضمير في " قَالَها " راجع إلى قوله: " إنما أوتيته على علم " لأنها كلمة أو جملة من القول.

وقرىء: " قد قاله " على معنى القول والكلام وذلك والذين من قبلهم: هم قارون وقومه حيث قال: " إنما أوتيته على علم عندي " القصص: 78 وقومه راضون بها فكأنهم قالوها.

ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها " فا أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " من متاع الدنيا ويجمعون منه مِن هؤُلاء " من مشركي قومك " سيصيبهم " مثل ما أصاب أولئك فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم: " أولم يعملوا " أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل.

" قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم " " أسرفوا على أنفسهم " جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلو فيها " لاتقنطوا " قرىء: بفتح النون وكسرها وضمها " إن الله يغفر الذنوب جميعاً " يعني بشرط التوبة وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه.

لأن القران في حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض.

وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود: " يغفر الذنوب جميعاً " لمن يشاء.

والمراد بمن يشاء: من تاب لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله لا لملكه وجبروته.

وقيل: في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضي الله عنها: " يغفر الذنوب جميعاً " ولا يبالي ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى: " ولا يخاف عقباها " الشمس: 15 وقيل: قال أهل مكة: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف ولم نهاجر ولقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرم الله فنزلت.

وروى أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل اللّه لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً فنزلت.

فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم فأسلموا وهاجروا وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي اللّه عنه.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية " فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال: " إلا من أشرك " ثلاث مرات.

" وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يحسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السخرين أو تقول لو أن الله هدني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك ءايتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكفرين " " وأنيبوا إلى ربكم " وتوبوا إليه " وأسلموا له " وأخلصوا له العمل وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شر فيها لازم لا تحصل بدونه " واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم " مثل قوله " الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " الزمر: 18.

" وأنتم لا تشعرون " أي يفجؤكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهوكم " أن تقول نفس " كراهة أن تقول.

فإن قلت: لم نكرت قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس: إما بلجاج في الكفر شديد.

أو بعذاب عظيم ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى: ورب بقيع لو هتفت بجوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا وهو يريد: أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً.

ونظيره: رب بلد قطعت ورب بطل قارعت وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلا التكثير وقرىء: " يا حسرتي " على الأصل ويا حسرتاي على الجمع بين العوض والمعوض منه.

والجنب: الجانب يقال: أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجنب والجانب ثم قالوا: فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه.

قال سابق البربري: أما تتقين الله في جنب وامق أتاني كبد حرى عليك تقطع وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه.

ألا ترى إلى قوله: إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا يريدون: لأجلك.

وفي الحديث: "من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل " وكذلك: فعلت هذا من جهتك.

فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيل: " فَرَطتُ فِي جنبِ الله " على معنى: فرطتُ في ذات الله.

فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها فكأنه قيل: فرطت في اللّه.

فما معنى فرطت في اللّه قلت: لا بد من تقدير مضاف محذوف سواء ذكر الجنب أو لم يذكر.

والمعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك.

وفي حرف عبد الله وحفصة: في ذكر اللّه.

" وما " في " ما فرطت " مصدرية مثلها في " بما رحبت " التوبة: 25 التوبة: 118 " وإن كنت لمن السخرين " قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل " وإن كنتُ " النصب على الحال كأنه قال: فرطت وأنا ساخر أي: فرطت في حال سخريتي.

وروى: أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق.

وأتاه إبليس فقال له: تمتع من الدنيا ثم تب فأطاعه وكان له مال فأنفقه في الفجور فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان فقال: يا حسرتاه على ما فرطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن " ولو أن الله هدني " لا يخلو: إما أن يريد به الهداية بالإلجاء أو بالإلطاف أو بالوحي فالإلجاء خارج عن الحكمة ولم يكن من أهل الإلطاف فيلطف به.

وأما الوحي فقد كان ولكنه عرض ولن يتبعه حتى يهتدي وإنما يقول هذا تحيراً في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤوساء والشياطين ونحو ذلك ونحوه " لو هدانا اللّه لهديناكم " إبراهيم: 121 وقوله: " بلى قد جاءتك ءايتي " رد من الله عليه معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى وقرىء: بكسر التاء على مخاطبة النفس.

فإن قلت: فهلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله: " لو أن الله هدني " ولم يفصل بينهما بآية قلت: لأنه لا يخلو: إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن.

وإما أن تؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن.

وأما الثاني: فلما فيه من نقص الترب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب.

فإن قلت: كيف صح أن تقع بلى جواباً لغير منفي قلت: " لو أن الله هدني " فيه معنى: ما هُديت.

" ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين " " كَذَبُوا عَلَى اللهِ " أي وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى وهو متعال عنه فأضافوا إليه الولد والشريك وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا وقالوا: " لو شاء الرحمن ما عبدناهم" وقالوا: " والله أمرنا بها "

الأعراف: 128 ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجويز أن يخلق خلقاً لا لغرض ويؤلم لا لعوض ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ويجسمونه بكونه مرئياً معايناً محركاً بالحاسة ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً متسترين بالبلكفة ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه

قدماء " وجوهُهُم مسودة " جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ومفعول ثانٍ إن كان من رؤية القلب.

" وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون " قرىء: " ينجي " و " ينجي " " بمفازتهم " بفلاحهم يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه.

وتفسير المفازة قوله: " لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون " كأنه قيل: ما مفازتهم فقيل: لا يمسهم السوء أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم.

أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: " فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب " آل عمران: 188 أي بمنجاة منه لأن النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة ويجوز: بسبب فلاحهم لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة.

ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه: مفازة لأنه سببها.

وقرىء: " بمفازاتهم " على أن لكل متق مفازة.

فإن قلت: " لا يمسهم " ما محله من الإعراب على التفسيرين.

قلت: أما على التفسير الأول فلا محل له لأنه كلام مستأنف.

وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

" الله خلق كل شيء وهو على شيء وكيل له مقاليد السموت والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخسرون " " له مقاليد السموت والأرض " أي هو مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ومنه قول فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي مفاتيح ولا واحد لها من لفظها.

وقيل: مقليد ويقال: إقليد وأقاليد والكلمة أصلها فارسية.

فإن قلت: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية قلت: التعريب أحالها عربية كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً فإن قلت: بم اتصل قوله: " والذين كفروا " قلت: بقوله: " وينجي الله الذين اتقو " أي ينجي الله المتقين بمفازتهم والذين كفروا هم الخاسرون.

واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها.

وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها يستحقون عليها من الجزاء وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل: سأل عثمان رضي اللّه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى: " له مقاليد السموت والأرض " فقال: " يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك تفسيرها: لا إلا الله واللّه أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحي ويميت وهو على كل شيء قدير " وتأويله على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه والذين كفروا بآيات الله بكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون.

" قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجهلون " " أَفَغيرَ الله " منصوب بأعبد.

و " تأمروني " اعتراض.

ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونْؤمن بإلهك.

أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله: " تأمروني أعبد " لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لى: اعبد والأصل: تأمرونني أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل كما في قوله: ألا أيها الزاجري أحضر الوغى ألا تراك تقول: أفغير الله تقولون لي أعبده وأفغير الله تقولون لي أعبد فكذلك أفغير الله تأمرونني أن أعبده.

وأفغير الله تأمرونني أن أعبد والدليل على صحة هذا الوجه: قراءة من قرأ " أعبد " بالنصب.

وقرىء: " تأمرونني " على الأصل.

وتأمروني على إدغام النون أو حذفها.

" ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين" قرىء: " ليحبطن عملك " وليحبطن: على البناء للمفعول.

ولنحبطن بالنون والياء أي: ليحبطن الله أو الشرك.

فإن قلت: الموحى إليهم جماعة فكيف قال: " لئن أشركت " على التوحيد قلت: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثله أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم: لئن أشركت كما تقول: كسانا حلة أي: كل واحد منا.

فإن قلت: ما الفرق بين اللامين قلت: الأولى موطئة للقسم محذوف والثاني لام الجواب وهذا الجواب سادّ مسد الجوابين أعني: جوابي القسم الشرط فإن قلت: كيف صح هذا الكلام مع علم الله أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم.

قلت: هو على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها لأغراض فكيف بما ليس بمحال.

ألا ترى إلى قوله: " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً " يونس: 99 يعني على سبيل الإلجاء ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه.

فإن قلت: ما معنى قوله: " ولتكونن من الخسرين " قلت: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل.

ويحتمل: ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة.

ويجوز أن يكون غضب اللّه على الرسول أشد فلا يمهله بعد الردة ألا ترى إلى قوله تعالى: " إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات " الإسراء: 75 " بل الله فاعبد " رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إن كنت عاقلاً

فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه " وكن من الشكرين " على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم.

وجوز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه تقديره: بل الله فأعبد فاعبد.

" وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة والسموت مطويت بيمينه سبحنه وتعلى عما يشركون " لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل " وَمَا قَدرُوا اللهَ حق قَدرِه " وقرىء بالتشديد على معنى: وما عظموه حق تعظيمه ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال: " والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة والسموت مطويت بيمينه " والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى: أن جبريل جاء إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ثم قرأ تصديقاً له " وما قدروا الله حق قدره.

الآية وإنما ضحك: أفصح العرب صلى الله عليه وسلم وتعجب لأنه لم يفهم منه إلآ ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهامَ والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ولا ترى باباً في علم البيان أعق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء فإن أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديماً وما أوتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدره حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول وقد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ولا يعرف قبيلاَ منه من دبير والمراد بالأرض: الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله: " جميعاً " وقوله: " والسموت " ولأن الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو

مقتض للمبالغة ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ولكن عن الأراضي كلهن.

والقبضة: المرة من القبض " فقبضت قبضة من أثر الرسول " طه: 96 والقبضة - بالضم -: المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضاً: أعطني قبضة من كذا: تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر كما روى: " أنه نهى عن خطفة السبع "وكلا المعنيين محتمل.

والمعنى: والأرضون جميعاً قبضته أي: فوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة يعني أن الأرضين مع عظمهن وبسطهن لا يبلغن إلآ قبضة واحدة من قبضاته كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول: الجزور أكلة لقمان والقلة جرعته أي: ذات أكلته وفات جرعته تريد: أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته وجرعة فردة من جرعاته.

وإذا أريد معنى القبضة فظاهر لأن المعنى: أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة

فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ " قبضته " بالنصب.

قلت: جعلها ظرفاً مشبهاً للمؤقت بالمبهم: " مَطْويت " من الطي الذي هو ضد النشر كما قال تعالى: " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب " الأنبياء: 104 وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه وقيل: قبضته: ملكه بلا مدافع ولا منازع وبيمينه: بقدرته.

وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها ومن اشتم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته وما مني به من أمثاله وأثقل منه على الروح وأصدع للكبد تدوين العلماء وله واستحسانهم له وحكايته على فروع المنابر واستجلاب الاهتزاز به من السامعين.

وقرىء: " مطويات على نظم السموات في حكم الأرض ودخولها تحت القبضة ونصب مطويات على الحال سبحانه وتعالى ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

" ونفخ في الصور فصعق من في السموت والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " فإن قلت: " أخرى " ما محلها من الإعراب.

قلت: يحتمل الرفع والنصب: أما الرفع فعلى قوله: " فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة " الحاقة: 13 وأما النصب فعلى قراءة من قرأ: " نفخة واحدة " الحاقة: 13 والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه أخرى.

وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان.

وقرىء: " قياماً ينظرون ": يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب.

وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم

" وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتب وجاىء بالنبين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك.

والمعنى: " وأشرقت الأرض " بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل.

وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه ويحكم بالحق بين أهلها ولا ترى أزين للبقاع من العمل ولا أعمر لها منه.

وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما جور فيها غير ربها ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور.

وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الظلم ظلمات يوم القيامة " وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم.

وقرىء: " وأُشرقت " على البناء للمفعول من شرقت بالضوء تشرق: إذا أمتلأت به وأغتصت.

وأشرقها الله كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً " الكتب " صحائف الأعمال ولكنه اكتفى باسم الجنس وقيل: اللوح المحفوظ " والشهداء " الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار.

وقيل: المستشهدون في سبيل اللّه.

" وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم ءايت ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكفرين قيل ادخلوا أبوب جهنم خلدين فيها فبئس مثوى المتكبرين " الزمر: الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض وقد تزمروا قال: حتى احزألت زمر بعد زمر وقيل في زمر الذين اتقوا: هي الطبقات المختلفة: الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم.

وقرىء: " نذر منكم " فإن قلت: لم أضيف إليهم اليوم قلت: أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة.

وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة " قالوا بلى " أتونا وتلوا علينا ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأن جهنم لسوء أعمالنا كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين فذكرو عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال.

واللام في المتكبرين للجنس لأن " مثوى المتكبرين " فاعل بئس وبئس فاعلها: اسم معرف بلام الجنس.

أو مضاف إلى مثله والمخصوص بالذم محذوف تقديره: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

" وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوبها وقال لهم خزنتها سلم

عليكم طبتم فادخلوها خلدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العملين " " حتى " هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أن جزاءها محذوف وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف وحق موقعه ما بعد خالدين.

وقيل: حتى إذا جاؤوها جاؤوها وفتحت أبوابها أي: مع فتح أبوابها.

وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها.

وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله: " جنات عدن مفتحة لهم الأبواب " ص: 50 فلذلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها.

فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق قلت: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل.

والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين " طبتم " من دنس المعاصي.

وطهرتم من خبث الخطايا " فادخلوها " جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها اللّه من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا

يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً تنقتي أنفسنا من درن الذنوب وتميط وضر هذه القلوب " خلدين " مقدرين الخلود " والأرض " عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبوأً وقد أورثوها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً.

فإن قلت: ما معنى قوله: " حيث نشاء " وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

"وترى الملئكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العلمين " " حافين " محدقين من حوله " يسبحون بحمد ربهم " يقولون: سبحان الله والحمد لله متلذذين لا متعبدين.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: " بينهم " قلت: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل وأن يرجع إلى الملائكة على أن ثوابهم - وإن كانوا معصومين جميعاً - لا يكون على سنن واحد ولكن

يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق.

فإن قلت: قوله: " وَقِيلَ الحمد لله " من القائل ذلك قلت: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا: الحمد لله على قضائه بيننا بالحق وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الزمر لم يقطع اللّه رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين الذي خافوا " وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

سورة المؤمن

مكية قال الحسن إلاّ قوله " وسبح بحمد ربك لأن الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل في الحواميم: كلها إنها مكيات عن ابن عباس وابن الحنفية

بسم الله الرحمن الرحيم " حم تنزيل الكتب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير " قرىء بإمالة ألف " حا " وتفخيمها وبتسكين الميم وفتحها.

ووجه الفتح: التحريك التقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو أين وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع صرف للتأنيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل.

التوب الثوب والأوب: أخوات في معنى الرجوع والطول: الفضل والزيادة.

يقال: لفلان على فلان طول والإفضال.

يقال: طال عليه وتطول إذا تفضل.

فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصرف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف.

قلت: أما " غافر الذنب وقابل التوب " فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر ذنب ويقبل التوب الآن.

أو غداً حتى يكونا في تقدير الانفصال فتكون إضافتهما غير دقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش.

وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير: شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير وقد جعله الزجاج بدلاً.

وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبو ظاهر والوجه أن يقال لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة فقد آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ولقائل أن يقول: هي صفات وإنما الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج حتى قالوا: ما يعرف سحادليه من عناديله فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع على أن الخليل قال في قولهم ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل كذا أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام ومما سهل ذلك الأمر من اللبس وجهالة الموصوف.

ويجوز أن يقال: قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار.

ويجوز أن يقال: هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال.

فإن قلت: ما بال الواو في قوله: " وقابل التوب " قلت: فيها نكتة جليلة وهي إفادة الجمع للمفذب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات.

وأن يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب كأنه قال: جامع المغفرة والقبول.

وروى أن عمر رضي اللّه عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له: تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان: سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إِله إلا هو: بسم اللّه الرحمن الرحيم: " حم إلى قوله إليه المصير ".

وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة.

فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه.

" ما يجدل في ءايت الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلد " سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر: والمراد: الجدال بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله وقد دل على ذلك في قوله " وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق " فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها فأعظم جهاد في سبيل الله وقوله صلى الله عليه وسلم: " إن جدالاً في القرآن كفراً " وإيراده منكراً وإن لم يقل: إن الجدال تمييز منه بين جدال وجدال.

فإن قلت: من أين تسبب لقوله: " فلا يغررك " ما قبله قلت: من حيث إنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر والكافر لا أحد أشقى منه عند الله وجب على من تحقق ذلك أن لا

ترجح أحوالهم في عينه ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ووراءه شقاوة الأبد.

ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم لباطل وما ادخر لهم من سوء العاقبة مثلاً: ما كان من نحو ذلك من الأمم وما أخذهم من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه.

وقرىء: " فلا يغرك ".

" كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجدلوا بالبطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب " " وَالأحزاب " الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم " وهمة كل أمة " من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب " برسولهم " وقرىء: " برسولها " " ليأخذوه " ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل.

ويقال للأسير: أخيذ " فأخذتهم " يعني أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم " فكيف كان عقاب " فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك.

وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

" وَكذلِكَ حَقَّت كلمَتُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار "

" إنهم أصحاب النار " في محل الرفع بدل من " كلمت ربك " أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار.

ومعناه: كما وجب هلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل.

والذين كفروا: قريش ومعناه كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار.

وقرىء: " كلمات ".

" الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين ءامنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنت عدن التي وعدتهم ومن صلح من ءابائهم وأزوجهم وذريتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات يومئذ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم " روي: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له إسرافيل: زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع ".

وفي الحديث:" إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا يروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة ".

وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء بين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام.

وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن رائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر.

وقرأ ابن عباس: " العرش " بضم العين.

فإن قلت: ما فائدة قوله: " ويؤمنون به " لا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون قلت: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه ما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكماعقب أعمال الخير بقوله تعالى: " ثم كان من الذين آمنوا " البلد: 17 فأبان بذلك فضل الإيمان.

وفائدة أخرى: وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش من حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء: في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا وأنه منزه عن صفات الأجرام.

وقد روعي التناسب في قوله:

" ويؤمنون به " " ويستغفرون للذين ءامنوا " كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم.

وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن.

فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوي وأرضي قط ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض.

قال الله تعالى: " ويستغفرون لمن في الأرض " الشورى: 15.

أي: يقولون: " ربنا " وهذا المضمر يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله وأن يكون حالاً.

فإن قلت: تعالى الله عن المكان فكيف صح أن يقال: وسع كل شيء قلت: الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى.

والأصل: وسع كل شيء رحمتك وعلمك ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم كأن فاته رحمة وعلم واسعان كل شيء.

فإن قلت: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعاً وما ذكر إلا الغفران وحده.

قلت: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك.

وسبيل الله: سبيل الحق التي نهجها لعباده ودعا إليها " إنك أنت العزيز الحكيم " أي: الملك الذي لا يغلب وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلا بداعي الحكمة وموجب حكمتك أن تفي بوعدك " وقهم السيئات " أي: العقوبات.

أو جزاء السيئات.

فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها.

والوقاية منها: التكفير أو قبول التوبة.

فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة واللّه لا يخلف الميعاد.

قلت: هذا بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكرامة والثواب.

وقرىء: " جنة عدن " و " صلَح " بضم اللام والفتح أفصح.

يقال: صلح فهو صالح وصلح فهو صليح و " ذريتهم ".

" إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أَكبرُ مِن مَقتِكُم أنفُسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرونَ قَالوا رَبنَا أَمَتنَا اثنتَين وأحيَيتَنَا اثنتَين فاعترَفنَا بذنوبنا فَهَل إلى خُروج من سبيل ذَلكمُ بأنه إِذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تُؤمِنوا فَالحكُمُ لِلَهِ العلي الكبير " أي: ينادون يوم القيامة فيقال لهم: " لَمَقتُ الله أكبَر "ُ والتقدير: لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم فاستغنى بذكرها مرة.

و " إذ تدعَون "َ منصوب بالمقت الأول.

والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان اللّه يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهن.

وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله.

وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى: " يكفر بعضكم

ببعض ويلعن بعضكم بعضاً " العنكبوت: 25 " وإذ تدعَون ": تعليل والمقت: أشد البغض فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشده " إثنتَيْنِ " إماتتين وإحياءتين.

أو موتتين وحياتين.

وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتاً أولاً وإماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحيائتين الإحياءة الأولى وإحياءة البعث.

وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: " وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم " البقرة: 28 وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قلت: كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتاً: إماتة قلت: كما صح أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ولا من ضيق إلى سعة ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجح لأحدهما وكذلك الضيق والسعة.

فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنقله منه ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه ثلاث إثبات إحياءات وهو خلاف ما في القرآن إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتد بها أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها ويعدهم في المستثنيين من الصعقة في قوله تعالى " إلا من شاء الله " النمل: 78.

فإن قلت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى: " فَاَعترفنا بذنوبنا " قلت: قد أنكروا البعث فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم " فَهَل إلى خُروجُ " أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء " من سبيل " قط أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه.

وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله: " ذلِكمُ " أي ذلكم الذي أنتم فيه وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك به " فالحكم للهَ " حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد: وقوله: " العَليِّ اَلكَبِير " دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته.

وقيل: كأن الحرورية أخذوا قولهم: لا حكم إلا لله من هذا.

" هُو الذي يُريكم آياتهُ وَيُنزل لَكمُ مِّنَ اَلسَّماء رزقًا وَمَا يتذكر إِلا مَن يُنِيب فادعُوا اللَّهَ مخلِصين لَهُ اَلدينَ وَلو كَرِه الكافرون رفيعُ الدرَجات ذُو العَرشِ يلقى الروحَ مِن أمره علىَ مَن يَشَاء مِن عِبَادِه لينذر يوم التلاق.

يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهمَ شيء لمن الملك اليوم لله "يريكم آياته " من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها.

والرزق: المطر لأنه سببه " وَمَا يتذكَرُ إلا مَن يُنِيب " وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه ثم قال للمنيبين " فَادعُوا الله " أي: اعبدوه " مخلِصِينَ لَهُ اَلدِين " من الشرك وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم.

" رفيع اَلدرجات ذُو العَرشِ يلقِى الروح " ثلاثة أخبار لقوله: هو مترتبة على قوله: " الذي يريكم " أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً.

وقرئ: " رفيع الدرجات " بالنصب على المدح.

ورفيع الدرجات كقوله تعالى: " ذي المعارج " المعارج: 3 وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش وهي دليل على عزته وملكوته.

وعن ابن جبير: سماء فوق سماء.

والعرش فوقهن.

ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعَلو سلطانه كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه في الجنة " اَلروح من أمره " الذي هو سبب الحياة من أمره يريد: الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه فاستعار له الروح كما قال تعالى: " أو من كان ميتاً فأحييناه " الأنعام: 22 " لينذر " الله.

أو الملقى عليه: وهو الرسول أو الروح.

وقرئ: " لتنذر " أي: لتنذر الروح لأنها تؤنث أو على خطاب الرسول.

وقرئ: " لينذر يوم التلاق " على البناء للمفعول " يوم التلاق "َ يوم القيامة لأن الخلائق تلتقي فيه.

وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض.

وقيل: المعبود

والعابد " يوم هم بارزون " ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لأن الأرض بارزة قاع صفصف ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث: " تحشرون عراة حفاة عزلا " " لا يخفى على الله منهم شيء " أي: من أعمالهم وأحوالهم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يخفى عليه منهم شيء.

فإن قلت: قوله: " لا يخفى على الله منهم شيء " بيان وتقرير لبروزهم والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا فما معناه.

قلت: معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب: أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه.

قال الله تعالى: " ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون " فصلت: 22 وقال تعالى: " يستخفون من الناس ولا يستخفون من اللّه " النساء: 108 وذلك لعلمهم أن الناس يبصرونهم وظنهم أن الله لا يبصرهم وهو معنى قوله: " وبرزوا لله الواحد القهار " إبراهيم: 48 " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به.

ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار.

وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعصَ الله فيها قط " فأول ما يتكلم به أن ينادي منادٍ: {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس }

" اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ".

لما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك وهي أن كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون لأن الله ليس بظلام للعبيد وأن الحساب لا يبطئ لأن الله لا يشغله حساب على حساب فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخذ في حسابهم لم يَقِل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

"وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاع"

الآزفة: القيامة سميت بذلك لأزوفها أي: لقربها.

ويجوز أن يريد بيوم الآزفة: وقت الخطة الآزفة وهي مشارفتهم دخول النار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها فتلصق بحناجرهم فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا ولكنها معترضة كالشجا كما قال تعالى: " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الملك: 27.

فإن قلت: " كاظمين " بما انتصب قلت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها.

ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء

كما قال تعالى: " رأيتهم لي ساجدين " يوسف: 4 وقال: " فظلت أعناقهم لها خاضعين " الشعراء: 4 وتعضمه قراءة من قرأ: " كاظمون " ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: وأنذرهم أي: وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم كقوله تعالى: " فادخلوها خالدين " الزمر: 73 الحميم: المحب المشفق.

والمطاع: مجاز في المشفع لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فوقك.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: " ولا شفيع يطاع ".

قلت: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول: ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تبيعه ونفيهما جميعاً وأن لا كتاب عندك ولا كونه مبيعاً.

ونحوه: وَلاَ تَرَى الضَّب بِهَا ينجحرُ يريد: نفي الضب وانجحاره.

فإن قلت: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله قلت: على نفي الأمرين جميعاً من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه اللّه ورضيه وأن الله لا يحب الظالمين فلا يحبونهم وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم.

قال اللّه تعالى: " وما للظالمين من أنصار " البقرة: 270 وقال: " ولا يشفعون إلا لمن ارتضى " الأنبياء: 28 ولأن الشفاعة لا تكون إلاّ في زيادة التفضل وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب بدليل قوله تعالى: " ويزيدهم من فضله " النساء: 174 وعن الحسن رضي الله عنه:

والله ما يكون لهم شفيع البتة فإن قلت: الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها قلت: في ذكرها فائدة جليلة وهي أنها ضمت إليه ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف بيانه: أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت: ما لي فرس أركبه ولا معي سلاح أحارب به فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح مانعة من الركوب والمحاربة كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي فكفلك قوله: " ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ " معناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع: وضعاً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

"يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور "الخائنة: صفة للنظرة.

أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب ولا يحسن أن تراد الخيانة من الأعين لأن قوله: " وما تخفي الصدور " لا يساعد عليه.

فإن قلت: بم اتصل قوله: " يعلم خائنة الأعين ".

قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله: " هو الذي يريكم " غافر: 13 مثل " يلقي الروح " ولكن يلقي الروح قد علل بقوله: " لينذر يوم التلاق " ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: " ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ " فبعد لذلك عن أخواته.

" والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله السميع البصير ".

" والله يقضي بالحق " يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلاّ بالحق والعدل.

لاستغنائه عن الظلم.

وآلهتكم لا يقضون بشيء.

وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي أو لا يقضي " إن الله السميع البصير " تقرير لقوله: " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله وأنها لا تسمع ولا تبصر وقرئ: يدعون بالتاء والياء.

" أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ".

هم في " كانوا هم أشد منهم " فصل.

فإن قلت: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة وهو أشد منهم.

قلت: قد ضارع معرفة في أنه لا تدخله الألف واللام فأجري مجراها.

وقرئ: منكم وهي في مصاحف أهل الشام " وآثاراً " يريد متقلداً سيفاً ورمحاً " ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين وإلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ".

" وسلطان مبين " وحجة ظاهرة وهي المعجزات فقالوا: هو ساحر كذاب فسموا السلطان المبين سحراً وكذباً " فلما جاءهم بالحق " بالنبوة فإن قلت: أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ وهذا قتل آخر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: " قالوا اقتلوا " أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً يريد: أن هذا قتل غير القتل الأول " في ضلال " في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم يعني: أنهم مروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغني عنهم هذا القتل الثاني وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث موسى وأحسن بأنه قد وقع: أعاده عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى وما علم أن كيده ضائع في الكرتين جميعاً.

" وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض" ذروني أقتل موسى " كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة ومثله لا يقاوم إلا ساحراً مثله ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ولكن الرجل

كان فيه خب وجربزة وكان قتالاً سفاكا للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحسن منه بأنه هو الذي يثل عرضه ويهدم ملكه ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك.

وقوله: " وليدع ربه " شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه وكان قوله: " ذروني أقتل موسى " تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع " أن يبدل دينكم " أن يغير ما أنتم عليه وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام بدليل قوله: "ويذرك وآلهتك " الأعراف: 127 والفساد في الأرض: التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ويهلك الناس قتلاً وضياعاً كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه.

أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه.

وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو ومعناه.

إني أخاف فساد دينكم وثنياكم معاً.

وقرئ: يُظهِر من أظهر والفساد منصوب: أي: يظهر موسى الفساد.

وقرئ: يَظفر بتشديد الظاء والهاء من تظهر" وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ".

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله: قال لقومه " إني عذت " بالله الذي هو ربي وربكم وقوله: " وربكم " فيه بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه وقال: " من كل متكبر " لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه وقال: " لا يؤمن بيوم الحساب " لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها وعذت ولذت أخوان.

وقرئ: عت بالإدغام.

" وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ".

" رجل مؤمن " وقرئ: رجل بسكون الجيم كما يقال: عضد في عضد وكان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً وقيل: كان إسرائيلياً و " من آل فرعون " صفة لرجل.

وصلة ليكتم أي: يكتم إيمانه من آل فرعون واسمه سمعان أو حبيب وقيل خربيل أو حزبيل والظاهر أنه كان من آل فرعون فإن المؤمنين من بني إسرائيل لم يقلوا ولم يعزوا.

والدليل عليه قول فرعون: " أبناء الذين آمنوا معه " غافر: 25.

وقول المؤمن: " فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا " غافر: 29 دليل ظاهر على أنه يتنصح لقومه " أن يَقُولَ " لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد كأنه قال: أترتكبون

الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة قط في ارتكابها إلاّ كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: " ربي الله " مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً أي: وقت أن يقول.

والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره.

وقوله: " بالبينات " يريد: بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً " فإن يكن كاذباً فعليه كذبه " أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره " وإن يكن صادقاً يصبكم بعض ما يعدكم إن تعرضتم له. "

فإن قلت: لم قال: بعض " الذي يعدكم " وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإِنصاف في القول ويأتيهم من وجهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه فقال: " وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم " وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ولكنه أردفه " يصيبكم بعض الذي يعدكم " ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلاً أن يتعصب له أو يرمي بالحصا من ورائه.

وتقيم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل وكذلك قوله: " إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " فإن قلت: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل وأنشد بيت لبيد: تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها قلت: إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي: كان أجفى من أن يفقه ما أقول له.

" إنَ الله لا يهدي من هو مسرف " يحتمل إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر فيتخلصون منه وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوة ولما عضده بالبينات.

وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشد من ذلك: طاف صلى الله عليه وسلم بالبيت فلقوه حين فرغ فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا فقال: أنا ذاك فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فالتزمه من ورائه: وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعاً صوته بذلك وعيناه تسفحان حتى أرسلوه.

وعن جعفر الصادق: إن مؤمن آل فرعون قال ذلك سراً وأبو بكر قاله ظاهراً.

" يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ".

" ظاهرين في الأرض " في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل يعني: أن لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسحوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد.

وقال: " ينصرنا " و " جاءنا " لأنه منهم في القرابة وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه " ما أريكم إلا ما أرى " أي: ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله يعني: لا أستصوب إلا قتله وهذا الذي تقولونه غير صواب " وما أهديكم " بهذا الرأي " إلا سبيل الرشاد " يريد: سبيل الصواب والصلاح.

أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أذخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعني أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ولكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة.

وقرئ: الرشاد فعال من رشد بالكسر كعلام.

أو من رشد بالفتح كعباد وقيل: هو من أرشد كجبار من أجبر وليس بذلك لأن فعالاً من أفعل لم يجيء إلا في عدة أحرف نحو: دراك وسآرا وقصار وجبار ولا يصح القياس على القليل.

ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه إلى فعل.

" وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ".

" مثل يوم الأحزاب " مثل أيامهم لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ولم يلبس أن كل حزب منهم كان له يوم دمار اقتصر على الواحد من الجمع لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله: كلوا في بعض بطنكمو تعفوا وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب ودأب هؤلاء: ثؤبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وكون ذلك دائباً دائماً منهم لا يفترون عنه ولا بد من حذف مضاف يريد: مثل

جزاء دأبهم.

فإن قلت: بم انتصب مثل الثاني.

قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأول لأن آخر ما تناوله الإضافة قوم نوح ولو قلت أهلك الله الأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة " وما الله يريد ظلماً للعباد " يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم وهو أبلغ من قوله تعالى: " وما ربك بظلام للعبيد " فصلت: 46 حيث جعل المنفى إرادة الظلم لأن من كان عن أراثة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد.

وحيث نكر الظلم كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده.

ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: " ولا يرضى لعباده الكفر " الزمر: 7 أي: لا يريد لهم أن يظلموا يعني أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين.

" ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ".

التنادي ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: " ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار " الأعراف: 44 " ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة " الأعراف: 50 ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور.

وقرئ بالتشديد: وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى: " يوم يفر المرء من أخيه " عبس: 34 وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فبيناهم يموج بعضهم في بعض إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب " تولون مدبرين " عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار.

وعن مجاهد: فارين عن النار غير معجزين.

" ولقد جاءهم يوسف من قبل بالبينات فما زلت في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ".

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب: أقام فيهم نبياً عشرين سنة.

وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمنه وقيل: هو فرعون آخر.

وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين " حتى إذا " قبض " قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً " حكماً من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أستسموه وليس ولهم: " لن يبعث الله من بعده " بتصديق لرسالة يوسف وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته.

وقرئ:" لن يبعث الله " على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي كأن بعضهم يقرر بعضاً نفي البعث.

ثم قال: " كذلك يضل الله " أي مثل هذا الخذلان المبين يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه " الذين يجادلون " بدل من " مَن هُوَ مُسرِف " فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد.

قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً فكأنه قال: كل مسرف.

فإن قلت: فما فاعل " كبر ".

قلت: ضمير من هو مسرف.

فإن قلت: أما قلت هو جمع ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون قلت: بلى هو جمع في المعنى.

وأما اللفظ فموحد فحمل البدل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه وليس ببدع أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى وله نظائر ويجوز أن يرفع الذين يجادلون

على الابتداء ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر تقديره: جدال الذين يجادلون كبر مقتاً ويحتمل أن يكون " الذين يجادلون " مبتدأ و " بغير سلطان أتاهم " خبراً وفاعل كبر قوله: " وَكَذَلِكَ " أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال و " يطبع الله " كلام مستأنف ومن قال: كبر مقتاً عند الله جدالهم فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه.

وفي " كبر مقتاً ": ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر.

وقرئ: سلطان بضم اللام.

وقرئ: قلب بالتنوين ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنبعهما كما تقول: رأت العين وسمعت الأذن.

ونحوه قوله عز وجل " فإنه آثم قلبه " البقرة: 283 وإن كان الآثم هو الجملة.

ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي: على كل ذي قلب متكبر تجعل الصفة لصاحب القلب

" وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل الله وما كيد فرعون إلا في تباب ".

قيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وآن بعد اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر و " أسباب السموات " طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحو فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير ولو قيل: لعلي أبلغ أسباب السموات لأجزأ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ثم أوضحه.

وقرئ: فأطلع بالنصب على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني.

ومثل ذلك التزيين وذلك الصد " زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل " والمزين: إما الشيطان بوسوسته كقوله تعالى: " وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل " النمل: 34 أو الله تعالى على وجه التسبيب لأنه مكن الشيطان وأمهله.

ومثله: " زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون " النمل: 4.

وقرئ: " وزَينَ له سوءَ عمله " على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل دل عليه قوله: " إلى إله موسى " وصد بفتح الصاد وضمها وكسرها على نقل حركة العين إلى الفاء كما قيل: قيل.

والتباب: الخسران والهلاك.

وصد: مصدر معطوف على سوء عمله وصدوا هو وقومه.

" وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهديكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ".

قال: " أهديكم سبيل الرشاد " فأجمل لهم ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاد إليها هو أصلالشر كله ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله لجلب الشقاوة في العاقبة.

وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن والمستقر.

وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط ما يزلف ثم وازن بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار وحذر وأنذر واجتهد في ذلك واحتشد لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين وهو قوله تعالى: " فوقاه اللّه سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب " وفي هذا أيضاً دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون والرشاد نقيض الغي وفيه تعريض" من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ".

" فلا يجزى إلا مثلها " لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة لأنها ظلم.

وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة لأنها فضل.

قرئ: يدخلون ويدخلون " بغير حساب " واقع في مقابلة إلا مثلها يعني: أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

" يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ".

فإن قلت: لم كرر نداء قومه ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة.

وفيه: أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يتهموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وينزلوا على تنصيحه لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: " يا أبت ".

وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو وأما الثالث: فداخل على كلام ليس بتلك المثابة.

يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له كما تقول: هداه إلى الطريق وهداه له " ما ليس لي به علم " أي: بربوبيته والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً.

" لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ".

" لا جرم " سياقه على مذهب البصريين: أن يجعل لا رداً لما دعاه إليه قومه.

وجرم: فعل بمعنى حق وأن مع ما في حيزه فاعله أي: حق ووجب بطلان دعوته.

أو بمعني: كسب من قوله تعالى: " ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتموا " المائدة: 2 أي: كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته.

ويجوز أن يقال: أن لا جرم نظير: لا بد فعل من الجرم وهو القطع كما أن بداً فعل من التبديد وهو التفريق فكما أن معنى: لا بد أنك تفعل كذا بمعنى: لا بعد لك من فعله فكذلك لا جرم أن لهم النار أي: لا قطع لذلك بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً.

وروي عن العرب: لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل: أخوان.

كرشد ورشد وعدم وعدم " ليس له دعوة " معناه: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط أي: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية ولو كان حيواناً ناطقاً لضج من دعائكم.

وقوله: " في الدنيا ولا في الآخرة " يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره وفي الآخرة: إذا أنشأه الله حيواناً تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته.

وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا لا في الآخرة.

أو دعوة مستجابة جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة.

أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمى الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان.

قال الله تعالى: " له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا ستجيبون لهم بشيء " الرعد: 14.

"المسرفين " عن قتادة: المشركين.

وعن مجاهد: السفاكين للدماء بغير حلها.

وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون.

وقرئ: فستذكرون.

أي: فسيذكر بعضكم بعضاً " وأفوض أمري إلى الله " لأنهم توعدوه.

" فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ".

" فوقاه الله سيئات ما مكروا " شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم.

وقيل: نجا مع موسى " وحاق بآل فرعون " ما هموا به من تعذيب مسلمين ورجع عليهم كيدهم " النار " بدل من سوء العذاب.

أو خبر مبتدأ محذوف أن قائلاً قال: ما سوء العذاب فقيل: هو النار.

أو مبتدأ خبره " يعرضون عليها " وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها وعرضهم عليها: إحراقهم بها.

يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به وقرئ: النار بالنصب وهي تعضد الوجه الأخير.

وتقديره: يدخلون النار يعرضون عليها ويجوز أن ينتصب على الاختصاص " غدواً وعشياً " في هذين الوقتين يعذبون بالنار وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم فأما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب أو ينفس عنهم.

ويجوز أن يكون " غدواً وعشياً ": عبارة عن الدوام هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: أدخلوا " يا " آل فرعون أشد " عذاب جهنم.

وقرئ: أدخلوا آل فرعون أي: يقال لخزنة جهنم: أدخلوهم.

فإن قلت: قوله: " وحاق بآل فرعون سوء العذاب " معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين كقول العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم: لم يكن مكرهم راجعاً عليهم لأنهم لا يعذبون بجهنم.

قلت: يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قوماً فيحرق بالنار ويسمى ذلك حيقاً لأنه هم بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء.

ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه ويجوز أن يهتم فرعون لما سمع إنذار المسلمين بالنار وقول المؤمن: " وأن المسرفين هم أصحاب النار " غافر: 43 فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار فحاق به مثل ما أضمره وهم بفعله.

ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.

" وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ".

واذكر وقت يتحاجون " تبعاً " تباعاً كخدم في جمع خادم.

أو ذوي تبع أي: أتباع أو وصفاً بالمصدر.

" قال الذين استكبروا إنا كنا فيها إن الله قد حكم بين العباد ".

وقرئ: كلا على التأكيد لاسم إن وهو معرفة والتنوين عوض من المضاف إليه يريد: إنا كلنا أو كلنا فيها.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون كلا حالاً قد عمل فيها فيها قلت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول قائماً في

الدار زيد " قد حكم بين العباد " قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

" وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلنا بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ".

" لخزنة جهنم " للقوام بتعذيب أهلها.

فإن قلت: هلا قيل: الذين في النار لخزنتها قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم: بئر جهنام بعيدة القعر وقولهم في النابغة: جهنام تسمية بها لزعمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه فهو بعيد الغور في علمه بالشعر كما قال أبو نواس في خلف الأحمر: قليذم من العياليم الخسف وفيها أعتى الكفار وأطغاهم فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم " أولم تك تأتيكم " إلزام للحجة وتوبيخ وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات " قالوا فادعوا " أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين وليس قولهم " فادعوا " لرجاء المنفعة ولكن للدلالة على الخيبة فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر.

" إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم سوء الدار ".

" في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد " أي: في الدنيا والآخرة يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله فالعاقبة لهم ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين.

والأشهاد: جمع شاهد كصاحب وأصحاب يريد: الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم " لتكونوا شهداء على الناس " البقرة: 143.

واليوم الثاني بدل من الأول يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: " ولا يؤذن لهم فيعتذرون " المرسلات: 36 " ولهم اللعنة " البعد من رحمة اللّه " ولهم سوء الدار " أي: سوء دار الآخرة وهو عذابها.

وقرئ: تقوم و لا تنفع بالتاء والياء.

" ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب ".

يريد بالهدى: جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع " وأورثنا " وتركنا على بني إسرائيل من بعده " الكتاب " أي: التوراة " هدى وذكرى " إرشاداً وتذكرة وانتصابهما على المفعول له أو على الحال.

وأولوا الألباب: المؤمنون به العاملون بما فيه.

" فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ".

يعني أن نصرة الرسل في ضمان الله وضمان الله لا يخلف واستشهد بموسى وما آتاه من

أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده وإبقاء آثار هداه في بني إسرائيل والله ناصرك كما نصرهم ومظهرك على الدين كله ومبلغ ملك أمتك مشارق الأرض ومغاربها فاصبر على ما يجزعك قومك من الغصص فإن العاقبة لك وما سبق به وعدي من نصرتك وإعلاء كلمتك حق وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار ودم على عبادة ربك والثناء عليه " بالعشي والإبكار " وقيل: هما صلاتا العصر والفجر.

" إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ".

" إن في صدورهم إلا كبر " إلا تكبر وتعظم وهو إرادة التقدم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة.

أو إراثة أن تكون لهم النبوة دونك حسداً وبغياً.

ويدل عليه قوله تعالى: " لو كان خيراً ما سبقونا إليه " الأحقاف: 11 أو إراثة دفع الآيات بالجدال " ما هُم ببالغيه " أي: ببالغي موجب الكبر ومقتضيه وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات.

وقيل: المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريدون الدجال ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى اللّه تمنيهم ذلك كبراً ونفى أن يبلغوا متمناهم " فاستعذ بالله " فالتجيء إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك " إنه هو السميع " لما تقول ويقولون " البصير " بما تعمل ويعملون فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

" لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ".

فإن قلت: كيف اتصل قوله: " لخلق السموات والأرض " بما قبله.

قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله " لا يعلمون " لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

" وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ".

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيء.

وقرئ: يتذكرون بالياء والتاء أعم.

" إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ".

" لا ريب فيها " لا بد من مجيئها ولا محالة وليس بمرتاب فيها لأنه لا بد من جزاء " لا يؤمنون" وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ".

" ادعوني " اعبدوني والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله تعالى: " إن الذين يستكبرون عن عبادتي " والاستجابة: الإثابة وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم.

وعن الحسن وقد سئل عنها: اعملوا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء.

وفي الحديث: " إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ".

وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدعاء هو العبادة " وقرأ هذه الآية.

ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ويريد بعبادتي: دعائي لأن الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها يصدقه قول ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء.

وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً مرسلاً: كان يقول لكل نبي أنت شاهدي على خلقي وقال لهذه الأمة: " لتكونوا شهداء على الناس " البقرة: 143 وكان يقول: ما عليك من حرج وقال لنا: " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج " المائدة: 6 وكان يقول: ادعني أستجب لك وقال لنا: " ادعوني استجب لكم " وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد " داخرين " صاغرين.

" الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ".

" مبصراً " من الإسناد المجازي لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار.

فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له.

والنهار بالحال.

وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعي حق المقابلة.

قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر لأنه لو قيل: لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ولو قيل: ساكناً والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه لم تتميز الحقيقة من المجاز.

فإن قلت: فهلا قيل: لمفضل أو لمتفضل قلت: لأن الغرض تنكير الفضل وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل وذلك إنما يستوي بالإضافة.

فإن قلت: فلو قيل: ولكن أكثرهم فلا يتكرر ذكر الناس قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله: " إن الإنسان

لكفور " الزخرف: 15 " إن الإنسان لربه لكنود " العاديات: 6 " إن " ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ".

" ذلكم " المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو " الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو " أخبار مترادفة أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلفية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء والوحدانية: لا ثاني له " فأنى تؤفكون " فكيف ومن أي: وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان.

ثم ذكر أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة: أفك كما أفكوا.

وقرئ: خالق كل شيء " نصباً على الاختصاص.

وتؤفكون: بالتاء والياء.

" الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ".

هذه أيضاً دلالة أخرى على تميزه بأفعال خاصة وهي أنه جعل الأرض مستقراً " والسماء بناء " أي: قبة.

ومنه: أبنية العرب لمضاربهم لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض " فأحسن صوركم " وقرئ: بكسر الصاد والمعنى واحد.

قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان.

وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم كقوله تعالى: " في أحسن تقويم " التين: 4 " فادعوه " فاعبدوه " مخلصين له الدين " أي: الطاعة من الشرك والرياء قائلين: " الحمد لله رب العالمين " وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين.

" قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين ".

فإن قلت: أما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه قلت: بلى ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى: " أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون " الصافات: 95 - 96 وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل كان ذكر البينات ذكراً لأدلة أدلة العقل والسمع جميعاً وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعاً لأن ذكر تناصر أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية.

" هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبتغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ".

" لتبلغوا أشدكم " متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا.

وكذلك لتكونوا.

وأما " ولتبتغوا أجلاً مسمى " فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت.

وقيل: يوم القيامة.

وقرئ: شيوخاً بكسر الشين.

وشيخاً على التوحيد كقوله: " طفلاً " الحج: 5 والمعنى: كل واحد منكم.

أو اقتصر على الواحدة لأن الغرض بيان الجنس " من قبل " من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا " ولعلكم تعقلون " ما في ذلك في العبر والحجج.

" هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ".

" فإذا قضى أمراً فإنما " يكونه من غير كلفة ولا معاناة.

جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من أفعاله الحالة على أن مقدوراً لا يمتنع عليه كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرعه.

" ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ادخلوا أبواب" بالكتاب " بالقرآن " وبما أرسلنا به رسلنا " من الكتب.

فإن قلت: وهل قوله: " فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم " إلى مثل قولك: سوف أصوم أمس قلت: المعنى على إذا: إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها: عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال.

وعن ابن عباس: والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على عطف الجملة الفعلية على الاسمية.

وعنه: والسلاسل يسحبون بجر السلاسل.

ووجهه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله: " إذ الأغلال في أعناقهم " لكان صحيحاً مستقيماً فلما كانتا عبارتين معتقبتين: حمل قوله: " والسلاسل " على العبارة الأخرى.

ونظيره: مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها كأنه قيل: بمصلحين.

وقرئ: وبالسلاسل يسحبون " في النار يسجرون " من سجر التنور إذا ملأه بالوقود.

ومنه: السجير كأنه سجر بالحب أي: ملئ.

ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم وهممسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم.

ومنه قوله تعالى: " نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة " الهمزة: 7 اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك " ضلوا عنا " أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم.

فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " الأنبياء: 98: أنهم مقرونون بآلهتهم فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم.

قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: إينما كنتم تشركون من دون اللّه فيغيثوكم ويشفعوا لكم وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم " بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً " أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء إما خبرته فلم تر عنده خيراً " كذلك يضل الله الكافرين " مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم.

حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا " ذلكم " الإضلال بسبب ما كنا لكم من الفرح والمرح " بغير الحق " وهو الشرك وعبادة الأوثان " ادخلوا أبواب جهنم " السبعة المقسومة لكم.

قال الله تعالى: " لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم " الحجر: 44 " خالدين " مقدرين الخلود " فبئس مثوى المتكبرين " عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم.

فإن قلت: أليس قياس النظم أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى قلت: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء.

" فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا ترجعون ".

" فإما نرينك " أصله: فإن نرك.

وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل ألا تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك ولكن: إما تكرمني أكرمك.

فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف " أو نتوفينك " على نرينك وتشركهما في جزاء واحد وهو قوله تعالى: " فإلينا ترجعون " فقولك: فإمانرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون: غير صحيح وإن جعلت " فإلينا ترجعون " مختصاً بالمعطوف الذي هو نتوفينك بقي المعطوف عليه بغير جزاء.

قلت: " فإلينا ترجعون " متعلق بنتوفينك وجزاء " نرينك " محذوف تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك.

أو أن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام ونحوه قوله تعالى: " فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون " الزخرف: 41 - 42.

" ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ".

" ومنهم من لم نقصص عليك " قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس.

وعن علي رضي الله عنه: إن الله تعالى بعث نبياً أسود فهو ممن لم يقصص عليه.

وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً يعني: إنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم " أن يأتي بآية إلا بإذن الله " فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها " فإذا جاء أمر الله " وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات.

وأمر اللّه: القيامة " المبطلون " هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً.

" الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ".

الأنعام: الإبل خاصة.

فإن قلت: لم قال: " لتركبوا منها " ولتبلغوا عليها ولم يقل لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع أو هلا قال: منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم قلت: في الركوب: الركوب في الحج والغزو وفي بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم.

وأما الأكل وإصابة المنافع: فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته ومعنى قوله: " وعليها وعلى الفلك تحملون " وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر

فإن قلت: هلا قيل: وفي الفلك كما قال: " قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين " هود: 40 قلت: معنى الإيعاء ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها فلما صح المعنيان صحت العبارتان.

وأيضاً فليطابق قوله: وعليها ويزاوجه " فأي آيات الله " جاءت على اللغة المستفيضة وقولك: فأية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في

" أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ".

" وآثاراً " قصورهم ومصانعهم.

وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم " فما أغنى عنهم " ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب والثانية: موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم " فرحوا بما عندهم من العلم " فيه وجوه: منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: " بل أدارك علمهم في الآخرة " النمل: 66: وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب " و ما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى " فصلت: 50 " وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً " الكهف: 36 وكانوا يفرحون بذلك ويمنعون به البينات وعلم

الأنبياء كما قال عز وجل: " كل حزب بما لديهم فرحون " الروم: 32 ومنها: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان وكانوا إذ سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم.

وعن سقراط: أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا.

ومنها: أن يوضع قوله " فرحوا بما عندهم من العلم "

غافر: 83 ولا علم عندهم البتة موضع قوله: لم يفرحوا بما جاءهم من العلم مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء.

ومنها أن يراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال: استهزؤوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحي فرحين مرحين.

ويدل عليه قوله تعالى: " وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون " ومنها: أن يجعل الفرح للرسل.

ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادي واستهزائهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم: فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه.

وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: " يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون " الروم: 7 " ذلك مبلغهم من العلم " النجم: 0 فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به.

"فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ".

البأس: شقة العذاب.

ومنه قوله تعالى: " بعذاب بئيس " الأعراف: 165.

فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: " فلم يك ينفعهم إيمانهم " وبينه لو قيل: فلم ينفعهم إيمانهم قلت: هو من كان في نحو قوله: " ما كان لله أن يتخذ من ولد " مريم: 35 والمعنى: فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم.

فإن قلت: كيف ترادفت هذه لفاءات قلت: أما قوله تعالى: " فما أغنى عنهم " غافر: 2 فهو نتيجة قوله: " كونوا أكثر منهم " غافر: 82 وأما قوله: " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات " غافر: 83 فجار جرى البيان والتفسير لقوله تعالى: " فما أغنى عنهم " غافر: 82 كقولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء.

وقوله: " فلما رأوا بأسنا " تابع لقوله: " فلما جاءتهم " غافر: 83 كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا وكذلك: " فلم يك ينفعهم إيمانهم " تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله " سنت الله " بمنزلة " وعد الله " النساء: 95 وما أشبهه من المصادر المؤكدة.

و " هنالك " مكان مستعار للزمان أي: خسروا وقت رؤية البأس وكذلك قوله: " وخسر هنالك المبطلون " غافر: 78 بعد قوله: " فإذا جاء أمر الله قضي بالحق " غافر: 8 أي: وخسروا وقت مجيء أمر الله أو وقت القضاء بالحق.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر

سورة فصلت

مكية وآياتها 54 وقيل: 53 آية بسم اله الرحمن الرحيم " حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يؤمنون ".

إن جعلت " حم " اسماً للسورة كانت في موضع المبتدأ.

و " تَنزِيل " خبره.

وإن جعلتها تعديداً للحروف كان " تنزيل " خبراً لمبتدأ محذوف و " كتاب " بدل من تنزيل.

أو خبر بعد خبر.

أو خبر مبتدأ محذوف وجوز الزجاج أن يكون " تنزيل " مبتدأ و " كتاب " خبره.

ووجهه أن تنزيلاً تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ " فصلت آياته " ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة: من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك وقرئ: فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها من قولك: فصل من البلد " قرآناً عربياً " نصب على الاختصاص والمدح أي: أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت.

وقيل: هو نصب على الحال أي: فصلت آياته في حال كونه قرآناً عربياً " لقوم يعلمون " أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين لا يلتبس عليهم شيء منه.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: " لقوم يعلمون " قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت أي: تنزيل من الله لأجلهم أو فصلت آياته لهم.

والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات.

وقرئ: بشير ونذير صفة لكتاب.

أو خبر مبتدأ محذوف " فهم لا يسمعون " لا يقبلون ولا يطيعون من قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

" وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون" والأكنة: جمع كنان.

وهو الغطاء والوقر بالفتح الثقل وقرئ: بالكسر.

وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها كقوله تعالى: " وقالوا قلوبنا غلف " البقرة: 88 ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي " فاعمل " على دينك " إنا عاملون " على ديننا أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك.

وقرئ: إنا عاملون فإن قلت: هل لزيادة من في قوله: " وَمِن بيننا وبينك حجاب " فائدة قلت: نعم لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب: لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين وأما بزيادة من فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة كما قيل: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد قلت: هو على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة.

وعلى قلوبنا أكنة.

والدليل على قوله تعالى: " إنا جعلنا على قلوبهم أكنة " ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة: لم يختلف المعنى وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني.

" قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ".

فإن قلت: من أين كان قوله: " إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى " جواباً لقولهم " قلوبنا في أكنة ".

قلت: من حيث إنهَ قال لهم: إني لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحي إلي دونكم فصحت بالوحي إلي وأنا بشر نبوتي لماذا صحت نبوتي: وجب عليكم اتباعي وفيما يوحى إلي: أن إلهكم إله واحد " فاستقيموا إليه " فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً ولا ملتفتين إلى ما يسول لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء وتوبوا إليه مما

سبق لكم من الشرك " واستغفروه " وقرئ: قال إنما أنا بشر.

فإن قلت: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه فإذا بذله في سبيل لله ففلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته.

ألا ترى إلى قوله عز وجل: " ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبتاً من أنفسهم " البقرة: 265 أي: يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا.

وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة.

وقيل: كانت قريش يطعمون الحاج ويحرمون من آمن منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء وهو الإيمان.

" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون" الممنون: المقطوع وقيل: لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل فأما الأجر فحق أداؤه.

وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى: إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

" قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ".

" أئنكم " بهمزتين: الثانية بين بين.

و " ءائنكم " بألف وبين همزتين " ذلك " الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين.

هو " رب العالمين وجعل فيها رواسي " جبالاً ثوابت.

فإن قلت: ما معنى قوله: " مِن فَوقِهَا " وهل اقتصر على قوله: " وجعل فيها رواسي " كقوله تعالى: " وجعلنا فيها رواسي شامخات " المرسلات: 27 " وجعلنا في الأرض رواسي " الأنبياء: 31 " وجعل لها رواسي " النمل: 61.

قلت: لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها أو مركوزة فيها كالمسامير: لمنعت من الميدان أيضاً وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها حاضرة محصليها وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه وهو ممسكها عز وعلا بقدرته " وبارك فيها " وأكثر خيرها وأنماه " وقدر فيها أقواتها " أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم وفي قراءة ابن مسعود وقسم فيها أقواتها" في أيام أربعة سواء " فذلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان.

قيل: خلق اللّه الأرض في يوم الأحد ويوم الإثنين وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء.

وقال الزجاج: في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام يريد بالتتمة اليومين.

وقرئ: سواء بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء أي: استواء: والرفع على: هي سواء.

فإن قلت: بم تعلق قوله " للسائلين " قلت: بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها.

أو يقدر: أي: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين.

وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج.

فإن قلت: هلا قيل في يومين.

وأي فائدة في هذه الفذلكة.

قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين علم أن ما فيها خلق في يومين فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين وأن تقول في أربعة أيام سواء فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان.

ولو قال: في يومين وقد يطلق اليومان على أكثرهما لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما " ثم استوى إلى السماء " من قولك: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على شيء وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ونحوه قولهم: استقام إليه وأمتد إليه ومنه قوله تعالى: " فاستقيموا إليه "

فصلت: 6 والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك.

قيل: كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء فأخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء وعلا عليه فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين ثم خلق السماء من الدخان المرتفع.

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل.

ويجوز أن يكون تخييلاً ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكره.

والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب.

ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني.

قال الوتد: اسأل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي.

فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين.

قلت: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال تعالى: " والأرض بعد ذلك دحاها " النازعات: 30 فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف: ائتي يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك وائتي يا سماء مقببة سقفاً لهم.

ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع كما تقول: أتى عمله مرضياً وجاء مقبولاً.

ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير: من كون الأرض قراراً للسماء وكون السماء سقفاً للأرض.

وتنصره قراءة من قرأ: آتيا وآتينا: من المؤاتاة وهي الموافقة: أي: لتؤات كل واحدة أختها ولتوافقها قالتا: وافقنا وساعدنا.

ويحتمل وافقاً أمري ومشيئتي ولا تمتنعا.

فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً.

قلت: هو مثل للزوم وتأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً.

وانتصابهما على الحال بمعنى: طائعتين أو مكرهتين.

فإن قلت: هلا قيل: طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى.

لأنها سموات وأرضون.

قلت: لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل: طائعين في موضع: طائعات

نحو قوله: ساجدين.

"فقضاهن " يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: " طائعين " ونحوه: " أعجاز نخل خاوية " الحاقة: 7 ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثاني: على التمييز قيل: خلق الله السموات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.

وفي هذا دليل على ما ذكرت لك من أنه لو قيل: في يومين في موضع أربعة أيام سواء

لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان.

فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها في يومين كاملين.

أو قيل: بعد ذكر اليومين: تلك أربعة سواء قلت: الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك الركب ليتميز الفاضل من الناقص والمتقدم من الناقص وترتفع الدرجات ويتضاعف الثواب " أمرها " ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك.

أو شأنها وما يصلحها " وحفظاً " وحفظناها حفظاً يعني من المسترقة بالثواقب.

ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى كأنه قال: وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً.

"فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل الملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ".

" فإن أعرضوا " بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته فحذرهم أن تصيبهم صاعقة أي: عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة.

وقرئ: صعقة مثل صعقة عاد وثمود: وهي المرة من الصعق أو الصعق.

يقال: صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً وهو من باب: فعلته ففعل " من بين أيديهم ومن خلفهم " أي: أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان: " لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم " الأعراف: 17 يعني لآتينهم من كل جهة ولأعملن فيهم كل حيلة وتقول: استدرت بفلان من كل جانب فلم يكن لي فيه حيلة.

وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم.

وقيل: معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم.

فإن قلت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاؤهم وكيف يخاطبونهم بقولهم: إنا بما أرسلتم به كافرون قلت: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أي: من قبلهم وممن يجيء من خلفهم أي: من بعدهم فكان الرسل جميعاً قد جاؤهم.

وقولهم: إنا بما أرسلتم به كافرون خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

أن في " ألا تعبدوا " بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله: بأنه لا تعبدوا أي: بأن الشأن والحديث قولنا لكم: لا تعبدوا ومفعول شاء محفوف أي: " لو شاء ربنا " إرسال الرسل " لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون " معناه فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به وقولهم: " لستم به " ليس بإقرار بالإرسال وإنما هو على كلام الرسل وفيه تهكم كما قال فرعون: " إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون " الشعراء: 27.

روى: أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي فأتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم.

أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة علمنا لك اللواء فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به ورسول الله

صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم " حم " إلى قوله: " صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " فصلت: 13 فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ثم قال: واللّه لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود: أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب.

" فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ".

" فاستكبروا في الأرض " أي: تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوة وعظم الأجرام.

أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية " من أشد منا قوة " كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده.

فإن قلت: القوة هي الشدة والصلابة في البنية وهي نقيضة الضعف.

وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية وهي نقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوة إلا على معنى القدرة فكيف صح قوله: " هو أشد منهم قوة " وإنما يصح إذا أريد بالقوة في الموضعين شيء واحد قلت: القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوة والشدة والصلابة في البنية وحقيقتها: زيادة القدرة فكما صح أن يقال: الله أقدر منهم جاز أن يقال: أقوى منهم على معنى: أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم " يجحدون " كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة وهو معطوف على فاستكبروا أي: كانوا كفرة فسقة.

الصرصر: العاصفة التي تصرصر أي: تصوت في هبوبها.

وقيل: الباردة التي تحرق بشدة بردها تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر أي: يجمع ويقبض نحسات قرئ بكسر الحاء وسكونها.

ونحس نحساً: نقيض سعد سعداً وهو نحس.

وأما نحس فإما مخفف نحس أو صفة على فعل كالضخم وشبهه.

أو وصف بمصدر.

وقرئ: لتذيقهم على أن الإذاقة للريح أو للأيام النحسات.

وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب كأنه قال: عذاب خزي كما تقول: فعل السوء تريد: الفعل السيء والدليل عليه قوله تعالى: " ولعذاب الآخرة أخزى " وهو من الإسناد المجازي ووصف العذاب بالخزي: أبلغ من وصفهم به.

ألا ترى إلى البون بين قوليك: هو شاعر وله شعر شاعر.

" وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ".

وقرئ: ثمود بالرفع والنصب منوناً وغير منون والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء.

وقرئ بضم الثاء " فهديناهم " فدللناهم على طريق الضلالة والرشد كقوله تعالى: " وهديناه النجدين " البلد: 10 " فاستحبوا العمى على الهدى " فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

فإن قلت: أليس معنى هديته: حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى بمعنى: تحصيل البغية وحصولها كما تقول: ردعته فارتاع فكيف ساغ استعماله في

الدلالة المجردة قلت: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح عللهم ولم يُبق لهم عفراً ولا علة فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها " صاعقة العذاب " داهية العذاب وقارعة العذاب.

و " الهون " الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدله منه ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها صلى الله عليه وسلم وكفى به شاهداً إلا هذه الآية لكفى بها حجة.

" ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ".

قرئ: يحشر على البناء للمفعول.

ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها ويحشر: على البناء للفاعل أي: يحشر الله عز وجل " أعداء الله " الكفار من الأولين والآخرين " يوزعون " أي: يحبس أولهم على آخرهم أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم وهي عبارة عن كثرة أهل النار نسأل اللّه أن يجيرنا منها بسعة رحمته فإن قلت: ما في قوله: " حتى إذا جاءوها " ما هي قلت: مزيدة للتأكيد ومعنى التأكيد فيها: أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ولا وجه لأن يخلو منها.

ومثله قوله تعالى: " أثم إذا ما وقع آمنتم به " يونس: 51 أي: لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرمات.

فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق.

قلت: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاماً.

وقيل: المراد بالجلود: الجوارح.

وقيل: هي كناية عن الفروج أراد بكل شيء: كل شيء من الحيوان كما أراد به في قوله تعالى: " والله على كل شيء قدير " البقرة: 284 كل شيء من المقدورات والمعنى: أن

نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه وإنما قالوا لهم: " لِمَ شَهِدتم علينا " لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم.

" وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ".

والمعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً ولكنكم إنما استترتم لظنكم " أن الله لا يعلم كثيراً مما " كنتم " تعملون " وهو الخفيات من أعمالكم وذلك الظن هو الذي أهلككم.

وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزل عن فإنه عليه من اللّه عيناً كالئة ورقيباً مهيمناً حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملأ ولا يتبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين.

وقرئ: ولكن زعمتم " ذلكم " رفع بالابتداء و " وظنكم " و " أرداكم " خبران ويجوز أن يكون " ظنكم " بدلاً من " وذلكم " و " أرداكم " الخبر.

" فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ".

" فإن يصبروا " لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء في النار " وإن يستعتبوا " وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه: يعتبوا: لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها ونحوه قوله عز وعلا: " أجزعنا أم صبرنا لنا من محيص " إبراهيم: 21 وقرئ: " وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين " أي: سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي: لا سبيل لهم إلى ذلك " وقضينا لهم " قدرنا لهم يعني لمشركي مكة: يقال: هذان ثوبان قيضان: إذا كانا متكافئين.

المقايضة: المعاوضة " قرناء " أخداناً من الشياطين جمع قرين كقوله تعالى: " ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين " الزخرف: 36 فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم.

قلت: معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى شياطين.

والدليل عليه ومن يعش نقيض ما بين أيديهم وما خلفهم ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها.

أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات وما خلفهم: من أمر العاقبة وأن لا بعث ولا حساب " وحق عليهم القول " يعني كلمة العذاب " في أمم " في جملة أمم.

ومثل في هذه ما في قوله: إن تك عن أحسن الصنيعة مأ فوكاً ففي آخرين قد أفكوا يريد: فأنت في جملة آخرين وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد.

فإن قلت: " في أمم " ما محله قلت: محله النصب على الحال من الضمير في عليهم أي حقّ عليهم القول كائنين في جملة أمم " إنهم كانوا خاسرين " تعليل لاستحقاقهم العذاب.

والضمير لهم وللأمم.

" وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوء الذي كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ".

قرئ: والغوا فيه بفتح الغين وضمها.

ويقال: لغى يلغى ولغا يلغو: واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته.

قال: من اللغا ورفث التكلم.

والمعنى: تسمعوا له إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل وما أشبه ذلك حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته.

كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً " فلنذيقن الذين كفروا " يجوز أن يريد بالذين كفروا هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم.

وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته.

وعن ابن عباس " عذاباً شديداً " يوم بدر.

و " أسوء الذي كانوا يعملون " في الآخرة " ذَلِكَ " إشارة إلى الأسوأ ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون حتى تستقيم هذه الإشارة.

و " النار " عطف بيان للجزاء.

أو خبر مبتدأ محفوف.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: " لهم فيها دار الخلد " قلت: معناه أن النار في نفسها دار الخلد كقوله تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " الأحزاب: 21 والمعنى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وتقول لك في هذه الدار دار السرور.

وأنت تعنى الدار بعينها أجزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون أي: جزاء بما كانوا يلغون فيها فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

" وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ".

" الذين أضلانا " أي: الشياطين اللذين أضلانا " من الجن والإنس " لأن الشيطان على ضربين: جني وإنسي.

قال الله تعالى: " وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن " الأنعام: 112 وقال تعالى: " الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس " الناس: 5 - 6 وقيل: هما إبليس وقابيل لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق وقرئ: أرنا بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا في فخذ: فخذ.

وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا.

وحكوا عن الخليل: أنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر فالمعنى بصرنيه.

وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه: أعطني ثوبك ونظيره: اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء.

وأصله: الإحضار.

"إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ".

"ثم " لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة.

وفضلها عليه: لأن الاستقامة لها الشأن كله.

ونحوه قوله تعالى: " إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا " الحجرات: 15 والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً.

وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها قالوا: لم يذنبوا.

قال حملتم الأمر على أشقه.

قالوا: فما تقول قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان.

وعن عمر رضي اللّه عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب وعن عثمان رضي الله عنه: أخلصوا العمل.

وعن علي رضي اللّه عنه: أدوا فرائض.

وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به.

قال: " قل ربي الله ثم استقم " قال فقلت: ما أخوف ما تخاف علي فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال: هذا.

" تتنزل عليهم الملائكة " عند الموت بالبشرى.

وقيل: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت وفي القبر وإذا قاموا من قبورهم " ألا تخافوا " أن بمعنى أي.

أو مخففة الثقيلة.

وأصله: بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن.

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: لا تخافوا أي: يقولون: لا تخافوا والخوف: غم يلحق لتوقع المكروه والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار.

والمعنى: أن اللّه كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبداً.

وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه ولا تحزنوا على ما خلفتم.

كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين " تدعونا " تتمنون: والنزل: رزق النزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال.

" ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ".

" ممن دعا إلى الله " عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام " وعمل صالحاً " فيما بينه وبين ربه وجعل الإسلام نحلة له.

وصف: أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن عائشة رضي اللّه عنها: ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في المؤذنين وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام عاملاً بالخير داعياً إليه وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة إلى دين الله وقوله: " وقال إنني من المسلمين " ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده كما تقول: هذا قول أبي حنيفة تريد مذهبه.

{ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم}.

يعني: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك.

ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة فالحسنة: أن تعفو عنه والتي هي أحسن: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك.

ثم قال: وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير.

فإن قلت: فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن.

قلت: هو على تقدير قائل قال: فكيف أصنع.

فقيل: ادفع بالتي هي أحسن.

وقيل: لا مزيدة.

والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة.

فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة قلت: أجل ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: " بالتي هي أحسن " الصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وفسر الحظ بالثواب.

وعن الحسن رحمه الله: والله ما عظم حظ دون الجنة وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار ولياً مصافياً.

" وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ".

النزغ والنسغ بمعنى: وهو شبه النخس.

والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي.

وجعل النزغ نازغاً كما قيل: جد جده.

أو أريد: وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر.

أو لتسويله.

والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن " فاستعذ بالله " من شره وامض على شأنك ولا تطعه.

" ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا

الضمير في " خلقهن " لليل والنهار والشمس والقمر لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث.

يقال: الأقلام بريتها وبريتهن: أو لما قال " ومن آياته " كن في معنى الآيات فقيل: خلقهن.

فإن قلت: أين موضع السجدة.

قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى: " تعبدون " وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها.

وعند أبي حنيفة رحمه الله: يسأمون لأنها تمام المعنى وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب: لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود للّه فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين " فإن استكبروا " ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد وقوله: " عند ربك " عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة وهم لا يسأمون.

وقرئ: لا يسأمون بكسر الياء.

{ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير}.

الخشوع: التذلل والتصاغر فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: " وترى الأرض هامدة " الحج: 5 وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ: إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزل المختال في زيه وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة.

وقرئ وربأت أي ارتفعت لأن النبت إذا هم أن يظهر: ارتفعت له الأرض.

" إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ".

يقال: ألحد الحافر ولحد إما مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة وقرئ يلحدون ويلحدون على اللغتين.

وقوله: " لا يخفون علينا " وعيد لهم على التحريف.

" إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ".

فإن قلت: بم اتصل قوله: " إن الذين كفروا بالذكر ".

قلت: هو بدل من قوله " إن الذين يلحدون في آياتنا " فصلت: 40 والذكر: القرآن لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا تأويله " وإنه لكتاب عزيز " أي منيع محمى بحماية الله تعالى " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " مثل كأن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به.

فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون قلت: بلى ولكن اللّه قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به: بأن قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقاً ولا قول مبطل إلا مضمحلاً.

ونحوه قوله تعالى: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " الحجر: 9.

" ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ".

" ما يقال لك " أي: ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قوم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة " إن ربك لذو مغفرة " ورحمة لأنبيائه " وذو عقاب " لأعدائهم.

ويجوز أن يكون: ما يقول لك اللّه إلا مثل ما قال للرسل من قبلك والمقول: هو قوله تعالى: " إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم " فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته والغرض: تخويف العصاة.

" ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ".

كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا: " لولا فصلت آياته " أي بينت ولخصت بلسان نفقهه " أعجمي وعربي " الهمزة همزة الإنكار يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي وقرئ أعجمي والأعجمي: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان والعجمي: منسوب إلى أمة العجم.

وفي قراءة الحسن أعجمي بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل أو المرسل إليه عربي.

والمعنى: أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً لأن القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم.

ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلاً فجعل بعضها بياناً للعجم وبعضها بياناً للعرب.

فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرد لما سيق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر.

ألا تراك تقول وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة: اللباس طويل واللابس قصير.

ولو قلت: واللابسة قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأن الكلام لم يقع بني ذكورة اللابس وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما " هُوَ " أي القرآن " هدى وشفاء " إرشاد إلى الحق وشفاء " لما في الصدور " من الظن والشك.

فإن قلت: " والذين لا يؤمنون في آذانهم وقراً " منقطع عن ذكر القرآن فما وجه اتصاله به.

قلت: لا يخلو إما أن يكون الذين لا يؤمنون في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى: للذين آمنوا على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدى وشفاء وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر إلا أن فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه.

وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر على حذف المبتدأ.

أو في آذانهم منه وقر وهو عليهم عمى.

وقرئ وهو عليهم عم وعمى كقوله تعالى: " فعميت عليكم " هود: 28 " ينادون من مكان بعيد " يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع عن مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

" ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه لولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم في شك منه مريب ".

" فاختلف فيه " فقال بعضهم: هو حق وقال بعضهم: هو باطل.

والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا.

قال اللّه تعالى: " بل الساعة موعدهم " القمر: 46 ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

" من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ".

" إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ".

" إليه يرد علم الساعة " أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم.

أو لا يعلمها إلا الله وقرئ من ثمرات من أكمامهن.

والكم بكسر الكاف وعاء الثمرة كجف الطلعة أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به

يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله: من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك " أين شركائي " أضافهم إليه تعالى على زعمهم وبيانه في قوله تعالى: " أين شركائي الذين كنتم تزعمون " القصص: 62 وفيه تهكم وتقريع " آذناك " أعلمناك " مَا منا من شهيد " أي ما منا أحد اليوم وقد أبصرنا وسمعنا يشهد بأنهم شركاؤك أي: ما منا إلا من هو موحد لك: أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل: هو كلام الشركاء أي: ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة.

ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير: أنهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم " وظنوا " وأيقنوا ما لهم محيص والمحيص: المهرب.

فإن قلت: " آذناك " إخبار بإيذان كان منهم فإذ قد آذنوا فلم سئلوا.

قلت: يجوز أن يعاد عليهم أين شركائي إعادة للتوبيخ وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية: دليل على إعادة المحكى.

ويجوز أن يكون المعنى: أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه.

ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخباراً بإيذان قد كان كما تقول: أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

{لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ}.

" من دعاء الخير " من طلب السعة في المال والنعمة.

وقرأ ابن مسعود: من دعاء بالخير " وإن مسه الشر " أي الضيقة والفقر " فيؤس قنوط " بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فعول ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه

أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي: يقطع الرجاء من فضل اللّه وروحه وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى: " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " يوسف: 87 وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال: " هذا لي " أي هذا حق وصل إلي لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال بر.

أو هذا لي لا يزول عني ونحوه قوله تعالى: " فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه " الأعراف: 131 ونحوه قوله تعالى: " وما أظن

الساعة قائمة " " إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين " الجاثية: 32 يريد: وما أظنها تكون فإن كانت على طريق التوهم " إن لي " عند اللّه الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا.

وعن بعضهم: للكافر أمنيتان يقول في الدنيا: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى.

ويقول في الآخرة: يا ليتني كنت تراباً.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة.

فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب.

ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند اللّه " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا " الفرقان: 23 وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الغنى والصحة وأنهم محقوقون بذلك.

" وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ".

هذا أيضاً ضرب آخر من طغيان الإنسان إما أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة وكأنه لم يلق بؤساً قط فنسى المنعم وأعرض عن شكرة " ونأى بجانبه " أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم.

وإن مسه الضر والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع.

وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ بشدة العذاب.

وقرئ ونأى بجانبه بإمالة الألف وكسر النون للإتباع.

وناء على القلب كما قالوا: راء في رأى.

فإن قلت: حقق لي معنى قوله تعالى: " ونأى بجانبه " قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى " على ما فرطت في جنب اللّه " الزمر: 56 أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشي نفسه ومنه قوله: ذرعت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجال اللعين يريد: ونفيت عنه الذئب.

ومنه: " ولمن خاف مقام ربه " الرحمن: 46 ومنه قول الكتاب: حضرة فلان ومجلسه وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قال: ونأى بنفسه كقولهم

في المتكبر ذهب بنفسه وذهبت به الخيلاء كل مذهب وعصفت به الخيلاء وأن يراد بجانبه: عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه.

"قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ".

"أرأيتم " أخبروني " إن كان " القرآن " من عند الله " يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر متحمل يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به.

فأخبروني من أضل منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم.

وقوله تعالى: " ممن هو في شقاق بعيد " موضوع موضع منكم بياناً لحالهم وصفتهم.

" سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ".

" سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم " يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفى باحة العرب خصوصاً: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم وتسليط ضعافهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة من المعهود خارقة للعادات ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاصيها والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم: على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علماً من أعلام الله وآية من آياته يقوى معها اليقين ويزداد بها الإيمان ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور وأن للباطل ريحاً تخفق ثم تسكن ودولة تظهر ثم تضمحل " بربك " في موضع الرفع

على أنه فاعل كفى.

و " إنه على كل شيء شهيد " بدل منه تقديره أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد.

ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي: مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

وقرئ في مرية بالضم وهي الشك " محيط " عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها ظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات ".

سورة الشورى

مكية وآياتها 53 بسم الله الرحمن الرحيم

{حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم}.

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما " حم سق " " كذلك يوحى إليك " أي مثل ذلك الوحي.

أو مثل ذلك الكتاب يوحي إليك وإلى الرسل " من قبلك الله " يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى اللّه إليك مثله في غيرها من السور وأوحاه من قبلك إلى رسله على معنى: أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأولين والآخرين ولم يقل: أوحي إليك ولكن على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته.

وقرئ " يوحى إليك " على البناء للمفعول.

فإن قلت: فما رافع اسم اللّه على هذه القراءة.

قلت: ما دل عليه يوحي كأن قائلاً قال: من الموحى.

فقيل: الله كقراءة السلمى: " وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم " الأنعام: 37 على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم على معنى: زينه لهم شركاؤهم.

فإن قلت: فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون.

قلت: يرتفع بالابتداء.

والعزيز وما بعده: أخبار أو العزيز الحكيم: صفتان والظرف خبر.

قرئ تكاد بالتاء والياء.

وينفطرن ويتفطرن.

وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة تتفطرن بتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تشممن.

ومعناه: يكدن ينفطرن من علو شأن اللّه وعظمته يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم.

وقيل: من دعائهم له ولداً كموله تعالى: " تكاد السموات يتفطرن منه " مريم: 95.

فإن قلت: لم قال: " من فوقهن " قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة: فوق السموات وهي: العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى فلذلك قال: " يتفطرن من فوقه " أي يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية.

أو: لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة

الفوق كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عز وعلا " يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم " الحج: 9 - 20 فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة.

وقيل: من فوقهن: من فوق الأرضين.

فإن قلت: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله.

وقد قال الله تعالى: " أولئك عليهم لعنة الله والملائكة " البقرة: 161 فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم قلت: قوله: " لمن في الأرض " يدل على جنس أهل الأرض وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم فيجوز أن يراد به هذا وهذا.

وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون فما أراد الله إلا إياهم.

ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن: " ويستغفرون للذين آمنوا " غافر: وحكايته عنهم " فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك " غافر: 7 كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعاً في استغفارهم فكيف للكفرة.

ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار: طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: " إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا " فاطر: 41 إلى أن قال: " إنه كان حليماً غفورا " الإسراء: 44 وقوله تعالى: " إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " الرعد: 6 والمراد: الحلم عنهم وأن لا يعالجهم بالانتقام فيكون عاماً.

فإن قلت: قد فسرت قوله تعالى: " تكاد السموات يتفطرن " بتفسيرين.

فما وجه طباق ما بعده لهما قلت: أما على أحدهما فكأنه قيل: تكاد السموات ينفطرن هيبة من جلاله واحتشاماً من كبريائه والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفاً بعد صفوف يداومون خضوعاً لعظمته على عبادته وتسبيحه وتحميده ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطواته.

وأما على الثاني فكأنه قيل: يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء والملائكة يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون مختارين غير ملجئين ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة ومن أهلها.

أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم لما عرفوا في ذلك من المصالح وحرصاً على نجاة الخلق وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

" والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ".

" والذين اتخذوا من دونه أولياء " جعلوا له شركاء وأنداداً " الله حفيظ عليهم " رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا رقيب

عليهم إلا هو وحده " وما أنت " يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان.

إنما أنت منذر فحسب.

" وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ".

ومثل ذلك " أوحينا إليك " وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أن الله تعالى هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأن هذا المعنى كرره اللّه في كتابه في مواضع جمة والكاف مفعول به لأوحينا.

" قرآناً عربياً " حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين لا لبس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حد الإنذار.

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا أي: ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسانك " لتنذر " يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا.

وقد عدى الأول أعني: لتنذر أم القرى إلى المفعول الأول والثاني وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني " أم القرى " أهل أم القرى كقوله تعالى: " واسئل القرية " يوسف: 82.

" ومن حولها " من العرب.

وقرئ لينذر بالياء والفعل للقرآن " يوم الجمع " يوم القيامة لأن الخلائق تجمع فيه.

قال اللّه تعالى: " يوم يجمعكم ليوم الجمع " التغابن: 9 وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد.

وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله.

و " لا ريب فيه " اعتراض لا محل له.

قرئ فريق وفريق بالرفع والنصب فالرفع على: منهم فريق ومنهم فريق.

والضمير للمجموعين لأن المعنى: يوم جمع الخلائق.

والنصب على الحال منهم أي: متفرقين كقوله تعالى: " ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون " الروم: 14.

فإن قلت: كيف يكونون مجموعين متفرقين في حالة واحدة قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في لداري البؤس والنعيم كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرقين في مسجدين.

وإن أريد بالجمع: جمعهم في الموقف فالتفرق على معنى مشارفتهم للتفرق.

" ولو شاء الله لجعلناهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ".

" لجعلناهم أمة واحدة " أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله تعالى: " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها " السجدة: 13 وقوله تعالى: " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً " يونس: 99 والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان.

قوله: " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " يونس: 99 وقوله تعالى: " فأنت تكره " يونس: 99 بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله.

دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره.

والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمه فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء.

ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

" أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحي الموتى وهو على كل شيء قدير ".

معنى الهمزة في " أم " الإنكار أفَاَلمحهُ هُو اَنوَلىُ هو الفي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد فالفاء في قوله: " فالله هو الولي " جواب شرط مقدر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أراعوا ولياً بحق فاللّه هو الولي بالحق لا ولي سواه " وهو يحي " أي: ومن شأن هذا الولي أنه يحيى " الموتى وهو على كل شيء قدير " فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

" وما اختلفتم فيه من شيء " حكاية قول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم للمؤمنين.

أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى اللّه تعالى وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين " ذَلِكمٌ " الحاكم بينكم هو " ربي عليه توكلت " في رد كيد أعداء الدين وإليه " أرجع في كفاية شرهم.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول " النساء: 59 وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم كمعرفة الروح.

قال الله تعالى: " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي " الإسراء: 85: فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة.

قلت: لا لأن الاجتهاد يجوز بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

" فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ".

" فاطر السموات " قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم.

أو خبر مبتدأ محذوف والجر على: فحكمه إلى الله فاطر السموات و " ذلكم " إلى " أنيب " اعتراض بين الصفة والموصوف " جعل لكم " خلق لكم " من أنفسكم أزواجاً " من جنسكم من الناس " أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً " أي: وخلق من الأنعام أزواجاً.

ومعناه: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً " يذرؤكم " يكثركم يقال: ذرأ الله الخلق: بثهم وكثرهم.

والذر والذرو والذرء: أخوات " فيه " في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل.

والضمير في " يذرؤكم " يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل وهي عن الأحكام ذات العلتين فإن قلت: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير وهلا قيل: يذرؤكم به قلت: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ألا ترك تقول: للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى: " ولكم في القصاص حياة " البقرة: 179 قالوا: مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه.

ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر.

ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه يريدون: إيفاعه وبلوغه.

وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته والقصد إلى طهارته وطيبه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء وبين قوله: " ليس كمثله شيء " إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته ونحوه قوله عز وجل: " بل يداه مبسوطتان " المائدة: 64 فإن معناه: بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط لها: لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له فكذلك ستعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررها من قال: وصاليات ككما يؤثفين ومن قال: فأصبحت مثل كعصف مأكول " له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم".

وقرئ ويقدر " إنه بكل شيء عليم " فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه وإلا أفقره.

" شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من

" شرع لكم من الدين " دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: " أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة.

قال الله تعالى: " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً " المائدة: 48 ومحل " أن أقيموا " إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه و رفع على الاستئناف كأنه قيل: وما ذلك المشروع.

فقيل: هو إقامة الدين ونحوه قوله تعالى: " إن هذه أمتكم أمة واحدة " الأنبياء: 92 " كبر على المشركين " عظم عليهم وشق عليهم " ما تدعوهم إليه " من إقامة دين اللّه والتوحيد " يجتبي إليه " يجتلب إليه ويجمع.

والضمير للدين بالتوفيق والتسديد " من يشاء " من ينفع فيهم توفيقه ويجري عليهم لطفاً.

" وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ".

" وما تفرقوا " يعني أهل الكتاب بعد أنبيائهم " إلا من بعد " أن علموا أن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء " ولولا كلمة سبقت من ربك " وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة " لقضي بينهم " حين افترقوا لعظم ما اقترفوا " إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم " وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم " لفي شك " من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان.

وقيل: كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك اللّه أهل الأرض أجمعين بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم.

وإنما اختلفوا للبغي بينهم وقيل: وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: " وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة " البينة: 4 " إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم " هم المشركون الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

وقرئ ورثوا وورثوا.

" فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ".

" فلذلك " فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً " فادع " إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة " واستقم " عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك اللّه " ولا تتبع أهواءهم " المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب في كتاب صح أن الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض كقوله تعالى: " ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض " النساء: 155 إلى قوله: " أولئك هم الكافرون حقاً " النساء: 151 " لأعدل بينكم " في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم " لا حجة بيننا وبينكم " أي لا خصومة: لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوبين به فلا حاجة إلى المحاجة.

ومعناه: لا إيراد حجة بيننا لأن المتحاجين: يورد هذا حجته وهذا حجته " الله يجمع بيننا " يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء قلت: المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

" والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ".

" يحاجون في الله " يخاصمون في دينه " مِن بَعدِ " ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوهم إلى دين الجاهلية كقوله تعالى: " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً " البقرة: 109 كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق.

وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر {الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد}.

" أنزل الكتاب " أي جنس الكتاب " والميزان " والعدل والتسوية.

ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة.

وقيل: الذي يوزن به.

بالحق: ملتبساً بالحق مقترناً بعيداً من الباطل أو بالغرضالصحيح كما اقتضته الحكمة.

أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك " الساعة " في تأويل البعث فلذلك قيل: " قريب " أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف.

الممارة: الملاجة لأن كل واحد منهما يمرى عند صاحبه " لفي ضلال بغيد " من الحق: لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء.

" الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ".

" لطيف بعباده " بر بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحد من كلياته وجزئياته.

فإن قلت: فما معنى قوله: " يرزق من يشاء " بعد توصل بره إلى جميعهم.

قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من بره إلا أن البر أصناف وله أوصاف.

والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر.

فقد رزقه وهو الذي أراد بقوله تعالى: " يرزق من يشاء " البقرة: 212 كما يرزق أحد الأخوين ولداً دون الآخر على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد " وهو القوي " الباهر القدرة الغالب على كل شيء " العزيز " المنيع الذي لا يغلب.

" من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ".

سمى ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز.

وفرق بين عملي العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه.

وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط في الآخرة ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

" أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ".

معنى الهمزة في " أم " التقرير والتقريع.

وشركاؤهم: شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين وتعالى اللّه عن الإذن فيه والأمر به وقيل شركاؤهم: أوثانهم.

وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء للّه فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة.

وتارة إلى الله ولما كانت سبباً لضلالتهم وافتتانهم: جعلت شارعة لدين الكفر كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: " أضللن كثيراً من الناس " إبراهيم: 36 " ولولا كلمة الفصل " أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء.

أو: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة " لقضي بينهم " أي بين الكافرين والمؤمنين.

أو بين المشركين وشركائهم.

وقرأ مسلم بن جندب " وأن الظالمين " بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل يعني: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة.

لقضي بينهم في الدنيا.

{ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات

الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور}.

" ترى الظالمين " في الآخرة " مشفقين " خائفين خوفاً شديداً أرق قلوبهم " مما كسبوا " من السيئات " وهو واقع بهم " يريد: ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بد لهم منه أشفقوا أو لم يشفقوا.

كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها " عند ربهم " منصوب بالظرف لا بيشاؤون قرئ يبشر من بشره.

ويبشر من أبشره.

ويبشر من بشره والأصل: ذلك الثواب الذي يبشر اللّه به عباده فحذف الجار كقوله تعالى: " واختار موسى قومه " الأعراف: 155 ثم حذف الراجع إلى الموصول كقوله تعالى: " أهذا الذي بعث الله رسولاً " الفرقان: 41 أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده.

روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً.

فنزلت الآية: " إلا المودة في القربى " يجوز أن يكون استثناء متصلاً أي: لا أسألكم أجراً إلا هذا وهو أن تودوا أهل قرابتي ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة لأن قرابته قرابتهم فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة.

ويجوز أن يكون منقطعاً أي: لا أسألكم أجراً قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم.

فإن قلت: هلا قيل: إلا مودة القربى: أو إلا المودة للقربى.

وما معنى قوله: " إلا المودة في القربى " الشورى: 23.

قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك: ولي في آل فلان مودة.

ولي فيهم هوى وحب شديد تريد: أحبهم وهم مكان حبي ومحله وليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى.

إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس.

وتقديره: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها.

والقربى: مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى: قرابة.

والمراد في أهل القربى.

وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم.

قال: " علي وفاطمة وابناهما " ويحل عليه ما روى عن علي رضي الله عنه: شكوت إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي.

فقال: " أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا " وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي.

ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة " وروي: أن الأنصار قالوا:

فعلنا وفعلنا كأنهم افتخروا فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم فقال: " يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ".

قالوا: بلى يا رسول اللّه.

قال: " ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ".

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: " أفلا تجيبونني ".

قالوا: ما نقول رسول الله.

قال: " ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فأويناك أو لم يكذبوك فصدقناك لم يخذلوك فنصرناك " قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما أيدينا لله ولرسوله فنزلت الآية.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من مات على حب آل محمد مات شهيداً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ألا ومن مات علي حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ألا ومن مات على حب آل محمد جعل اللّه قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة "
وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قربى فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت.

والمعنى: إلا أن تودوني في القربى أي: في حق القربى أو من أجلها كما تقول: الحب في الله والبغض في الله بمعنى: في حقه ومن أجله يعني.

أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي.

وقيل: أتت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال جمعوه وقالوا: يا رسول الله قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت ورده.

وقيل " القربى ": التقرب إلى اللّه تعالى أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح.

وقرئ: إلا موة في القربى " وَمَن يَقتَرِف حسنَة " عن السدي أنها المودة في آل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم.

والظاهر: العموم في أي حسنة كانت إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى: دل ذلك على أنها تناولت المودة تناولاً أولياً كأن سائر الحسنات لها توابع.

وقرئ يزد أي: يزد الله.

وزيادة حسنها من جهة الله مضاعفتها كقوله تعالى: " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة " البقرة: 245 وقرئ حسنى وهي مصدر كالبشرى الشكور في

{أم يقولون أفترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور}.

" أم " منقطعة.

ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها " فإن يشأ الله يختم على قلبك " فان يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم.

ومثال هذا: أن يخون بعض الأمناء فيقول لعل الله خذلني لعل اللّه أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب.

وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق " بكلماته " بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه " الأنبياء: 18 يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف اللّه افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه.

ويجوزأن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك.

وعن قتادة " يختم على قلبك ": ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك وقيل " يختم على قلبك ": يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم.

فان قلت: إن كان قوله: " ويمح الله الباطل " كلاماً مبتدأ غير معطوف على يختم فما بال الواو ساقطة في الخط قلت: كما سقطت في قوله تعالى: " ويدع الإنسان بالشر " الإسراء: 11 وقوله تعالى: " سندع الزبانية " العلق: 18 على أنها مثبتة في بعض المصاحف.

" هو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون ".

يقال: قبلت منه الشيء وقبلته عنه.

فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه.

ومعنى: قبلته عنه: عزلته وأبنته عنه.

والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإحلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب.

وإن كان فيه لعبد حق: لم يكن بد من التفصي على طريقه وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة.

فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في

المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته " ويعفوا عن السيئات " عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر " ويعلم ما تفعلون ".

قرئ بالتاء والياء: أي: يعلمه فيثيب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

{ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد}.

{الذين آمنوا} أي يستجيب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: " وإذا كالوهم " المطففين: 3 أي يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم.

وقيل: الاستجابة: فعلهم أي يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها " ويزيدهم " هو " من فضله " على ثوابهم.

وعن سعيد بن جبير: هذا من فعلهم: يجيبونه إذا دعاهم.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ثم قرأ: " والله يدعو إلى دار السلام " يونس: 25 ويستجيب الذين آمنوا.

{ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير}.

" لبغوا " من البغي وهو الظلم أي: لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا لأن الغنى مبطرة مأشرة وكفى بحال قارون عبرة.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: " أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها " ولبعض العرب:

يعني: أنهم أحيوا فحدثوا أنفسهم بالبغي والتفانن.

أو من البغي وهو البذخ والكبر أي: لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد.

وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى.

قال خباب بن الأرت: فينا نزلت وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها " بقدر " بتقدير.

يقال قدره قدراً وقدراً.

" خبير بصير " يعرف ما يؤول إليه أحوالهم فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية.

ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا.

فإن قلت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنهم مقبوض عنهم فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم: وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه قلت: لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

{وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد}.

قرئ: قنطوا بفتح النون وكسرها " وينشر رحمته " أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القحط وقنط الناس فقال: مطروا إذا أراد هذه الآية.

ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة " الولي " الذي يتولى عباده بإحسانه " الحميد " المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

{ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إن شاء قدير}

" وَمَا بَث " يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً يحمل على المضاف إليه أو المضاف.

فإن قلت: لم جاز " فِيهمَا مِن دابة " والدواب في الأرض وحدها.

قلت: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل وإنما هو في فخذ من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم وبنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله نويس منهم.

ومنه قوله تعالى: " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " الرحمن: 22 وإنما يخرج من الملح ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشي مع الطيران.

فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي.

ولا يبعد أن يخلو في السموات حيواناً يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق.

" إذا " يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: " والليل إذا يغشى " الليل: ومنه " إذا يشاء " وقال الشاعر: وإذا ما شاء أبعث منها آخر الليل ناشطاً مذعوراً} وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ".

في مصاحف أهل العراق " فَبِمَا كسبَت " بإثبات الفاء على تضمين ما معني الشرط.

وفي مصاحف أهل المدينة " بما كسبت " بغير فاء على أن ما مبتدأ وبما كسبت خبرها من غير تضمين معنى الشرط.

والآية مخصوصة بالمجرمين ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض.

فأما من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب " ولما يعفو الله عنه أكثر " وعن بعضهم: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه.

وأن ما عفا عنه مولاه أكثر: كان قليل النظر في إحسان ربه إليه.

وعن آخر: العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه لأن جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ولولا عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة وعن علي رضي اللّه عنه وقد رفعه: " من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة " وعنه رضي الله عنه: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن " بمعجزين " بفائتين ما قضي عليكم من المصائب " من ولي " من متول بالرحمة.

" ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام وإن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ".

" الجوار " السفن وقرئ الجوار " كالأعلام " كالجبال.

قالت الخنساء: كأنه علم في رأسه نار وقرئ الرياح فيظللن بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل نحو: ضل يضل ويضل " رواكد " ثوابت لا تجري " على ظهره " على ظهر البحر " لكل صبار " على بلاء اللّه " شكور " لنعمائه وهما صفتا المؤمن المخلص فجعلهما كناية عنه وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله فهو يستملي منها العبر " يوبقهن " يهلكهن.

والمعنى: أنه إن يشأ يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذنوب " ويعف عن كثير " منها فإن قلت: علام عطف يوبقهن قلت: على يسكن لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن.

أو يعصفها فيغرقن بعصفها.

فإن قلت: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه.

قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم.

فإن قلت: فمن قرأ ويعفو قلت: قد استأنف الكلام.

{ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص}

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث في {ويعلم}.

قلت: أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف.

وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون ونحوه في العطف على التعليل المحفوف غير عزيز في القرآن منه قوله تعالى: " ولنجعله آية للناس " مريم: 21 وقوله تعالى: {وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت} الجاثية: 22 وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن لأن قبلها جزاء تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك على تأويل: وأنا أكرمك.

وإن شئت وأكرمك جزماً ففيه نظر لما أورود سيبويه في كتابه.

قال: واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك: ضعيف وهو نحو من قوله: وألحق بالحجاز فأستريحا فهذا يجوز وليس بحد الكلام فيه ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه: أجازوا فيه هذا على ضعفه.

ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة.

فإن قلت: فكيف يصح معنى على جزم " ويعلم " قلت: كأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين " من محيص " من محيد عن عقابه.

{فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون}.

" ما " الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية.

عن علي رضي اللّه عنه: اجتمع لأبي بكر رضي اللّه عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت.

{والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون}

" والذين يجتنبون " عطف على الذين آمنوا وكذلك ما بعلى.

ومعنى " كبائر الإثم " الكبائر من هذا الجنس.

وقرئ كبير الإثم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: كبير الإثم هو الشرك " هم يغفرون " أي هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ وإسناد " يغفرون " إليه لهذه الفائدة ومثله: " هم ينتصرون "

" والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ".

" والذين استجابوا لربهم " نزلت في الأنصار: دعاهم اللّه عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه " وأقاموا الصلاة " وأتموا الصلوات الخمس.

وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة: إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله علي عليهم أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه.

وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم والشورى: مصدر كالفتيا بمعنى التشاور.

ومعنى قوله: " وأمرهم شورى بينهم " أي ذو شورى وكذلك قولهم: ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

{والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون }. هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا.

وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار.

قلت: نعم لأن من أخذ حقه غير متعد حد اللّه وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه محاماة على عرضه وردعا له فهو مطيع.

وكل مطيع محمود.

{وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين}.

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به.

قال الله تعالى: " وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك " النساء: 78: يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا.

والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة فإذا قال أخزاك اللّه قال: أخزاك اللّه " فمن عفا وأصلح " بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء.

كما قال تعالى: " فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " فصلت: 34 " فأجره على الله " عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم.

وقوله: " إنه لا يحب الظالمين " دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم.

قال: فيقوم خلق فيقال لهم: ما أجركم على الله.

فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله ".

" ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ".

" بعد ظلمه " من إضافة المصدر إلى المفعول وتفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم " فأولئك " إشارة إلى معنى من دون لفظه " ما عليهم من سبيل " للمعاقب ولا للعاتب والعائب " إنما السبيل على

" ولمن صبر وغفر إن كلك لمن عزم الأمور ".

" ولمن صبر " على الظلم والأذى " وَغَفَرَ " ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله " إن ذلك " منه " لمن عزم الأمور " وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم: السمن مَنَوانِ بدرهم.

ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام فتلا هذه الآية فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون.

وقالوا: العفو مندوب إليه ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه وذلك إما احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه وهو: " أن زينب أسمعت عائشة بحضرته وكان ينهاها فلا تنتهي فقال لعائشة " دونك فانتصري ".

" ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ".

" ومن يضلل الله " ومن يخذله الله " فما له من ولي من بعده " فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

" وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم وما كان لهم

" خاشعين " متضائلين متقاصرين مما يلحقهم " مِنَ اَلذُلِّ " وقد يعلق من الذل بينظرون ويوقف على خاشعين " ينظرون من طرف خفي " أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف.

وهكذا نظر الناظر إلى المكاره: لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب.

وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم.

وذلك نظر من طرف خفي.

وفيه تعسف " يوم القيامة " إما أن يتعلق بخسروا ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا وإما أن يتعلق بقال أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

" استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ".

" من الله " من صلة لا مرد أي: لا يرده اللّه بعدما حكم به.

أو من صلة يأتي أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده.

والنكير: الإنكار أي: لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودون في صحائف أعمالكم.

" فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ".

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد.

لقوله: وإن تصبهم سيئة ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم.

والرحمة: النعمة من الصحة والغني والأمن.

والسيئة: البلاء من المرض والفقر والمخاوف.

والكفور: البليغ الكفران ولم يقل: فإنه كفورة ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: " إن الإنسان لظلوم كفار " إبراهيم: 134 " إن الإنسان لربه لكنود " العاديات: 6 والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها.

" لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ويهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ".

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها: أتبع ذلك أن له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإناث وبعضاً بالذكور وبعضاً بالصنفين جميعاً ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط.

فإن قلت: لم قدم الإناث أولاً على الذكور مع تقدمهم عليهن ثم رجع فقدمهم ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث.

قلت: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم

وليلي الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء وأخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال: " ذكراناً وإناثاً " كما قال: " إنا خلقناكم من ذكر وأنثى " الحجرات: 13 " فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى " القيامة: 39 وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه

حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً ولإبراهيم ذكوراً ولمحمد ذكوراً وإناثاً وجعل يحيى وعيسى عقيمين " إنه عليم " بمصالح العباد " قدير " على تكوين ما يصلحهم.

" وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم ".

" وما كان لبشر " وما صح لأحد من البشر " أن يكلمه الله إلا " على ثلاثة أوجه: إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده.

وعن مجاهد: أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره.

قال عبيدة بن الأبرص:

أي: ألهمني وقذف في قلبي.

وإما على أنَ يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي.

وقوله: " من وراء حجاب " مثل أي كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة.

وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى.

وقيل: وحياً كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة " أو يرسل رسولاً " أي نبياً كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم.

ووحيا وأن يرسل: مصدران واقعان موقع الحال لأن أن يرسل في معنى إرسالاً.

ومن وراء حجاب: ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله تعالى: " وعلى جنوبهم " آل عمران: 191 والتقدير: وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً.

ويجوز أن يكون: وحياً موضوعاً موضع: كلاماً لأن الوحي كلام خفي في سرعة كما تقول: لا أكلمه إلا جهراً وإلا خفاتاً لأن الجهر والخفات ضربان من الكلام وكذلك: رسالاً جعل الكلام على لسان الرسول بغير واسطة تقول: قلت لفلان كذا وإنما قاله وكيلك أو رسولك.

وقوله: " أو من وراء حجاب " معناه: أو إسماعاً من وراء حجاب ومن جعل وحيا في معنى: أن يوحي وعطف يرسل عليه على معنى " وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً " أي: إلا بأن يوحي.

أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله: " أو من وراء

الحجاب " تقديراً يطابقهماعليه نحو: أو أن يسمع من وراء حجاب.

وقرئ " أو يرسل رسولاً فيوحي " بالرفع على: أو هو رسل.

أو بمعنى مرسلاً عطفاً على وحيا في معنى موحياً.

وروى أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك فقال: لم ينظر موسى إلى الله فنزلت.

وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول: فتلت هذه الآية: " إنه علي " عن صفات المخلوقين " حكيم " يجري أفعاله على موجب الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغير واسطة: إما إلهاماً وإما خطاباً.

" وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صرط مستقيم صرط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ".

" روحاً من أمرنا " يريد: ما أوحي إليه لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح.

فإن قلت: قد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه فما معنى قوله: " ولا الإيمان " والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن

يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ويجب أن يرنوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده مكيف لا يعصمون من الكفر قلت: الإيمان اسم يتناول أشياء: بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع فعنى به ما الطريق إليه السمع عون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي.

ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: " وما كان الله ليضيع إيمانكم " البقرة: 143 بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان " من نشاء من عبادنا " من له لطف ومن لا لطف له فلا هداية تجدي عليه " صرط الله " بدل.

وقرئ لِتهدى أي: يهديك الله.

وقرئ لتدعو.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له ".

سورة الزخرف

مكية وقال مقاتل: إلا قوله " واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا " وهي تسع وثمانون آية

" حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي مكين ".

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله: " إنا جعلناه قرآناً عربياً " جواباً للقسم وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد.

ونظيره قول أبي تمام: وثناياك إنها أغريض " المبين " البين للذين أنزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم.

وقيل: الواضح للمتدبرين.

وقيل: المبين الذي أبان طرق لهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة " جعلناه " بمعنى صيرناه معدى إلى مفعولين.

أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد كقوله تعالى: " وجعل الظلمات والنور " الأنعام: ا.

" قرآناً عربياً " حال.

ولعل: مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي أي: خلقناه عربياً غير عجمي: إرادة أن تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته وقرئ أم الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: " بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ " البروج: 21 - 22 سمي بأم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتنتسخ.

على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها " حكيم " ذو حكمة بالغة أي: منزلته عنده

" أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ".

" أفنضرب عنكم الذكر صفحاً " يعني: أفننحي عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض.

ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.

وقال طرفة: اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس والفاء للعطف على محفوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم على إنزاله الكتاب.

وخلقه قراناً عربياً ليعقلوه ويعملوا بمواجبه.

وصفحاً على وجهين.

إما مصدر من صفح عنه: إذا أعرض منتصب على أنه مفعول له على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم.

وإما بمعني الجانب من قولهم: نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى: أفننحيه عنكم جانباً فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانباً وامش جانباً.

وتعضده قراءة من قرأ صفحاً بالضم.

وفي هذه القراءة وجه آخر: وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين " إن كنتم " أي: لأن كنتم.

وقرئ إن كنتم وإذ كنتم.

فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البت.

قلت: هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر

المتحقق لثبوته كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق: فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجهالاً له.

" وكم أرسلنا من نبي في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ".

" وما يأتيهم " حكاية حال ماضية مستمرة أي: كانوا على ذلك.

وهذه تسلية لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه.

الضمير في " أشد منهم " للقوم المسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عنهم " ومضى مثل الأولين " أي سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل وهذا وعد لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم.

" ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ".

فإن قلت: قوله: " ليقولن خلقهن العزيز العليم " وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم

فما تصنع بقوله: " فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون " الزخرف: 11 وإن كان من قول الله فما وجهه قلت: هو من قول الله لا من قولهم.

ومعنى قوله: " ليقولن خلقهن العزيز العليم " الذي من صفته كيت وكيت لينسبن خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه.

" بقدر " بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفاناً.

" والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ".

" الأزواج " الأصناف " ما تركبون " أي تركبونه.

فإن قلت: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك.

وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه.

قلت: غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة فقيل: تركبونه " على ظهوره " على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام.

ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ثم يحمدوا عليها بألسنتهم وهو ما يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: " بسم الله " فإذا استوى على الدابة قال: " الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا.

.

.

إلى قوله لمنقلبون " وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً.

وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: " بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم " هود: 41 وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا.

فقال: أبهذا أمرتم فقال: وبم أمرنا قال: أن تذكروا نعمة ربكم كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه.

وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقها وجليلها.

جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات فكيف بالنظر في لطائف الديانات " مقرنين " مطيقين.

يقال: أقرن الشيء إذا أطاقه.

قال ابن هرمة: وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصد يا دعد والهجر وحقيقة أقرنه: وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف.

ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا يقرن به الصعبة.

وقرئ مقرنين والمعنى واحد.

إن قلت: كيف اتصل بذلك قوله: " إنا إلى ربنا لمنقلبون " قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر واتصالاً بسبب من أسباب التلف: كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء اللّه بإصلاحه من

نفسه والحذر من أن يكون ركوبه فلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا يذكرون إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره.

وقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر فلم يصح إلا بعدما اطمأنت به الدار فلم يشعر بمسيره ولا أحس به فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية.

وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

" وجعلوا له من عباده جزاءاً إن الإنسان لكفور مبين أم أتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم أومن ينشئوا في الحيلة وهو في الخصام غير مبين ".

" وجعلوا له من عباده جزاءاً " متصل بقوله: " ولئن سألتهم " الزخرف: 9 أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين.

ومعنى " من عباده جزاءاً " أن قالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له.

ومنبدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث

وأدعاء أن الجزء في لغة العرب: اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً: إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة وقرئ جزؤوا بضمتين " لكفور مبين " لجحود للنعمة ظاهر جحوده لأن نسبة الولد إليه كفر والكفر أصل الكفران كله " أم اتخذ " بل اتخذ والهمزة للإنكار: تجهيلاً لهم وتعجيباً من شأنهم حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءاً حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين: وهو الإناث دون الذكور على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن كأنه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضاً وتمثيلاً أما تستحيون من الشطط في القسمة.

ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما وتنكير " بَنَاتٍ " وتعريف " البنين " وتقديمهن في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى: " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور " الشورى: 49 " فما ضرب للرحمن مثلاً " بالجنس الذي جعله له مثلاً أي: شبهاً لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضاً منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس.

ومن حالهم

أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب.

وعن بعض العرب: أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت: ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا إنما نأخذ ما أعطينا والظلول بمعنى الصيرورة كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها.

وقرئ مسود ومسواد على أن في " ظل " ضمير المبشر و " وجهه مسوداً " جملة واقعة موقع الخبر ثم قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المفهومة صفته.

وهو أنه " ينشؤوا في الحلية " أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان يحج به من يخاصمه وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها.

وفيه: أنه جعل النشئ في الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفة ربات الحجال فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضي اللّه عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا.

وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى.

وقرئ ينشأ وينشأ ويناشأ.

" وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ".

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا إليه أخسس النوعين وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله فاستخفوا بهم واحتقروهم.

وقرئ عباد الرحمن وعبيد الرحمن وعبد الرحمن وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم.

وإناثاً وأنثا: جمع الجمع.

ومعنى جعلوا: سموا وقالوا إنهم إناث.

وقرئ أشهدوا وأأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة.

وآشهدوا بألف بينهما وهذا تهكم بهم بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم فإن اللّه لم يضطرهم إلى علم ذلك ولا تطرقوا إليه باستدلال ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم فأخبروا عن هذه المشاهدة " ستكتب شهادتهم " التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم " ويسألون " وهذا وعيد.

وقرئ سيكتب وسنكتب: بالياء والنون.

وشهادتهم وشهاداتهم.

ويساءلون على ما يفاعلون.

" وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرسون ".

" وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم " هما كفرتان أيضاً مضمومتان إلى الكفرات الثلاث وهما: عبادتهم الملائكة من دون اللّه وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله كما يقول إخوانهم المجبرة فإن قلت: ما أنكرت على من يقول: قالوا ذلك على وجه الاستهزاء ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين

قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين وادعاء ما لا دليل عليه باطل على أن الله تعالى قد حكى عنهم ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءاً وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً.

وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لو جدوا في النطق به مدحاً لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء فبقي أن يكونوا جادين وتشترك كلها في أنها كلمات كفر فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتسوية مذهبهم الباطل.

ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءاً لم يكن لقوله تعالى: " ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرسون " الزخرف: 20 معنى لأن من قال لا إله إلا الله على طريق الهزء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً.

فإن قلت: ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم: إن الملائكة بنات الله من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله قلت: تمحل مبطل وتحريف مكابر.

ونحوه قوله تعالى: " سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم " الأنعام: 48.

" أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ".

الضمير في " من قبله " للقرآن أو الرسول.

والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله: قولاً قالوه غير مستند إلى علم ثم قال: أم آتيناهم كتاباً قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به.

بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم " إنا وجدنا آباءنا على أمة " على دين.

وقرئ على إمة بالكسر وكلتاهما من الأثم وهو القصد فالأمة: الطريقة التي تؤم أي: تقصد كالرحلة للمرحولة إليه.

والأمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد.

وقيل: على نعمة وحالة حسنة " على آثارهم مهتدون " خبر إن.

أو الظرف صلة لمهتدون.

" وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ".

" مترفوها " الذين أترفتهم النعمة أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

" قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباؤكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم

قرئ قل وقال: وجئتكم وجئناكم يعني أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم.

قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

" وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلنا كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ".

قرئ براء بفتح الباء وضمها.

وبرئ فبرئ وبراء نحو كريم وكرام وبراء: مصدر كظماء ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث.

يقال: نحن البراء منك والخلاء منك " الذي فطرني " فيه غير وجه: أن يكون منصوباً على أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين وأن يكون مجروراً بدلاً من المجرور بمن كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني.

فإن قلت: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين أحدهما: أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون.

والثاني أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة.

قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم وأن تكون " إلا " صفة بمعنى غير على أن " ما " في ما تعبدون موصوفة.

تقديره: إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى: " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " الأنبياء: 2.

فإن قلت: ما معنى قوله: " سيهدين " على التسويف.

قلت: قال مرة: " فهو يهدين " الشعراء:

8 ومرة " فهو يهدين " فاجمع بينهما وقدر كأنه قال.

فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال " وجعلها " وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: " إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني " " كلمة باقية في عقبه " في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم.

ونحوه " ووصى بها إبراهيم بنيه " البقرة: 132 وقيل: وجعلها الله.

وقرئ كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك وفي عاقبه أي: فيمن عقبه أي: خلفه.

" بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ".

" بل متعت هؤلاء " يعني: أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد "

حتى جاءهم الحق " وهو القرآن " ورسول مبين " الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحراً ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم.

وقرئ بل متعنا فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء.

قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: " وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون " الزخرف: 28 فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد.

وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم لأنه إذا متعهم

بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

" ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ".

فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ثم أردفه قوله: " ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر " فما طريقة هذا النظم ومؤداه.

قلت: المراد بالتمتيع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته فقال: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها: وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ومكابرة الرسول ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد من أهل زمانه بقولهم: " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم قرئ

على رجل بسكون الجيم من القريتين: من إحدى القريتين كقوله تعالى: " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " الرحمن: 22 أي من أحدهما.

والقريتان: مكة والطائف.

وقيل: من رجلي القريتين وهما: الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي عن ابن عباس وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل.

وعن قتادة: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد يقول: لو كان حقاً ما يقول محمد لنزل هذا القران عليّ أو على أبي مسعود الثقفي وأبو مسعود: كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاءوا بالإنكار من وجه آخر وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين وقولهم: هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به وأرادوا بعظم الرجل: رياسته وتقدمه في الدنيا وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً.

" أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون " " هم يقسمون رحمة ربكم " هذه الهمزة لإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها

إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ثم ضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم وأن الله عز وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها فلم يسو بينهم ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدماً ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا.

وإذا كانوا في تدبير أمر المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة والسلم إلى حلول دار السلام.

ثم قال: " ورحمة ربك " يريد: وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب: خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ومنهم من بعيش بالحلال ومنهم من يعيش بالحرام فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال.

قلت: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً وسماها رزق اللّه وإذا لم يسلكها تناولها حراماً

وليس له أن يسميها رزق الله فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم وهو عدو لهم فيه عما شرعه اللّه إلى ما لم يشرعه.

" ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ".

" لبيوتهم " بدل اشتمال من قوله: " لمن يَكفر " ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك: وهبت له ثوباً لقميصه.

وقرئ سقفاً بفتح السين وسكون القاف.

وبضمها وسكون القاف وبضمها: جمع سقف كرهن ورهن ورهن.

وعن الفراء: جمع سقيفة وسقفاً بفتحتين كأنه لغة في سقف وسقوفاً ومعارج ومعاريج.

والمعارج: جمع معرج أو اسم جمع لمعراج: وهي المصاعد إلى العلالي " عليها يظهرون " أي على المعارج يظهرون السطوح يعلونها فما اسطاعوا أن يظهروه.

وسرراً بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفي التضعيف " لما متاع الحياة " اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية.

وقرئ بكسر اللام أي: للذي هو متاع الحياة كقوله تعالى: " مثلاً ما بعوضة " البقرة: 26 ولما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية.

وقرئ إلا وقرئ: وما كل ذلك إلا.

لما قال: " خير مما يجمعون " الزخرف: 32 فقلل أمر الدنيا وصغرها: أردفه بما يقرر قلة الدنيا عنده

من قوله: " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة " أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقوفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً كلها من فضة وزخرف وجعلنا لهم زخرفاً أي: زينة من كل شيء.

والزخرف: الزينة والذهب.

ويجوز أن يكون الأصل: سقفاً من فضة وزخرف يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفاً على محل " من فضة " وفي معناه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو وزنت الدنيا عند اللّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء " فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤذي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام.

قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء وغلب الفقر على الغنى.

" ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونك عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ".

قرئ ومن يعشُ بضم الشين وفتحها.

والفرق بينهما أنه إما حصلت الآفة في بصره قيل: عشى.

وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا.

ونظيره: عرج لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج.

قال الحطيئة: متى تأته تعشو إلى ضوء ناره أي: تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء.

وهو بين في قول حاتم: أعشوا إذا ما جارتي برزت حتى يواري جارتي الخدر وقرئ يعشوا على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط.

وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض.

ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم " عن ذكر الرحمن " وهو القرآن كقوله تعالى: " صم بكم عمي " البقرة: 18 وأما القراءة بالضم فمعناها: ومن يتعام عن ذكره أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى كقوله تعالى: " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم " النمل: 14 " نقيض له شيطاناً " نخذله ونخل بينه وبين الشياطين كقوله تعالى: " وقيضنا لهم قرناء " فصلت: 25 " ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين " مريم: 83 وقرئ نقيض أي: يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان.

فإن قلت: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: " وإنهم ليصدونهم " قلت: لأن

من مبهم في جنس العاشي وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين: جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعاً " حتى إذا جاءنا " العاشي.

وقرئ جاآنا على أن الفعل له ولشيطانه.

" قَالَ " لشيطانه " يل ليت بيني وبينك بعد المشرقين " يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل: العمران والقمران.

فإن قلت: فما بعد المشرقين.

قلت: تباعدهما والأصل: بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق.

فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية: أضاف البعد إليهما " إنكم " في محل الرفع على الفاعلية يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدته وعنائه وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: " يا ليت بيني وبينك " على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين.

وقوله: " إنكم في العذاب مشتركون " تعليل أي: لن ينفعكم تمنيكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركون في سببه وهو الكفر.

وتقويه قراءة من قرأ إنكم بالكسر وقيل: إذا رأى الممنو بشدة من منى بمثلها: روحه ذلك ونفس بعض كربه وهو التأسي الذي ذكرته الخنساء: أعزي النفس عنه بالتأسي

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ما هم فيه.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: " إذ ظلمتم " قلت: معناه: إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين وذلك يوم القيامة.

وإذ: بدل من اليوم.

ونظيره: إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة أي: تبين أني ولد كريمة.

" أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ".

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد ويجتهد ويكد روحه في دعاء قومه وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي فأنكر عليه بقوله: " أفأنت

تسمع الصم " إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر كقوله تعالى: " إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور " فاطر: 22.

" فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم ".

ما في قوله: " فإما نذهبن بك " بمنزلة لام القسم: في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة

والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم " فإنا منهم منتقمون " أشد الانتقام في الآخرة كقوله تعالى: " أو نتوفينك فإلينا يرجعون " غافر: 77 وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة.

وقرئ نرينك بالنون الخفيفة.

وقرئ بالذي أوحي إليك على البناء للفاعل وهو الله عز وجل والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر.

فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضالُ شقي وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخيره.

" وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون وسل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ".

" إنه " وإن الذي أوحى إليك لذكر لشرف " لك ولقومك و " ل " سوف تسألون " عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن

مللهم هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء.

وكفاه نظراً وفحصاً: نظره في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه وإخبار اللّه فيه بأنهم يعبدون من دون اللّه ما لم ينزل به سلطاناً.

وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها والسؤال الواقع مجازاً عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة: كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال.

وقول من قال: سله الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً.

وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمهم.

وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل.

وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل.

وعن الفراء: إنما هم يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

" ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئيه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ".

ما أجابوه به عند قوله: " إني رسول رب العالمين " محذوف دل عليه قوله: " فلما جاءهم بآياتنا " وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية " إذا هم منها يضحكون " أي يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحراً.

وإذا للمفاجأة.

فإن قلت: كيف جاز أن يجاب لَما بإذا

المفاجأة قلت: لأن فعل المفاجأة معها مقدر وهو عامل النصب في محلها كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم.

" وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ".

فإن قلت: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات قلت: أختها التي هي آية مثلها.

وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها كبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة كما تقول: هو أفضل رجل رأيته.

تريد: تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلاً رجلاً فإن قلت: هو كلام متناقض لأن معناه: ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حاله واحدة قلت: الغرض من هذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير التي تختلف آراء الناس في تفضيلها فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك.

ومنه بيت الحماسة:

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت.

ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل وهم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها " لعلهم يرجعون " إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان.

فان قلت: لو أراد رجوعهم لكان قلت: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه.

والمراد بالعذاب: السنون والطوفان والجراد وغير ذلك.

" وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ".

وقرئ يا أيه الساحر بضم الهاء وقد سبق وجهه.

فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم " إننا لمهتدون " قلت: قولهم " إننا لمهتدون ": وعد منوي إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب.

ألا ترى إلى قوله تعالى: " فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون " فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: إننا لمهتدون وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر: " بما عهد عندك " بعده عندك: من أن دعوتك مستجابة.

أو بعهده عندك وهو النبوة.

أو بما عهد عندك فوقيت به وهو الإيمان والطاعة.

أو

" ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هم مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ".

" ونادى فرعون في قومه " جعلهم محلاً لندائه وموقعاً له.

والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك فأسند النداء إليه كقولك: قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه.

ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط فيرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه في جموع القبط فكأنه نودي به بينهم فقال: " أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار " يعني أنهار النيل ومعظمهما أربعة: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس: قيل: كانت تجري تحت قصره.

وقيل: تحت سريره لارتفاعه.

وقيل: بين يدي في جناني وبساتيني.

ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر.

وتجري: نصب على الحال منها وأن تكون الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ والأنهار صفة لاسم الإشارة وتجري خبر للمبتدأ وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر وعجب الناس من مدى عظمته وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها لئلا تخفى تلك الأُبَهَة والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته.

وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس

عبيدي فولاها الخصيب وكان على وضوئه.

وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها وقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر واللّه لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه " أم أنا خير " أم هذه متصلة لأن المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله: " أنا خير " موضع: تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب.

ويجوز أن تكون منقطعة على: بل أأنا خير والهمزة للتقرير وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر وجرى الأنهار تحته ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي " من هذا الذي هو مَهِين " أي ضعيف حقير.

وقرئ أما أنا خير " وَلاَ يكاد يبين " الكلام لما به من الرتة يريد: أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة وكانت الأنبياء كلهم أنبياء بلغاء.

وأراد بإلقاء الأسورة عليه: إلقاء مقاليد الملك إليه لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب " مقرنين " إما مقترنين به من قولك: قرنته فاقترن به وإما من: اقترنوا بمعنى تقارنوا: لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقاً ملكه ربه وسوده

وسوره وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره.

وقرئ أساور جمع أسورة وأساوير جمع أسوار وهو السوار وأساورة على تعويض التاء من ياء أساوير.

وقرئ ألقي عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو اللّه عز وجل.

" فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ".

" فاستخف قومه " فاستفزهم.

وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم وكذلك: استفز من قولهم للخفيف: فز.

" فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ".

" آسفونا " منقول من أسف أسفاً إذا اشتد غضبه.

ومنه الحديث في موت الفجأة: " رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر ".

ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا طورهم فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم.

وقرئ سلفا جمع سالف كخادم وخدم.

وسلفا بضمتين جمع سليف أي: فريق قد سلف.

وسلفا: جمع سلفة أي: ثلة قد سلفت.

ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل يحدثون به ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون.

" ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون إن هو إلا عبد من أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ".

لما قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم على قريش " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " الأنبياء: 98 امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً فقال عبد الله بن الزبعري: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثنى عليه خيراً وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونهما.

وعزير يعبد.

والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " ونزلت هذه الآية.

والمعنى: ولما ضرب عبد اللّه بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه " إذا قومك " قريش من هذا المثل " يصدون " ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وجزلاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله في بجدله كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم.

وأما من قرأ يصدون بالضم فمن الصدود أي: من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه.

وقيل: من الصديد وهو الجلبة وأنهما لغتان نحو: يعكف

ويعكف ونظائر لهما " وقالوا أآلهتنا خير أم هو " يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى إذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً " ما ضربوه " أي ما ضربوا هذا المثل " لك إلا جدلاً " إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل " بل هم قوم خصمون " لد شداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى: " قوماً لداً " مريم: 97 وذلك أن قوله تعالى: " إنكم وما تعبدون من دون الله " الأنبياء: 98 ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام: " هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم " إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة إلا أن ابن الزبعري بخبه وخداعه وخُبثٍ دُخلَتِه لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساغاً فصرف معناه إلى الشمول والإحاط بكل معبود غير اللّه على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقح في ذلك فتوقر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه: " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " الأنبياء: 101 فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام على أن ظاهر قوله: " وما تعبدون " لغير العقلاء.

وقيل: لما سمعوا قوله تعالى: " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم " آل عمران: 59 قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدامياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت.

وقوله: " أآلهتنا خير أم هو " على هذا القول: تفضيل لآلهتهم على عيسى لأن المراد بهم الملائكة

وما ضربوه لك إلا جدلاً.

معناه: وما قالوا هذا القول يعني: ءآلهتنا خير أم هو.

إلا للجدال وقرئ: أآلهتنا خير بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها لدلالة أم العديلة عليها.

وفي حرف ابن مسعود: خير أم هذا.

ويجوز أن يكون جدلاً حالاً أي: جدلين.

وقيل: لما نزلت " إن مثل عيسى عند الله " آل عمران: 59 قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشراً كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر.

ومعنى " يصدون " يضجون ويضجرون.

والضمير في " أم هو " لمحمد صلى الله عليه وسلم وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم: السخرية به والاستهزاء.

ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم: الملائكة بنات اللّه وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولما فعلنا نكراً من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ونحن أشف منهم قولاً وفعلاً فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقيل لهم: مذهب النصارى شرك بالله ومذهبكم شرك مثله وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل وما عيسى " إلا عبد " كسائر العبيد " أنعمنا عليه " حيث جعلناه آية: بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

" ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ".

" ولو نشاء " لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر " لجعلنا منكم " لولدنا منكم يا رجال

" ملائكة " يخلفونكم في الأرض كما يخلفوكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام وذات القديم متعالية عن ذلك.

" وإنه لعلم الساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ".

" وإنه " وإن عيسى عليه السلام " لعلم الساعة " أي شرط من أشراطها تعلم به فسمى الشرط علماً لحصول العلم به.

وقرأ ابن عباس: لعلم وهو العلامة.

وقرئ للعلم وقرأ: أبي: لذكر على تسمية ما يذكر به ذكراً كما سمي ما يعلم به علماً.

في الحديث: أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة: يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب يخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به.

وعن الحسن: أن الضمير للقرآن وأن القرآن به تعلم الساعة لأن فيه الإعلان بها " فلا تمترن بها " من المرية وهي الشك " واتبعون " واتبعوا هداي وشرعي.

أو رسولي.

وقيل: هذا أمر لرسول اللّه أن يقوله: " هذا صراط مستقيم " أي هذا الذي أدعوكم إليه.

أو هذا القرآن إن جعل

" ولا يصدنكم الشيطان إنه عدو مبين ".

" عدو مبين " قد بانت عداوته لكم: إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور.

" ولما جاءهم عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ".

" بالبينات " بالمعجزات.

أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات " بالحكمة " يعني الإنجيل والشرائع.

فإن قلت: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه قلت: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفة والسؤال عنه وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم " الأحزاب " الفرق المتحزبة بعد عيسى عليه السلام.

وقيل: اليهود والنصارى " فويل للذين ظلموا " وعيد للأحزاب.

فإن قلت: " من بينهم " إلى من يرجع الضمير فيه قلت: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: " قد جئتكم بالحكمة " وهم قومه المبعوث إليهم.

" هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس

وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ".

" أن تأتيهم " بدل من الساعة.

والمعنى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

فإن قلت: أما أدى قوله: " بغتة " مؤدى قوله: " وهم لا يشعرون " فيستغني عنه قلت: لا لأن معنى قوله تعالى: " وهم لا يشعرون ": وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم كقوله تعالى: " تأخذهم وهم يخصمون " ياسين: 9 ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون "يومئذ " منصوب بعدو أي: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات اللّه وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتصادقين في اللّه فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله.

وقيل: " إلا المتقين " إلا المجتنبين أخلاء السوء.

وقيل: نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط " يا عباد " حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذٍ و " الذين أمنوا " منصوب المحل صفة لعبادي لأنه منادى مضاف أي: الذين صدقوا " بآياتنا وكانوا مسلمين " مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا.

وقيل: إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادي مناد يا عبادي فيرجوها الناس كلهم ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين.

وقرئ يا عباد " تحبرون " تسرون سروراً يظهر حباره أي: أثره على وجوهكم كقوله تعالى: " تعرف في وجوههم نضرة النعيم " المطففين: 24

وقال الزجاج: تكرمون إكراماً يبالغ فيه.

والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل.

والكوب: الكوز لا عروة له " وفيها " الضمير للجنة.

وقرئ تشتهي وتشتهيه.

وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب وإما مستلذة في العيون.

" وتلك " إشارة إلى الجنة المذكورة.

وهي مبتدأ و " الجنة " خبر.

و " التي أورثتموها " صفة الجنة.

أو الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة.

والتي أورثتموها: خبر المبتدأ.

أو التي أورثتموها: صفة و " بما كنتم تعملون " الخبر والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار.

وفي الوجه الأول تتعلق بأورثتموها.

وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

وقرئ ورثتموها " منها تأكلون " من للتبعيض أي: لا تأكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها فهي مزينة بالثمار أبداً موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها ".

" إن المجرمون في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ونادوا يا ملك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثرهم للحق لكارهون ".

" لا يفتر عنهم " لا يخفف ولا ينقص من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص

حرها.

والمبلس: اليائس الساكت سكوت يأس من فرج.

وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً: لا يرى ولا يرى " هُمُ " فصل عند البصريين عماد عند الكوفيين.

وقرئ وهم فيها أي: في النار وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما: يا مال بحذف الكاف للترخيم كقول القائل: والحق يا مال غير ما تصف وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ ونادوا يا مال فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه.

وقرأ أبو السرار الغنوي يا مال بالرفع كما يقال: يا حار " ليقض ربك علينا " من قضى عليه إذا أماته " فوكزه موسى فقضى عليه " القصص: 15 والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا.

فإن قلت: كيف قال: " ونادوا يا ملك " بعد ما وصفهم بالإبلاس قلت تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا فرج لهم ويغوثون أوقاتاً لشدة ما بهم " ماكثون " لابثون.

وفي استهزاء.

والمراد: خالدون.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يجيبهم بعد ألف سنة وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون.

ادعوا مالكاً فيدعون

يا مالك ليقض علينا ربك ".

" لقد جئناك بالحق " كلام الله عز وجل: بدليل قراءة من قرأ: لقد جئتكم ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل.

لما سألوا مالكاً أن يسأل اللّه تعالى القضاء عليهم: أجابهم الله بذلك " كارهون " لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب.

" أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ".

" أم " أبرم مشركو مكة " أمراً " من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم: " فإنا مبرمون " كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى: " أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون " الطور: 42 وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن قلت: ما المراد بالسر والنجوى قلت: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم " بلى " نسمعهما ونطلع عليهما " ورسلنا " يريد الحفظة عندهم " يكتبون " ذلك.

وعن يحيى بن معاذ الرازي: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق.

" قل إن كان للرحمن ولداً فأنا أول العابدين سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما

" قل إن كان للرحمن ولداً " وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها " فأنا أول " من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها.

ونظيره أن يقول العدلى للمجبر إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه والشهادة لقاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه.

ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له: أما والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك.

وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل:

إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه.

وقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد: إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد.

وقرأ بعضهم: العبدين وقيل: هي إن النافية أي: ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد.

وروي: أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني.

فقال له الوليد بم المغيرة: ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له.

وقرئ ولد بضم الواو.

ثم نزه ذاته موصوفة بربوبيتة السموات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد ليدل على أنه من صفة الأجسام.

ولو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

" فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ".

" فذرهم يخوضوا " في باطلهم " ويلعبوا " في دنياهم " حتى يلاقوا يومهم " وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب وإعلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان كقوله تبارك وتعالى: " اعملوا ما شئتم " فصلت: 40 وإيعاد بالشقاء في العاقبة.

" وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ".

ضمن اسمه تعالى معنى وصف فلذلك علق به الظرف في قوله: في السماء وفي الأرض كما تقول: هو حاتم في طي حاتم في تغلب على تضمين معنى الجواد الذي شهر به كأنك قلت: هو جواد في طي جواد في تغلب.

وقرئ وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله ومثله قوله تعالى: " وهو الله في السموات وفي الأرض " الأنعام: 3 كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً وزاده طولاً أن المعطوف داخل في حيز الصلة.

ويحتمل أن يكون " في السماء " صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف على أن الجملة بيان للصلة.

وأن كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية لا على معنى الاستقرار.

وفيه نفي الآلهة التي كانت تعبد في الأرض ترجعون قرئ ضم التاء وفتحها.

ويرجعون بياء مضمومة.

وقرئ تحشرون بالتاء.

" لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ".

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ولكن

من " شهد بالحق " وهو توحيد الله وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص: هو الذي يملك الشفاعة وهو استثناء منقطع.

ويجوز أن يكون متصلاً لأن في جملة الذين يدعون من عون الله: الملائكة وقرئ تدعون بالتاء وتدعون بالتاء وتشديد الدال.

" وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ".

قرئ بالحركات الثلاث وذكر في النصب عن الأخفش أنه حمله على: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله: وعنه: وقال قيله.

وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمراً وحمل الجر على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده وجوز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف.

معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله.

والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النظم.

وأقوى من ذلك وأوجه: أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم: أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ويكون قوله: " إن هؤلاء قوم لا يؤمنون " جواب القسم كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب.

أو وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء قوم لا يؤمنون " فاصفح عنهم " فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم وودعهم وتاركهم " وقل " لهم " سلام " أي تسلم منكم ومتاركة " فسوف تعلمون " وعيد من الله لهم

وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم.

والضمير في " وقيله " لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب ".

سورة الدخان

مكية إلا قوله: {إنا كاشفو العذاب قليلاً} الآية وهي سبع وخمسون آية وقيل تسع وخمسون بسم اله الرحمن الرحيم " حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا

منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنون لا إله إلا هو يحي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ".

الواو في قوله " والكتاب " واو القسم إن جعلت حم تعديداً للحروف أو اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف واو العطف إن كانت حم مقسماً بها.

وقوله: " إنا أنزلناه " جواب القسم والكتاب المبين القرآن.

والليلة المباركة: ليلة القدر.

وقيل: ليلة النصف من شعبان ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة.

وقيل في تسميتها: ليلة البراءة والصك: أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة.

وقيل: هي مختصة بخمس خصال: تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك: ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا.

وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان ".

ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: " إن الله يرحم من أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب " وحصول المغفرة: قال عليه الصلاة والسلام: " إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدِين أو مصر على الزنا " وما أعطى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تمام

الشفاعة وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته.

فأعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطي الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع إلا من شرد عن الله شراد البعير.

ومن عادة الله في هذه الليلة: أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة.

والقول الأكثر أن المراد بالليلة المباركة: ليلة القدر لقوله تعالى: " إنا أنزلناه في ليلة القدر " القدر: ا ولمطابقة قوله: " وفيها يفرق كل أمر حكيم " لقوله: " تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر " وقوله تعالى: " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " البقرة: 185 وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان.

فإن قلت: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة قلت: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً نجوماً.

فإن قلت: " إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم " ما موقع هاتين الجملتين قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان.

فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: " إنا أنزلناه في ليلة مباركة " الدخان: 3 كأنه قيل: أنزلنا لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم.

والمباركة: الكثيرة الخير لما يتيح الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن

وحده لكفى به بركة ومعنى " يفرق " يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم منها إلى الأخرى القابلة.

وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب إلى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

وعن بعضهم: يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته.

وقرئ يفرق بالتشديد و " يفرق " كل على بنائه للفاعل ونصب كل والفارق: الله عز وجل وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه نفرق بالنون كل أمر حكيم: كل شأن ذي حكمة أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة وهو من الإسناد المجازي لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز " أمراً من عندنا " نصب على الاختصاص.

جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كائناً من لدنا كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي ثم إما أن يوضع موضع فرقاناً الذي هو مصدر يفرق لأن معنى الأمر والفرقان واحد من حيث إنه إذا حكم بالشيء وكتبه فقد أمر به وأوجبه.

أو يكون حالاً من أحد الضميرين في أنزلناه: إما من ضمير الفاعل أي:

أنزلناه آمرين أمراً.

أو من ضمير المفعول أي أنزلناه في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل فإن قلت: " إنا كنا منزلين رحمة من ربك " بم يتعلق.

قلت: يجوز أن يكون بدلاً من قوله: " إنا كنا منذرين " و " رحمة من ربك " مفعولاً له على معنى: إنا أنزلنا القرآن لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم وأن يكون تعليلاً ليفرق.

أو لقوله: " أمراً من عندنا " ورحمة: مفعولاً به وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى: " وما يمسك فلا مرسل له من بعده " فاطر: 2 أي يفصل في هذه الليلة كل أمر.

أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا.

وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا لأن الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع.

والأصل: إنا كنا مرسلين رحمة منا فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين وفي قراءة زيد بن علي أمر من عندنا على: هو أمر وهي تنصر انتصابه على الاختصاص.

وقرأ الحسن: رحمة من ربك على: تلك رحمة وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له " إنه هو السميع العليم " وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه.

وقرئ " رب السموات.

.

.

ربكم ورب آبائكم " بالجر بدلاً من ربك.

فإن قلت: ما معنى الشرط الذي هو قوله: " إن كنتم موقنين ".

قلت: كانوا يقرون بأن للسموات والأرض رباً

وخالقاً فقيل لهم: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان كما تقول: إن هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

" بل هم في شك يلعبون فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ".

ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله: " بل هم في شك يلعبون " وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن ولا عن جد وحقيقة: بل قول مخلوط بهزء ولعب " يوم تأتي السماء " مفعول به مرتقب.

يقال: رقبته وارتقبته.

نحو: نظرته وانتظرته.

واختلف في الدخان فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبه أخذ الحسن: أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أول الآيات: الدخان والدجال ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر " قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه

وسلم الآية وقال: " يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره " وعن ابن مسعود رضي الله عنه: خمس قد مضت: الروم والدخان والقمر والبطشة واللزام.

ويروى أنه قيل لابن مسعود: إن قاصاً عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق فقال: من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه: الله أعلم ثم قال: ألا وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدث الرجلُ الرجلَ فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم " بدخان مبين " ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان " يغشي الناس " يشملهم ويلبسهم وهو في محل الجر صفة لدخان.

و " هذا عذاب " إلى قوله: " مؤمنون " منصوب المحل بفعل مضمر وهو: يقولون ويقولون: منصوب على الحال أي: قائلين ذلك.

" إنا مؤمنون " موعدة بالإيمان إن كشف

" أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ".

" أنى لهم الذكرى " كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب " وقد جاءهم " ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادكار من كشف الدخان وهو ما ظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأن عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ونسبوه إلى الجنون ثم قال: " إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون " أي ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال.

فإن قلت: كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله: " إنا كاشفوا العذاب قليلاً " قلت: إذا أتت السماء بالدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين.

وغوثوا وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون منيبون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون ثم قال: " يوم نبطش البطشة الكبرى " يريد يوم القيامة كقوله تعالى: " فإذا جاءت الطامة الكبرى " النازعات: 34 " إنا منتقمون " أي ننتقم منهم في ذلك اليوم.

فإن قلت: بم انتصب يوم نبطش قلت: بما دل عليه " إنا منتقمون " وهو ننتقم.

ولا يصح أن ينتصب

بمنتقمون لأن إن تحجب عن ذلك.

وقرئ نبطش بضم الطاء.

وقرأ الحسن نبطش بضم النون كإنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى.

أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم.

وقيل: " البطشة الكبرى " يوم بدر.

" ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ".

وقرئ ولقد فتنا بالتشديد للتأكيد.

أو لوقوعه على القوم.

ومعنى الفتنة: أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق فكان ذلك سبباً في ارتكابهم المعاصي واقترافهم الآثام.

أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا فاختاروا الكفر على الإيمان أو سلبهم ملكهم وأغرقهم " كريم " على الله وعلى عباده المؤمنين.

أو كريم في نفسه لأن الله لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم " أن أدوا إلى " هي أن المفسرة لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله.

أو المخففة من الثقيلة ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلي " عباد الله " مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول: أدوهم إلي وأرسلوهم معي كقوله تعالى: " أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم " طه: 47 ويجوز أن يكون نداء لهم على: أدوا إلي يا عباد

الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي وعلل ذلك بأنه " رسول أمِين " غير ظنين قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته " وأن لا تعلموا " أن هذه مثل الأولى في وجهيها أي: لا تستكبروا " على الله " بالاستهانة برسوله ووحيه.

أو لا تستكبروا على نبي الله " بسلطان مبين " بحجة واضحة " أن ترجمون " أن تقتلون.

وقرئ عت بالإدغام.

ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل " فاعزلون " يريد: إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة عني أي: فخلوني كفافاً لا لي ولا علي ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم ذلك.

" فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ".

" أن هؤلاء " بأن هؤلاء أي: دعا ربه بذلك.

قيل: كان دعاؤه: اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم: وقيل هو قوله: " ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين " يونس: 85 وإنما ذكر الله تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك وهو كونهم مجرمين.

وقرئ إن هؤلاء بالكسر على إضمار القول أي: فدعا ربه فقال: إن هؤلاء " فأسر " قرئ بقطع الهمزة من أسرى ووصلهامن سرى.

وفيه وجهان: إضمار القول بعد الفاء فقال: أسر بعبادي.

وأن يكون جواب شرط محذوف كأنه قيل: قال إن كان الأمر كما تقول فأسر " بعبادي " يعني: فأسر ببني إسرائيل فقد دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجي المتقدمين ويغرق التابعين.

الرهو فيه وجهان أحدهما: أنه الساكن.

قال الأعشى: يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل أي مشياً ساكناً على هينة.

أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله: من انتصاب الماء وكون الطريق يبساً لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم.

والثاني: أن الرهو الفجوة الواسعة.

وعن بعض العرب: أنه رأى جملاً فالجاً فقال: سبحان الله رهو بين سنامين أي: اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً " إنهم جند مغرقون " وقرئ بالفتح بمعنى: لأنهم.

" كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ".

والمقام الكريم: ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة.

وقيل: المنابر.

والنعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الإنعام.

وقرئ: فاكهين وفكهين.

" كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ".

" كَذلِك " الكاف منصوبة على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها " وأورثناها " أو في موضع الرفع على الأمر كذلك " قوماً آخرين " ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو إسرائيل: كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم فأهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم.

إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس.

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ".

وقال جرير: تبكي عليك نجوم الليل والقمرا وقالت الخارجية: أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: من بكاء مصلي المؤمن وآثاره في الأرض ومصاعد عمله ومهابط رزقه في السماء تمثيل ونفي

ذلك عنهم في قوله تعالى: " فما بكت عليهم السماء والأرض " فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده: فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض.

وعن الحسن: فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعني:

فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض " ما كانوا منظرين " لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر ولم يمهلوا إلى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا.

" ولقد أنجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ".

" من فرعون " بدل من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم.

ويجوز أن يكون المعنى: من العذاب المهين واقعاً من جهة فرعون.

وقرئ: من عذاب المهين ووجهه أن يكون تقدير قوله: " مِن فرعون ": من عذاب فرعون حتى يكون المهين هو فرعون.

وفي قراءة ابن عباس: من فرعون لما رصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال: من فرعون على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ثم عرف حاله في ذلك بقوله: " إنه كان عالياً من المسرفين " أي كبيراً رفيع الطبقة ومن بينهم فائقاً لهم بليغاً في إسرافه.

أو عالياً متكبراً كقوله تعالى: " إن فرعون علا في الأرض " القصص: 4.

و " من المسرفين " خبر ثان كأنه قيل: إنه كان متكبراً مسرفاً.

" ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ".

الضمير في " اخترناهم " لبني إسرائيل.

و " على علم " في موضع الحال أي: عالمين بمكان الخيرة وبأنهم أحقاء بأن يختاروا.

ويجوز أن يكون المعنى: مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط منهم

الفرطات في بعض الأحوال " على العالمين " على عالمي زمانهم.

وقيل: على الناس جميعاً لكثرة الأنبياء منهم " من الآيات " من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها " بلاء مبين " نعمة ظاهرة لأن الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة.

أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون كقوله تعالى: " وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " البقرة: 49.

" إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ".

" هؤلاء " إشارة إلى كفار قريش فإن قلت: كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت فهلا قيل: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين.

كما قيل: " إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين " الأنعام: 29 وما معنى قوله: " " إن هي إلا موتتنا الأولى " وما معنى ذكر الأولى.

كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى قلت: معناه والله الموفق للصواب: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة وذلك قوله عز وجل: " وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم " البقرة: 28 فقالوا: " إن هي إلا موتتنا الأولى " يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا

فرق إذاً بين هذا وبين قوله: " إن هي إلا حياتنا الدنيا " في المعنى.

يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم " فأتوا بآبائنا " هذا خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور: من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أي: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق وقيل كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعاظم الشؤون.

" أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم كانوا مجرمين ".

هو تبع الحميري: كان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند.

وقيل: هدمها وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك بزاً وبحراً.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم " وعنه عليه الصلاة والسلام: " ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي " وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبياً.

وقيل: نظر إلى قبرين بناحية حمير قال: هذا قبر رضوي وقبر حبى بنتي تبع لا تشركان بالله شيئاً.

وقيل: هو الذي كسا البيت.

وقيل لملوك اليمن: التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل: الأقيال لأنهم يُتَقيلون

وسمي الظل تبعاً لأنه يتبع الشمس.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: " أهم خير " ولا خير في الفريقين.

قلت: معناه أهم خير في القوة والمنعة كقوله تعالى: " أكفاركم خير من أولئكم " القمر: 3 بعد ذكر آل فرعون.

وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما: أهم أشد أم قوم تبع.

" وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل كان ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ".

" وما بينهما " وما بين الجنسين.

وقرأ عبيد بن عمير: وما بينهن.

وقرأ ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أي: إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل " لا يغني مولى " أي مولى كان من قرابة أو غيرها " عن مولى " عن أي مولى كان " شيئاً " من إغناء.

أي: قليلاً منه " ولا هم ينصرون " الضمير للموالي لأنهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى " إلا من رحم الله " في محل الرفع على البدل من الواو في " ينصرون " أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله.

ويجوز أن ينتصب على الاستثناء " إنه هو العزيز " لا ينصر منه من عصاه " الرحيم " لمن أطاعه.

" إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء

الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون ".

قرئ: إن شجرة الزقوم بكسر الشين وفيها ثلاث لغات: شجرة بفتح الشين وكسرها وشيرة بالياء.

وروى أنه لما نزل " أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم " الصافات: 62 قال ابن الزبعري: إن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر: التزقم فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال: تزقموا فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد فنزل " إن شجرة الزقوم طعام الأثيم " الدخان: 144 وهو الفاجر الكثير الآثام.

وعن أبي الحرثاء أنه كان يقرئ رجلاً فكان يقول طعام اليثيم فقال: قل طعام الفاجر يا هذا.

وبهذا يستدل على أنّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها.

ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة وهي: أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً.

قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة لأن في كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر وروى علي بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية " كالمهل " قرئ: بضم الميم وفتحها وهو

دردي الزيت.

ويدل عليه قوله تعالى: " يوم تكون السماء كالمهل " المعارج: 8 مع قوله: " فكانت وردة كالدهان " الرحمن: 37 وقيل: هو ذائب الفضة والنحاس والكاف رفع خبر بعد خبر وكذلك " يغلي " وقرئ: بالتاء للشجرة وبالياء للطعام.

و " الحميم " الماء الحار الذي انتهى غليانه: يقال للزبانية " خُذُوُه فاعتلوه " فقودوه بعنف وغلظة وهو أن يؤخذ بتلبيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل.

ومنه العتل وهو الغليظ الجافي.

وقرئ: بكسر التاء وضمها " إلى سواء الجحيم " إلى وسطها ومعظمها.

فإن قلت: هلا قيل: صبوا فوق رأسه من الحميم كقوله تعالى: " يصب من فوق رؤوسهم الحميم " الحج: 19 لأن الحميم هو المصبوب لا عذابه قلت: إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدته إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة كقوله: صبت عليه صروف الدهر من صبب وكقوله تعالى: " أفرغ علينا صبراً " البقرة: 250 فذكر العذاب معلقاً به الصب مستعاراً له ليكون أهول وأهيب يقال: " ذق إنك أنت العزيز الكريم " على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه.

وروي أن أبا جهل قال لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم: ما بين جبليها أعز ولا كرم مني فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً.

وقرئ: إنك بمعنى: لأنك.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قرأ به على المنبر " إن هذا " العذاب.

أو إن هذا الأمر

" إن المتقون في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ".

قرئ: في مقام بالفتح: وهو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم.

وبالضم: وهو موضع الإقامة.

و " الأَمِين " من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين.

وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.

قيل: السندس: ما رق من الديباج.

والإستبرق: ما غلظ منه وهو تعريب استبر.

فإن قلت: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي قلت: إذا عرب خرج من أن يكون عجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب " كذلك " الكاف مرفوع على الأمر كذلك.

أو منصوب على: مثل ذلك أثبناهم " وزوجناهم " وقرأ عكرمة بحور عين على الإضافة والمعنى: بالحور من العين لأن العين إما أن تكون حوراً أو غير حور فهؤلاء من الحور العين لا من شهلهن مثلاً.

وفي قراءة عبد الله: بعيس عين والعيساء: البيضاء تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير " لا يذاقون فيها الموت " وقرأ عبد الله " لا يفوقون فيها طعم الموت " فإن قلت: كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول

الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها.

قلت: أريد أن يقال: لا يفوقون فيها الموت البتة فوضع قوله: " إلا الموتة الأولى " موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها.

وقرئ: ووقاهم بالتشديد " فضلاً من ربك " عطاء من ربك وثواباً يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار.

وقرئ: فضل أي: ذلك فضل.

" فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون ".

" فإنما يسرناه بلسانك " فذلكة للسورة.

ومعناها: ذكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه أي: سهلناه حيث أنزلناه عربياً بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا " فارتقب " فانتظر ما يحل بهم " إنهم مرتقبون " ما يحل بك متربصون بك الدوائر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك ".

وعنه عليه السلام: " من قرأ سورة حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له ".

سورة الجاثية

بسم اله الرحمن الرحيم

{حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون}.

" حم " إن جعلتها اسماً مبتدأ مخبراً عنه ب " تنزيل الكتاب " لم يكن بدمن حذف مضافَ تقديره: تنزيلَ حم تنزيل الكتاب.

و " من الله " صلة للتنزيل وإن جعلتها تعديداً للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ والظرف خبراً " إن في السموات والأرض " يجوز أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى إن في خلق السموات لقوله: " وفي خلقكم " فإن قلت: علام عطف " وَمَا يبث " أعلى الخلق المضاف أم على الضمير المضاف إليه قلت: بل على المضاف لأن المضاف إليه ضمير

متصل مجرور يقبح العطف عليه استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد وهذا أبوك وعمرو وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بكَ أنت وزيد.

قرئ آيات لقوم يوقنون بالنصب والرفع على قولك: إن زيداً في الدار وعمراً في السوق.

أو عمرو في السوق.

وأما قوله: آيات

لقوم يعقلون فمن العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت هما: إن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في واختلاف الليل والنهار والنصب في " لآيات " وإذا رفعت فالعاملان: الابتداء وفي عملت الرفع في " لآيات " والجر في " واختلاف " وقرأ ابن مسعود " وفي اختلاف الليل والنهار " فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه.

وقد أباه سيبويه فما وجه تخريج الآية عنده قلت: فيه وجهان عنده.

أحدهما: أن يكون على إضمار في.

والذي حسنه تقدم ذكره في الآيتين قبلها.

ويعضده قراءة ابن مسعود والثاني: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضَاء المجرور معطوفاً على ما قبله أو على التكرير ورفعها بإضمار هي: وقرئ: واختلاف الليل والنهار بالرفع.

وقرئ آية وكذلك وما يبث من دابة آية.

وقرئ وتصريف الريح والمعنى: إن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا بالله وأقروا فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان: ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها.

" وتصريف الرياح " جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً: عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم وسُميَ

المطر رزقاً لأنه سبب الرزق " تلك " إشارة إلى الآيات المتقدمة أي: تلك الآيات آيات الله.

و " نتلُوهَا " في محل الحال أي: متلو " عليك بالحق " والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة.

ونحوه: " هذا بعلي شيخاً " هود: 72 وقرئ يتلوها بالياء " بعد الله وآياته " أي بعد آيات اللّه كقولهم: أعجبني زيد وكرمه يريدون: أعجبني كرم زيد.

ويجوز أن يراد: بعد حديث الله وهو كتابه وقرآنه كقوله تعالى " الله نزل أحسن الحديث " الزمر: 23.

وقرئ " يؤمنون " بالتاء والياء.

" ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ".

الأفاك: الكذاب والأثيم: المتبالغ في اقتراف الآثام يقبل على كفره ويقيم عليه.

وأصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحى عليها صاراً أذنيه " مستكبراً " عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق مزدرياً لها معجباً بما عنده.

قيل: نزلت في النضر بن الحرث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم وشغل الناس بها عن استماع القرآن.

والآية عامة في كل ما كان مضاراً لدين الله.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: " ثم يصر مستكبراً " قلت: كمعناه في قول القائل:

وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها.

وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها.

فأمر مستبعد فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تليت عليه وسمعها: كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها " كأن " مخففة والأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن كما في قوله: كأن ظبية تعطو إلى ناضر السلم ومحل الجملة النصب على الحال.

أي: يصر مثل غير السامع " وإذا " بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها " اتخذها " أي اتخذ الآيات " هُزوًا " ولم يقل: اتخذه للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها اللّه تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم: خاض في الاستهزاء بجميع الآيات.

ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ويحتمل: وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه واتخذ آيات الله هزواً وذلك نحو افتراص ابن الزبعري قوله عز وجل: " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " الأنبياء: 98 ومغالطته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله: خصتمك.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية:

حيث أراد عتبة.

وقرئ: علم أولئك إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله الأفاكين.

والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام.

قال: أليس ورائي أن تراخت منيتي أدب مع الولدان أزحف كالنسر ومنه قوله عز وجل: " من ورائهم " أي من قدامهم " ما كسبوا " من الأموال في رحلهم ومتاجرهم " ولا ما اتخذوا من دون الله " من الأوثان.

" هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ".

" هذا " إشارة إلي القرآن يدل عليه قوله تعالى: " والذين كفروا بآيات ربهم " لأن آيات ربهم هي القرآن أي هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول: زيد رجل تريد كامل في الرجولية.

وأيما رجل.

والرجز: أشد العذاب.

وقرئ بجر أليم ورفعه.

" الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ".

" ولتبتغوا من فضله " بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر.

فإن قلت: ما معنى " منه " في قوله: " جميعاً منه " وما موقعها من الإعراب قلت: هي واقعة موقع الحال والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده

يعني: أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه.

ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محفوف تقديره: هي جميعاً منه وأن يكون " وسخر لكم " تأكيداً لقوله تعالى: " وسخر لكم " ثم ابتدئ قوله: " ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه " وأن يكون " ما في الأرض " مبتدأ و " منه " خبره وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما منة وقرأ سلمة بن محارب: منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي.

أو على أنه خبر مبتدأ محفوف أي: ذلك.

أو هو منه.

" قل للذين آمنوا يغفرون للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ".

حذف المقول لأن الجواب لحال عليه.

والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا " لا يرجون أيام الله " لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب.

وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها.

قيل: نزلت قبل آية القتال ثم نسخ حكمها.

وقيل: نزولها في عمر رضي الله عنه وقد شتمه رجل من كفار فهتم أن يبطش به وعن سعيد بن المسيب: كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ قارئ هذه الآية فقال عمر: ليجزى عمر بما صنع " ليجزى " تعليل الأمر بالمغفرة أي: إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فإن قلت: قوله: " قوماً " ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف.

قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقوماً مخصوصين لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص " بما كانوا يكسبون " من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قول عمر: ليجزى عمر بما صنع: ليجزى بصبره واحتماله.

وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي.

وقرئ ليجزى قوماً أي: الله عز رجل.

وليجزي قوم.

وليجزى قوماً على معنى: وليجزي الجزاء قوماً.

" ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ".

" الكتاب " التوراة " والحكم " الحكمة والفقه.

أو فصل الخصومات بين الناس لأن الملك كان فيهم والنبوة " من الطيبات " مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق " وفضلناهم على العالمين " حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم " بينات " آيات ومعجزات " من الأمر " من أمر الدين فما وقع بينهم الخلاف في الدين " إلا من بعد ما جاءهم " ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم.

وإنما اختلفوا

" ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله من شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ".

" على شريعة " على طريقة ومنهاج " من الأمر " من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك.

ولا توالهم إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم وأما المتقون فوليهم الله وهم موالوه.

وما أبين الفصل بين الولايتين.

" هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ".

" هذا " القرآن " بصائر للناس " جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب.

كما جعل روحاً وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن.

وقرئ هذه بصائر أي: هذه الآيات.

" أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ".

" أم " منقطعة.

ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان.

والاجتراح: الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي: كاسبهم " أن نجعلهم " أي نصيرهم.

وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين

فأولهما الضمير والثاني: الكاف والجملة التي هي " سواء محياهم ومماتهم " بدل من الكاف لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً فكانت في حكم المفرد.

ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سديداً كما تقول: ظننت زيداً أبوه منطلق.

ومن قرأ سواء بالنصب: أجرى سواء مجرى مستوياً وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة.

ومن قرأ: ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم: ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم.

أي سواء: سواء في محياهم وفي مماتهم.

والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا وأن يستووا مماتاً لافتراق أحوالهم أحياء.

حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصي.

ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعد لهم.

وقيل معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة وإنما يفترقون في الممات وقيل: سواء محياهم ومماتهم كلام مستأنف على معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء وكذلك محيا المحسنين ومماتهم: كل يموت على حسب ما عاش عليه.

وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويردد إلى الصباح: ساء ما يحكمون.

وعن الفضيل: أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري

" وخلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ".

" ولتجزى " معطوف على بالحق لأن فيه معنى التعليل.

أو على معلل محذوف تقديره: خلق الله السموات والأرض ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

" أفرأيت من اتخذ إلهه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ".

أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

وقرئ: آلهة هواه لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها " وأضله الله على علم " وتركه عن الهداية واللطف وخذله على علم عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه وأنه ممن لا لطف له.

أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقربة " فمن يهديه من بعد " إضلال " الله " وقرئ غشاوة بالحركات الثلاث.

وغشوة بالكسر والفتح.

وقرئ تتذكرون.

" وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ".

" نموت ونحيا " نموت نحن ويحيا أولادنا.

أو يموت بعض ويحيا بعض.

أو نكون مواتاً نطفاً في

الأصلاب ونحيا بعد ذلك.

أو يصيبنا الأمران: الموت والحياة يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة.

وقرئ: نحيا بضم النون.

وقرئ إلا دهر يمر ما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين: كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر " أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر.

" وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ".

وقرئ حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره.

فإن قلت: لم سَمي قولهم حجة وليس بحجه قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم.

أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة.

أو لأن في أسلوب قوله: تحية بينهم ضرب وجيع كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة.

والمراد: نفي أن تكون لهم حجة البتة.

فإن قلت: كيف وقع قوله: " قل الله يحييكم " جواباً لقولهم: " ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ".

قلت: لما أنكروا

البعث وكذبوا الرسل وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت.

ألزموا ما هم مقرون به: من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإيتان بآبائهم وكان أهوان شيء عليه.

" ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ".

عامل النصب في " يوم يقوم " يخسر و " يومئذ " بدل من يوم تقوم " جَاِثيَة " باركة مستوفزة على الركب.

وقرئ جاذية والجذو: أشد استيفازاً من الجثو: لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاثية مجتمعة.

وعن قتادة جماعات من الجثوة وهي الجماعة وجمعها: جثى.

وفي الحديث: " من جثى جهنم " وقرئ: " كل أمة " على الابتداء وكل أمة: على الإبدال من كل أمة " إلى كتابها " إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى: " ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين

مما فيه " الكهف: 49.

" اليوم تجزون " محمول على القول.

فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل قلت: الإضافة تكون للملابسة وقد لابسهم ولابسه أما ملابسته إياهم فلأن أعمالهم مثبتة فيه.

وأما ملابسته إياه فلأنه مالكه والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده " ينطق عليكم " يشهد عليكم بما عملتم " بالحق " من غير زيادة ولا نقصان " إنا كنا نستنسخ " الملائكة " ما كنتم تعملون " أي نستكتبهم أعمالكم " في رحمته " في جنته.

وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا فيقال لهم " أفلم تكن آياتي تتلى عليكم " والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه.

" وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا الظن وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا يستهزئون ".

وقرئ: والساعة بالنصب عطفاً على الوعد وبالرفع عطفاً على محل إن واسمها " ما الساعة " أي شيء الساعة فإن قلت: ما معنى إن نظن إلا ظناً قلت: أصله نظن ظناً.

ومعناه: إثبات الظن فحسب فأدخل حرفا النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع في ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيداً بقوله: " وما نحن بمستيقنين.

.

.

.

.

.

سيئات ما عملوا " أي قبائح أعمالهم.

أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله تعالى: " وجزاء سيئة سيئة مثلها " الشورى: 45.

" وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ".

" ننساكم " نترككم في العذاب كما تركتم عدة " لقاء يومكم هذا " وهي الطاعة أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال كالشيء الذي يطرح نسياً منسياً.

فإن قلت: فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم.

قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: " بل مكر الليل والنهار " سبأ: 33 أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه.

وقرئ لا يخرجون بفتح الياء " ولا هم يستعتبون " ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه.

" فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ".

" فلله الحمد " فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب.

وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته " في السموات والأرض " وحق مثله أن يكبر ويعظم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب ".

سورة الأحقاف

مكية وآياتها 34 وقيل 35

بسم اله الرحمن الرحيم

{حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والذين كفروا عما أنذروا معرضون}.

" إلا بالحق " إلا خلقاً ملتبساً بالحكمة والغرض الصحيح وبتقدير " وأجل مسمى " ينتهى إليه وهو يوم القيامة " والذين كفروا عما أنذروا " من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه " معرضون " لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له.

ويجوز أن تكون ما مصدرية أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

{قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين}.

" بكتاب من قبل هذا " أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن يعني: أن هذا كتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك.

وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله " أو أثارة من علم " أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من شحم أي: على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب.

وقرئ أثرة لا أي: من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم.

قرئ أثرة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الأثرة.

أما الأثرة فالمرة من مصدر: أثر الحديث إذا رواه.

وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر الخطبة: اسم ما يخطب به.

{ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون}

" ومن أضل " معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر عل تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة وإذا قامت القيامة وحشر الناس: كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم.

وإنما قيل: " مَن " وهم لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوة.

ويجوز أن يريد: كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها.

قرئ: ما لا يستجيب وقرئ: يدعو غير الله من لا يستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها.

ونحوه قوله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة مكفرون بشرككم} فاطر: 14.

{وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين}.

" بينات " جمع بينة وهي الحجة والشاهد أو واضحات بينات.

واللام في " للحق " مثلها في قوله: " وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خير " الأحقاف: 11 أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا.

والمراد بالحق: الآيات وبالذين كفروا: المتلو عليهم فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق " لمل جاءهم " أي: بادروه بالجحود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر.

ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سموه سحراً مبيناً ظاهراً أمره في البطلان لا شبهة فيه.

{أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم }.

" أم يقولون افتراه " إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم: إن محمداً افتراه.

ومعنى الهمزة في أم: الإنكار والتعجيب كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضى منه

العجب وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له والحكيم لا يصدق الكاذب فلا يكون مفترياً.

والضمير للحق والمراد به الآيات " قل إن افتريته " على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه.

فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه.

يقال: فلان لا يملك إذا غضب ولا يملك عنانه إذا صمم ومثله: {فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم} المائدة {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً} المائدة: 41 ومنه قوله عليه الصلاة السلام: " لا أملك لكم من الله شيئاً " ثم قال: " هو أعلم بما تفضون فيه " أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى " كفى به شهيداً بيني وبينكم " يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالكذب والجحود.

ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم " وهو العزيز الرحيم " موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا.

فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إليهم في قوله تعالى: " فلا تملكون لي " قلت: كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم.

فكأنه قال لهم: إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عباد الله فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه.

{قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين}

البدع بمعنى: البديع كالخف بمعنى الخفيف.

وقرئ بدعا بفتح الدال أي: ذا بدع ويجوز أن يكون صفة على فعل كقولهم: دين قيم ولحم زيم: كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب.

فقيل له: " قل ما كنت بدعاً من الرسل " فآتيكم بكل ما تقترحونه وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم.

ولقد أجاب موسى صلوات الله وسلام عليه عن قول فرعون: " فما بال القرون الأولى ".

بقوله: " علمها عند ربي " طه: 52 " وما أدري " لأنه لا علم لي بالغيب ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ويقدر لي ولكم من قضاياه " إن أتبع إلا ما يوحى إليّ " وعن الحسن: وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا ومن الغالب منا والمغلوب.

وعن الكلبي: قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين: حتى متى نكون على هذا فقال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها يعني في منامه ذات نخيل وشجر وعن ابن عباس: ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة وقال: هي منسوخة بقوله: " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " الفتح: 2 ويجوز أن يكون نفياً للدراية المفصلة.

وقرئ ما يفعل بفتح الياء أي: يفعل الله عز وجل.

فإن قلت: إن يفعل مثبت غير منفي فكان وجه الكلام: ما يفعل بي وبكم.

قلت: أجل ولكن النفي في " ما أدري " لما كان مشتملاً عليه لتناوله مَا وما في حيزه صح ذلك وحسن.

ألا ترى إلى قوله: {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر} الأحقاف: 33 كيف دخلت الباء في حيز أن وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها.

وما في ما يفعل يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة.

وقرئ: يوحي أي الله عز وجل.

{قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين }

جواب الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين.

ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: " إن الله لا يهدي القوم الظالمين " والشاهد من بني إسرائيل.

عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة.

وما أول طعام يأكله أهل الجنة وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه.

فقال عليه الصلاة والسلام: " أما أولأشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت وأما الولد فإما سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته ".

فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإن علموا يا سلامي قيل أن تسألهم عني بهتوني عندك.

فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: أي رجل عبد الله فيكم.

فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله.

قالوا: أعاذه الله من ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا: شرنا وابن شرنا انتقصوه.

قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر.

قال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل: " وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله " الضمير للقرآن أي: على مثله في المعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك.

ويدل عليه قوله تعالى: {وإنه لفي زبر الأولين} الشعراء: 196 {إن هذا لفي الصحف الأولى} الأعلى: 18 {كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك} الشورى: 3 ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله.

فإن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم.

قلت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط كما عطفته ثم في قوله تعالى: {قل أريتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به} فصلت: 52 وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد وأما الواو في وشهد شاهد فقد عطفت جملة قوله.

{شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم} على جملة قوله: " كان من عند الله وكفرتم به " ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني لم ننفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما والمعنى: قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم.

وقد جعل الإيمان في قوله: " فآمن " مسبباً عن الشهادة على مثله: لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك.

{وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون}.

" للذين آمنوا " لأجلهم وهو كلام كفار مكة قالوا: عامة من يتبع محمداً السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود فلو كان ما جاء به خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء.

وقيل: لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار: قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع: لو كان خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهم.

وقيل: إن أمة لعمر أسلمت فكان عمر يضربها حتى يفتر ثم يقول لولا أني فترت لزدتك ضرباً وكان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعو إليه محمد حقاً ما سبقتنا إليه فلانة.

وقيل: كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه.

فإن قلت: لا بد من عامل في الظرف في قوله: " وإذ لم يهتدوا به " ومن متعلق بقوله: " فَسَيَقُولونَ " وغير مستقيم أن يكون " فَسَيَقُولونَ " هو العامل في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال فما وجه هذا الكلام.

قلت: العامل في إذ محذوف لدلالة الكلام عليه كما حذف من قوله: " فلما ذهبوا به " يوسف: 15 وقولهم: حينئذٍ الآن وتقديره: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا إفك قديم فهذا المضمر صح به الكلام حيث انتصب به الظرف وكان قوله: " فسيقولون "

مسبباً عنه كما صح بإضمار أن قوله: " حتى يقول الرسول " البقرة: 214 لمصادفة حتى مجرورها والمضارع ناصبه.

وقولهم: " إِفك قَدِيم " كقولهم: أساطير الأولين " كتاب موسى " مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدماً عليه وهو ناصب " إماماً " على الحال كقولك: في الدار زيد قائماً.

وقرئ: ومن قبله كتاب موسى على: وآتينا الذين قبله التوراة.

ومعنى " إِمَامًا ": قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام " ورحمة " لمن آمن به وعمل بما فيه " وهذا " القرآن " كتاب مصدق " لكتاب موسى أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب.

وقرئ " مصدق لما بين يديه " لساناً عربياً " حال من ضمير الكتاب في مصدق والعامل فيه مصدق ويجوز أن ينتصب حالاً عن كتاب لتخصصه بالصفة ويعمل فيه معنى الإشارة.

وجوز أن يكون مفعولاً لمصدق أي: يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول.

وقرئ: لينذر بالياء والتاء ولينذر: من نذر ينذر إذا حذر " وَبشرَى " في محل النصب معطوف على محل لينذر لأنه مفعول له.

{ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا}

قرئ: حسناً بضم الحاء وسكون السين.

وبضمهما وبفتحهما.

وإحساناً وكرهاً بالفتح والضم وهما لغتان في معنى المشقة كالفقر والفقر.

وانتصابه على الحال: أي: ذات كره.

أو على أنه صفة للمصدر أي: حملاً ذا كُره " وحمله وفصاله " ومدة حمله وفصاله " ثلاثون شهراً " وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل: " حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة " البقرة: 233 بقيت للحمل ستة أشهر.

وقرئ: وفصله والفصل والفصال: كالفطم والفطام.

بناء ومعنى.

فإن قلت: المراد بيان مدة الرضاع لا الفطام فكيف عبر عنه بالفصال.

قلت: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهي به ويتم: سمي فصالاً كما سمى المدة بالأمد من قال: كل حي مستكمل مدة العم ر ومود إذا انتهى أمد وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته.

وقرئ: حتى إذا استوى وبلغ أشده وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله وتمييزه وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين.

وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد وغايته الأربعين.

وقيل: لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة.

والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها: نعمة التوحيد والإسلام وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه لأن النعمة عليهما نعمة عليه.

وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس.

فإن قلت: ما معنى في في قوله: " وأصلح لي في ذريتي ".

قلت: معناه: أن يجعل ذريته موقعاً للصلاح ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ونحوه: يجرح في عراقيبها نصلي " من المسلمين " من المخلصين.

وقرئ: يتقبل ويتجاوز بفتح الياء والضمير فيهما لله عز وجل.

وقرئا بالنون.

فإن قلت: ما معنى قوله: " في أصحاب الجنة ".

قلت: هو نحو قولك: كرمني الأمير في ناس من أصحابه تريد: كرمني في جملة من أكرم.

منهم ونظمني في عدادهم ومحله النصب على الحال على معنى: كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم " وعد صدق " مصدر مؤكد لأن قوله: يتقبل ويتجاوز: وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز.

وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفى أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم.

وقيل: لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو وولداه وبنوه وبناته غير أبي بكبر رضي الله عنه.

{والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين أولئك الذين حق عليهم القول في}

" والذي قال لوالديه " مبتدأ خبره: أولئك الذين حق عليهم القول.

والمراد بالذي قال: الجنس القائل ذلك القول ولذلك وقع الخبر مجموعاً.

وعن الحسن: هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث.

وعن قتادة: هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه.

وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأف أم رومان إلى الإسلام فأفف بهما وقال: ابعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو وهما

من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد ويشهد لبطلانه أن المراد بالذي قال: جنس القائلين ذلك وأن قوله الذين حق عليهم القول: هم أصحاب النار وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم.

وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولي فيه وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم.

فقال مروان: يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه: " والذي قال لوالديه أف لكما " فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله.

وقرئ: أف بالكسر والفتح بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال: حس علم منه أنه متوجع واللام للبيان معناه: هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما.وقرئ أتعدانني بنونين.وأتعداني: بأحدهما وأتعداني:.

بالإدغام.

وقد قرأ بعضهم: أتعدانني بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ففتح الأولى تحرياً للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما " أن أخرج " أن أبعث وأخرج من الأرض.

وقرئ: أخرج " وقد خلت القرون من قبلي " يعني: ولم يبعث منهم أحد " يستغيثان الله " يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك وهو استعظام لقوله: " ويلك " دعاء عليه بالثبور: والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك " في أمم " نحو قوله: " في أصحاب الجنة " الأحقاف: 16 وقرئ: أن بالفتح على معنى: آمن بأن وعد الله حق.

{ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون}

" ولكل " من الجنسين المذكورين " درجات مما عملوا " أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر أو من أجل ما عملوا منهما.

فإن قلت: كيف قيل: درجات وقد جاء: الجنة درجات والنار دركات.

قلت: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب لاشتمال كل على الفريقين " وليوفهم " وقرئ: بالنون تعليل معلله محفوف لدلالة الكلام عليه كأنه قيل: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات.

{ويوم يعرض الذي كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم}

ناصب الظرف هو القول المضمر قبل أذهبتم وعرضهم على النار: تعذيبهم بها من قولهم: عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: {النار تعرضون عليها} غافر: 46 ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض يريدون: عرض الحوض عليها فقلبوا.

ويدل عليه تفسير ابن عباس رضي الله عنه: يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها " أذهبتم طيباتكم " أي: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم وقد ذهبتم به وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها.

وعن عمر رضي الله عنه: لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكراكر وأسمنة ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا.

وعنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ولكني أستبقى طيباتي وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً فقال: " أأنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ويغلى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى وتستر بيته كما تستر الكعبة.

قالوا: نحن يومئذ خير.

قال: بل أنتم اليوم خير " وقرئ: أأذهبتم بهمزة الاستفهام.

وآاذهبتم بألف بين همزتين: الهون والهوان وقرئ عذاب الهوان وقرئ: " يفسقون " بضم السين وكسرها.

{واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه إلا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}

الأحقاف: جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن

وقيل: بين عمان ومهرة.

و " النذر " جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار " من بين يديه " عن قبله " ومن خلفه " ومن بعده.

وقرئ: من بين يديه ومن بعده والمعنى: أن هوداً عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم: لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه: يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه.

ومعنى " ومن خلفه " على هذا التفسير ومن بعد إنذاره هذا إذا علقت وقد خلت النذر بقوله: أنذر قومه ولك أن تجعل قوله تعالى: " وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه " اعتراضاً بين أنذر قومه وبين " ألا تعبدوا " ويكون المعنى: واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك فاذكرهم.

{قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين}

الإفك: الصرف.

يقال أفكه عن رأيه " عن آلهتنا " عن عبادتها " بما تعدنا " من معاجلة العذاب على الشرك " إن كنت " صادقاً في وعدك.

{قال إنما العلم عند الله وأبلغكم بما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون}

فإن قلت: من أين طابق قوله تعالى: {إنما العلم عند الله} جواباً لقولهم: {فأتنا بما تعدنا} قلت: من حيث إن قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب.

ألا ترى إلى قوله تعالى: " بل هو ما استعجلتم به " فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصواباً إنما علم ذلك عند الله فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم ومعنى: وأبلغكم أما أرسلت به وقرئ بالتخفيف: أن الذي هو شأني وشرطي: أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدي ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

{فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين}.

" فلما رأوه " في الضمير وجهان: أن يرجع إلى ما تعدنا وأن يكون مبهماً قد وضح أمره بقوله " عارضاً " إما تمييز وإما حالاً وهذا الوجه أعرب وأفصح.

والعارض: السحاب الطي يعرض في أفق السماء.

ومثله: الحبى والعنان من حباً وعنّ: إذا عرض.

وإضافة مستقبل وممطر جازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة " بل هو " القول قبله مضمر والقائل: هود عليه السلام والدليل عليه قراءة من قرأ: قال هود بل هو وقرئ: قل بل ما استعجلتم به هي ريح أي قال اللّه تعالى: قل " تدمر كل شيء " تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير فعبر عن الكثرة بالكلية.

وقرئ يدمر كل شيء من دمر دماراً إذا هلك " لا ترى " الخطاب للرائي من كان.

وقرئ: لا يرى على البناء للمفعول بالياء والتاء وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضي الله عنه: لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم.

ومنه بيت ذي الرمة: وما بقيت إلا الضلوع الجراشع وليست بالقوية.

وقرئ: لا ترى إلا مسكنهم ولا يرى إلا مسكنهم وروى أن الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجو حتى ترى كأنها جرادة.

وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار.

وروي: أول ما عرفوا به أنة عذاب: أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعهم وأمال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنه فاحتملتهم فطرحتهم في البحر.

وروى أن هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على المجلود وتلذه الأنفس.

وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء وتدمغهم بالحجارة وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: " اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وإذا رأى مخيلة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فيقال له: يا رسول الله ما تخاف.

فيقول: إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا: هذا عارض ممطرنا ".

فإن قلت: ما فائدة إضافة الرب إلى الريح.

قلت: الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقويه.

{ولقد مكناكم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون}

" إن " نافية أي: فيما ما مكناكم فيه إلا أن " إِن " أحسن في اللفظ لما في مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع.

ومثله مجتنب ألا ترى أن الأصل في مهما: ماما فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء.

ولقد أغث أبو الطيب في قوله: لعمرك ماما بان منك لضارب وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال: لعمرك ما إن بان منك لضارب وقد جعلت إن صلة مثلها فيما أنشد الأخفش: يرجى المرء ما أن لا يراه وتعوض دون أدناه الخطوب وتؤول بإنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الأول ولقد جاء عليه غير آية في القرآن {هم أحسن أثاثاً ورئيا} مريم: 74 " {كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً} غافر: 82 وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث على الاعتبار " من شيء " أي من شيء من الإغناء وهو القليل منه.

فإن قلت بم انتصب " إذ كانوا يجحدون " قلت بقوله تعالى: " فما أغنى " فإن قلت: لم جرى مجرى التعليل.

قلت: لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته وضربته إذ أساء لأنك إذا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه إلا أن إذ وحيث غلبتما دون سائر الظروف في ذلك.

" ما حولكم " يا أهل مكة " من القرى " من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرهما.

والمراد: أهل القرى.

ولذلك قال: " لعلهم يرجعون ".

{فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكاً وما كانوا يفترون}

القربان: ما تقرب به إلى الله تعالى أي: اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف والثاني: آلهة.

وقرباناً: حال ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى.

وقرئ قربانا بضم الراء.

والمعنى: فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم " بل ضلوا عنهم " أي غابوا عن نصرتهم " وذلك " إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم أي: وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء.

وقرئ إفكهم والأفك والإفك: كالحذر والحذر.

وقرئ: وذلك إفكهم أي: وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق.

وقرئ: أفكهم على التشديد للمبالغة.

وآفكهم جعلهم آفكين.

وآفكهم أي: قولهم الآفك ذو الإفك كما تقول قول كاذب وذلك إفك مما كانوا يفترون أي: بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

{وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى

قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى صرط مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين}.

{صرفنا إليك نفراً} أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك.وقرئ: صرفنا بالتشديد لأنهم جماعة.

والنفر: دون العشرة.ويجمع أنفاراً.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: لو كان ههنا أحد من أنفارنا " فلما حضروه " الضمير للقرآن.

أي: فلما كان بمسمع منهم.

أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتعضده قراءة من قرأ فلما قضى أي أتم قراءته وفرغ منها " قالوا " قال بعضهم لبعض " أنصتوا " اسكتوا مستمعين.

يقال: أنصت لكذا واستنصت له.

روى: أن الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى: منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف.

وعن سعيد بن جبير ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأه الله باستماعهم.

وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفراً منهم جمعهم له فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني: قالها ثلاثاً فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لم يحضره ليلة الجن أحد غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطا وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت شيئاً قلت: نعم رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض فقال: اللوح المحفوظ " فهم يكتبون " ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لم نعذب " أم يريدون كيداً " وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين " فالذين كفروا " إشارة إليهم أو أريد بهم كل من كفر بالله " هم المكيدون هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم.

وذلك أنهم قيلوا يوم بدر.

أو المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته.

{وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مركومٌ فذرهم حتى يُلقوا يومهم الذي فيه

يُصعقون يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون وإنَّ للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون} الكسف: القطعة وهو جواب قولهم: {أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا} الإسراء: 92 يريد: أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب.وقرئ: " حتى يلقوا " ويلقوا " يُصعقون " يموتون.وقرئ: " يصعقون ".يقال.

صعقه فصعق وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق " وإنَّ للذين ظلموا " وإن لهؤلاء الظلمة " عذاباً دون ذلك " دون يوم القيامة: وهو القتل ببدر والقحط سبع سنين وعذاب القبر.

وفي مصحف عبد الله: دون ذلك تقريباً.

{واصبر لحكم ربك فإنَّك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم} " لحكم ربك " بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة " فإنَّك بأعيننا " مثل أي: بحيث نراك ونكلؤك.

وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: {ولتصنع على عيني} طه: 39.

وقرئ: " بأعينا " بالإدغام " حين تقوم " من أي مكان قمت.

وقيل: من منامك " وإدبار النجوم " وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل.

وقرئ: " وإدبار " بالفتح بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت والمراد الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات.

وقيل التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه ومن الليل: صلاة العشاءين وأدبار النجوم: صلاة الفجر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 096 " من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته "

سورة القتال

مدنية وهي تسع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أَل أعمالهم

سورة محمد صلي الله عليه وسلم

مدنية عند مجاهد . وقال الضحاك وسعيد بن جبير مكية وهي سورة القتال

وهي تسع ثلاثون آية , وقيل ثمان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(وصدوا) وأعراضوا وامتنعوا عن الدخول في الأسلام أو صدوا وغيرهم عنه. قال بن العباس رضي الله عنه: هم المطعمون يوم بدر , وعن مقاتل كانوا اثني عشر رجلا من أهل الشرك يصدون الناس عن الاسلام ويأمرنهم بالكفر . وقيل هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من اراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الاسلام . وقيل هو عام في كل من كفر وصد (أضل أعمالهم) أبلها وأحبطها , وحقيقته جعلها ضل ضائعه ليس لها من يتقبلها ويثبت عليها كالضالة من الإبل التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها . أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم مغلوبة بهم كما يضل الماء في اللبن أعمالهم ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونهم مكارم من صلة.

الأرحام وفك الأساري وقري الأضياف وحفظ الجوار , وقيا أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله صلي الله عليه وسلم والصد عن سبيل الله بأن نصره عليهم واظهر دينه علي كله (والذين آمنوا) قال مقاتل : هم ناس من قريش, وقيل من الأنصار , وقيل هم مؤمنون أهل الكتاب , وقيل هم عام, وقوله (آمنوا بما نزل علي محمد) اختصاص بالإيمان بالمنزل علي رسول الله علي وسلم من بين ما يحب به من الإيمان تعظيما من لشانه وتعليما لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم الإ به وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله (وهو الحق من ربهم) وقيل معناها أن دين محمد هو الحق , إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره , وقرء نزل وانزل علي البناء للمفعول ونزل علي البناء للفاعل ونزل بالتخفيف

(كفر عنهم سيئاتهم) ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم (وأصلح بالهم) أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في الأمور الدين وبالتبسيط علي الدنيا بما أعطاهم من النصر والتأييد (ذلك) مبتدا وما بعده خبره : أي ذلك لأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني كائن بسبب ابتاع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق . ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف : أي الأمر كما ذكر بهذا السبب فيكون محل الجر والمجرور منصوبا علي هذا ومرفوعا علي الأول , و (الباطل) ما لا ينتفع به , وعن مجاهد : الباطل الشيطان , وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير (كذلك) مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين علي معني أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم . فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : في أن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنون أو في أن جعل الإضلال مثلا لحيبة الكفار وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنون (لقيتم) مكن اللقاء وهو الحرب (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابة مضاف إلى المفعول , وفيه اختصار مع إعطاء معني التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل علي الفعل بالنصبة التي فيه , وضرب الرقاب عبارة عن القتل لآن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضتء , وذلك أنهم كانوا يقولون ضرب الآمير رقبة فلان وضرب عنقه وعلاوته وضرب ما فيه عيناه إذا قتله , وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته فوقع عبارة عن القتل وإن ضرب غير رقبنه من المقاتل كما ذكرنا في قوله - بما كسبت أيديكم - علي أن هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير التل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه , ولقد زاد في هذه الغلظة

(أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) .

في قوله تعالي - فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان - (أثخنتموهم) أكثر ام قتلهم وأغلظتموهم من الشيء الثخين وهو الغليظ , أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبت عنهم النهوض (فشدوا الوثاق) فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به . منا وفدا منصوبان بفعليهما مضمرين : أي فإما تمنون منا وإما تفدون فداء , والمعني : التخيير بعد الاسر بين ان يمنوا عليهم فيطلقهم وبين أن يفادهم , فإن قلت : كيف حكم اساري المشركين ؟ قلت : أما عند أبي حنيفة و أصحابه فاحد الأمرين : أما قتلمهم , وأما استرقاقهم ايهما رأي الأمام , ويقولون في المن والفداء المذكورين في الآية ذكر في الآية نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ , وعن مجاهد : وليس اليوم من ولا فداء , وامنا هو الاشلام ضرب النعق , ويجوز ان يراد بالمن أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا , أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وكونهم من أهل الذمة , وبالفداء أن يفادي باسراهم اساري المشركين , فقد رواه الطحاوي مذهبا عن أبي حنيفه والمشهور انه لا يري فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين , وأما الشافعي فيقول , للأمام أن يختار أحد أربعة علي حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين وهو القتل والاسترقاق والفداء باساري المسلمين والمن ويحتج بأن رسول الله صلي الله وعليه وسلم من علي أبي عروة الحجي وعلي أبن أنال الحنفي وفاديرجلا برجلين من المشركين , وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي . وقريء فدي بالقصر مع فتح الفاء . أوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التي لا تقوم الا بها كالسلاح والكراع , وقال الأعشي :

وأعددت للحرب أوزارها**رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد أوزرارها اابلتيسنكامن جرها فكأنها تحملها وتستقل بها , فاذا انقضت فكانها وضعتها . وقيل أوزارها آثامها : يعني حتي يترك أهل الحرب وهم المشركين شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا . فإن قلت : حتي بم تعلقا؟ قلت : لا تخلوا إما أن تتعلق بالضرب والشد أو بالمن والفداء , فالمعني علي كلا المتعلقين عند الشافعي رضي الله عنه أنهم لا يزالون علي ذلك أبدا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين وذلك إذا لم يبق لهم شوكة . وقيل إذا نزل عيسي بن مريم عليه السلام . وعند أبي حنيفة رحمه الله : إذا علق بالضرب والشد : فالمعني : أنهم يقتلون ويؤسرون حتي تضع جنس الحرب الأوزوار وذلك حين لا تبقي شوكة للمشركين . و إذا علق بالمن والفداء فالمعني : أنه يمن عليهم ويفادون حتي تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتناول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل (ذلك) أي الأمر ذلك , أو افعلوا ذلك (لانتصر منهم) لانتقم منهم ببعض أشباب الهلك من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت جارف (ولكن) أمركم بالقتال ليبلو المؤمنون بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتي يستوجبوا الثواب العظيم , والكافرين بالمؤمنين بأن يعالجهم علي أيديهم ببعض ماوجب لهم العذاب . وقريء قتلوا بالتخفيف والتشديد وقتلوا وقاتلوا . وقرىء فلن يضل أعمالهم وتضل أعمالهم علي البناء للمفعول , ويضل أعمالهم من ضل . وعن قتادة أنها نزلت في يوم أحد (عرفها لهم) أعلمهما لهم وبينهما بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ.وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ.ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ.أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا.ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ.إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ}.

من الجنة . قال مجاهد : يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها . وعن مقاتل أن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يشمي بين يديه فيعرفه كل شيئ أعطاه الله أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة . وفي كلام بعضهم : عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري , أو حدودها لهم فجنة كل أحد محدودة مفرزها عم غيرها . من عرف الدار وأرفها والعرف والأرف الحدود (إن تنصروا) دين (الله) ورسوله (ينصركم علي عدوكم ويفتح لكم (ويثبت أقدامكم) في مواطن الحرب , أو علي محجة الإسلام (والذين كفروا) يحتمل الرفع علي الابتداء والنصب بما يفسره (فتعسا لهم) كأنه قال : أتعس الذين كفروا فان قلت : علام عطف قوله (وأضل أعمالهم) ؟ قلت : علي القعل الذي نصب تعسا , لأن المعني : فقال تعسا لهم , أو فقضي تعسا لهم , وتعسا لهم نقيض لعاله , قال الأعشي : فالتعس اولي لها من أن اقول لعا , يريد فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت , وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يريد في الدنيا القتل والآخره التردد في النار (كرهوا) القرآن وما انزل الله فيه من التكاليف والاحكام لأنهم قد ألفوا الاهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم , دمره أهلكه , دمر عليه أهلك عليه ما يختص به والمعني : دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم (وللكافرين أمثالها) الضمير للعاقبة المذكورة أو للهكلة لأن التدمير يدل عليهما , أو للسنة لقوله عز وجلا - سنة الله في الذين خلوا - (مولي الذين آمنوا) وليهم ناصرهم , وفي قراءة ابن مسعود ولي الذين آمنوا , ويروي (أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان في الشعب يوم أحد وقد فشا فيهم الجراحات , وفيها نزلت فنادي المشاركون : أعل هبل , فنادي المسلمون , الله أعلي وأجل , فنادي المشاركون : يوم بيوم والحرب سجال إن لنا عزي ولا عزي لكم , فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : قولوا الله مولانا ولا مولي لكم , إن القتلي مختلفة , أما قتلانا فأحياء يرزقون , وأما قتلاكم ففي النار يعذبون) . فإن قلت : قوله تعالي - وردوا إلى الله مولاهم الحق - مناقض لهذه الآية؟ قلت : لا تناقض بينهما لأن الله مولي عبادعهه جميعا علي معني أنه ربهم ومالك أمرهم , وأما علي

معني الناصر فهو مولي المؤمنون خاصة (يتمتعون) ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياما قلائل (ويأكولون) غافلين غير مفكرين في العاقبة (كما تأكل الأنعام) في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر ولذبح (مثوي لهم) منزل ومقام.

{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ. مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ}.

وقريء وكأين بوزن كاعن . وأراد بالقربة أهلها ولذلك قال (أهلكناهم) كأنه قال : وكم من قوم هم أشد من قوة من قومك الذين أخرجوكم أهلكناكم . ومعني أخرجوك : كانوا خروجك . فإن قلت : كيف قال (فلا ناصر لهم) وأنما هو أمر قد مضي؟ قلت : مجراه مجري الحال المحكية كأنه قال : أهلكناهم فهم لا ينصرون . (من زين له) هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله , ومن كان علي بينة من ربه : أي علي حجة من عنده وبرهان , وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله صلي الله عليه وسلم . وقريء أمن كان علي بينه من ربه , وقال تعالي (سوء عماله واتبعوا) للحمل علي لفظ من معناه . فإن قلت : ما معني قوله تعال (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها النار) كمن هو خالد في النار؟ قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعني النفي والانكار لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزة وانخراطه في سلكه وهو قوله تعال - أفمن كان علي بينة من ربه كمن زين له سوء عمله - فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟ أي كمثل جزاء من هو خالد في النار . فإن قلت : فلم عري من حرف الانكار وما فائدة التعري ؟ قلت : تعريته من حرف الانكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع الهواه , وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقي أهلها الحميم , ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن**أورث ذودا شصائصا نبلا

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعرية عن حرف الانكار لانطوائه تحت حكم قول من قال : أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله؟ والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أزن به

قوله تعالي (مثل الجنة التي وعد المتقون) الآية , قال فيه (هو كلام في صورة الاثبات ومعناه النفي الخ) قال إذكر الناس في تأويل هذه الآية فلم أر أطلي ولا أحلي من هذه النكت التي ذكرها , لا يعوزها إلا التنبه علي أن في الكلام محذوفا لابد من تقديره , لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار إلا علي تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن حمد : كم إذكر النسإإتالاكنتبير الكلام ويتعادل كفتاه , ومن هذا النمط قوله تعالي - أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله - فلأنه لابد من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني ليتعادل القسمان , وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق أخر الكلام علي أوله , فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة والراكب لهوي ببعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار علي الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين , وهو من وادي تنظير الشيء بنفسه باعتبار حالتين : إحداهما أوضح في البيان من الأخرى , فإن المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة , والمتبع للهوي هو المعذب في النار المنعوتة , ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا , وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانيا.

{مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ

يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ. وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ. فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ}.

فكانه قال : نعم مثلي يفرح بمرازاة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودا يقل طائله , وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار , ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن وهو مبتدأ وخبره كمن هو خالد , وقوله - فيها أنهار - داخل في حكم الصلة كالتكرير لها ' ألا تري إلى صحة قولك التي فيها أنهار , ويجوز أن يكون خبر مبدأ محذوف هي فيها أنهار , وكأن قائلا قال : وما مثلها؟ فقيل فيها أنهار . وأن يكون في موضع الحال . أي مستقرة فيها أنهار , زفي قراءة علي رضي الله عنه أمثال الجنة : أي ما صفتها كصفات النار . وقريء أسن , يقال أسن الماء وأجن : إذا طعمه وريحه , وأنشد ليزيد بن معاوية .

لقد سقتني رضابا غير ذي أسن**كالمسك فت علي ماء العناقيد

{ومن لبن لم يتغير طعمه} كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود قارصا ولا حاذرا ولا ما يكره من الطعوم (لذة) تأنيث لذ وه اللذيذ أو وصف بمصدر , وقريء بالحركات الثلاث , فالجر علي صفة الحمر , والرفع علي صفة الانهار , والنصب علي العلة : أي لأجل لذة الشابين , والمعني : ما هو اللي التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفه من آفات الخمر (مصفي) لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره (ماء حميما) قيل إذا دنا منهم شوي وجوههم وانمازت فروة رءسهم , فإذا شربوة قطه أمعاءهم . هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلي الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاتهاونا منهم , فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة ماذا قال الساعة؟ علي جهة الاستهزاء . وقيل كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء , وقيل قالوه لعبد الله بن مسعود , وعن أبن عباس : أنا منهم وقد سميت فيمن سئل (آنفا) وقريء آنفا علي فعل نصب علي الظرف , قال الزجاج : هو من أستأنف الشيء إذا ابتدأته . والمعني:ماذا قال في أول وقت يقرب منا؟ (زادهم) الله (هدي) بالتوفيق (وآتاهم تقواهم) أعانتهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم . وعن السدي بين لهم يتقون . وقريء وأعطاهم , وقيل الضمير في زادهم لقول الرسول أو لاستهزاء المنافقين (أن تأتيهم) بدل اشتمال من الساعة نحو - أن تطئوهم - من قوله - رجال مؤمنون ونساء مؤمنات - و قريء إن تأتيهم بالوقوف علي الساعة واستئناف الشرط وهي في مصاحف أهل مكة كذلك , فإن قلت : فما جزاء الشرط؟ قلت : قوله - فأني لهم - ومعناه : إن تأتيهم الساعة فكيف لهم ذكراهم : أي اذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة , ويعني لا تنفعهم الذكري حينئذ كقوله تعالي - يومئذ يتذكر الإنسان وأني له الذكري - فإن قلت : بم يتصل قوله.

{بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} (محمد)

{قد جاء أشراطها} علي القراءتين ؟ قلت : بإتيان الساعة اتصال علة بالمعلول كقولك : 'ن أكرمني زيد فأنا حقيق بالاكرام أكرمه , والأشراط الاعلامات , قال أبو الاسود

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت اشراط أوله تبدو

وقيل مبعث محمد خاتم الأنبياء صلي الله عليه وسلم وعليهم منها وانشقاق القمر والدخان . وعن الكلي . كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الارحام وقلة الكرام

وكثرة اللئام ,' وقريء بغته بوزن جربة , وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها , وهي مروية عن أبي عمرو , وما اخوقي في أن تكون غلطة من الراوي علي أبي عمرو , وان يكون الصواب بغته بفتح العين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم . لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال : إذا علمت ان المر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فاثبت علي ما انتا عليه من العلم لوحدانية الله وعلي التواضع وهضم النفس باستغفار ذنوبك وذنوب ما علي دينك . والله يعلم أحوالكم ومتصرفتكم ومتقلبتكم في معايشكم ومتاجركم , ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حيانكم ومثوالكم في القبور , أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار , ومثلة حقيق بأن يخشي ويتقي وأن يستغفر ويسترحم . وعن سفيان بن عينية ا،ه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال - فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك - فامر بالعمل بعد العلم وقال - اعلموا أن الحياة الدنيا لعب ولهو - إلى قوله - سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال - واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة - ثم قال بعد - فاحذروهم - وقال - واعلموا أن غنمتم من شيء فأن لله خمسه - ثم أمر بالعمل بعد . وكانوا يدعون الحرص علي الجهاد ويتمنونه بالسنتهم و يقولون (لولا نزلت سورة) في معني الجهاد (فإذا انزلت) وأمروا فيها بما تمنواوحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقطوا في أيديهم كقوله تعالي - فلما فلما كتب عليم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس - (محكمة) مبينه غير متشابهة لا تحتمل وجها الإوجوب القتال , وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة , وهي أشد القرآن علي المنافقين . وقيل لها محكمة لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة , وقيل هي المحدثة لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقي غير منسوخة , زفي قراءة عبد الله : سورة محدثة وقرئ فإن نزلت سورة وذكر فيها القتال علي البنا\ء للفاعل ونصب القتال (الذين في قلوبهم مرض) هم الذين كانوا علي حرف غير ثابتي الأقدام (نظر المغشي عليه من الموت) أي شخص أبصارهم جبنا وهلعا وغيظا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت (فأولي لهم) وعيد بمعني فويل لهم . وهو أفعل منالولي وهو القرب ومعناه:

{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ. فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا. إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ}(محمد)

الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه (طاعة وقول ومعروف) كلام مستأنف : أي طاعة وقول خير لهم , وقيل هي حكاية قولهم . : أي قالوا طاعة وقول معروفا أمرنا طاعة وقول معروف . وتشهد له قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف (فإذا عزف الأمر) أي الجد والعزم زالجد لاصحاب الأمر وانما يستندا إلى الامر استنادا مجازيا ومنه قوله تعالي - إن ذلك من عزم الأمور - (فلو صدقوا الله) فيما زعموا من الحرص علي الجهاد , أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم في السنتهم , عسيت وعسيتم لغة أهل الحجاز , وأما بنو تمتم فيقولون عسي أن تفعل وعس ألأن تفعلوا وأن يلحقون الضمائر ؟, وقراء نافع بكسر السين وه غريب , وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب علي طريقة الالتفاف ليكون أبلغ في التوكيد . فإن قلت : ما معني فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض ؟ قلت : معناه هل يتوقع منكم الإفساد . فان قلت ؟ فان قلت : كيف يصح هذا فكلام الله عز وجلا وهو عالم بما كان وما يكون ؟ قلت : معناه أنمكم لما عهد منكم إن توليام أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبيسن منكم من الشواهد ولاح من المحايل (أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) تناحر علي الملك وتهالكا في الدنيا , وقيل أن أعرضهم وتوليتم عن دين رسول الله صلي الله عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضا وواد

البنات . وقرئ وليتم , وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توليتم : أي إن تولاكم ولاة عشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم . و قرئ وتقطعوا وتقطعوا من التقطيع والتقطع (أولئك) اشارة إلى المذكورين (لعنهم الله) لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم الطافه وخذلهم حتي صموا علي استماع الموعظة وعموا عن ابصار طريقة الهدي . ويجوز أن يريد بالذين آمنوا المؤمنين الخلص الثابتين وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم , فإذا أنزلت سورة في معني الجهاد رأيت المنافقين فيما بينهم يضجر و منها (أفلا يتدبرون القرآن) ويتصفحون وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصا حتى لا يجسروا عن المعاصي , ثم قال (أم علي قلوب أقفالها) أم بمعني بل , وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر , وعن قتادة : إذن والله يجدوا القرآن زاجر عن معصية الله لو تدبروه ولكنهم أخذوا بالمتش فهلكوا . فان قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟ قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد قلوب قاسية مبهم أمرهم في ذلك , أو يراد علي بعض القلوب وهي قلوب المنافقين , وأما أضافة الأقفال فلا يريد الأقفال المختصة بها هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح . وقرئ أقفالها علي المصدر (الشيطان س)..

{لَهُمْ وَأُمْلِي لَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ.فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ. وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} (محمد).

لهم جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لأن كقولك إن زيدا عمرو مر به , سول لهم سهل لهم ركوب العظام من السونل وهو الاسترخاء , وقد اشتقه من السؤال من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا (وأملي لهم) ومد لهم في الآمال والأماني , وقرئ ةأملي لهم : يعني أن الشيطان يغويهم ,انا انظرهم كقوله تعالي - انما نملي لهم - وقرئ وأملي لهم علي البناء للمفعول : أي امهلوا ومد في عمورهم , وقرئ سؤال لهم , ومعناه : كيد الشيطان زين لهم علي تقدير حذف المضلف , فإن قلت : من هؤلاء ؟ قلت : البهود كفروا بمحمد صلي الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدي وهو نعته في التوراة , وقيسل هي المنافقين , الذين قالوا : اليهود , والذين كرهوا ما نزل الله : المنافقون , وقيل عكسه وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير - لئن اخرجتم لنخرجن معكم - . وقيل بعض الأمر التكذيب برسول الله صلي الله عليه وسلمأو بلا اله الا الله أو ترك القتال معه , وقيل هو قول أحد الفريقين للمشركين سنطيعكم في التظافر علي عداوة رسول الله صلي الله عليه وسلم والقعود عن الجهاد معه , ومعني .(في بعض الأمر) في بعض ما تأمرون به أو في بعض الأمر الذي يهمكم (والله يعلم أسرارهم) وقرئ أسرارهم علي المصدر قالوا ذلك سرا فيما بينهم فأفشاه الله عليهم . فكيف يعلمون وما حخيلتهم حينئذ . وقرئ : توفاهم , ويحتمل أن يكون ماضيا ومضارعا قد حذفت إحدي تاءيه كقولي تعالي - إن الذين توفاهم الملائكة - وعن أبن عباس رضي الله عنهما : لا يتوفي أحد علي معصية الله لا يضرب من الملائكة في وجهة ودبره (ذلك) اشارة إلى التوفي الموصوف (ما أسخط الله) من كتمان نعت رسول الله صلي الله عليه وسلم: و (رضوانه) الإيمان برسول الله (أضغانهم) أحقادهم وإخراجها أبرازها رسول الله وللمؤمنون وإظهارهم علي نفاقتهم وعداتهم لهم كانت صدورهم تغلي حنقا عليهم (لآريناكهم) لعرفناكهم ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفونة عليك (بسيماهم) بعلامتهم وهو أن يسمهم الله تعالي بعلامة يعلمون بها . وعن أنسي رضيب الله عنه (ما خفي علي رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم , ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس , فناموا ذات ليلة واصبحوا وعلي جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق) . فان قلت : أي فرق بين اللامين في فلعرفتهم ولتعرفتهم ؟ قلت : الأولي هي الداخلة في جواب لو كالتي في

لأريناكم كررت في المعطوف , وأما الام في ولتعرفنهم فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف (في لحن القول) في نحوه وأسلوبة . وعن ابن عباس:

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} (محمد)

هو قولها ما لنا أن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب . وقيل اللحن أن تلحن بكلامك :

أي تميله إلى نحو من الأنحاء ليفظن له صاحبك كالتعريض والتورية , قال :

لقد لحنت لكم لكيما تفقهوا واللحن يعرفه ذوو الألبان

وقيل للمخطئ لاحن لانه بعدل بالكلام عن الصواب (أخباركم) ما يحكي عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسنها من قبيحها لأن الخبر علي حسب المخبر عنه إن حسنا فحسن وإن قبيحا فقبيح . وقرأ يعقوب ونبلو بسكون الواو علي معني ونحن نبلو أخباركم , وقرئ وليبلونكم ويعلم ويبلو بالياء . وعن الفضيل . أنه كان إذا قرأها بكي وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا (وسيحبط أعمالهم) التي أعمالهم التي عملوها والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول : أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم الإ القتل والجلاء عن أوطانهم . وقيل هم رؤساء قريش والمطعمون يوم بدر (ولا تبطلوا أعمالكم) أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر كقوله تعالي - لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - إلى أن قال - أن تحبط أعمالكم - وعن أبي العالية - كان أصحاب الرسول صلي الله عليه وسلم الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ. فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ. إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ. إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ. هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد).

كمات لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت - ولا تبطلوا أعمالكم - فكانوا يخافون الكبائر علي أعمالهم , وعن حذيفة فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم . وعن أبن عمر (كنا نري أنه ليس شيء من حسباتنا ال مقبولا حتى نزل - ولا تبطلوا أعمالكم - فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزلت - إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء - فكففنا عن القول في ذلك , فكنا نخاف علي ما أصابنا الكبائر ونرجو لمن لم يصبها ") وعن قتادة رحمه الله : رحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ , وقيل لا تبطلوها بمعصيتها . وعن أبن عباس رضي الله عنه : لا تبطلوها بالريا والسمعة , وعنه بالشك و النفاق . وقيل بالعجب فإن العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقيل لا تبطلوها صدقاتكم بالمن والأذي (ثم ماتوا وهم كفار) قيل هم أصحاب القليب والظاهر العموم (فلا تهنوا) ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدو (و) لا (ادعو إلى السلم) وقرئ السلم وهما المسالمة (وأنتم الأعلون) أي الأغلبون الأقهرون (و الله معكم) أي ناصركم . وعن قتادة : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة . وقرئ ولا تدعوا من ادعي القوم وتدعوا إذا دعوة نحو قولك ارتموا الصيد وتراموه , وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي أو منصوب لأضمار أن ونحو قوله تعالي - أنتم الأعلون - قوله تعالي - أنك أنت الأعلي - (ولم يتركم) من وترت الرجل إذا

قتلت لهم قتيلا من ولد أو أخ أو حميم أو حربته وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد , فشبه اضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من فصيح الكلام , ومنه قوله عليه الصلاة والسلام (من فاتته صلاة العصر فكانما وتر أهله وماله) أي أفرد عنهما قتلا ونهبا (يؤتكم أجوركم) ثواب إيمانكم وتقوزاكم (ولا يسألكم أموالكم) أي ولا يسألكم جميعها أنما يقتصر منكم علي ربع العشر , ثم قال (إن يسئلكموها فيحفكم) أي يجاهدكم ويطلبه كله والاحفاء بالموبالغة وبلوغ الغية في كل شيء , يقال احفاه في المسئلة : إذا لم يترك شيئا من الالحاح , واحفي شاربه : إذا استأصله (تبخلوا ويخرج أضغانكم) أي تضطغنون علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وتضيق صدوركم لذطل وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذ 1هب بأموالكم , والضمير في يخرج الله عز وجل : أي يضغنكم (هؤلاء) موصول بمعني الذين صلته (تدعون) أي تخرج بالنون ويخرج بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم (هؤلاء) موصول بمعني الذين صلته (تدعون) أي أنتم الذين تدعون أو أنتم يامخاطبون هؤلاء الموصوفون ثم أستأنف وصفهم كأنهم قالوا وما وصفنا ؟ فقيل تدعون (لتنفقوا في سبيل الله) قيل هي النفقة في الغزو . وقيل الزكاة كأنها قيل : الدليل علي أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضغنتم أنكم تدعون إلي أداء ربع العشر فمنكم ناس يبخلون به , ثم قال (ومن يبخل)

{يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد: من الآية 38)

بالصدقة وأداء الفريضة فلا يتعداه ضرر بخله وإنما (يبخل عن نفسه) يقال بخلت عليه وعنه وكذلكم ضننت عليه وعنه . ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدع اليه لحاجته اليه فهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب (وإن تتولوا) معطوف علي وإن تؤمنوا وتتقوا (يستبدل قوما غيركم) يخلق قوما سواكم علي خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوي غير متولين عنهما كقوله تعالي (ويأت بخلق جديد) - وقيل هم الملائكة , وقيل الأنصار . وعن أبن عباس : كندة والنخع . وعن الحسن : العجم , وعن العكرمة : فارس الروم (وسئل رسول الله صلي الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان إلى جنبه , فضرب علي فخذه وقال : هذا وقومه , والذي نفسي بيده لو كان الإيمان موطا بالثريا لتناوله رجال من فارس) عن رسول الله صلي الله عليه وسلم (من قرأ سورة محمد صلي الله عليه وسلم كان حقا علي الله أن يسقيه من أنهار الجنة).

سورة الفتح

مدنية . وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا فتحا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله .

هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله صلي الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح وجيء به علي لفظ الماضي علي عادة رب العزة سبحانه في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزل الكائنة الموجودة في .

{مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً.وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}(الفتح).

ذلك من الفخامة والدلالة علي علوة شأن المخبر ما لا يخفي . فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ماعدد من الأمور الأربعة , وهي :المغفرة , وأتمام النعمة , وهداية الصراط المستقيم , والنصر العزيز , كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك علي عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجب والآجل , ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جاهد للعدو سببا للغفران والثواب .
والفتح : الزظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب و لأنه منغلق ما لم يظفر به , فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح وقيل هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد , ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة . وعن أبن عباس رضي الله عنه : رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم . وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتي سألوا الصالح . فإن قلت : كيف يكون فتحا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بحديبية ؟ قلت : كان ذلك قبل الهدنة فلما طلبوها وتمت كانت فتحا مبينا , وعن موسي بن عقبة (أقبل رسول الله صلي الله عليه وسلم من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحابه : ما هذت بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا , فبلغ النبي صلي الله عليه وسلم فقال : بئس الكلام هذا , بل هو أعظم الفتوح , وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم في الأمان , وقد راوا منكم ما كرهوا) وعن الشعبي (نزلت بالحديبية وأصابه رسول الله صلي الله عليه وسلم في تلك الغزوة ما لم يصيب في غزوة , أصاب أن بويع بيعة الرضوان , غفر له ما تقدم من ذنبه وا تأخر , وظهرت وظهرت الروم علي فارس , وبلغ الهدي محلة , وأطعموا نخيل خيبر . وكان في فتح الحديبية آية عظيمة وذلك أنه نزح ماؤها حتي لم يبق فيها قطرة , فتمضمض رسول الله صلي الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع ما كان معه) وقيل فجاش الماء حتى أمتلأت ولم تنفذ ماؤها بعد , وقيل هو فتح خيبر , وقيل فتح الروم , وقيل فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف , ولا فتح أبين منه وأعظم , وهو رأس الفتوح كلها إذا لا فتح من فتوح الإسلام غلا وهو تحته ومتشعب منه , وقيل معناه : قضينا لك قضاء بينا علي أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة , وكذا عن قتادة (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) يريد جميع ما فرط منك . وعن مقاتل ما تقدم في الجاهلية وما بعدها , وقيل ما تقدم من حديث ماريه وما تأخر من امرأة زيد (نصرا عزيزا) فيه عز ومنعة أو وصف بصفة المنصور إسنادا أو عزيزا صاحبه (السكينة) السكون كالبهيتة للبهتان : أي أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير .

{لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً. وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }(الفتح)

الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادو يقينا إلي يقنيهم ، أو أنزل فيها السكون إلي ما جاء مه محمد عليه الصلاة والسلام من الشرائع (ليزدادو إيمانا) بالشرائع مقرونا إلي إيمانهم وهو التوحيد . عن ابن عباس رضي الله عنهما . إن أول ما أتاهم به النبي صلي الله عليه وسلم التوحيد ، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة ثم الحج ثم الجهاد فازدادا إيمانا إلي إيمانهم . أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عز وجل ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلي إيمانا . قيل أنزل فيه الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم . وقيل أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها علي بعض كما يقتضيه أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يقتح له م، وإنما قضي ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيم ويعذي الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه . وقع السوء : عبارة عن رداءة الشئ

وفساده والصدق عن جودته وصلاحه , فقيل في المرضي الصالح من الأفعال الصدق , وفي المسخوط الفاسد منه فعل سوء , ومعني (ظن السوء) ظنهم أن الله تعالي لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا رجعهم إلي مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرا (عليهم دائرة السوء) أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم والسوء والهلاك والدمار . وقرئ دائرة السوء بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء وعند المؤمنين دائرة صدق . فإن قلت : هل من فرق بين السوء والسوء؟ قلت : هما كالكرة والكره والضعف من ساء ألا أن المفتوح غلب فيأن يضاف إليه إلا علي التاويل الذي ذكرناه . وأما دائرة السوء يالضم فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة فصح أن يقع عليه اسم السوء كقوله عز وعلا - إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة -(شاهدا) تشهد علي أمتك كقوله تعالي -ويكون الرسول عليكم شهيدا - (ليؤمنوا) الضمير للناس (ويعزروه) ويقووه بالنصرة (يوقروه) وعظموه (ويسبحوه) من التسبيح أو من السبحة والضمائر لله عز وجل , والمراد بتعيز الله دينه ورسوله صلي الله عليه وسلم , ومن فرق الضمائر فقد لتؤمنوا وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بالتاء والخطاب لرسول الله .

{بُكْرَةً وَأَصِيلاً.إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (الفتح)صلي الله عليه وسلم ولأمته . وقريء وتعزروه بضم الزاي وكسرها , زتعزروه بضم التاء والتخفيف , وتعززوه بالزايين , وتوقروه من أوقره بمعني وقره , وتسبحوا الله (بكرة وأصيلا) عن أبن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر . لما قال (إنما يبايعون الله) أكده تأكيد علي طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله صلي الله عليه وسلم التي تعلو يد المبايعين هي يد الله , والله تعالي منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام , وإنما المعني تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول صلي الله عليه وسلم كعقدة مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالي - من يطع الرسول فقد أطاع الله - والمراد بيعة الرضوان (فإنما ينكث علي نفسه) فلا يعود نكث إلا عليه , قال جابر أبن عبد الله رضي الله عنه (بايعنا رسول الله تحت الشجرة علي الموت وعلي أن لانفر , فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس , وكان منمافقا أختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم) وقري أنما يبايعون لله : أي لأجل الله ولوجهة وقرئ ينكث بضم الكاف وكسرها , وبما عاهد وعهدا (فسنؤتيه) بالنون والياء . ويقال وفيت بالعهد وأوفيت به وهي لغة تهامة ومنا قوله تعالي (وأوفوا بالعقود) والموفون بعهدهم - هم الذين خلفوا عن الحديبية وهو أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل , وذلك أن رسول الله صلي الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه من البيت , وأحرم هو صلي الله عليه وسلم وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حربا , فتثاقل كثير من الأعرب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوة في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم . وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة , واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم . وقريء شغلتنا بالتشديد (يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم) تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذين في خلفهم ليس بما يقولون وأنما هو الشك في الله والنفاق . وطلبهم للأستغار أيطا ليس بصادر عن حقيقة (فمن يملك لكم) فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه (إن أراد بكم) ما يضركم من قتل أو هزيمة (أو أراد بكم نفعا) من ظفر وغنيمة . وقريء ضرا بالفتح

{بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً.وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً.وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} (الفتح)

والضم . الأهلون جمع أهل , ويقال أهلات علي اقدير تاء التأنيث كأرض وأرضات , وقد جاء أهلها وأما أهال فاسم جمع كليات , وقريء إلي أهلهم وزين علي البناء للفاعل وهو الشيطان أو الله عز وجل وكلاهما جاء في القرآن - وزين لهم الشيطان أعمالهم

- و - زينا لهم - والبور من بار كالهلك من هلك بناء ومعني , ولذلك وصف به الواحد والجكع والمذكطر والمؤنث , ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ , والمعني : وكنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لاخير غيكم , أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه (للكافرين) مقام مقام لهم للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر . ونكر (سعيرا) لأنها نار مخصوصة كما نكر - نارا تلظي - (لله ملك السماوات والأرض) يدبره تدبير قادر حكيم . فيغفر وبعذب بمشيئته ومشيئته تابعة لحكمته وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر (وكان الله غفورا رحيما) رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر .

{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً.قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً.لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً} (الفتح)

ويغفر الكبائر بالتوبة (سيقول المخلفون) الذين تخلفوا عن الحديبية (إذا انطلقتم إلى مغانم) إلى غنائم خيبر (أن يبدلوا كلام الله) وقريء كلم الله أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية , وذلك أنه وعدهم أن بعوضهم من مغانم مكة مغانتم خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم شيئا , وقيل هو قوله تعالي - لن تخرجوا معي ابدا - (تحسدوننا) أن نصيب معكم من الغنائم . قريء بضم السين وكسرها (لا يفقهون) لا يفهمون الا فهما (قليلا) وهو فطنتم لأمور الدنيا دون أمور الدين كقوله تعالي - يعلمون ظاهرة من الحياة الدنيا - فإن قلت : ما الفرق بين حرفي الإضرار؟ قلت : الأول إضراب معناه رد أن يكون حكم الله لا يتبعوهم وإثبات الحسد , و الثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنون إلى وصفهم بما هو أطم منه وهو الجهل وقلة الفقه (قل للمخلفين) هم الذين تخلفوا عن الحديبية (إلى قوم أولي بأس شديد) يعني بني حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه , لأن مشركي العربي والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة , ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية . وعند الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب . وهذا دليل علي إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله صلي الله عليه وسلم ولكن بعد وفاته , وكيف بدعوهم رسول الله صلي الله عليه وسلم مع قوله تعال - فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا - وقيل هم فارس والروم , ومعني (يسلمون) ينقادون لأن الروم نصاري وفارس مجوس يقبل منهم أعطاء الجزية . فإن قلت : عن قتادة أنهم ثقيف وهو أوزن و كذلك في أيام رسول الله صلي الله عليه وسلم . قلت : إن صح ذلك فالمعني : لن تخرجوا معي أبدا مادمتم علي ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين , أو علي قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلي الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم (كما توليتم من قبل) يريد في غزوة الحديبية . أو يسلمون معطوف

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً.وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ}(الفتح)

علي تقاتلونهم : أي يكون أحد الأمرين إما القتال أو الإسلام لا ثالث لهما . وفي قراءة أبي أو يسلموا بمعني إلى أن يسلموا . نفي الحرج من هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف من الغزو . وقريء ندخله ونعذبه بالنون . هي بيعة الرضوان سميت بهذه الآية , وقصتها (أن النبي صلي الله عليه وسلم حين نزل الحديبية بعث جواس من أمية الخزاعي رسولا إلي أهل مكة , فهموا به فمنعه الأحابيش , فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه ليبعثة فقال : إني أخافهم علي نفسي لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوي يمنعني , ولكني أدلك علي رجل هو أعز بها مني وأحب اليهم عثمان بن عفان , فبعثة فخبرهم أنه لا يأتي بحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته , فوقوره وقالوا : أن شئت أن تطوف فافعل فقال : ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلي الله عليه وسلم واحتبس عندهم فارجف بأنهم قتلوه , فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : لا نبرح حتى نناجز القوم , ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت السمرة . قال جابر بن عبد الله : لو كنت أبصر لأريتكم مكانها . وقيل كان رسول الله صلي الله عليه وسلم جالسا في أصل الشجرة وعلي ظهره غصن من أغصانها . قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائما علي رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه . فرفعت الغصن عن ظهره فبايعوه علي الموت دونه وعلي ا، لا يفروا , فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : أنتم اليوم خير أهل الأرض , وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين , وقيل ألفا وأربعمائة , وقيل ألفا و ثلثمائة (فعلم ما في قلوبهم) من الاخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه (فأنزل السكينة) أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح علي قلوبهم (وأثابهم فتحا قريبا) وقريء وأتاهم وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة . وعن الحسن : فتح هجر وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمانا (ومغانم كثيرة يأخذونها) هي مغانم خيبر , وكانت أرضا ذات عقار وأموال فقسمها رسول الله صلي الله عليه وسلم عليهم , ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم و انصرف بعد نحر الحديبية وحلق (وعدكم الله مغانم كثيرة) وهي ما يفي علي المؤمنين إلى يوم القيامة (فعجل لكم هذه) المغانم يعني مغانم خيبر (وكف أيدي الناس عنكم)

{وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً.وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً.وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيرا.سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً. وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً. هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}(الفتح)

يعني أيدي أهل خيبر وحفا~هم من أسد و غطفان حين جاءوا لنصرتهم , فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا , وقيل أيدي أهل مكة بالصلح (ولتكون) هذه الكفة (آية المؤمنين) وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالي بمكان وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم . وقيل رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم فتح مكة في منامه ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي , فتأخر ذلك إلى السنة القابلة فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة (ويهديكم صراطا مستقيما) ويزيدكم بصيرة ويقينا وثقة بفضل الله (وأخري) معطوفة علي هذه : أي فجعل لكم هذه المغانم و مغانم أخري (لم تقدروا عليها) وهي مغانم هوازن في غزوة حنين وقال : لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة (قد أحاط الله بها) أي قدر عليها وأستولي وأظهركم عليها وغنمكموها . ويجوز في أخري النصب بفعل مضمر يفسره قد أحاط الله بها تقديره وقضي الله أخري قد أحاط بها , وأما لم تقدروا عليها فصفة لأخري والرفع علي الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا , وقد أحاط الله بها خبر المبتدأ والجر بإضمار رب . فإن قلت : قوله تعالي - ولتكون آية للمؤمنين - كيف موقعه؟ قلت : هو كلام معترض ومعناها : ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك . ويجوز أن يكون المعني : وعدكم المغانم فعجل هذه المغانم وكف الأعداء لينفعكم بها ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقا , لأن صدق الأخبار عن الغيوب معجزة وآية و يزيدكم بذلك هداية و إيقانا (ولو قاتلكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصالحوا , وقيل

حلفاء من أهل خيبر لغلبوا و انهزموا (سنة الله) في موضع المصدر المؤكد أن سنة الله غلبة أنبيائه سنة وهو قوله تعالي - لأغلبن أنا ورسلي - (أيديهم) أيدي أهل مكة : أي قضي بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة وذلك يوم الفتح , وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله علي أن مكة فتحت عنوة لا صلحا . وقيل كان ذلك في غزوة الحديبية , لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة , فبعث رسول الله صلي الله عليه وسلم من هزمه وأدخل حيطان مكة . وعن أبن عباس رضي الله عنه : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت . وقريء تعملون بالتاء والياء . وقريء والهدي والهدي بتخفيف الياء وتشديدها وهو ما يهدي إلى الكعبة بالنصب علي عطف الضمير المنصوب في صدوكم : أي صدوكم وصدوا الهدي , وبالجر عطفا علي المسجد الحرام بمعني : وصدوكم عن نحر الهدي (معكوفا أن يبلغ محله) محبوسا عن أن يبلغ , وبالرفع علي وصد الهدي , ومحله مكانه الذي يحل فيه نحره : أي يجب , وهذا دليل

{وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً). إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ}(الفتح)

لأبي حنفية علي أن المحصر محل هديه الحرم . فإن قلت : فكيف حل رسول الله صلي الله عليه وسلم ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية ؟ قلت : بعض الحديبية من الحرم , وروي أن مضار رسول الله صلي الله عليه وسلم في الحل ومصلاه في الحرم . فإن قلت : فإذا قد نحر في الحرم فلم قيل معكوفا أن يبلغ محله ؟ قلت : المراد المحل المعهود وهو منهي (لم تعلموهم) صفة للرجال والنساء جميعا . و (أن تطئوهم) بدل أشتمال من هم , أو من الضمير تطئوهم يعني أن تطئوهم غير عالمين بهم , والوطء والدوس عبارة عن أيقاع ةالإبادة , قال :

ووطئتنا وطأ علي حنق ** وطء المقيد ثابت الهرم

وقال الرسول صلي الله عليه وسلم (و إن آخر وطأة وطئها الله بوج) والمعني : أنه كاتن بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفي الأماكن , فقيل ولولا كراهية أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم عارفين بهم فيصيبهم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكمأن يبلغ محله عنهم , وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه , ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا رجال مؤمنون لمرجعها؟ إلى معني واحد ويكون لعذبنا هو الجواب . فإن قلت : أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون ؟ قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز . والمأثم إذا جري منهم بعض التقصير . فإن قلت قوله تعالي (ليدخل الله في رحمته من يشاء) تعليل لماذا؟ قلت : لما دلت عليه الآية وسقيت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع من قتلهم صونا لما بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته : أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم , أو ليخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم (لو تزيلوا) لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض زاله يزيله , وقريء لو تزالوا (إذا) يجوز أن يعمل فيه ما قبله : أي لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت وأن ينتصب

{سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً. لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ}(الفتح)

بإضمار اذكر . والمراد بحماية الذين كفروا بسكينة المؤمنين , والحمية : الأنفة , والسكينة : الوقار , ماروي (أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعثيت قريش

سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف علي أن يعرضوا علي النبي صلي الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك علي أن تخلي له قريش من مكة من العام القابل ثلاثة أيام , ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا , فقال النبي صلي الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم , فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم , ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه رسول الله صلي الله عليه وسلم أهل مكة , فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله صلي الله عليه وسلم ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك . ولكن أكتب : هذا ما صالح محمد بن عبد الله أهل مكة , فقال عليه الصلاة والسلام : اكتب ما يريدون , فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله) فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزون منه , فأنزل الله علي رسوله السكينة فتوقروا وحلموا , و (كلمة التقوي) (بسم الله الرحمن الرحيم) ومحمد رسول الله قد أختاره الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولي الهداية من غيرهم , وقيل هي كلمة الشهادة . وعن الحسن رضي الله عنه : كلمة التقوي هي الوفاء بالعهد , ومعني أضافتها إلى التقوي أنها سبب التقوي وأساسها وقيل كلمة أهل التقوي وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله وكانوا أهلها وأخق بها , وهو الذي دفن مصحفة أيام الحجاج . رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنيم وقد حلقوا وقصروا . فقص الرؤيا علي أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم دخلوها في عامهم وقالوا : إن رؤيا الرسول الله صلي الله عليه وسلم حق , فلما تأخر ذلك عبد الله بن أبي وعبدالله بن نفيل ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا أو قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام , فنزلت , ومعني (صدق الله رسوله الرؤيا) صدقه في رؤياه ولم يكذبه , تعالي الله من الكذب وعن كل قبيح علوا كبيرا , فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالي - صادقوا ما عاهدوا الله عليه - فإن قلت : بم تعلق (بالحق) ؟ قلت : إما بالصدق : أي صدقه فيما رأي وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق : أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من الأبتلاء والتمييو بين المؤمني المخلص وبين من في قلبه مرض . ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالا منها : أي صدقه الرؤيا ملتبسا بالحق علي معني أنها لم تكن من أضغاث الأحلام . ويجوز أن يكون بالحق قسما إما بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالحق الذي هو من أسمائه , و (لتدخلن) جوابه وعلي الأول هو جواب قسم المحذوف . فإن قلت : ما وجه دخول (إن شاء الله) في أخبار الله عز وجل ؟ قلت : فيه وجوه : أن يعلق عدته بالمشيئة تعليا لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنته , وأن يريد لتدخلن جميعا إن شاء الله ولم يمت منكم أحد , أو كان ذلك علي لسان ملك فأخل الملك إن شاء الله , أو هي حكاية ما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأصحابه وقص عليهم.

{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً.هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً.مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}(الفتح)

وقيل هو متعلق بآمنين (فعلم ما لم تعلمون) من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل (فجعل مم دون ذلك) أي من دون فتح مكة (فتحا مبينا) وهو فتح خيبر لتستريح اليه قلوب اللمؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود (بالهدي ودين الحق) بدين الإسلام (ليظهره) ليعليه (علي الدين كله) علي جنس الدين كله يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب , ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا تري دينا قط إلا وللإسلام دونه العز والعلبه , وقيل هو عند نزول عيسي حين لا يبقي علي وجه الأرض كافر . وقيل هو أظهاره بالحجج والآيات , وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين علي أن الله سبحانه وتعالي سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة علي الأقاليم ما يستقلون اليه فتح مكة (وكفي بالله شهيدا) علي أن ماوعده

كائن . عن الحسن رضي الله عنه : شهد علي نفسه أنه سيظهر دينك (محمد) إما خبر مبتدأ : أي هو محمد لتقدم قوله تعالي - هو الذي أرسل رسوله - وإما مبتدأ رسول الله عطف بيان , وعن أبن عامر أنه قرأ رسول الله بالنصب علي المؤمنين المدح (والذين) أصحابه ظ(أشداء علي الكفار رحماء بينهم) جمع شديد ورحيم , ونحوه أذله علي المؤمنين أعزة علي الكافرين - وأغلظ عليهم - بالمؤمنين رءوف رحيم - وعن الحسن رضي الله عنه : بلغ من تشددهم علي الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم , ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم , وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يري مؤمن مؤمنا إلا صافحة وعانقة , والمصافحة لا تختلف فيها الفقهاء وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله , وكذلك التقبيل قال : لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئا من جسده , وقد رخص أبو يوسف في المعانقة , ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف فيتشددوا علي من ليس ملتهم ولا دينهم ويتحاموه , ويعتشروا لإخواتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذي والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة . ووجه من قرأ أشداء ورحماء بالنصب أن ينصبها علي المدح أو علي الحال بالمقدر في معه ويجعل تراهم الخبر (سيماهم) علامتهم , وقريء سيماؤهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسيمياء والمراد به السمة التي تحدث فيها السجاد من كثرة السجود , وقوله تعالي (من أثر السجود) يفسرها : أي منة التأثير الذي يؤثره السجود , وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن العباس أبي الأملاك يقال له ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير . وقريء من أثر السجود ومن آثار السجود , وكذا عن سعيد بن جبير : هي السمة في الوجه . فإن قلت : فقد جاء عن النبي صلي الله عليه وسلم (لا تعلبوا صوركم) وعن ابن عمر رضي الله عنه : أنه رأي رجل قد أثرفي وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك . قلت : ذلك إذا أعتمد بجبهته علي الأرض لتحدث فيه تلك

{ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }(الفتح)

السمة , وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصا لوجه الله تعالي - وعن بعض المتقدمين : كنا نصلي فلا يري بين أعيننا شيء , ونري أحدنا الأن يصلي فيري بين أعينيه ركبة البعير , فما تدري أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض ؟ وأنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق . وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله . وعن الضحاك : ليس بالندب في الوجوه ولكنه صفرة . وعن سعيد بن المسيب : ندي الطهور وتراب الأرض . وعن عطاء رحمة الله : أستنارت وجوههم من طل ما صلوا بالليل كقوله (من كثر صلاته بالليل حسن وجهة بالنهار) (ذلك) الوصف (مثلهم) أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابيين جميعا , ثم ابتدأ فقال (كزرع) يريدهم كزرع , وقيل تم الكلام عند قوله - ذلك مثلهم في التوراة - ثم ابتديء - ومثلهم في الأنجيل - كزرع , ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله - كزرع أخرج شطأه - كقوله تعالي - وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين - وقريء الأنجيل بفتح الهمزة (شطأه) فراخه , يقال أشأ الزرع :إذا فرخ , وقريء شطأة بفتح الطاء , شطأه بتخفيف الهمزة , وشطاءه بالمد , وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها , وشطوهبقبلها واوا (فآزره) من المؤزرة وهي المعونة , وعن الأخفش أنه أفعل وقريء فأزره بالتخفيف والتشديد أ] فشد أزره وقواهه , ومن جعل آزر أفعل فهو في معني القراءتين (فاستغلظ) فصار من الدقة اليالغلظ (فاستوي علي سوقه) فاستقام علي قصبه جمع ساق , وقيل مكتوب في الآنجيل (سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وعن عكرمة : أخرج شأة بأبي بكر فأزره بعمر فاستغلظ بعثمان فأستوي علي

سوقه بعلي . وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم , لأن النبي صلي الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولي من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع . فإن قلت : قوله (ليغظ به الكفار) تعليل لماذا ؟ قلت : لما دل عليه تشبيههم بالزراع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة , ويجوز أن يعلل به (وعد الله الذين آمنوا) لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك , ومعني (منهم) البيان كقوله تعالي - فاجتنبوا الرجي من الأوثان - عن رسول الله صلي الله عليه وسلم (من قرأ سورة الفتح فكأنما كا ممن شهد مع محمد فتح مكة).

سورة الحجرات

مدنية . وهي ثمان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}

قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قدمه إذا تقدمه في قوله تعالي - يقدم قومه - نظيرهما معني ونقلا سلفه وأسلفة , وفي قوله تعالي (لاتقدموا) من غير ذكر مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم , والثاني لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه , ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة كأنه قيل : لاتقدموا علي التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالي - هو الذي يحي ويميت - ويجوز أن يكون من قدم بمعني تقدم كوجه وبين , ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدمة منه , وتعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف إحدي تاءي تتقدموا . إلا أن الأول املأ بالحسن وأوجه وأشد ملاءمة لبلاغة القرآن والعلماء الذي أقبل . و قريء لا تقدموا من القدوم : أي لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومهما ولا تعجلوا عليها . وحقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريبا منه فسميت الجهتان يدين لكونهما .)وَاتَّقُوا اللَّه)

على سمت اليدين مع القرب منهما توسعت كما يسمى الشىء باسم غيره إذا جاوره ودناه فى غير موضع , وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز وهو الذى يسميه اهل البيان تمثيلا , ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست فى الكلام العريان , وهى تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الاقدام على امر من الأمور دون الاحتذاء على امثلةالكناب والسنة, والمعنى : ان لاتقطعوا امر الا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه , فتكونوت اما عاملين بالوحى المنزل , واما مقتدين برسول الله صلى الله علية وسلم , وعليه يدور تفسير ابن عباس رضى الله عنه . وعن مجاهد: لاتفتاتوا على الله شيئا حتى يقصه على لسان رسوله . ويجوز ان يجرى مجرى قولك سرنى زيد وحسن حاله واعجبت بعمرو وكرمه , وفائدة هذا الاسلوب الدلالة على قوة الاختصاص , ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بالمكان الذى لايخفى سلك به ذلك المسلك , وفى هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع اصواتهم فوق صوته, لأن من أحظاه الله بهذه الآثرة واختصه هذه الآختصاص القوي كان أدني ما يحب له من التهيب والاجلال أن يخفض بين يديه الصوت ويخافت لديه بالكلام , وقيل بعث رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى تهامة سريعة سبعة وعشرون رجلازعليهم المنذر بن عمرو الساعدي , فقتلهم بن عامر وعليهم عامر بن الطفيل , الا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب اتلمدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما , ثم اتوا

رسول الله صلي الله عليه وسلم وفقال : بئسما صنعتم كانا من سليم والسلب ما كسوتهما , فودهما رسول الله صلي الله عليه وسلم ونزلت : أي لا تعلموا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله صلي الله عليه وسلم . وعن مسروق دخلت علي عائشة في يوم الذي امر شهر شعبان فيه. فقالت للجارية اسقيه عسلا , فقالت أني صائم . فقالت قد نهي الله عن صوم هذا اليوم , وفيه نزلت . وعن الحسن أن أناس ذبحوا يوم الأضحي قبل الصلاة فنزلت , وأمرهم رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يعيدوا ذبحا آخر . وهذا مذهب أبي حنيفا رحمه اله إلا أن تزول الشمس . وعندي الشافعي يجوز الذبح إذا مضي من الوقت مقدار الصلاة , وعن السحن أيضا لما استقر رسول الله صلي الله عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثوا عليه بالمسائل , فنهوا أن يبتدئوه بالمسئلة حتى يكون هو المبتديء . وعن قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل في كل مكان كذا . فكرة الله ذلك منهم وأنزلها . وقيل هي عامة في كل قول وفعل . ويدخل فيه أنه إذا جرت مسئلة في مجلس رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يسبقوه بالجواب , وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة , وأن يستأني في الافتتاح بالطعام (واتقوا الله) فإنكم إن اتقيتموه عافتكم التقوى عن التقدمة النهي عنها وعن جميع ما تقضي مراقبة الله تجنبه , فإن التقي حذر لا يشافه أمرا إلا عن ارتفاع الريب واجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه , وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار , فتنهاه أو لا عن ما فارقه ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)(الحجرات).

لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها (إن الله سميع) لما تقولون (عليم) بما تعملون وحق مثله أن يتقي ويراقب , اعادة ةالنداء عليهم استدعاء عليهم منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل وتحريك منهم لئلا يفترقون ويغفلوا عن تأملهم , وما أخذوا به عن حضور مجلس رسول الله صلي الله عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوي في دينهم , وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع وأعظام ما ورد به , ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألوا عملا بما يحدوه عليه وارتداعا عما يصده عنه وانتهاء إلى كل خير , والمراد بقوله (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته وأن اغضوا منها بحيث يكون كلامه عليا لكلامكم وجهره باهرا لجهركم , حتى يكون مزيته عليكم لائحة وسابقته واضحة وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق غير خاف , لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقة بصخبكم . وبقوله (ولا تهجروا له القول) أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدوي عما نهيتم عنه من رفع الصوت , بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم , وأن تتعمدوا في مخاطبته القول البين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر , كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه : - وتعزروه وتوقروه - وقيل معني (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) لا تقولوا له يا محمد يا أحمد , وخاطبوه بالنبوة . قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله والله لا أكلمك

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(الحجرات: من الآية 2)

إلا السرار أو أخا السرار حتى القي الله . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يكطلم رسول الله صلي الله عليه وسلم كأخي السرار لا يسمعه حتى يتفهمه . وكان أبو بكر إذا قدم علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلي الله عليه وسلم . وليس الغرض برفع

الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانه لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون , وإنما العغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء , فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به ال ما يستبين فيه الأمور به من التعزيز والتوقير , ولم يتناول النهي أيضا رفع الصوت الذي لا يتأذي به رسول الله صلي الله عليه وسلم , وهو ما كان منهم في حرب أو مجادله معاند أو ارهاب عدو أو ما أشبه ذلك , ففي الحديث أنه قال عيه االصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما أنهزم الناس يوم حنين ((اصرخ بالناس)) وكان العباس أجهر الناس صوتا , يروي أن غارة أهم يوم فصلح العباس , يا صباحاه , فأسقطت لحوامل لشدة صوته , وفيه يقول نابغة بني جعدة

زجر أبي عروة السباع إذا ** أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كتن يزجر السباع عن الغنام فيفتق مراره السبع في جوفه , وفي قراءة ابن مسعود لا ترفعوا بأصواتكم , والياء مزيدة محذوف بها حذو التشديدة فو قوله الأعالم الهذلي

رفعت عيني بالحجاز ** إلى أناس بالمناقب

وليبس المعني في هذه القراءة بأنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلا أن يكون مادون الشديد مسوغا لهم , ولكن المعني نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كاتوا يفعلون , وعن أبن عباس ((نزلت في ثابت بن قيس ابن شماس , وكان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته , وربما كان يكلم رسول الله صلي الله عليه وسلم فيتأذي بصوته)) وعن أنس (ـن هذه الآية لما نتزلت فقد ثابت فتفقده رسول الله صلي الله عليه وسلم فأخبره بشأنه , فدعاه فسأله فقال : رسول الله صلي الله عليه وسلم لقد أنزلت اليك هذه الآية , وأني رجل جهير الصوت فاخاف أن يكون عملي قد حبط . فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم : لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة)) وأما يروي عن الحسن أنها نزلت فيمن كان يرفع الصوت من المنافقين فوق صوت رسول الله صلي الله عليه وسلم فمحمله والخطاب للمؤمنين علي أن ينهي المؤمنون فيندرج المنافقين تحت النهي فيكون الأمر أغلظ عليهم وأشق . وقيل أن المنافقون يرفعون أصواتهم فيظهروا قلة مبالاتهم فيقتدي بهم ضعة المسلمين , وكان التشبيه في محل النصب : أي لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض في وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافته , وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها (أن تحبط أعمالكم) منصوب الموضع علي أنه مفعول له , وفي متعلقة وجهان : أحدهما أن يتعلق بمعني

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِين}(الحجرات).

النهي فيكون المعني : انتهوا عنا ما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم .: أي لخشية حبوطها علي تقدير حذف المضاف كقوله تعالي - يبين الله لكم أن تضلوا - والثاني أن يتعلق بنفس الفعل ويكون المعني : أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه لما كان كان بصدد الأداء إلي الحوط جعل كأنه فعل لأجله وكأنه العلة , والسبب في ايجاده علي سبيل التمثيل كقوله تعالي - ليكون لهم عدوا - . فإن قلت : لخص الفرق بين الوجهين . قلت : تلخيصه أن يقدر

{امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ .إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} (الحجرات:4) الفعل في الثاني مضموما إليه المفعول كأنهما شيء واحد , ثم يصيب الني عليهما جميعا صبا , وفي الأولي يقدر النهي موجها علي الفعل علي حياله ثم يعلل له منهيا عنه . فإن قلت : بأي النهيين تعلق المفعول له ؟ قلت : بالثاني عند البصريين مقدرا اضماره عند الأولي كقوله تعالي - آتوني أفرغ عليه قطرا - وبالعكس عند الكوفيين وأيهما كان فمرجع المعني إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل , وقراءة ابن مسعود فتحبط أعمالكم أظهر نصا بذلك , لأن ما بعد الفاء لا يكون الا مسببا عما قبله , فيتنزل الحبوط من الجهر منزله الحلول من الطغيان في قوله تعالي - فحيل عليكم غضبي - والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وربما هلكت , ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ((وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم))ومن أخواته حجبت الإبل إذا أكلت العرفج فأصابها ذلك , واحبض عمله مثل أحبطه , وحبط الجرح وحبر إذا غفر وهو نكسه وترامبه إلى الفساد , جعل العمل السيء في اضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به , أعاذنا الله من حبط الأعمال وخيبة الأمل . وقد دلت الآية علي أمرين هائلين : أحدهما أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله . والثاني أن في آثامه مالا يدر أنه محبط , ولعله عند الله كذلك , فعلي المؤمنون أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحتزر ويتوقي ويتحفظ (امتحن الله قلوبهم للتقوي) من قولك أمتحن فلان لأمر كذا وجرب له ودرب للنهوض به فهو مضطلع به غير وأن عنه , والمعني : أنهم صبروا علي التقوي أقوياء علي احتمال مشاقها , أو وضع الامتحان موضع المعرفة لأن تحقق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوي , وتكون اللام متعلقة محذوف , واللام هي التي في قولك أنت لهذا الأمر : أي كائن له ومختص به , قال * أنت لها أحمد من بني البشر * أعداء من لليعملات علي الوجي * وهي معمولها منصوبة علي الحال , أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقةي : أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون لأن حقيقة التقوي لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها وقيل أخلصها للتقوي ومن قولهم امتحن الذهب وفتله إذا أذابه فخلص ابريزة من خبثة ونقاه . وعن عمر رضي الله عنه : أذهب الشهوات عنها . والامتحان افتعالمن محنه وهو اختبار بليغ أو بلا جهيد , قال أبو عمرو : كل شيء جهدته فقد محنته , وأنشد :

أنت رذايا باديا كلاهما ** قد محنت واضطربت آطالها

قيل أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ له أخا السرار , وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لأن المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا والمبتدأ اسم الإشارة واسئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم علي عملهم , وايراد الجزاء نكرة مبهما أهمره ناظرة في الدلالة علي غاية الاعداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلي الله عليه وسلم من خفض أصواتهم وفي الاعلام بمبلغ عزة رسول الله صلي الله عليه وسلم وقدر شرف منزلته , وفيها تعريض بعظم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء . والوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف قوله تعالي (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال فيه (الوراء الجهة التي يواريها أو قدام , ومن لابتداء الغاية وأن المناداة نشأ من ذلك المكان . فإن قلت : أفرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه . قلت : الفرق بينهما أن المنادي والمنادي في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء , وفي الثاي لا يجوز لأن الوراء اصغير لدخول من مبتدأ الغاية , ولا يجتمع علي الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهي لفعل واحد , والذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولا دبرها , ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص , والانكار لما يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها , وأنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البر

والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد من جهة دون جهة , والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها , وحظير الإبل تسمي الحجرة وهي فعله بمعني مفعولة كالغرفة والقبضة وجمعها الحجرات بضمتين والحجرات يفتح الجيم والحجرات بتسكينها , وقريء بهن جميعا . والمراد بحجرات نساء رسول الله صلي الله عليه وسلم وكانت لكل واحدة منهن حجرة , ومنادتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا علي الحجرات متطلبن له , فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك , وأنهم قد أتوها حجرة فنادوه من ورائها , وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ولكنها قد جمعت إجلالا لرسول الله صلي الله عليه وسلم ولمكن حرمته , والفعل وإن كانة مسندا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم , وكان الباقيين راضين فكأنهم تولوه جميعا , فقد ذكر الأصم أن الذي ناداه عيينه بن الحصن والأقرع بن حابس . والخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة , ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم . وروي ((أن وفد بني تميم أتوا رسول الله صلي الله عليه وسلم وقت الظهيرة وهو راقد , فجعلوا ينادونه يا محمد اخرج إلينا فاستيقظ فخرج ونزلت)) وسئل رسول الله صلي الله عليه وسلم عنهم فقال ((هم جفاة بني تميم , لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعوار الدجال لدعوت الله عليم أن يهلكهم)) فوردو الآية علي النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفي عن الناظر من بينات إكبار محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم وإجلاله : منها مجيئها علي النظم المسجل علي الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموه عليه , ومنها لفظ الحجرات وإقاعها كناية عن موضع خلوته ومقليه مع بعض نسائه , ومنها المرور علي لفظها بالاقتصار علي القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم , ومنها التعريف باللام دون الاضافة , ومنها أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضطبهم لموضع التمييز في المخاطبات تهوينا للخطب علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وتلية له وإماطة لما تدخله من إيحاش تعجرفهم وسواء أدبهم وهلم جرا من أول السورة إلى أخرها

{وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}(الحجرات).

هذه الآية . فتأمل كيف ابتديء بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي الله ورسوله متقدمة علي الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد , ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأول بساط للثابت و وطاء لذكره , ثم ذكر ما هو ثناء علي الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة علي عظيم موقعة عند الله , ثم جيء علي عقب ذلك بما هو اطم وهجنته أتم من الصيتح برسول الله صلي الله عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرمته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدرا لينبه علي فظاعة ما أجروا إليه وجسروا عليه , لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول حتى خاطبة جلة المهاجرين والانصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغا , ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الالباب وتقتبي محاسن الآدب كما يحكي عن أبي عبيد ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية وا لا يخفي أنه قال : ما دقت بابا علي عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه (أنهم صبروا) في موضع الرفع علي الفاعلية لأن المعني : ولو ثبت صبرهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها , قال الله تعالي - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - وقولهم صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس , وهو حبس في شدة ومشقة علي المحبوس فلهذا قيل للحبس علي اليمين أو أقتل الصبر , وفي كلام بعضهم : الصبر مر لا يتجرعه إلا حر . فإن قلت : هل من فرق بين (حتى تخرج) إلى أن تخرج . قلت : إن حتى مختصة بالغاية المضروبة , تقول أكلت السمكة حتى رأسها ولو قلت نصفها أو صدرها لم يجز , و إلى عامة في كل غاية فقد أفادت حتى بوضعها أن خروج رسول الله صلي الله عليه وسلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما

كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الأنتهاء إليه . فإن قلت : فأي فائدة في قوله (إليهم) ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن بعلموا أن خروجه إليهم (لكان خيرا لهم) في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو وإما ضمير مصدر صبروا كقولهم : من كذب كان شرا له (والله غفورا رحيم) بليغ الغفران والرحمة واسعهما فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء أن تابوا وأنابوا . بعث رسول الله صلي الله عليه وسلم الوليد بن عقبة أخا لعثمان لأمه , وهو الذي ولاه عثمان الكوفه بعد سعد بن أبي وقاص فصلي بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعا ثم قال : هل أزيدكم؟ فعزلة عثمان عنهم مصدقا إلى بني المصطلق , وكانت بينه وبينهم إحنه , فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له فحسبهم مقاتليه , فرجع وقال لرسول الله صلي الله عليه وسلم : قد ارتدوا ومنعوا الزكاة , فغب رسول الله صلي الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم . فبلغ القوم فوردوا وقالوا : نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله , فأتهمهم فقال : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم . ثم ضرب بيده علي كتف علي رضي الله عنه . وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع , وفي تنكير الفاسق والنبأ يشاع في الفساق والأنباء كأنه

{أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ}(الحجرات).

قال أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لا يتحامي جنس الفسوق لا يتحامى الكذب هو نوع منه , والفسوق الخروج من الشيء والانسلاخ منه , يقال فسقت الرطبة عن قشرها , ومن مقلوبة فقسمت البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها , ومن مقلوبة أيضا ففست الشيء إذا اخرجته من يد مالكه مغتصبا له عليه , ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق , قال رؤبة * فواسقا عند قصدها جوائرا * وقرأ ابن مسعود فتثبتوا . والتثبيت و التبين متقاربين وهما طلب الثبات والبيان والتعرف . ولما كان رسول الله صلي الله عليه وسلم والذين معه بالمنزله التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة , قيل أن جاءكم بحرف الشك , وفيه أن علي المؤمنين أن يكونوا علي هذه الصفة لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زرو (أن تصيبوا) مفعول له أي كراهة إصابتكم (قوما بجهالة) حال كقولة تعالي - ورد الله الذين كفروا بغيظهم - يعني جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة . والإصباح بمعني الصيرورة . والندم ضرب من الغم , وهو أن تغتم علي ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع , وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام لأنه كلما اذكر المتندم عليه راجعه من الندم وهو لزام الشريب ودوام صحبته , ومن مقلوبتة أدمن الأمر أدامه , ومدن بالمكان أقام به ومنه المدينة , وقد تراهم يجعلون الهم صاحبا ونجيا و سميرا وضجيعا وموصوفا أنه لا يفارق صاحبه . الجملة المصدرة بلو لا تكون كلاما مستأنفا لأدائه إلى تنافر النظم ولكن متصلا بما قبله حالا من أحد الضميريين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور وكلاهما مذهب سديد . والمعني : إن فيكم رسول الله صلي الله عليه وسلم علي حاله يحب عليكم تغييرها أو أنتم علي حالة بحب عليكم تغييرها , وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث علي مقتضى ما يعن لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه المحتذي علي أمثلته , ولو فعل ذلك (لعنتم) أي

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)(الحجرات).

لوقعتم في العنت والهلاك , يقال فلان يتعنت فلان : أي يطل ما يؤديه إلى الهلاك , وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر , وهذه يدل علي أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله صلي الله عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد , وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم , وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم في التقوى عن الجسار علي ذلك وهم الذين استثناهم بقوله تعالي(ولكن الله حبب إليكم الإيمان) أي إلى بعضكم ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يفطن لها إلا الخواص. وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى , وقوله (أولئك هم الراشدون) والخطاب لرسول الله صلي الله عليه وسلم أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته . فإن قلت : ما فائدة تقديم خبر إن علي اسمهما . قلت : القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين علي ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم لآرائهم فوجب تقديمه لانصاب الغرض إليه . فإن قلت : فلم قيل يطيعكم دون اطاعكم؟ قلت : للدلالة علي أنه كان في أرادتهم استمرار عمله علي ما يستصوبونه ,انه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمول عليه بدليل قوله

{فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحجرات).

- في كثير من الأمر - كقولك فلا يقري الضيف ويحمى الحريم تريد أنه مما اعتادة ووجد منه مستمرا . فإن قلت : كيف موقع لكن وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وأثباتا؟ قلت : هي مفقودة من حيث اللفظ حاصلة من حيث المعني لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم فوقعت لكن في حاق موقعها من الستدراك . ومعني تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق وسبيله الكناية كما سبق , وكل ذي لب وراجع إليه بصرة وذهن لا يغبي عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله , وحمل الآية علي ظهرها يؤدي إلي أن يثني عليهم بفعل الله , وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود . قلت الذي سوغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الوراء ووسامة المنظر في الغالب يفسر عن مخبر مرض وأخلاق محمودة ومن ثم قالوا : أحسن ما في الدميم وجهة فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته علي غيره , علي أن من محققه الثقاة وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح علي النعت بأمهات الخير وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها , وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة و الإعضاد وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطا ومخالفا عن المعقول , والكفر : تغطية نعم الله تعالي و غمطها بالجحود والفسوق : والخروج عن قصد الإيمان ومجحته بركوب الكبائر . والعصيان : ترك الانقياد والمضي لما أمر به لشارع . والعرق العاصي العاند , واعتصت النواة اشتدت . والرشد والاستقامة علي طريق الحق مع تصلب فيه من الرشاد وهي الصخرة . قال أبو الوازع : كل صخرة رشاده وأنشد

وغير مقلد وموشمات **صلين الضوء من صم الرشاد

و (فضلا) مفعولا له أو مصدر من غير فعله . فإن قلت : من اين جاز وقوعه مفعولا له والرشد فعل القوم والفضل فعل الله تعالي والشرط أن يتحد الفاعل؟ قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلي اسمه تقدمه اسماؤه صار الرشد أنه فعله و فجاز أن ينتصب عن الراشدون , ولكن عن الفعل المسند إلي اسم الله تعالي , والجملة التي هي أولئك هم الراشدون اعتراض أو عن فعل مقدر مكانه قيل جري ذل: أو كان فضلا من الله , وأما كونه مصدرا من غير فعله فأن يوضع موضع رشدا لأن رشهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه الفضل والنعمة بمعني الإفضال والإنعام (والله عليم)

بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل (حكيم) حين يفضل وينعم بالتوفيق علي أفاضلهم . عن ابن عباس رضي الله عنه قال

{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ }(الحجرات)

((وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار,فأمسك عبد الله ابن أبى بأنفه وقال :خل سبيل حمارك فقد اذانا نتنه، فقال عبد الله بن رواحه : والله إن بول حماره لأطيب من مسكك))

وروى ((حماره أفضل منك)) ((وبول حماره أطيب من مسكك ،ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا ، وجاء قوماهما وهما الاوس و الخزرج فتجالدوا بالعصى ، وقيل بالأيدى والنعال والسعف ، فرجع إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصلح بينهم ،ونزلت)) وعن مقاتل قرأها عليهم فاصطلحوا.

والبغى الاستطالة والظلم وإباء الصلح . الفىء الرجوع وقد سمى به الظل والغنيمة ، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين . وعن أبي عمرو حتى تفى بغير همز ، ووجهه أن أبا عمرو خفف الأ ولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوى تلك الخلسه فظنه قد طرحها . فإن قلت : ما وجه قوله اقتتلوا والقياس اقتتلتا كما قرأ ابن أبي عبلة أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أوالنفرين ؟ قلت : هو مما حمل على المعنى د ون اللفظ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس ، وفى قراءة عبد الله حين يفيئوا إلى أمرالله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط ، وحكم الفئة الباغيه وجوب قتلها ما قاتلت . وعن ابن عمر : ما وجد ت فى نفسى من شىء ما وجد ته من أمر هذه الآيه إن لم أقاتل هذه الفئه الباغيه كما أمرنى الله عزوجل ، قاله بعد أن اعتزل ، فإذا كافت وقبضت

عن الحرب أيديها تركت ،وإذا تولت أعمل بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم

{فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}(الحجرات)

أنه قال ((يا ابن أم عبد هل تد ر ى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمه ؟ قال: الله ورسوله أعلم ، قال: لايجهز على جريحها ،،ولايقتل أسيرها ، ولايطلب هاربها ، ولايقسم فيئها))

ولاتخلو الفئتان من المسلمين فاقتتا لها إماأن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا فا لواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمرالمكافهوالموادعه فإن لم تتحا جزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغى صير إلىمقا تلتهما ، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهه دخلت عليهما ،وكلتا هما عند أنفسهمامحقه ،فالواجب إزالة الشبهه با لحجج النيره والبراهين

القا طعه واطلاعهما على مراشد الحق ، فإن ركبنا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضو حه لهما فقد لحقتا با لفئتين البغاغيتين ، وإما أن تكون إحداهما الباغيه على الأخرى فا لواجب أن تقاتل فئة البغى إلىأن تكف وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها با لقسط والعدل . وفى ذلك تفاصيل إن كانت

الباغيه من قلة العدد بحيث لا منعه لها ضمنت بعد الفيئه ما جنت إن كانت كثيره ذات منعه وشوكه لم تضمن إلا عتد محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يفتى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبل التجمع والتجند أوحين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها فما جنته ضمنته عند الجميع ، فمحمل الإصلاح بالعدل فى قوله (فأصلحوا بينهما بالعدل) على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنز يل ، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئه القليله العدد ، والذين ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من اعمال العدل ومراعاة القسط . فإن قلت : فلم قرن بالإصلاح الثانى العدل دون الأول؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال فىأول الأيه أن يقتتلا باغيتين معا أو

راكبتى شبهه ،، وأيتهما كانت فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاح ذات

البين وتسكين الدهماء بإرادة الحق والمواعظ الشافيه ونفى الشبهه إلا إذا أصرتا فحينئذ تجب

المقا تله ، وأما الضمان فلا يتجه وليس كذلك إذابغت إحداهما فإن الضمان متجه على الوجهين

المذكورين (وأقسطوا) أمر باستعمال القسط علىطريق العموم بعد ما أمربه فى إصلاح ذات

البين ، والقو ل فيه مثله فى الأمر با تقاء الله على عقب النهى عن التقد يم بين يديه . والقسط

بالفتح الجور من القسط وهو اعوجاج فى الرجلين وعود قاسط يابس أقسطته ، وأما القسط

بمعنى العدل فا لفعل منه أقسط و همزته للسلب :أى أزال القسط وهو الجور .هذا تقرير

لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقه من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان

قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللا صق ما إن لم يفضل الأخوه ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها ، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك

بين اثنين من إخوه الولاد لزم السائر أن يتناهضوا فى رفعه وإزاحته ويركبوا الصعب والذلول مشيا

ءبالصلح وبثا للسفراء بينهما إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه وما استشن من الوصال

من يبله ، فالإخوه فى الدين أحق بذلك وبأشد منه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذ له ولا يعيبه ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره، ثم قال : احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل)) .

فإن قلت : فلم خص الا ثنان بالذكر دون الجمع ؟ قلت : للأ ن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ،

فإذا لزمت المصالحه بين الأقل كانت بين الأ كثر ألزم لأن الفساد فى شقاق الجمع أكثر منه فى شقاق اللاثنين .

وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرىء بين إخوتكم وإخوانكم ،والمعنى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ}(الحجرات)

ليس المؤمنون إلا إخوة وأنهم خلص لذ لك متمحضون قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم فى النماذج والاتحاد أن يقد موا على ما يتولد منه التقاطع فباد روا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه (واتقوا الله) فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارعة إلى إماطة مايفرط منه . وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رأفته عليكم حقيقا بأن تعقدوا به رجاءكم . القوم : الرجال خا صة لأ نهم القّوام بأ مور النساء ـ وقال عليه الصلاة والسلام ((النساء لحم على وضم إلا ما ذ ب عنه، والذابون هم الرجال)) وهوفى الأصل جمع قائم كصّوم وزوّر فى جمع صائم وزائر أو تسمية بالمصد ر، عن بعض العرب إذا أكلت طعاما أحببت نوما وأبغضت قوما: أى

قياما ،واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية ، وفى قول زهير * أقول آل حصن أم نساء* وأما قو لهم فى قوم فرعون وقوم عاد هم الذكور والإناث ،فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ولكن قصد ذ كر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن

توابع لرجالهم . وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين : أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ،وأن تقصد إفادة الشياع أن تصير كل جماعه منه منهيه عن السخر يه . وإنما لم رجل من رجل ولاامرآة من امرآة على التوحيد إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخريه واستفظاعا للشأن الذى كانوا عليه،

ولأن مشهد الساخر لايكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله ،ولايأتى ماعليه من النهى والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه فى تحمل الوزر ، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به فيؤدى ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعه وقوما .وقوله (عسى أن يكونوا خيرا منهم) كلام مستأنف قد ورد مورد

جواب المستخبر عن العله المو جبه لما جاء النهى عنه ،وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء، والمعنى: وجوب أن يتعقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرا من الساخر ، لأ ن الناس لايطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولاعلم لهم بالخفيات ، و إ نما الذى يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من ذلك بمعزل ، فينبغى أن

لايجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهه فى بدنه أوغير لبيق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من قره الله والا ستهانه نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب

بمن عظمه الله ،وقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه خشيت أن أصنع مثل الذى صنعه . وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول ، لوسخرت من

كلب لخشيت أن أخول كلبا . وفى قراءه عبد الله عسواأن يكونوا ، وعسين أن يكن ، فعسى على هذه القراءه هى ذات الخبر كالتى فى قوله تعالى ـ فهل عسيتم ـ وعلى الأولى التى لا خبر لها كقوله تعالى ـ وعسى أن تكرهوا شيئا ـ واللمز:

الطعن والضرب باللسان ، وقرىء ولاتلمزوا بالضم ؛ والمعنى : وخصوا أ يها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبهاوالطعن فيها ، ولاعليكم أ ن تعيبوا غير كم ممن لا يدين بد ينكم ولايسير بسيرتكم ، ففى الحد يث عن رسول الله صلىالله عليه وسلم ((اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذ ره الناس)) وعن الحسن رضىالله عنه فى ذ كر الحجاجك : أ خرج

إلىّ بنا نا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة فى سبيل الله ، ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : ياأبا سعيد ياآبا سعيد ، وقال لما مات :اللهم أنت أمته فاقطع سنته فإنه أتانا أخيفش أعيمش يخطر فى مشيته ، ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة لامن الله يتقى ولامن ا لناس يستحى ، فوقه الله وتحته مائة أ لف أو يزيد ون، لايقوله قائل الصلاة أيها الرجل ،هيهات دون ذلك السيف والسوط . وقيل معناه : لا يعب بعضكم بعضا لأن الؤمنين كنفس واحده ،فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه . وقيل معناه : لا تفعلوا ما تلمزون به لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقه .والتنابز بالألقاب : التداعى بها تفاعل من نبزه ،رينو فلان يتنا بزون ويتنازبون ،ويقال النبز والنزب لقب السوء والتلقيب المنهى عنه هو ما يتداخل المدعو به كراهه لكونه تقصير به وذما له وشيئا ،فأما ما يزينه وينوه به .فلا بأس به . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ((من حق الؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه)) ولهذا كانت التكنيه من السنه والأدب الحسن . قال عمر رضى الله عنه : أشيعوا الكنى فإنها منبهه ،وقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق وعمر بالفاروق وحمزه بإسد الله وخالد بسيف الله ، وقل من المشاهير فى الجاهليه والإسلام من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنه فى الأمم كلها من العرب والعجم تجرى فى مخاطباتهم ومكاتبتهم من غير نكير . روى عن الضحاك أن قوما من بنى تميم استهزءوا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبى ذر وسالم مولى حذيفه فنزلت .وعن عائشه رضى الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت الهلاليه وكانت قصيره .وعن ابن عباس أن أم سلمه ربطت حقويها بسبيبه وسدلت طرفها خلفها وكانت تجره ،فقالت عائشه لحفصه : انظرى ما تجر خلفها كأنه لسا ن كلب .وعن أنس : عيرت نساء رسول الله صلى الله صلى الله وسلم أم سلمه بالقصر . وعن عكرمه عن ابن عباس أن صفيه بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يعيرننى ويقلن يا يهوديه بنت يهوديين ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلا قلت إن أبى هرون وإن عمى موسوإن زوجى محمد ؟ وروى أنها نزلت فى ثابت بن قيس وكان به وقر ، وكانوا يوسعون له فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع ، فأتى يوما وهو يقول : تفسحوا لى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل تنح فلم يفعل ، فقال من هذا ؟ فقال الرجل أنا فلان ، فقال بل أنت ابن فلانه ، يريد أما كان يعير بها فى الجاهليه ، فخجل الرجل فنزلت ، فقال ثابت :لا أفخر على أحد فى الحسب

{بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ}(الحجرات).

بعدها أبدا (الاسم) ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم كما يقال طار ثناؤه وصيته وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس ، ألا ترى إلى

قولهم أشاد بذكره كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤ منين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق . وفى قوله (بعد الإيما ن) ثلاثه أوجه : أحدهما استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره كما تقول بئس السأن بعد الكبره الصبوه ، والثانى أنه كان فى شتمائمهم لمن أسلم من اليهود ي يايهودى يا فاسق فنهوا عنه . وقيل لهم بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهوديه بعد إيمانه . والجمله على هذا التفسير متعلقه بالهى عن التنابز .والثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن كما تقول للمتحول عن التجاره إلى الفلاحه بئست الحرفه الفلاحه بعد التجاره / يقال جنبه الشر إذا أبعده عنه ،وحقيقته جعله منه فى جانب فيعدى إلى مفعولين قال الله عز وجل ـ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ـ ثم يقال فى مطاوعه اجتنب الشر فتنقص المطاوعه مفعولا والمأمور بإجتنابه هو بعض الظن وذلك البعض موصوف بالكثره ، ألا نرى إلى قوله (إن بعض الظن إثم) فإن قلت : مجيئه نكره يفيد معنى البعضيه،وأن فى الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولاتعيين لئلا يجتريء أحد على ظنإلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينه مع استشعار للتقوى والحذر ،ولوعرف لكان الأمر بإجتناب الظن منوطا بما يكثر منه دون ما يقل،ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثره مجتنبا ، وما اتصف منه بالقله مرخصا فى تظننه، والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها أن كل مالم تعرف له أماره صحيحه وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب ،وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانه فى الظاهر فظن الفساد والخيانه به محرم ، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطى الريب والمجاهره بالخبائث . عن النبى صلى الله عليه وسلم ((إن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء)) وعن الحسن : كنا فى زمان الظن بالناس حرام ،وأنت اليوم فى زمان اعمل واسكت وظن بالناس ما شئت. وعنه :لا حرمه لفاجر . و عنه :إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله ،وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب . وقد روى من ألقى جلباب الحياء فلا غيبه له .والإثم : الذ نب الذى يستحق صاحبه العقاب، ومنه قيل لعقوبته الأ نام فعال منه كالنكا ل والعذاب والوبال

(بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)(الحجرات).

قال :

لقد فعلت هذى النوى بى فعله ** أصاب النوى قبل الممات أثامها

والهمزه فيه عن الواو كأنه يثم الأعمال : أى يكسرها بإحباطه .وقريء ولا تحسسوا بالحاء والمعنيان متقاربان ، يقال تجسس الأمر إذاتطلبه وبحث عنه تفعل من الحس، كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس لما فى اللمس من الطلب ، وقد جاء بمعنى الطلب فى قوله تعالىـ وأنا لمسنا السماء ـ والحسس التعرف من الحس ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان الحواس بالحاء والجيم ،والمراد النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه . وعن مجاهد :خذوا ما ظهر ودعوا ماستره الله . وعن النبى صلى الله عليه و سلم ((أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى خدورهن قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه الله ولو فى جوف بيته)) وعن زيد بن وهب قلنا لابن مسعود : هل لك فى الوليد بن أبي معيط تقطر لحيته خمرا ؟ فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شىء أخذنا به . غابه واغتاله ،الغيبه من الاغتياب كالغيله من الاغتيال ، وهى ذكر السوء فى الغيبه ((سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبه فقال : أن تذكر أخاك بما يكره ،فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته)) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الغيبه إدام كلاب الناس (أيحب أحدكم) تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب على أفظع وجه وأفحشه . وفيه

مبالغات شتى :منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغايه من الكراهه موصولا بالمحبه ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدهم والإ شعار بأن أحدا من الأ حدين لايحب ذلك ،ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا ، إن لم يقتصر على أكل لحم الأ خ حتى جعل ميتا . وعن قتاده :كما تكره إن ووجدت جيفه مدوده أن تأكل منها كذلك فا كره لحم أخيك وهو حى . وانتصب (ميتا) على الحال من اللحم ،ويجوز أن ينتصب عن الأ خ . وقرىء ميتا . ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى (فكرهتموه) معناه : فقد كرهتموه ، واستقر ذلك وفيه معنى الشرط : أى إن صح هذا فكرهتموه وهى على الفاء الفصيحه: أى فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشريه عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبه والطعن فى أعراض المسلمين .وقرىء فكرهتموه : أى جبلتم على كراهته . فإن قلت : هلا عدى بإلى كما عدى فى قوله ـ وكره إليكم الكفر ـ وأيهما القياس ؟ قلت :القياس تعديه بنفسه لأنه ذو معقول واحد قبل تثقيل حشوه ، تقول كرهت الشىء فإذا ثقل استدعى زياده مفعول أما تعديه بإلى فتأول وإجراء لكره مجرى بغض ، لأن بغض منقول من بغض الشىء فهو بغيض اليه كقولك

{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} . قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم . يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين .إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون .

الحق منه . فإن قلت : ما معنى ثم ههنا وهى للتراخى وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه لما

سورة ق

مكية. وهى خمس واربعون اية

(بسم اللة الرحمن الرحيم)

الكلام فى (قّ والقرآّن المجيد بل عجبوا) نحوه فى - صّ والقران ذى الذكر بل الذين كفرو -سواء بسواء لالتقائما فى اسلوب واحد . والمجيد والشرف على غيره من الكتب ومن احاط علما بمعانية وعمل بما فية مجد عند الله وعند الناس وهو بسبب من اللّة المجبيد فجاز اتصافة بصفته . قوله- بل عجبوا- (أن جاءهم منذر منهم) انكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالخوف ورجل منهم قد عرفوا وساطتة فيهم وعدالتة وامانته ،ومن كان على صفته لم يكن الا ناصحا لقومه مترفرقا عليهم خائفا ان ينالهم سوء ويحل بهم مكروه ، واذا علم أن مخوّفا أظلهم لزمه أن ينذرهم ، فكيف بما هو غاية الخاوف ونهاية الحاذير وانكار لتعجبهم مما أنذرهم به من

{فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ . بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ . أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} (قّ).العبث .مع علمهم بقدرة اللّه تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهم

.وعلى اختراع كل شىء وابداعة واقرارهم بالنشأة الأولى ومع شهادة العقل بأنة لابد من الجزاء ثم عول على أحد الأنكارين بقولة تعالى (فقال الكافرون هذا شىء عجيب أئذا متنا) دلألة على أن تعجبهم منالعبث أدخل فى الأستبعاد وأحق بالأنكار ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم فى قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم وهذا أشارة الى الرجع واذا منصوب بمضمر معناة: أحين نموت ونبلى نرجع (ذلكرجع بعيد) مستبعد مستنكر كقولك هذا قول بعيد وقد ابعد فلأن فى قولة ومعناة بعيد من الوهم والعادة ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع وهو الجواب ويكون من كلام اللة تعالى استبعادا لانكارهم ما أنذروا بة من العبث والوقف قبلة على هذا التفسير حسن وقرىء اذا متنا على لفظ الخبر ومعناة : اذا متنا بعد ان نرجع والدال علية ذلك رجع بعيد. فاءن قلت :فما ناصب الظرف اذا كان الرجع بمعنى المرجوع ؟ قلت : ما دل علية المنذر من المنذر بة وهو العبث (قد علمنا) رد لاستبعادهم الرجع لأن منلطف علمة حتى تغلغلالى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكلة من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا . عن النبى صلى اللة علية وسلم (كل أبن آّدم يبلى الا عجب الذنب) وعن السدى : ما تنقص الأرض منهم ما يموت فيدفن فى الأرض منهم (كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ومن التغير وهو اللوح المحفوظ أو حافظ اما اودعة وكتب فية (بل كذبوا) اضراب أتبع الاضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذى هو النبوة الثابتة بالمعجزات فى أول وهلة من غير تفكير ولا تدبير (فهم فى امر مريج) مضطرب يقال مرج الخاتم فى أصبعة وجرج فيقولون تارة شاعر وتارة ساحر وتارة كاهن لايثبتون على شىء واحد . وقرىء لما جائهم بكسر اللام وما المصدرية واللام هى التى فى قولهم لخمس خلوان : أى عند مجيئة اياهم وقيل الحق القراّن وقيل الأخبار بالبعث (أفلم ينظروا) حين كفروا بالبعث الى اّثارة قدرة اللة فى خلق العالم (بنيناها) رفعناها بغير عمد (من فروج) من فتوق: يعنى أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل كقولة تعالى - هل ترى من فطور- (مددناها) دحوناها (رواسى) جبالا ثوابت لولا هى لتكفأت (من كل زوج) من كل صنف (بهيج) يبتهج بة لحسنة (تبصرة وذكرى) لتبصر بة وتذكر كل (عبد منيب) راجع الى ربة مفكر فى بدائع خلقة . وقرىء تبصرة وذكرى بالرفع : أى خلقها تبصرة (ماء مباركا) كثير المنافع (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنة أن يحصد وهو ما يقتات بة من نحو

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ .)كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ . أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (قّ).

الحنطة والشعير وغيرهما (باسقات) طوالا فى السماء وفى قراءة رسول اللة صلى اللة علية وسلم باصقات باءبدال السين صادا لأجل القاف (نضيد) منضود بعضة فوق بعض اما أن يراد كثرة الطلع وتراكمة أوكثرة ما فية من الثمر (رزقا) على أنبتناها رزقا لأن الاءنبات فى معنى الرزق أو على أنة مفعول لة : أى أنبتناها لنرزقهم (كذلك الخروج) كما حييت هذة البلدة الميتة كذلك تخرجون احياء بعد موتكم والكاف فى محل الرفع على الابتداء . أراد بفرعون قومة كقولة تعالى -من فرعون وملئهم- لأن المعطوف علية قوم نوح والمعطوفات جماعات (كل) يجوز أن يراد بة كل واحد منهم وأن يراد جميعهم الا أنة وحد الضمير الراجع الية على اللفظ دون المعنى (فحق وعيد) فوجب وحل وعيدى وهو كلمة العذاب وفية تسلية لرسول اللة صلى اللة علية وسلم وتهديد لهم . عيى بالامر اذا لم يهتدى لوجة عملة والهمزة للأنكار والمعنى :أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثانى ثم قال :هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الاول واعترافهم بذلك فى طية الأعتراف بالقدرة على الاعادة (بل هم فى ليس) أى فى خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ومنة قول على رضى اللة عنة : ياحار انة لملبوس عليك اعرف

الحق تعرف أهلة ولبس الشيطان عليهم تسويلة اليهم أن احياء الموتى أمر خارج عن العادة فتركوا لذلك القياس الصحيح أن من قدر على الأنشاء كان على الأعادة أقدر .
فاءن قلت : لم نكر الخلق الجديد وهلا عرف كما عرف الخلق الأول ؟ قلت : قصد فتنكيرة الى خلق جديد لة شأن عظيم وحال شديدة حق من سمع بة أن يهتم بة ويجاف ويبعث عنة ولا يقعد على لبس فى مثلة : الوسوسة : الصوت الخفى ومنها وسواس الحلى ووسوسة النفس :ما يخطر ببال الانسان ويهجس فى ضميرة من حديث النفس . والباء مثلها فى قولك صوت بكذا وهمس بة ويجوز أن تكون للتغدية والضمير للانسان : أى ما تجعلة موسوسا وما مصدرية لأنهم يقولون حدث نفسة بكذا كما يقولون حدثتة بة نفسة ، قال : وأكذب النفس إذا حدثتها (ونحن أقرب إلية) مجاز ،والمراد قرب علمة منة وأنة يتعلق بمعلومة منة ومن أحوالة تعلقا لايخفى علية شىء من خفياتة فكأن ذاتة قريبة منة كما يقال اللة فى كل مكان وقد جل عن الأمكنة وحبل الوريد مثل فى فرط القرب كقولهم هو منى

{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (قّ)
.مقعد القابلة ومقعد الازار ، قال ذو الرمة . والموت أدنى لى من الوريد . واحبل: العرق شبة بواحد الحبال، ألا ترى اللى قولة . كان وريديه رشا آخلب . والويدان : عرقان مكتنفان لصفحّى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس أليه . زوقيل سمموريدا لآمن الروح تريه . فان قلت : ماوجه أضافة الحبل الى الوريد والشيىء لايضاف الى نفسه ؟ قلت : فية وجهان :أحدهما أن تكون الإضافة للبيان كقولهم بعير سائبة . والثانى أنيراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتق لأجتماعهما فى عضو واحد كما لو قيل حبل العلياء مثلا (إذ) منصوب بأقرب ، وساغ ذلك لأن المعانى تعمل فى الظرف متقدمة ومتأخرة ، والمعنى : أنة لطيف يتوصل علمة إلى خطرات النفس وما لاشئ اخفى منه وهو اقرب من الانسان من قريب حين يتلقى الحفيضظان ما يتل به ايذانا بان استحفاظ الملكين امر هوغنى عنه وكيف لايستغى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيان ، وانما ذلك لحمكه اقتضت ذلك وهى مافى كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم يقوم الاشهاد ، وعلم العبد بذلك مع علمه باحطة الله بعمله من زياده لطيف لة فى الانهاء عن السيئات والرغبة فى الحسنات وعن النبى صلى الله عليه وسلم ((أن مقعد ملكيك على ثنيتك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لايعنيك لاتستحى نت الله تعالى ولامنهما)) ويجوز ان يكون تلقى الملكين

بيانا للقرب : يعنى ونحن قريبون منه مطلعون على احواله مهيمنون عليه اذحفظتنا وكتبتنا موكلون به . والتلقى : التلقن بالحفظ والكتبة . والقعيد: المقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، وتقديره : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين ، فترك احدهما لدلالة الثانى عليه كفوله . كنت منه ووالدى بريا. (رقيب) ملك يرقب عمله (عتيدد) حاضر . واختلف فيما يكتب الملكان فقيل يكتبان كل شىء حتى انينه فى مرضه ، وقيل لايكتبان الامايوجر عليه أو يوزر به . ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام ((كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين

{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ}(قّ).

على كاتب السيئات ،فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمن لصاحب الشمال دعة سبع ساعات لعلة يسبح أويستغفر)) وقيل إن الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطة وعند جماعة . وقرىء ما يلفظ على البناء للمفعول ، لما ذكر إنكارهم البعث ، واحتج عليهم بوصف قدرتة وعلمة ، أعلمهم أن أنكروة وجحدوة

هم لاقوة عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ونبة على اقتراب ذلك بأن عبر عنة بلفظ الماضى وهو قولة (وجاءت سكرة الموت بالحق) -ونفخ فى الصور -وسكرة الموت شدتة الذاهبة بالعقل ، والباء فى بالحق للتعدية ،يعنى واحضرت سكره الموت حقيقى الامر الذى أنطلق لله به كتبه وبعث به رسله ، أو حقيقة الامر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته. وقيل الحق الذى خلق له الانسان أن كل نفس ذائقة الموت . ويجوز ان تكون الباء مثلها فى قوله- تنبت بالدهن- أى وجاءات ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الامر ، أو بالحكمة والغرض الصيحيح كقوله تعالى- خلق السموات والارض بالحق- وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضى الله عنهما سكرة الحق بالموت على أضافة السكرة الى الحق ، والدلالة على أنها السكرة التى كتبت على الانسان وأوجبت له وأنما حكمة ، والباء للتعدية لانها سبب زهوق الروح لشدتها أو لان الموت يعقبها فكانها جاءت به، ويجوز أن يكون المعنى : جاءت ومعها الموت.وقيل سكرة الحق - سكرة الله أضيفت اليه تفظيعا لشانها وتهويلا ، وقرىء سكرات الموت (ذلك) اشارة الى الموت والحطاب للانسان فى قوله - ولقد خلقنا الانسان- على طريق الا لتفاتا أو الى الحق والحطاب للفاجر (تحيد)

تنفر وتهرب .وعن بعضهم انه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال :الحطاب لرسول الله علية وسلم فحكاه لصالح بن كيسان فقال :والله ماسنّ عالية ولا اسان فصيح و لامعرفه بكلام العرب هو للكافر ،ثم حكاها للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال : اخالفها جميعا هو للبر والفاجر (ذلك يوم الوعيد) على تقدير حذف المضاف : اى وقت ذلك يوم الوعيد ، والاشارة الى مصدر نفخ (سائق وشهيد)ملكان أحدهما يسوقه الى المحشر والاخر يشهد عليه بعمله ، أو ملك واحد جامع بين الامرين كانه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليا ، ومحل معها سائق النصب على الحال من كل لتعرفه بالاضافة الى ماهو فى حكم المعرفة . وقرى لقد كنت عنك غطاك فبصرك بالكسر على خطاب النفس :أى يقال لها :لقد كنت جعات الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينه فهو لا يبصر شيئ ، فإذا كان يوم القيامه تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق . ورجع بصره الكليل عن البصار لغفلته حديدا لالتيقظه (وقال قرينه) هو الشيطان الذى قيض له فى قوله - نقبيض له شيطانا فهو قرين- يشهد له قرله تعالى - قال قرينه ربنا ما أطغيته - (هذا مالدىّ عتيد) هذا الشىء لدى وفى ملكتى عتيد لجهنم ، والمعنى : أن ملكا يسوقه واخر يشهد عليه وشيطانا مقرونا به يقول : قد اعتدته لجهنم وهيئته لها باغوائى واضلالى . فان قلت : كيف اعراب هذا الكلام ؟قلت : ان جلعت ماموصوفة فعتيد صفة لها ، وان جعلتها موصولة فهو بدل أو خبر بعد خبر أوخبر مبتدأ محذوف (ألقيا)خطاب من الله تعالى للمكين

{ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ .الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}

(قّ).السابقين السائق والشهيد ، ويجوز ان يكون خطابا للواحد على وجهين : احدهما قول المبرد ان تثنية الفاعل نزلت منزله تثنيه الفعل لاتحادها كأنه قبل ألق ألق للتتأكيد . والثانى ان العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان فكثر على ألسنتهم ان بقولون خليلىّ وصاحبى وفقا واسعد حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين . عن الحجاج : انه كان يقول : ياحرسى اضربا عنقه . ويقرأ لحسن القين بالنون الخفيفة ، ويجوز أن تكون الالف فى ألقيا بدلا من النون أجراء للوصل مجرى الوقف (عنيد) معاند مجانب للحق معاد لاهله (مناع للخير) كثير المنع للمال على حقوقه ، جعل ذلك عادة له لايبذل منه شيئا قط أو مناع لجنس الخير أن يصل الى أهله يحول بينه وبينهم . قيل نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يمنع بنى أخيه من الاسلام وكان يقول : من دخل معكم فيه لم أنفعه بخير ماعشت (متد) ظالم متخط للحق (مريب) شاكّ فى الله وفى دينه (الذى جعل) مبتدأ مضمن معنى الشرط ولذلك أحيب بالفاء ويجوز أن يكون الذى جعل منصوبا بدلا من كل كفار ويكون (فالقياه) تكريرا للتوكيد . فاءن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت

على الاولى ؟ قلت : لانها استؤنفت كما تستانف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول كما رايت فى حكاية المقاولة بين موسى وفرعون . فإن قلت : فإين التفأول ههنا ؟ قلت : لما قال قرينة - هذا مالى عتيد - وتبعة قولة - قال قرينة ربنا ما أطغيتة - وتلاة -لا تختصموا لدى - علم أن ثم مقاولة من الكافر لكنها طرحت لما يدل عليها كأنة قال : رب هو أطغانى ، فقال قرينة : ربنا ما اطغيتة . واما الجملة الاولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ماقبلها فى الحصول : أعنى مجىء كل نفس مع الملكين وقول قرينة ما قال لة (ما أطغيتة)ما جعلتة طاغيا وما أوقعتة فى الطغيان . ولكنة طغى واختار الضلالة على الهدى كقولة تعالى - وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى - قال (لا تختصموا . ةالمعنى : لا تختصموا فى دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة فى اختصامكم ولا طائل تحتة وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فما تركت لكم حجة على

{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} (قّ) .ثم قال : لا تطعموا أن أبدل قولى ووعيدى فأعفيكم عما أوعدتكم بة (وما أنا بظلام للعبيد) فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب . والباء فى بالوعيد مزيدة مثلها فى - ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة- أو معدية على قدم مطاوع بمعنى تقدم . ويجوز أن يقع الفعل على جملة قولة - مايبدل القول لدىّ وما أ نا بظلام للعبيد- ولأن بالوعيد حالا : اى قدمت اليكم هذا ملتبسا بالوعيد مقترنا به ، أو قدمته اليكم موعدالكم به . فان قلت : ان قوله وقد قدمت اليكم واقع موقع الحال من لاتختصموا ، والتقديم بالوعيد فى الدنيا والخصومة فى الاخرة واجتماعهما فى زمان واحد واجب . قلت : معناه لاتختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت اليكم بالوعيد وصحة ذلك عندهم فى الاخرة فان قلت : كيف قال بظلام على لفظ لبمبالغه ؟ قلت : فية وجهان : احدهما ان يكون من قولك هو ظالم لعبده . وظلام لعبيده والثانى ان يراد لو عذبت من لايستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم فنفى ذلك . قرئ نقول بالنون والياء . وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم . وعن ابن مسعود والحسن يقال . وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر نحو اذكر وانذر ، ويجوز ان ينتصب بنفخ كأنه يل ونفخ فى الصور _ يوم نقول لجهنم _ وعلى هذا يشار بذلك الى يوم نقول ولا يقدر حذف المضاف . وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصور المعنى فى القلب وتثبيته ، وفية معنان : احدهما انها تملئ مع اتساعها وتباعد اطرافها حتى لايسعها شئ ولا يزاد على امتلائا لقوله - لآ ملآن جهنم - والثانى انها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزي ، ويجوز .

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} (قّ). ان يكون - هل من مزيد - استكثار للداخلين فيها واستبداعا للزيادة عليهم لفرط كثرهم ، أو طلبا للزيادة غيظا على العصاه ، والزيد اما مصدر كالمحيد والمميد واما اسم مفعول كالمبيع (غير بعيد) نصب على الظرف : اى مكانا غير بعيد او على الحال ، وتذكيره لانه على زنه المصدر كالزئير والصليل، والصادر يستوى فى الوصفبه المذكر والمؤنث ، أو على حذف الموصوف : اى شيئا غير بعيد ، ومعناه التوكيد كما تقول هو قريب غيربعيد وعزيز غبر ذليل . وقرئ توعدون بالتاء والياء وهى جملة اعتراضية ، و (اكل أواب) بدل من قولة للمتقين بتكرير الجار كقوله تعالى - للذين استضعفوا لمن امن منهم - وهذا اشاره الى الثواب أو الى مصدر ازلفت . والاواب الرجاع الى ذكر الله تعالى ، والتحفيظ : والحافظ لحدوده تعالى ، و(من خشى)بدل بعد بدل تابع لكل ، ويجوز ان يكون بدلا عن موصوف أواب وحفبظ ، ولايجوز ان يكون فى حكم أواب وحفيظ لان منلا يوصف به ولا يوصف من بين الموصلات الا بالذى وحده ، ويجوز ان يكون مبتدأ خبره يقال لهم ادخلوها بسلام لان من فى معنى الجمع ، ويجوز ان يكون منادى كقولهم من لايزال محسنا احسن الى وحذف حرف النداء للتقريب (بالغيب

) حال من المفعول اى خشيه وهو غائب لم يعرفه ، وكونه معاقبا الا بطريق الاستدلال ، أو صفة .

{ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} (قّ:38) لمصدر خشى : اى خشيه ملتبسه بالغيب حيث خشى عقابة وهو غائب ، أو خشية بسبب الغيب الذى اوعده به من عذابه . وقيل فى الحلوه حيث لايراه احد . فان قلت :كيف قرن بالخشيه اسمه الدال على سعه الرحمه ؟ قلت : للثناء البليغ على الخاشى وهو خشيته مع علمه انه الواسع الرحمة كما أثنى علية بأنة خاش مع أن المخشمنة غائب ونحوة -والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة-فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات.وصف القلب بالانابة وهى الرجوع الى الله تعالى لان الاعتبار بما ثبت منها فى القلب.يقال لهم (ادخلوها بسلام) اى سالمين من العذاب وزوال النعم.او مسلما عليكم يسلم عليكم الله وملائكته (ذلك يوم الخلود) اى يوم تقدير الخلود كقوله تعالى _ فادخلوها خالدين _ اى مقدرين الخلود (ولدينا مزيد) هو مالم يخطر ببالهك ولم تبلغهم اماليهم حتى يشاءهم , وقيل أن السحاب تمر ب\أهل الجنة فتمطرهم الحور فتقول نحن المزيد الذي قال الله عز وجل - ولدينا مزيد - (فتقبوا) وقرا بالتخفيف فخرقه في البلاد ودةخوا . والتنقيب : التنقير عن الأمر والبحث والطلب . قال الحارس بن حلزه :

نقبول في البلاد من حزر الموت ** وجالوا في الأرض كل مجال

ودخلت الفاْ لتسبيب عن قوله - من أد منهم بطشا - أي شدة بطشهم وأقتدرهم وقدرتهم عن التنقيب قوتهم عليه ليجوز أن يراد فنقب أهل مكة في أصفارهم ومساريهم في بلاد القروز . فهل رأوا لهم محيصة حي يؤملوا مثل لانفسهم والدليل علي صحتهم قراءة من قرأ فنقبوا علي ألامر كقوله تعالي - فسيحوا في الأرض - وقرا بكسر القاف مخففه من النقب وهو أن يتنقب خف البعير . قال - مامسها من نقب ولا دبر - ومعني : فنقب أخاف ابلهم واخفيت أقدامهم ونقب كما تنقب اخفاف الآبل لكثرة طوفهم في البلاد (هل من محيص) من الله أو من الموت (لمن كان له قلب 9 أي قلب واعي , لأن من يعي قلبه فكأن لا قلب له . وإلقاء السمع . الإصغاء (وهو شهيد) أي حضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب , وقد ملح الامام غبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه

من شئت من زهزهة والفتي**بمصقلاباذ لسقي الزرع

أو وهو من شاهد علي صحته وأنه وحي ممن الله . أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالي - لتكونوا شهداء علي الناس وعن قتادة : وهو شاهد علي صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده . وقرأ السدي وجماعة القي السمع علي البناء للمفعول ومعناه : لمن ألقي غيره السمع وفتح أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن .

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ . وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ} (قّ).

وقيل ألقى سمعه أو السمع منه . اللغوب : الاعياء وقرى بالفتح بزنة القبول والولوع . قيل نزلت فاليهود لغت تكذيبا لقولهمخلق الله السموات والارض فى ستة أيام أولها الاحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، وقالوا : ان الذى وقع

من التشبيه فى هذه الأمة انما وقع من اليهود ومنهم اخذ (فاصبر على ما يقولون) اى اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه 0 وقيل فاصبر على مايقول المشركون من انكارهم البعث فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم ، وقيل هى منسوخة بآية السيف ، وقيل الصبر مأمور به فى كل حال (بحمد ربك) حامدا ربك، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة . فالصلاه (قبل طلوع الشمس) الفجر (وقبل الغروب) الظهر والعصر (و من الليل) العشا ّن، وقيل التهجد (وادبار السجود) التسبيح فى أّثار الصلوات ، والسجود والركوع يعبر بيهما عن الصلاة ، وقيل النوافل بعد المكتوبات . وعن على رضالله عنه : الركعتان بعد المغرب . وروى عن النبى صلى لله عليه و سلم ((من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين)وعن أبن عباس رضي الله عنهم : الوتر بعد العشاء و الادبار جمع دبر . وقرأ وادبار من ادبرة الصلاة اذا انقضت وتمت ومعناه : وقت انقضاء السجود كقولهم اتيك خفوق النجم (واستمع) يعني : واستمع لما اخبرك به من حال يوم لقيامة وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به المحدث عنهم كما يروي عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ ابن جبل (ياغ معاذ اسمع ما اقول لك ثم حدثة بعد ذلك) فإن قلت : بم انتصب اليوم ؟ قلت : بما دل عليم ذلك الخروج . أي يوم ينادي الممنادي يخرجون من القبور . يوم يسمعون بلا من (يوم ينادي) و (المنادي)اسرافيل ينفخ في الصور وينادي (ايتها العظام الباليه والاوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشمور المتفرقة . أن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء)وقيل اسرافيل ينفخ وجبريل ينادي بالحشر (من مكان قريب) من صخرة بيت لمقدس وهي أقرب الأرض من السماء بأثنا عشر ميل وهي وسط الأرض , وقيل من تحت أدامهم , وقيل منابت شعورهم يسمع من كل شعره: أيتها العططام الباليه , و (الصيحة)النفخة الثانية (الحق) معلق بالصيحة والمراد به البعث والحشر للجزاء , وقريء تشقق وتشقق بادغام التاء فى الشين وتشقق لى ابناء للمفعول وتشق (سراعا) حال من لمجرور (علينا يسير) تقديم الظرف يدل على الاختصاص : ويعنى لا يتسير مثل ذلك الامر العظيم الاعلى القادر الذات الذى لايشغلة شان عن شان كما قال تعالى - ماخلقكم ولا بثعكم الا كنفس وحداة -(نحن أعلم بما يقولون) تهديدلهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بجبار) كقوليه تعالى - بمسيطر - حتى تقسرهم على الايمان انما انت داع وباعث . وقيل أريد التحلم عنهم وترك الغلطة عليهم .ويجرزان {مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}(قّ).

يكون من جبرة علي الأمر بمعني أجبره عليه : أي ما أنت بوال عليهم تجبرهم علي الإيمان. وعلي بمنزلته في قولك هو عليهم اذا كان واليهم ومالك أمرهم (من يخاف وعيد) كقولك تعالي - إنما أنت منذر من يخشاها - لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر علي الكفر . عن رسول الله صلي الله عليه وسلم (من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته)0

سورة والذاريات

مكية . وهي ستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

{والذاريات} الرياح |لأنها تزور التراب وغيره , قال الله تعالي - تذروه الرياح - وقريء بادعام التاء في الذال (فالحاملات وقرأ) السحاب لأنها تحمل المطر , وقريءة قرأ بفتح الواو علي تسمية المحمول بالمصدر أو علي أيقاعه موقع حملا (فالجاريات يسرا) الفلك , ةمعني يسرا ذا يسر : أي ذا سهولة (فالمقسمات أمرا) الملائكة لأنها تقسم الأمور من

الأمطار والأرزاق وغيره , وتفعل التقسيم مأمور بذلك . وعن مجاهد : تتولي تقيسكم أمر العباد جبريل للغيظة وميكائيل للرحمة وملك الموت لقبض الأرواح وإسرافيل للنفخ . وعن علي رضي الله عنه أنه قال وهو علي المنبر : سألوني قبل أن لتسألوني ولن تسألوا بعدي مثلي , فقال ابن الكواء فقال . ما الذاريات ذروا؟ قال : الرياح , قال فالحاملات وقرأ؟ قال السحاب . قال : فالجاريات يسرا ؟ قال الفلك , قال :فالمقسمات أمرا ؟ قال : الملائكة . كذا عن ابن عباس . وعن الحسن : المقسمات السحاب يقسم الله بها أرزاق العباد وقد حملت علي الكواكب السبعة . ويجوز أن يراد الرياح لا غير لأنها تنشيء السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جريا

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} (الذريات(سهلا وتقسيم الأمطار بتصريف الرياح . فأن قلت : ما معني الفاء علي التفسيرين ؟ قلت : أما علي الأول فمعني التعقيب فيها أنه تعالي أقسم بالرياح فبالسحاب الذي تسوقه فبالفلك التي تجريها بهبويها فبالملائكة التي تقسم الأرزاق باذن الله من الامطار وتجارات البحر ومنافعة , وأما علي الثاني فلأنها تبتديء بالهبوب فتذروا التراب والحصباء فتقبل السحاب فتجري في الجو باسطة له فتقسم المطر (أنما توعدون) جواب القسم وما موصولة أو مصدرية والموعود البعث . ووعد صادق كعيشة راضية . والدين الجزاء . والواقع الحاصل (الحبك) الطرائق مثل حبك الرمل والماء إذا ضربته الرياح وكذلك حبك الشعر آثار تثينه وتكسره , قال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسيجه ** ريح خريق لضاحي مائه حبك

والدرع محبوكة لأن حبقها مطرق طرائق , ويقال إن خلقه السماء كذلك . وعن الحسن حبكها نجومها والمعني : أنها أنها تزينها كما تزينها الموشي طرائق الموشي , وقيل حبكها صفاتها واحكامها من قولهم فرس محبوك المعاقم : أي محكمها , واذا أجاد الحياكة قالوا ما أحسن حبكه , وهو جمع حبالك كمثال ومثل أو حبية كطريقة وطرق وقريء الحبك بوزن القفل والحبك بوزن السلك والحبك بوزن الجبل والحبك بوزن البرق والحبك بوزن النعم والحبك بوزن الإبل (إنكم لفي قول مختلف) قولهم في الرسول ساحر وشاعر وجنون . وفي القرآن شعر وسحر وأساطير الأولين . وعن الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستويا أنما هو متناقص مختلف , وعن قتادة منكم مصدق ومكذب ومقر ومنكر (يؤفك عنه) الضمير للقرآن أو للرسول : أي يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم كقوله - لا يهلك علي الله غلآ هالك - وقيل يصرف عنه من صرف في يابق علم الله . أي علم فيما لم يزل أنه مافوك عن الحق لا يرعوي . ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين ., أقسم بالذاريات علي أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم بالسماء علي أتهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد . ثم قال : يؤفك عن الأقرار بأمر القيامه ما هو مأفوك , ووجه أخر وهو أن يرجع الضمير إلي قول مختلف , وعن مثله في قوله : * ينهون عن أكل وعن شرب * أي يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب وحقيقته يصدر تناهيهم فم السمن عنهما وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف , وقرأ سعيد بن جبير يؤفك عنه من أفك علي البناء للفاعل أي من أفك الناس عنه وهم قريش , وذلك أن الحي كانزا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله صلي الله عليه وسلم فيقولون له احذره فيرجع فيخبرهم . وعن زيد بن علي : يؤفك عنه من أفك :

{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ .يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} (الذريات).

أي يصرف الناس عنه ما هو مأفوك في نفسه , وعنه أيضا : يأفك عنه من أفك : أي يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب . وقريء يؤفن عنه من أفن : أي يحرمه من حرم من أفن الضرع اذ نهكه حلبا (قتل الخراصون) دعا عليهم كقوله تعالي - قتل الإنسان ما أكفره - وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جري مجري لعن وقبح . والخراصون الكذابون المقدرون مالا يصح وهم أصحاب القول المختلف . وللام إشار اليهم كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون . وقرأ قتل الخراصين : أي قتل الله (في غمرة) في جهل يغمرهم (ساهون غافلون عما أمروا به (يسئلون) فيقولون (أيان يوم الدين) أي متي يوم الجزاء , وقرأ بكسر الهمزة وهي لغة فإن قلت : كيف وقع أيان ظرفا لليوم وأنما تقع الأحياء ظروفان للحدثان . قلت : معناها أيان وقوع يوم الدين . فإن قلت : فبم أنصت اليوم الواقع في جواب قلت : بفعل مضمر دل غليه السؤال أن يقع يوم هم علي النار يفتنون . ويجوز أن يكون مفتوحا لإضافته إلي غير متمكن وهي الجملة . فإن قلت : فما محله مفتوحا؟ قلت : يجوز أن يكون محله نصبا بالضمير الذي هو يقع ورفعا علي هو يوم هم علي النار يفتنون , وقرأ ابن أبي عيلة بالرفع (يفتنون) يحرقون ويعذبون ومنه الفتن وهي الحرة لأن حجارتها كأنه حجارتها كأنها محرقة (ذوقوا فتنتكم) في محل الحال : أي مقولا لهم هذا القول (هذا) مبتدأ , و(الذي) خبره أي هذا العذاب هو الذي (كنتم به تستعجلون) ويجوز أن يكون هذا بلا من فتنتكم : أي ذوقوا هذا العذاب (آخذين ما أتاهم ربهم) قابلين لكل ما أعطاهم راضين به : يعني أنه ليس فيما أتاهم غلإ ما هو متلقي بالقبول مرضي غير مسخوط لأن جميعه حسن طيب , ومنهكقوله تعالي - ويأخذ الصدقات - أي يقبلها ويرضاها (محسنين) قد أحسنوا أعمالهم وتفسير إحسانهم ما بعده (ما) مزيدة , والمعني كانوا يهجمون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلا ظرفا , ولك أن تجعله صفة للمصدر :أي كانوا يهجعون قليلا و ويجوز أن تكون

{وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الذريات).

ما مصدرية او موصولة على قليلا من الليل هجوعهم او ما يهجعون فيه، وارتفاعه بقليلا على الفاعلية وفيه مبالغات لفظ الهجوع وهو الفرار من النوم ، قال:

قد خصنت البضة رأسي فما أطعم نوما غير تهجام

وقوله قليلا من الليل لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة ما المؤكدة لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين , فإذا اسحروا وأخذوا في الأستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم . قوله (هم المستغفرون) فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له واطنابهم فيه . فإن قلت : هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم وأن يكون المعني أنهم لا يهجعون من الليسل قليلا ويحيونه كله؟ قلت : لا , لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها , تقول : زيدا لم أضرب زيدا ما ضربت . السائل الذي يستجدي (والمجروم) الذي يحسب غنيا فيحرم الصدقة لتعففه . وعن النبس صلي الله عليه وسلم ((ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكتان واللقمتان والتمرة والتمرتان , قالوا فما هو ؟ قال : الذي لا يجد ولا يتصدق عليه)) وقيل الذي لا ينمي له مال , وقيل المحارف الذي لا يكاد يكسب . (وفي الأرض آيات) تدل علي الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها كما قال - الذي جعل لكم الأرض مهادا - وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها وهي مجزأة , فمن سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات من صلبة ورخوة وعذاة وسبخة , وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح - تسقي بماء واحد بعضها علي بعض في الأكل - وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم و وما فيه من العيون

المتفجرة والمعادن المفننة والدواب المنبثة في برها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال من الوحشي والإنسي والهوام وغير ذلك (للموقنين) الموحدين الذي سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة , فهم نظارون بعيون بصرة وأفهام نافذة كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيمانا وإيقانا إلى إيقانهم (وفي أنفسكم) في الحال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال , وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان , وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني , وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبا وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة علي حكمة المدبر , دع الأسماع والأسماع والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلق له وما سوي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني , فإنه إذا جسي شيء منها جاء العجز , و إذا

{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ .فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ. هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} (الذريات)

استرخي أناخ الذل - فتبارك الله أحسن الخالقين - (وفي السماء رزقكم) هو المطر لأنه سبب الأقوات , وعن سعيد أبن جبير : هو الثلج وكل عين دائمة منه . وعنة الحسن أنه كان اذا رأي السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه لخطاياكم (وما توعدون) الجنة هي علي ظهر السماء السابعة تحت العرش . أو اراد أن ترزقونه في الدنيا وما تاوعدون به في العقل كله مقدار مكتوب في السماء . قريء مثل ما بالرفع صفة للحق : أي حق مثل نطقكم . وبالنصب علي أنه لحق حقا مثل نطقكم , ويجوز أن يكون فتحا لإضافته إلي غير متمكن وما مزيده بنص ةالخليل , وهذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنكم نري وتسمع ومثل ما إنك ههنا , وهذا الضمير اشارة إلي ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي صلي الله عليه وسلم أو إلي ما توعدون . وعن الأصمعي : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي علي قعود له فقال : ممن الرجل ؟ قلت : مكن بني أصمع , قال : من أين أنت ؟ قلت : من موضع يتلي فيه كلام الرحمن , فقال أتل علي فتلوت - والذاريات - فلما بلغت قوله 0 وفي السماء رزقكم - قال : حسبك , فقام إلي ناقته فنحرها ووزعها علي من أقبل وادبر , وعمد إلي سيفه وقوسه فكسرهما وولي , فلما حجبت مع الرشيد طفقات أطواف , فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق . فالتفت فإذا أنا بالآعرابي قد نحل واصفر . فسلم وأستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى الجئوه باليمين , قالها ثلاثة وخرجت معها نفسه (هل أتاك) تفخيم للحديث وتنبيه علي أنه ليس من علي الرسول صلي الله عليه وسلم وإنما عرفه بالوحي , والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم لأنه في الأصل مصدر ضافة , وكانوا أثني عشر ملكا, وقيل تسعة عاشرهم جبريل , وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملك معهما , وجعلهم ضيفا لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم , أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك , وإكرامه أن 'براهيم خدمهم بنفسه وأخدمهم امرأته وعجل لهم القري , أو انهم في أنفسهم مكرمون , قال الله تعالي - بل عباد مكرمون - (إذ دخلوا) نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم وإلا فبما في ضيف من معني الفعل أو بأضمار أذكر (سلاما) مصدر ساد مسد الفعل مستغني به عنه وأصله نسلم عليكم سلاما . وأما (سلاما) فمعدوله به إلي الرفع علي الأبتداء , وخبره محذوفا مكعناه : عليكم للسلام للدلالة علي ثبات السلام كأنه قصد أن يحيهم بأحسن مما حيوه به أخذا بأدب الله تعالي , وهذا أيضا من إكرامه لهم . وقرئا مرفوعين , وقريء سلاما قال سلما والسلم السلام , وقريء سلام قال سلم (قوم منكرون) أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام , أو أراد أنهم ليس من معارفه أو من جنس الناس الذي عهدهم , كما لو أبصر العرب قوما من الحزر أو رأي لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم , أو كان هذا السؤال : أنتم قوم منكرون

{فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ. فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} (الذريات).فعرفوني من أنتم (فراغ إلي أهله) فذهب اليهم في خيفة من ضيوفة , ومن أدب المضيف أن يخفي أمره وأن يبادره بالقريء مكن غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يكفه ويعذرة . قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم البقر (فجاء بعجل سمين) . والهمزة في (أل تأكلون) (للانكار أنركر عليهم ترك الأكل أو حثهم عليه (فأوجس) وإنما أخافهم لأنهم لا يتحرموا بطعامه فظن أنهم يريدون به سواء . وعن أبن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب . وعن عون بن شداد : مسح جبريل العجل بجناحة فقام يدرج حتى لحق بأمه (بغلام عليم) أي يبلغ ويعلم , وعن حسن عليم نبي , والمبشر به إسحاق وهو أكثر الأقاويل وأصحها لأنها الصفة صفة سارة لاهاجر وهي امرآة إبراهيم وهو بعلها , وعن مجاهد هو إسماعيل , (في صرة) في صيحة من صر الجندب وصر القلم والباب ومحله النصب علي الحال : أي فجاء صارة , قال الحسن : أقبلت إلي بيتها وكانت تقول أقبل تشتمني . وقيل صرتها قلوها أوه , وقيل ياويلتنا . وعن عكرمه رنتها (فصكت) فلطمت ببسط يديها , وقيل فضربت بإطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب (عجوز) أنه عجوز فكيف ألد (كذلك) مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به (قال ربك)أيأنما نخبرك عن الله والله قادر علي ما تستبعدين.

وروي أن جبريل قال لها أنظري إلي سقف بيتك , فنظرت ف'ذا جذوعه مورقه مثمرة . لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلا في بعض الأمور (قال ما فما خطبكم) أي فما شأنكم وما طلبكم (إلي قوم مجرمين) إلي قوم لوط (حجارة من طين) معلمة من السومة وهي العلامة علي كل واحد منها اسم من يهلك به . وقيل أعلمت بأنه من حجارة العذاب , وقيل بعلامة تدل علي أنها ليست من حجارة الدنيا . سماهم

{فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ. وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ. وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ. وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} (الذريات).مسرفين كما سماهم عادين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم حيث لام يقنعوا بما أبيح لهم . الضمير في (فيها) للرية ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة , وفيه دليل علي أن الإيمان والإسلام واحد وأنهما صفتا مدح . قيل هم لوط وابتناه , وقيل كان لوط وأهال بيته الذين نجول ثلاثة عشر , وعن قتادة : لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضبعة علي أهله عند الله (آية) علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم . قال ابن جريح : هي صخر منضود فيه , وقيل ما أسود منتن (وفي موسى) عطف علي وفي الأرض آيات أو علي قوله - وتركنا فيه آية - علي معني وجعلنا في موسى آية كقوله * علفتها تبني وماء باردا * (فتولي بركنه) فازور وأعرض كقوله - و،اي بجتنبه - وقيل فتولي بما كان يتقوي به من جنوده وملكه . وقريْ بركنه بضم الكاف (وقال الساحر) أي هو ساحر (مليم) آت بما يلام عليه من كفره وعناده , والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه . فإن قلت : كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالي - فالتقه الحوت وهو مليم -؟ قلت : موجبات اللوم تختلف وعلي حسب اختلافهم تختلف مقادير اللوم , فراكب الكبيرة ملوم علي مقدارها وكذلك مقترف الصغيري . أل تري إلي قوله تعالي - وعصوا رسله - وعصي آدم ربه - لأنه الكبيرة والصغيرة يجمعهما أسم العصيان كما يجمعهما اسم القبيح و السيئة(العقيم التي لا خير) فيها من أنشاء مطر أو القاح شجر وهي ريح الهلاك . واختلف فيه , فعن علي رضي الله عنه النكباء , وعن ابن عباس الدبور , وعن ابن المسب

المجنوب الرميم كل مارم : أي بلب وتفتت من عظم ونبات أو غير ذلك (حتى حين) تفسيره قوله - تمتعوا في داركم ثلاثة أيام - (فعتوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله . وقريء الصعقة وهي المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة , والصاعقة النازلة نفسها (وهم ينظرون) كانت نهارا يعاينونها . وروي أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون اليهم وماضرتهم 0فما استطاعوا من قيام) كقوله تعالي - فاصبحول في دارهم جاثمين - وقيل هو من قولهم مل يقوم به اذا عجز عن دفعه (منتصرين) ممتنعين عن العذاب (وقوم) قريء بالجر علي معني وفي قةم نوح . وتقويه قراءة عبد الله وفي قوم نوح , وبالنصب علي معني وأهلكنا قوم نوح لأن من قبله يدل عليه أو واذكر قوم نوح

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ . وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ . كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ} (الذريات).(بأيد) بقوة , والأيد والآد القوة , وقد آد يئيد وهو (وإنا لموسعون) لقادرون من الوسع وهي الطاقة , والموسع : القوي علي الإنفاق d]

(ةتبسشينم.وعن الحسن : لموسعون الرزق بالطر , وقيل جعلنا بنيها وبين الأرض سعة (فنعم الماهدون) فنعم الماهدون نحن (ومن كل شيء) أي من كل ئيء من الحيوانات (خلقنا زوجين) ذكر وأنثي . وعن الحسن : السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر وابر والبحر والموت والحياة , فعدد أشياء , وقال : كل أثنين منها زوج والله تعالي فرد لا مثل له

(لعلك تذطرون) أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه (ففروا إلى الله) اي إلى طاعته وثابه من معصيته وعقابه , ووحده لا تشركوا به شيءا , وكرر قوله (إني لكم منه نذير مبين) عند الآمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع غلآ مع الأيمان , وأنه لايفوز عند الله إلا الجامع بينهما , ألا تري إلى قوله تعالي - لا ينفع نفسا إيمانها يم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا - والمعني : قل يا محمد ففروا إلى الله (كذلك) الأمر: أي مثل ذلك, وذلك اشارة إلى تكذيبهم الرسول صلي الله عليه وسلم وتسميته ساحرا مجنونا , ثم فسر إلى ما أجمل بقوله (ما ـاي) ولا يصح أن تكون الكاقف منصوبة بأتي لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها , ولو قيل لم يأت لكان صحيحا علي معني مثل ذلك الإتيان لم يأت من قيلهم من قبلهم رسول الله قالوا (أتواصوا به)الضمير للقةل , يعن\ي أتواصي الأولون والآخرون بهذا القول حتي قالوا جميعا متفقين عليه (بل هم قوم طاغون) أي لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان والطغيان هو الحامل عليه (فتول عنهم) فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا وعرفت منهم العناد واللجاج فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة ولا تدعوا التذكير والموعظة بأيام

{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} (الذريات). الله (فإن الذكر تنفع المؤمنين) أي تؤثر في الدين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان او يزيد الداخلين فيه إيمانا , وروي أن لما تنزلت فتول عنهم حزن رسول الله صلي الله عليه وسلم وأشتد ذلك علي أصحابه ورأوا أن الوحي قد أنقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله وذكر : أي وما خلقت الأنس والجن إلا لأجل العباردة , ولم أراد من جميعهم إلا إياهم . فإن قلت : لو كلن مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا , قلت : إنما أراد منهم أن يعبدون مختارين للعبادة لا مضطرين إليها لأنه

خلقهم ممكنين , فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها , ولو أرادها علي القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم , يريد إن شأني مع عباديس ليس كشأن السادة مع عبيدهم . فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينهوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم , فإما مجهز في تجارة لفيء ربحا أو مرتب فغي فلاحة ليغتل أرضا , أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته , أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز ما اشبه ذلك من أعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق, فأما مالك الملك العبيد وقال لهم اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ولا أريد أن اصرفكم في تحصيل رزقي وأنا غني عنكم وعن مرافقكم ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي فما هو إلا أنا وحدي (المتين) الشديد القوي . وقريء علي كل شيء . وقريء الرازق . وفي النبي صلي الله عليه وسلم إني أنا الرازق . الذنوب : الدلو العظيمة , وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . قال :

وفي كل حي قد خطبت بنعمة ** فحق لشاش من نداك ذنوب

{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} (الذريات).قال المالك : نعم وأذنبه . والمعني :فإن الذين ظلموا رسول الله صلي الله عليه وسلم بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابه ونظرائهم من القرون . وعن القتادة : سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم (من يومهم) من يوم القيامة . وقيل من يوم بدر . عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ((من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا)).

سورة الطور

مكية . وهي تسع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ .وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} (الطور).

الطور : الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين . والكتاب المسطور في الرق المنشور . والرق : الصحيفة , وقيل الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال , قال الله تعالي - ونرخج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا - وقيلا هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم , وقيل اللوح المحفوظ , وقيل القرآن , ونكر لأنه كتابا مخصوص من بين جنس الكتب كقوله تعالي - ونفس وما سواها - (والبيت المعمور) الضراح في السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة , وقيل الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين (والسقف المرفوع) السماء (والبحر المسجور) المملوء , وقيل الموقد من قوله تعالي - إذا البحار سجرت - وروي (أن الله تعالي))

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرا . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ

وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ}(الطور(.

يجعل يوم القيامة البحار كلها نارا جنهم)) وعن على رضى الله عنه انه سال يهوديا اين موضع النار فى كتابكم ؟ قال : ما اراه صادقا لقوله تعالى- والبحر المسجور-(لواقع) لنازل. قال جبير بن مطعم ((اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اكلمه في الاسارى , فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور , فلما بلغ - إن عذاب ربك لواقع - أسلمت خوفا من أن ينزل العذاب)) تمور السماء) تضطرب وتجيء وتذهب . وقيل المور تحرك في تموج وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة : غلب الحوض في الأندفاع في الباطل والكذب , ومنه قوله تعالي - وكنا نخوض مع الخائضين - وخضتم كالذي خاضوا - الدع : الدفع العنيف . وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعونهم إلى النار دفعا علي وجوههم وزخا في أقفيهم , وقرأ زيد بن علي : يدعون من الدعاء : أي يقال لهم هلموا إلى النار وادخلوا النار (دعا)مدعوعين يقال لهم هذه النار (أفسحر هذا) يعني كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفسحر هذا , يريد أهذا المصداق أيضا سحر , ودخلت الفاء هذا المعني (أم أنتم لا تبصرون) كم كنتم لا تبصرون في الدنيا : يعني أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمي عن الخبر , وهذا تقريع وتهكم (سواء خبر محذوف : أي سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إنما تجزون ما كنتم تعملون) ؟ قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية علي الجزع لنفعه في العاقبة بان يجازي عليه الصبر جزاء الخير , فأما الصبر علي العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزيا له علي الجزع (في جنات ونعيم) في أية جنات وأي نعيم بمعني الكمال في الصفة . أو في الجنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة , وقريء فاكهين وفكهين وفاكهون من نصبه حالا جعل الظرف مستقرا ومن رفعه خبرا جعل الظرف لغوا : أي متلذذين _بما آتاهم ربهم . فإن قلت : علام عطف قوله (ووقاهم ربهم) . قلت : علي قوله في جنات أو علي آتاهم ربهم علي أن تجعل ما مصدرية . يقال لهم , والمعني : فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم , ويجوز أن تكون الواو الحال وقد بعدها مضمرة . يقال لهم : "(كلوا واشربوا) أكلا وشربا (هنيئا) أو طعاما وشرابا هنيئا وهو الذي لا تنغيص فيه , ويجوز أن يكون مثله في قوله :

{وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ . أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ . أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ . فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ . يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . َاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}(الطور).

الخالق (بل لا يوقنون) أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض ؟ قالوا الله وهم شاكون فيهم يقولون لا يوقنون . وقيل أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب . وقيل أخلقوا من غير أب و أم (أم عندهم خزائن) الرزق حتلى يرزقوا النبوة من شاءوا ؟ او عندهم خزائن علمه حتى يخاروا لها من أختياره حكمة ومصلحة (أم هم المسيطرون) الأرباب الغالبون حتى لا يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور علي إرادتهم ومشيئتهم , وقريء المسيطرون بالصاد (أم لهم سلم) منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملاءكة وما يوحي اليهم من عليم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه علي هلاكهم وظفرهم في العاقية دونه كما يزعمون (بسلطان مبين)

بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم . المغرم ا أن يلتزم الانسان ما ليس عليه : أي لزمهم مغرم ثقيل فدحهم فزهدهم ذلك في أتباعك (أم عندهم غيب) أي اللوح المحفوظ (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لا نبعث وإن بعثنا ما لم نعذب (أم يريدون كيدا)وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله صلي الله عليه وسلم وبالمؤمنين (فالذين كفروا) اشارة اليهم . أو يريد بهم كل من كفر بالله (هم المكيدون) هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم وذلك أنهم قتلوا يوم بدر , أو المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته . الكسف : القطعة وهو جواب قولهم - أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا - يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا , ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب . وقريء حتى يلقوا ويلقوا (يصعقون) يموتون , وقريء يصعقون يقال صعقة فصعقة وذلك عند النفخة الأولي نفخة الصعقة (وإن الذين ظلموا) زإن لهؤلاء الظلمة (عذابا دون ذلك) دون يوم القيامة وهو قتل ببدر والقحط سبع سنين وعذاب القبر . وفي مصحف عبد الل دون ذلك قريبا (لحكم ربك) ب'مهملهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة (فإنك باعيننا) مثل أي بحيث نواك ونكلؤك وجمع العين لأن الضمير بلفظ ضمير الجماعة , ألا تري إلى قوله تعالي - ولتصنع علي عيني - . وقريء بأعيننا

) حِينَ تَقُومُ)(الطور . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) (الطور). بالادغام (حين تقوم) مكن أي مكان قمت , وقيل من منامك (وإدبار النجوم) واذا ادبرت النجوم من آخر الليل . وقريء وادبار النجوم بالفنح بمعني في أعقاب النجوم وآثارها اذا غربت , والمراد الأمر بقول : سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات . وقيل التسبيح الصلاة اذا قام من نومه , ومن الليل صلاة العشاءين . وإدبار النجوم صلاة الفجر . عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ((من قرأ سورة الطور كان حقا علي الله أن يؤمنه من عذابه وأن بنعمه في حنته)).

سورة النجم

مكية وآياتها 62 وقيل 61 آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنَّجْمِ إذا هوى ما ضلَّ صاحبُكُم وما غوى وما ينطقِ عن الهوى إنْ هو إلاَّ وحيٌ يُوحى علَّمهُ شديدُ القُوى ذُو مرّةٍ فاسْتوى وهو بالأفُقُ الأعلى ثُمَّ دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤادُ ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رءاه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنَّة المأوى إذ يغشى السّدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى}.

النجم: الثريا وهو اسم غالب لها.

قال: أو جنس النجوم.

قال: فباتت تعدُّ النَّجْم في مُسْتحيرةٍ يريد النجوم " إذا هوى " إذا غرب أو انتثر يوم القيامة.

أو النجم الذي يرجم به إذا هوى: إذا انقضّ.

أو النجم من نجوم القرآن وقد نزل منجماً في عشرين سنة إذا هوى: إذا نزل.

أو النبات إذا هوى: إذا سقط على الأرض.

وعن عروة بن الزبير: 097 أنَّ عتبة بن لهب وكانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتينّ محمداً فلأوذينه فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة! فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة فإني أخاف على ابني دعوة محمد فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله.

وقال حسان:" ما ضلَّ صاحبُكُم " يعني محمداً صلى الله عليه وسلم: والخطاب لقريش وهو جواب القسم والضلال: نقيض الهدى والغيّ نقيض الرشد أي: هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغيّ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه وإنما هو وحي من عند الله يوحى إليه.

ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ويجاب بأنّ الله تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى " شديد القوى " ملك شديد قواه والإضافة غير حقيقية لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها وهو جبريل عليه السلام ومن قوّته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحها ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفحه بجناحه نفحة فألقاه في أقصى جبل بالهند " ذُو مرَّةٍ " ذو حصافة في عقله ورأيه ومتانة في دينه " فاستوى " فاستقام على صورة نفسه الحقيقة دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي وكان ينزل في صورة دحية وذلك: 098 أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق.

وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء " ثُمَّ دنا " من رسول الله صلى الله عليه وسلم " فتدلَّى " فتعلق عليه في الهواء.

ومنه: تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير.

والدوالي: الثمر المعلق.

قال: تدلَّى عليْها بين سبٍّ وخيطةٍ ويقال: هو مثل القرليّ: إن رأى خيراً تدلى وإن لم يره تولى " قاب قوسين " مقدار قوسين عربيتين: والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس: المقدار.

وقرأ زيد بن علي: قاد.

وقرئ: " قيد " وقدر.

وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والأصبع.

ومنه: 099 " لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين ".

وفي الحديث: 100 " لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قدّه خير من الدنيا وما فيها " والقدّ: السوط.

ويقال: بينهما خطوات يسيرة.

قال: وقدْ جعلتْني منْ حزيمة أصْبُعا فإن قلت: كيف تقدير قوله: " فكان قاب قوسين " قلت: تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله: أي: ذا مقدار مسافة أصبع " أو أدنى " أي على تقديركم كقوله تعالى: " أو يزيدون " الصافات: 147.

" إلى عبده " إلى عبد الله وإن لم يجر لاسمه عزّ وجل ذكر لأنه لا يلبس كقوله: {على ظهرها} فاطر: 45.

" ما أوحى " تفخيم للوحي الذي أوحي إليه: قيل أوحي إليه " إنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك " " ما كذب " فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه يعني: أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك في أنَّ ما رآه حق وقرئ: " ما كذب " أي صدّقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته " أفتُمارُونهُ " من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مري الناقة كأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه.

وقرئ: " أفتمرونه " أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدّى بعلى كما تقول: غلبته على كذا: وقيل: أفتمرونه: أفتجحدونه.

وأنشدوا: لئن هجوت أخاً صدْقٍ ومكْرمةٍ لقدْ مريْت أخاً ما كان يمْريكاً وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحدته وتعديته بعلى لا تصح إلاّ على مذهب التضمين " نزلةً أُخرى " مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لأنّ الفعلة اسم للمرّة من الفعل فكانت في حكمها أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة اخرى في صورة نفسه فرآه عليها وذلك ليلة المعراج عند سدرة المنتهى.

قيل: في سدرة المنتهى: هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش: ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيول تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله فيكتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها.

والمنتهى: بمعنى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها في منتهى الجنة وآخرها.

وقيل: لم يجاوزها أحد وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها.

وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء " جنَّةُ المأوى " الجنة التي يصير إليها المتقون: عن الحسن.

وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء.

وقرأ علي وابن الزبير وجماعة " جنة المأوى " أي سترة بظلاله ودخله فيه.

وعنه عائشة: أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فأجنه الله " ما يغْشى " تعظيم وتكثير لما يغشاها فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله: أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف.

وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 101 " رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله ".

وعنه عليه السلام: 102 يغشاها رفرف من طير خضر.

وعن ابن مسعود وغيره: يغشاها فراش من ذهب " ما زاغ " بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم " وما طغى " أي اثبت ما رآه إثباتاً مستقيماً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزه أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها وما طغى: وما جاوز ما أمر برؤيته " لقد رأى " والله لقد رأى " من آيات ربه " الآيات التي هي كبراها وعظماها يعني: حين رقى به إلى السماء فأري عجائب الملكوت.

{أفرءيتم اللاَّت والعزَّى ومناة الثالثة الأُخرى ألكُمُ الذَّكُر وله الأُنثى تلك إذاً قسْمةٌ ضيزى إنْ هي إلاَّ أسماءٌ سمَّيتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطانٍ إن يتَّبعون إلاَّ الظَّنَّ وما تهوى الأنفسُ ولقد جاءهم من رَّبِّهِمُ الهدى}.

" " اللاَّت والعُزَّى ومناوة " أصنام كانت لهم وهي مؤنثات فاللات كانت لثقيف بالطائف.

وقيل: بنخلة تعبدها قريش وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة.

أو يلتوون عليها: أي يطوفون.

وقرئ " اللات " بالتشديد.

وزعموا أنه سمي برجل كان يلت عنده السمن بالسويق ويطعمه الحاج.

وعن مجاهد: كان رجل يلت السويق بالطائف وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثناً والعزّى كانت لغطفان وهي سمرة وأصلها تأنيث الأعزّ.

وبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام تلك العزّى ولن تعبد أبداً.

ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لثقيف.

وقرئ: " ومناءة " وكأنها سميت مناة لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها أي: تراق ومناءة مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها.

و " الأُخْرى " ذمّ وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى: " وقالت أخراهم لأولاهم " الأعراف: 38 أي وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم.

ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم للات والعزّى.

كانوا يقولون إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات فقيل لهم " ألكُمُ الذَّكَرُ ولهُ الأُنثى.

" ويجوز أن يراد: أنّ اللات والعزّى ومناة إناث وقد جعلتموهنّ لله شركاء ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهنّ آلهة " قسْمةٌ ضيزى " جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه والأصل: ضوزى.

ففعل بها ما فعل يبيض لتسليم الياء.

وقد قرئ: " ضئزى " من ضأزه بالهمز.

وضيز: بفتح الضاد " هي " ضمير الأصنام أي ما هي " إلا أسماءٌ " ليس تحتها في الحقيقة مسميات لأنهم تدّعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها.

ونحوه قوله تعالى: " ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها " يوسف: 40 أو ضمير الأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة يعني: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به.

ومعنى " سمَّيْتُمُوها " سميتم بها يقال: سميته زيداً وسميته بزيد " إن يتبعون " وقرئ بالتاء " إلاَّ الظَّنَّ " إلا توهم أنّ ما هم عليه حق وأنَّ آلهتهم شفعاؤهم وما تشتهيه أنفسهم ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل.

{أمْ للإنسان ما تمنَّى فلله الأخرة والأُولى}.

أمْ للإنسان ما تمنَّى.

" هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي: ليس للإنسان ما تمنى والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة وهو تمنّ على الله في غاية البعد وقيل: هو قولهم: " ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى " فصلت: 50 وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة " لأوتينّ مالاً وولدا " وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي صلى الله عليه وسلم فلله الآخرة والأولى أي هو مالكهما فهو يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

{وكم من مَّلكٍ في السَّماوات لا تُغْني شفاعتُهُم شيئاً إلاَّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى}

يعني: أنّ أمر الشفاعة ضيق وذلك أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجموعهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً قط ولم تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم.

{إنَّ الَّذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسمُّون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علمٍ إن يتَّبعون إلاَّ الظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغني من الحقّ شيئاً فأعرض عن مَّن تولَّى عن ذكرنا ولم يُرد إلاَّ الحياة الدُّنيا ذلك مبلغهُمُ من العلم إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى}.

" ليسمُّون الملائكة " أي كل واحد منهم " تسمية الأُنثى " لأنهم إذا قالوا: الملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى " به من علمٍ " أي بذلك وبما يقولون.

وفي قراءة أبيّ: " بها " أي: بالملائكة.

أو التسمية " لا يُغني من الحق شيئاً " يعني إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم " فأعرض " عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ولا تتهالك على إسلامه ثم قال: " إنَّ ربَّك هو أعْلم " أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب وأنت لا تعلم فخفض على نفسك ولا تتعبها فإنك لا تهدي من أحببت وما عليك إلا البلاغ.

وقوله تعالى: " ذلك مبلغُهُم من العلم " اعترض أو فأعرض عنه ولا تقابله إنّ ربك هو أعلم بالضالّ والمهتدي وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء.

" ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزى الَّذين أساءوا بما عملوا ويجزى الَّذين أحسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاَّ اللمم إنَّ ربَّك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذْ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنَّةٌ في بطون أُمهاتكم فلا تُزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتَّقى}.

" قرئ: " ليجزي " ويجزى بالياء والنون فيهما.

ومعناه: أنَّ الله عزّ وجل إنما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض: وهو أن يجازي المحسن من الملكفين والمسيء منهم.

ويجوز أن يتعلق بقوله: " هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى " لأن نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما " بما عملوا " بعقاب ما عملوا من السوء.

و " بالحُسنى " بالمثوبة الحسنى وهي الجنة.

أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى " كبائر الإثم " أي الكبائر من الإثم لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر والكبائر: الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة.

وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها " والفواحش " ما فحش من الكبائر كأنه قال: والفواحش منها خاصة: وقرئ: " كبير الإثم " أي: النوع الكبير منه وقيل: هو الشرك بالله

واللمم: ما قل وصغر.

ومنهُّ: اللمم المس من الجنون واللوثة منه.

وألمّ بالمكان إذا قل فيه لبثه.

وألمّ لقاء أخلاَّء الصَّفا لمامُ والمراد الصغائر من الذنوب ولا يخلو قوله تعالى: " إلاَّ اللمم " من أن يكون استثناء منقطعاً أو صفة كقوله تعالى: " لو كان فيهما آلهة إلا الله " الأنبياء: 22 كأنه قيل: كبائر الإثم غير اللمم وآلهة غير الله: وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة وعن السدّي: الخطرة من الذنب وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً ولا عذاباً وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين " إنَّ ربَّك واسعُ المغفرة " حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر والكبائر بالتوبة " فلا تُزكُّوا أنفسكم " فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات: أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكي منكم والتقي أوّلاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم.

وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت: وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزكين أنفسهم لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر.

{أفرءيت الَّذي تولَّى وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الَّذي وفَّى ألاَّ تزرُ وازرةٌ وزر أُخرى وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعى وأنَّ سعيه سوف يُرى ثُم يُجزيه الجزاء الأوفى وأنَّ إلى ربّك المنتهى وأنَّه هو أضحك وأبكى وأنَّه هو أمات وأحيا وأنَّه خلق الزَّوجين الذَّكر والأُنثى من نُطفةٍ إذا تُمنى وأنَّ عليه النشأة الأخرى وأنَّه هو أغنى وأقنى وأنَّه هو ربُّ الشعرى وأنَّه أهلك عاداً الأولى وثمودا فما أبقى وقوم نُوحٍ من قبل إنَّهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشَّها ما غشَّى}.

وأكدى " قطع عطيته وأمسك وأصله: من إكداء الحافر وهو أن تلقاه كدية: وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر ونحوه: أجبل الحافر ثم استعير فقيل: أجبل الشاعر إذا أفحم.

روى: 104 أن عثمان رضي الله عنه كان يعطي ما له في الخير فقال له عبد الله بن سعيد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء.

فنزلت.

ومعنى " تولَّى " ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل " فهو يرى " فهو يعلم أن ما قاله له أخوه من احتمال أو زاره حق " وفَّى " قرئ مخففاً ومشدّداً والتشديد مبالغة في الوفاء.

أو بمعنى: وفر وأتم كقوله تعالى: " فأتمهنّ " البقرة: 124 وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية من ذلك: تبليغه

الرسالة واستقلاله بأعباء النبوّة والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمروذ وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه وأنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم.

وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به.

وعن الهزيل بن شرحبيل: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله والزوج بامرأته والعبد بسيده فأوّل من خالفهم إبراهيم.

وعن عطاء بن السائب: عهد أن لا يسأل مخلوقاً فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة فقال: أما إليكما فلا.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 105 " وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار وهي صلاة الضحى ".

وروى: 106 ألا أخبركم لم سمى الله خليله " الَّذي وفَّى " كان يقول إذا أصبح وأمسى: " فسبحان الله حين تمسون." إلى ".

حين تظهرون " الروم: 17 وقيل: وفي سهام الإسلام: وهي ثلاثون: عشرة في التوبة " التائبون

" وعشرة في الأحزاب: " إنالمسلمين.

" وعشرة في المؤمنين " قد أفلح المؤمنون.

" وقرئ: " في صحف " بالتخفيف " ألاَّ تزرُ " أن مخففة من الثقيلة.

والمعنى: أنه لا تزر والضمير ضمير الشأن ومحل أن وما بعدها: الجر بدلاً من ما في صحف موسى.

أو الرفع على: هو أن لا تزر كأن قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم فقيل: أن لا تزر " إلا ما سعى " إلا سعيه.

فإن قلت: أما صحّ في الأخبار: الصدقة عن الميت والحج عنه وله الإضعاف قلت: فيه جوابان أحدهما: أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه - وهو أن يكون مؤمناً صالحاً وكذلك الإضعاف - كأن سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه.

والثاني أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه " ثُمَّ يُجزيه " ثم يجزى العبد سعيه يقال: أجزاه الله عمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل.

ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ثم فسره بقوله: " الجزاء الأوفى " أو أبدله عنه كقوله تعالى: " وأسروا النجوى الذين ظلموا " الأنبياء: 3 " وأَنَّ إلى ربِّك المنتهى.

" قرئ بالفتح على معنى: أن هذا كله في الصحف وبالكسر على الابتداء وكذلك ما بعده.

والمنتهى: مصدر بمعنى الانتهاء أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله تعالى: " إلى الله المصير " فاطر: 18.

" وأضْحك وأبْكى " خلق قوتي الضحك والبكاء " إذا تُمنى " إذا تدفق في الرحم يقال: منى وأمنى.

وعن الأخفش: تخلق من منى الماني أي قدر المقدّر: قرئ: " النشأة " " النشاءة " بالمد.

وقال: " عليه " لأنها واجبة عليه في الحكمة ليجازى على الإحسان والإساءة " وأقنى " وأعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك " الشّعرى " مرزم الجوزاء: وهي التي تطلع وراءها وتسمى كلب الجبار وهما شعريان الغميصاء والعبور وأراد العبور.

وكانت خزاعة تعبدها سنّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو كبشة تشبيهاً له به لمخالفته إياهم في ذينهم يريد: أنه رب معبودهم هذا.

عاد الأولى: قوم هود وعاد الأخرى: إرم.

وقيل: الأولى القدماء لأنهم أوّل الأمم هلاكاً بعد قوم نوح أو المتقدمون في الدنيا الأشراف.

وقرئ: " عاد لولي " وعاد لولى بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف " وثمودا " وقرئ: وثمود " أظلم وأطغى " لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه وما أثر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة " والمؤتفكة " والقرى التي ائتفكت بأهلها أي: انقلبت وهم قوم لوط يقال: أفكه فائتفك: وقرئ " والمؤتفكات " " أهوى " رفعها إلى السماء على جناح جبريل ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها " ما غشَّى " تهويل وتعظيم لما صبّ عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

" فبأيّ ألاء ربك تتمارى.

" تتشكك والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو للإنسان على الإطلاق وقد عدد نعماً ونقماً وسماها كلها آلاء من قبل ما في نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين " هذا " القرآن " نذيرٌ من النُّذر الأولى " أي إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأوّلين وقال: الأولى على تأويل الجماعة " أزفت الأزفة.

" قربت الموصوفة بالقرب من قوله تعال: " اقتربت الساعة " القمر: 1 " ليس لها " نفس " كاشفةٌ " أي مبينة متى تقوم كقوله تعالى: " لا يجليها لوقتها إلا هو " الأعراف: 187 أو ليس لها نفس كاشفة أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها.

أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف: كالعافية.

وقرأ طلحة " ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية ".

{أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا} {أفمن هذا الحديث} وهو القرآن " تعجبون " إنكاراً " وتضحكون " استهزاء " ولا تبكون " والبكاء والخشوع حق عليكم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 107 أنه لم ير ضاحكاً بعد نزولها.

وقرئ: " تعجبون تضحكون " بغير واو " وأنتم سامدون.

" شامخون مبرطمون.

وقيل: لاهون لاعبون.

وقال بعضهم لجاريته: اسمدي لنا أي غني لنا " فاسجدوا لله واعبدوا.

" ولا تعبدوا الآلهة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

سورة القمر

مكية وآياتها 55

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مُّستمرٌ وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم وكلُّ أمرٍ مُستقرٌّ}" انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيرة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: 109 أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين.

وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما قال ابن عباس: 110 انفلق فلقتيم فلقة ذهبت وفلقة بقيت.

وقال ابن مسعود: 111 رأيت حراء بين فلقتي القمر.

وعن بعض الناس: أن معناه ينشق يوم القيامة.

وقوله: " وإن يروا أيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مُّستمرٌّ.

" يرده وكفى به رادّاً وفي قراءة حذيفة " وقد انشق القمر " أي: اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق كما تقول: أقبل الأمير وقد ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم.

مستمر: دائم مطرد وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله قيل فيه: قد استمرّ.

لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات قالوا: هذا سحر مستمرّ.

وقيل: مستمرّ قويّ محكم من قولهم: استمر مريره.

وقيل: هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته أي: مستبشع عندنا مرّ على لهواتنا لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر.

وقيل: مستمرّ مارّ ذاهب يزول ولا يبقى تمنية لأنفسهم وتعليلاً.

وقرئ: " وإن يروا " " واتبعوا أهواءهم " وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره " وكُلُّ أمرٍ مُّستقرٌ " أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر لهم عاقبته.

أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة.

وقرئ: بفتح القاف يعني " كل أمر ذو مستقرّ " أي: ذو استقرار.

أو ذو استقرار أو زمان استقرار.

وعن أبي جعفر " مستقر " بكسر القاف والجرّ عطفاً على الساعة أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

{ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزدجرٌ حكمةٌ بالغةٌ فما تُغن النُّذر فتولَّ عنهم يوم يدع الدَّاع إلى شيءٍ نُّكرٍ خُشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ مُنتشرٌ مُّهطعين إلى}.

" من الأنباء " من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة وما وصف من عذاب الكفار " مزدجرٌ " أو موضع ازدجار.

والمعنى: هو في نفسه موضع الازدجار ومظنة له كقوله تعالى: " لكم في رسول الله أسوة حسنة " الأحزاب: 21 أي هو أسوة.

وقرئ: " مزجر " بقلب تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها " حكمةٌ بالغةٌ " بدل من ما.

أو على: هو حكمة.

وقرئ بالنصب حالاً من ما.

فإن قلت: إن كانت ما موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالاً فكيف تعمل إن كانت موصوفة وهو الظاهر.

قلت: تخصصها الصفة فيحسن نصب الحال عنها " فما تغن النذر " نفي أو إنكار.

وما منصوبة أي فأيّ غناء تغني النذر " فتولَّ عنهم " لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم.

نصب " يوم يدع الداعي " فيخرجون أو بإضمار اذكر.

وقرئ: بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها والداعي إسرافيل أو جبريل كقوله تعالى: " يوم يناد المناد " ق: 41 " إلى شيءٍ نُّكرٍ " منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة.

وقرئ: " نكر " بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر " خُشَّعاً أبصارهم " حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر كما تقول: يخشع أبصارهم.

وقرئ: " خاشعة " على: تخشع أبصارهم.

وخشعاً على: يخشعن أبصارهم وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث وهم طيء.

ويجوز أن يكون في " خُشّعاً " ضميرهم وتقع " أبصارهم " بدلاً عنه.

وقرئ " خشع أبصارهم " على الابتداء والخبر ومحل وجدته حاضراه الجود والكرم وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والانخزال لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما.

وقرئ: " يخرجون من الأجداث " من القبور " كأنَّهم جرادٌ مُّنتشرٌ " الجراد مثل في الكثرة والتموج.

يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد وكالدبا منتشر في كل مكان لكثرته " مُّهطعين إلى الدَّاع " مسرعين مادّي أعناقهم إليه.

وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم.

قال: تعبَّدني نِمْر بن سعد وقد أرى ونمرُ بن سعد لي مُطيعٌ ومُهْطعُ

{كذَّبت قبلهم قوم نُوحٍ فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدجر فدعا ربَّه أنّي مغلوبٌ فانتصر ففتحنا أبواب السَّماء بماءٍ مُّنهمرٍ وفجَّرنا الأرض عُيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفر ولقد تركناها أيةً فهل من مُّدَّكرٍ فكيف كان عذابي ونُذُر ولقد يسَّرنا القرءان للذكر فهل من مُّدَّكرٍ} {قبلهم} قبل أهل مكة " فكذَّبوا عبدنا " يعني نوحاً.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: " فكذَّبوا " بعد قوله: " كذَّبت " قلت: معناه: كذبوا فكذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب.

أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل " مجنون " هو مجنون " وازدجر " وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم في قولهم " لتكونن من المرجومين " الشعراء: 116 وقيل: هو من جملة قيلهم أي: قالوا هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه.

وقرئ: " أني " بمعنى: فدعا بأني مغلوب وإني: على إرادة القول فدعا فقال: إني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي " فانتصر " فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم وإنما دعا بذلك بعد ما طمّ عليه الأمر وبلغ السيل الزُّبا فقد روى: أنّ الواحد من أمته كان يلقاه فيخنقه حتى يخرّ مغشياً عليه.

فيفيق وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وقرئ: " ففتحنا " مخففاً ومشدّداً وكذلك وفجرنا " مُّنهمر " منصبّ في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً " وفجَّرنا الأرض عُيوناً " ونظيره في النظم " واشتعل الرأس شيباً " مريم: 4.

" فالتقى الماء " يعني مياه السماء والأرض.

وقرئ: " الماآن " أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي.

ونحوه قولك: عندي تمران تريد: ضربان من التمر: برني ومعقلي.

قال: لنَّا إبْلان فيهما ما علمتم وقرأ الحسن " الماوان " بقلب الهمزة واواً كقولهم: علباوان " على أمرٍ قد قُدر " على حال قدرها الله كيف شاء.

وقيل: على حالّ جاءت مقدّرة مستوية: وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء.

وقيل: على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان " على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ " أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتودي مؤداها

بحيث لا يفصل بينها وبينها.

ونحوه: ولكنْ قميصي مسْرودةٌ من حديدِ أراد: ولكن قميصي درع وكذلك: ولو في عُيون النَّازيات بأكرع أراد: ولو في عيون الجراد.

ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين الصفة أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين لم يصح وهذا من فصيح الكلام وبديعه.

والدسر: جمع دسار: وهو المسمار فعال من دسره إذا دفعه لأنه يدسر به منفذه " جزاءً " مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده أي فعلنا ذلك جزاء " لمن كان كفر " وهو نوح عليه السلام وجعله مكفوراً لأنّ النبي نعمة من الله ورحمة.

قال الله تعالى: " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " الأنبياء: 107 فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة ومن هذا المعنى ما يحكى أنّ رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك فقال: ما معنى هذا الكلام قال: أنت نعمة حمدت الله عليها.

ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل.

وقرأ قتادة " كفر " أي جزاء للكافرين.

وقرأ الحسن " جزاء " بالكسر: أي مجازاة.

الضمير في " تركناها " للسفينة.

أو للفعلة أي: جعلناها آية يعتبر بها.

وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة.

وقيل: على الجودي دهراً طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة.

والمدّكر: المعتبر.

وقرئ: " مذتكر " على الأصل ومذكر بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها.

وهذا نحو: مذجر.

والنذر: جمع نذير وهو الإنذار " ولقد يسرنا القرءان للذّكر " أي سهلناه للادكار والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد " فهل من " متعظ.

وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه.

ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر من يسر ناقته للسفر: إذا رحلها ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه فألجمه.

قال: وقمت إليه باللِّجام مُيسِّراً هُنالك يجْزيني الَّذي كُنت أصْنعُ ويروى: أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن.

{كذَّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُرِ إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مُّستمرٍ تنزع النَّاس كأنَّهم أعجاز نخلٍ مُّنقعرٍ فكيف كان عذابي ونُذُر ولقد يسَّرنا القرءان للذِّكر فهل من مُدَّكرٍ} {ونُذُر} وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله.

أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم " في يوم نحسٍ "

في يوم شؤم.

وقرئ: " في يوم نحس " كقوله: " في أيام نحسات ".

فصلت: 16.

" مُّستمرٌّ " قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم.

أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور.

ويجوز أن يريد بالمستمر: الشديد المرارة والبشاعة " تنزعُ النَّاس " تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدي بعض.

ويتداخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم " كأنَّهم أعجازُ نخلٍ مُّنقعرٍ " يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع منقعر: منقلع عن مغارسه.

وقيل: شبهوا بأعجاز النخل لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس.

وذكر صفة " نخلٍ " على اللفظ ولو حملها على المعنى لأنث كما قال: " أعجاز نخل خاوية " الحاقة: 7.

{سيعلمون غداً مِّن الكذَّاب الأشر إنَّا مُرسلوا النَّاقة فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمةٌ بينهم كلُّ شربٍ مُحتضرٌ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونُذُر إنَّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المُحتظر ولقد يسَّرنا القرءان للذِّكر فهل من مُّدكرٍ }" أبشرا منا واحداً " نصب بفعل مضمر يفسره " نَّتَّبعه " وقرئ: " أبشر منا واحد " على الابتداء.

ونتبعه خبره والأوّل أوجه للاستفهام.

كان يقول: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر: ونيران جمع سعير فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول.

وقيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب.

والسعر: الجنون.

يقال: ناقة مسعورة.

قال: كأنَّ بها سُعراً إذا العيسُ هزَّها ذميلٌ وإرْخاءٌ من السَّيرِ مُتعبُ فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً قلت: قالوا أبشراً: إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا ان يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة وقالوا: " مِنَّا " لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى وقالوا: " واحداً " إنكاراً لأن تتبع الأمّة رجلاً واحداً.

أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرافهم وأفضلهم ويدل عليه قولهم: " أءُلقى الذِّكرُ عليه من بيننا " أي أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة " أشِرٌ " بطر متكبر حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك " سيعلمون غداً " عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة " مَّن الكذَّاب الأشرُ " أصالح ام من كذبه.

وقرئ: " ستعلمون " بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم.

أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات.

وقرئ: " الأشر " بضم الشين كقولهم حدث وحدث.

وحذر وحذر وأخوات لها.

وقرئ: " الأشر " وهو الأبلغ في الشرارة.

والأخير والأشر: أصل قولهم: هو خير منه وشر منه وهو أصل مرفوض وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو اخير وأشر وما أخيره وما أشره " مُرسلوا النَّاقة " باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا " فتنةً لَّهم " امتحاناً لهم وابتلاء " فارتقبهم " فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون " واصطبر " على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري " قسمةٌ بينهم " مقسوم بينهم: لها شرب يوم ولهم شرب يوم.

وإنما قال: بينهم تغليباً للعقلاء " محتضر " محضور لهم أو للناقة.

وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها " صاحبهم " قدار بن سالف أحيمر ثمود " فتعاطى " فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث العقر بالناقة.

وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف " صيحةً واحدةً " صيحة جبريل.

والهشيم الشجر اليابس المتهشم المتكسر " والمحتظر " الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم.

وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار أي " الحظيرة ".

{كذَّبت قوم لوط بالنُّذرِ إنَّا أرسلنا عليهم حاصباً إلا ألا لوطٍ نجيَّناهم بسحرٍ نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُر ولقد صحبَّهم بُكرةً عذابٌ مُّستقرٌّ فذوقوا عذابي ونُذُر ولقد يسَّرنا القرءان للذِّكر فهل من مُّدَّكرٍ}

" حاصباً " ريحاً تحصبهم بالحجارة أي: ترميهم " بسحرٍ " بقطع من الليل وهو السدس الأخير مرَّت بأعلى السَّحرينِ تذْألُ وصرف لأنه نكرة.

ويقال: لقيته سحر: إذا لقيته في سحر يومه " نِّعمةً " إنعاماً مفعول له " من شكر " نعمة الله بإيمانه وطاعته " ولقد أنذرهم " لوط عليه السلام " بطشتنا " أخذتنا بالعذاب " فتماروا " فكذبوا " بالنذُّر " متشاكين " فطمسنا أعينهم " فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق.

روى أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة خلهم يدخلوا " إنا رسل ربك لن يصلوا إليك " هود: 81 فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط " فذوقوا " فقلت لهم: ذوقوا على ألسنة الملائكة " بكرةً " أوّل النهار وباكره كقوله: " مشرقين " و " مصبحين ".

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: " بكرة " غير منصرفة وتقول: أتيته بكرة وغدوة بالتنوين

إذا أردت التنكير وبغيره إذا عرّفت وقصدت بكرة نهارك وغدوته " عذابٌ مُّستقرٌ " ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله {فذوقوا عذابي ونُذُرِ ولقد يسَّرنا القرءان للذِّكر فهل من مُدَّكرٍ}

" قلت: فائدته إن يجدّدوا عند استماع كل نبإ من أنباء الأوّلين ادّكاراً واتعاظاً وأن يستأفنوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه وأن يقرع لهم العصا مرات يقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة وهكذا حكم التكرير " فبأي آلاء ربكما تكذبان " الرحمن: 13 عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن وقوله: " ويل يومئذ للمكذبين " المرسلات: 15 عند كل آية أوردها في سورة المرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب.

مصورّة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان.

{ولقد جاء أل فرعون النُّذُر كذَّبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيزٍ مُّقتدرٍ} {النُّذُر} موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء لأنهما عرضا عليهم ما انذر به المرسلون.

أو جمع نذير وهو الإنذار " بأياتنا كُلها " بالآيات التسع " أخذ عزيزٍ " لا يغالب " مُّقتدرٍ " لا يعجزه شيء.

{أكفَّاركم خيرٌ من أُولائكم أم لكم براءةٌ في الزُّبُرِ أم يقولون نحن جميعٌ مُّنتصرٌ سيهزم الجمع ويولُّون الدُّبر بل السَّاعة موعدهم والسَّاعة أدهى وأمرُّ} {أكفَّاركم} يا أهل مكة " خيرٌ من أولائكم " الكفار المعدودين: قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون أي أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا.

أو أقلّ كفراً وعناداً يعني: أنّ كفاركم مثل أولئك بل شرّ منهم " أم " أنزلت عليكم يا أهل مكة " براءةٌ " في الكتب المتقدمة.

أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله فأمنتم بتلك البراءة " نحن جميعٌ " جماعة امرنا مجتمع " مٌّنتصرٌ " ممتنع لا نرام ولا نضام.

وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر فتقدَّم في الصف وقال: نحن لما نزلت هذه الآية قال عمر: أيّ جمع يهزم فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في الدرع ويقول: " سيهزم الجمع " عرف تأويلها " ويولّّون الدٌّبُرَ " أي الأدبار كما قال: كلوا في بعض بطنكم تعفٌّوا وقرئ: " الأدبار " " أدهى " أشدّ وأفظع.

والداهية: الأمر المنكر الذي لا يهتدي لدوائه " وأمرٌّ " من الهزيمة والقتل والأسر.

وقرئ: " سنهزم الجمع ".

{إنَّ المجرمين في ضلال وسُعُرٍ يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذُوقوا مسَّ سقر إنَّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقدرٍ وما أمرنا إلا واحدةٌ كلمح بالبصر} في ضلال وسُعُرٍ " في هلاك ونيران.

أو في ضلال عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة " مسَّ سقر " كقولك: وجد مسّ الحمى وذاق طعم الضرب لأنَّ النار إذا أصابتهم بحرّها ولفحتهم بإيلامها فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم.

وذوقوا: على إرادة القول.

وسقر: علم لجهنم.

من سقرته النار وصقرته إذا لوّحته.

قال ذو الرمّة: إذا ذابت الشَّمسُ اتقى صقراتها بأفنان مربوع الصَّريمة مُعبلِ وعدم صرفها للتعريف والتأنيث " كُلَّ شيءٍ " منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر وقرئ: " كل شيء " بالرفع " والقدر والقدر " التقدير.

وقرئ بهما أي: خلقنا كل شيء مقدّراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة.

أو مقدّراً مكتوباً في اللوح.

معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه " وما أمرُنا إلاَّ واحدةٌ " إلا كلمة واحدة سريعة التكوين " كلمح بالبصر " أراد قوله كن يعني أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

{ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مٌّدَّكرٍ وكُلٌّ شيءٍ فعلوه في الزٌّبرِ وكُلٌّ صغيرٍ وكبيرٍ مٌّستطرٌ} {أشياعكم} أشباهكم في الكفر من الأمم " في الزٌّبر " في دواوين الحفظة " وكُلٌّ صغيرٍ وكبيرٍ " من الأعمال ومن كل ما هو كائن " مُستطرٌ " مسطور في اللوح.

{إنَّ المُتَّقين في جنَّاتٍ ونهرٍ في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مٌّقتدرٍ} {ونهر} وأنهار اكتفى باسم الجنس

وقيل: هو السعة والضياء من النهار.

وقرئ بسكون الهاء.

" ونهر " جمع نهر كأسد وأسد " في مقعد صدقٍ " في مكان مرضيّ.

وقرئ: " في مقاعد صدق " " عند مليكٍ مُّقتدر " مقرّبين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة واجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 114 " من قرأ سورة القمر في كل غب بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ".

سورة الرحمن

مدنية وآياتها 78

بسم الله الرحمن الرحيم

{الرحمن علَّم القُرآن خلق الإنسان علَّمه البيان الشَّمس والقمر بحسبانٍ والنَّجم والشَّجرُ يسجدان والسَّماء رفعها ووضع الميزان ألاّ تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان والأرض وضعها للأنامِ فيها فاكهةٌ والنَّخل ذات الأكمام والحبُّ ذو العصف والرَّيحان فبأيّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان} عدد الله عز وعلا آلاءه فأراد أن يقدم أوّل شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين فقدّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه لأن أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة وأحسنه في أبواب الدين أثراً وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه: ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علماً بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله وكأن الغرض في إنشائه كان مقدّماً عليه وسابقاً له ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير " الرحمن.

" مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد كما تقول: زيد أغناك بعد فقر أعزَّك بعد ذل كثرك بعد قلة فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه " بحسبانٍ " بحساب معلوم وتقدير سويّ " يجريان " في بروجهما ومنازلهما.

وفي ذلك منافع للناس عظيمة: منها علم السنين والحساب " والنَّجم " والنبات الذي لا ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول " والشَّجرُ " الذي له ساق.

وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له وأنهما لا يمتنعان تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده

فإن قلت: كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن قلت: استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له فإن قلت: كيف أخلّ بالعاطف في الجمل الأول ثم جيء به بعد قلت: بكَّت بتلك الجمل الأول واردة على سنن التمديد ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه كما يبكت منكر أيادي

المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدّمته ثم ردّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قلت: أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف قلت: إنَّ الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان فبين القبيلتين تناسب من حيث التقابل وأنَّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين وأن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر وقيل: " علَّم القرءان.

" جعله علامة وآية.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإنسان آدم.

وعنه أيضاً: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن مجاهد النجم: نجوم السماء " والسَّماء رفعها " خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه " ووضع الميزان " وفي قراءة عبد الله " وخفض الميزان ".

وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيال ومقياس أي خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض: حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم " ألا تطغوا " لئلا تطغوا.

أو هي أن المفسرة.

وقرأ عبد الله " لا تطغوا " بغير أن على إرادة القول " وأقيموا الوزن بالقسط " وقوموا وزنكم بالعدل " ولا تُخسروا الميزان " ولا تنقصوه: أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان.

وكرّر لفظ الميزان: تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه.

وقرئ: " والسماء " بالرفع.

" ولا تخسروا " بفتح التاء وضم السين وكسرها وفتحها.

يقال: خسر الميزان يخسره ويخسره وأمّا الفتح فعلى أن الأصل: ولا تخسروا في الميزان فحذف الجار وأوصل الفعل.

" وضعها " خفضها مدحوّة على الماء " للأنام " للخلق وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة.

وعن الحسن: الإنس والجنّ فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها " فاكهةٌ " ضروب مما يتفكه به و " الأكمام " كل ما يكم أي يغطى من ليفة وسعفة وكفرّاة وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه.

وقيل الأكمام أوعية التمر - الواحد كم بكسر الكاف و " العصف " ورق الزرع وقيل التبن " والرَّيحان " الرزق وهو اللب: أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذي وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب.

وقرئ: " الريحان " بالكسر.

ومعناه: والحب ذو العصف الذي هو علف الأنعام والريحان الذي هو مطعم الناس.

وبالضم على وذو الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

وقيل: معناه وفيها الريحان الذي يشم وفي مصاحف أهل الشام: " والحب ذو العصف والريحان " أي: وخلق الحب والريحان أو وأخص الحب والريحان.

ويجوز أن يراد: وذا الريحان فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه والخطاب في " ربِّكما تُكذبان " للثقلين بدلالة الأنام عليهما.

وقوله: " سنفرغ لكم أيها الثقلان " الرحمن: 31.

{خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخَّار وخلق الجانَّ من مَّارجٍ من نَّارٍ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان}

الصلصال: الطين اليابس له صلصلة.

والفخار: الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف.

فإن قلت: قد اختلف التنزيل في هذا وذلك قوله عزّ وجلّ: " من حمأ مسنون " الحجر: 59.

قلت: هو متفق في المعنى ومفيد أنه خلقه من تراب: جعله طيناً ثم حمأ مسنون ثم صلصالا.

و " الجانَّ " أبو الجن.

وقيل: هو إبليس.

والمارج: اللهب الصافي الذي لا دخان فيه.

وقيل: المختلط بسواد النار من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط.

فإن قلت: فما معنى قوله: " مِّن نَّارٍ " قلت: هو بيان لمارج كأنه قيل: من صاف من نار.

أو مختلط من نار أو أراد من نار مخصوصة كقوله تعالى: " فأنذرتكم ناراً تلظى " الليل: 14.

{رَبُّ المشرقين وربُّ المغربين فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذبان} قرئ: " رب المشرقين ورب المغربين " بالجر بدلاً من " ربكما " وأراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما.

{مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخٌ لا يبغيان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان يخرج منهما اللُّؤلؤ والمرجان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان}

" مرج البحرين " أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا فصل بين الماءين في مرأى العين " بينهما برزخٌ " حاجز من قدرة الله تعالى " لا يبغيان " لا يتجاوزان حدّيهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة.

وقرئ: " يُخرج " ويَخرج من أُخرج.

وخرج.

ويُخرج: أي الله عز وجل اللؤلؤ والمرجان بالنصب.

ونخرج بالنون.

واللؤلؤ: الدرّ.

والمرجان: هو الخرز الأحمر وهو البسذ.

وقيل: اللؤلؤ كبار الدرّ.

والمرجان: صغاره.

فإن قلت: لم قال: " منهما " وإنما يخرجان من الملح قلت: لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه.

وتقول: خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره.

وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب.

{وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان}

" " والجوار " السفن.

وقرئ: " الجوار " بحذف الياء ورفع الراء ونحوه: # لها ثنايا أربعٌ حسانُ وأربعٌ فكلُّها ثمانُ و " المنشأت " المرفوعات الشُّرع.

وقرئ: بكسر الشين: وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهنّ.

والأعلام: جمع علم وهو الجبل الطويل.

" كُلُّ من عليها فانٍ.

ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام.

فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان.

" " عليها " على الأرض " وجه ربِّك " ذاته والوجه يعبر به عن الجملة والذات ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربيّ كريم ينقذني من الهوان و " ذو الجلال والإكرام " صفة الوجه.

وقرأ عبد الله: " ذي " على: صفة ربك.

ومعناه: الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم.

أو الذي يقال له: ما أجلك وأكرمك.

أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده وهذه الصفة من عظيم صفات الله ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 115 " ألظوا بياذا الجلال والإكرام " وعنه عليه الصلاة والسلام: 116 أنه مرّ برجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال: " قد استجيب لك ".

فإن قلت: ما النعمة في ذلك قلت: أعظم النعمة وهي مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك.

{يسئله من في السَّماوات والأرض كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان}

" كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم " كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ " أي كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدّد أحوالاً كما روى: 117 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن فقال: " من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين " وعن ابن عيينه: الدهر عند الله تعالى يومان أحدهما: اليوم الذي هو مدّة عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع.

والآخر: يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب.

وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها فقال غلام له أسود: يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي فأخبره فقال له: أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويبتلي معافاً ويعافي مبتلي ويعزّ ذليلاً ويذل عزيزاً ويفقر غنياً ويغني فقيراً فقال الأمير: أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال: يا مولاي هذا شأن الله.

وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالى: " فأصبح من النادمين " المائدة: 31 وقد صح أنّ الندم توبة وقوله تعالى: " كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ " وقد صح أن القلم قد جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " النجم: 39 فما بال الأضعاف فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمّة.

ويكون توبة في هذه الأمّة لأن الله تعالى خص هذه الأمّة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله وأما قوله: " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً وأما قوله: " كُلَّ يومٍ {سنفرغ لكم أيُّه الثقلان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان} {سنفرغ لكم} مستعار من قول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك يريد: سأتجرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك حتى لا يكون لي شغل سواه والمراد: التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ويجوز أن يراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله: " كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ " فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل وقرئ: " سيفرغ لكم " أي: الله تعالى " وسأفرغ لكم " و " سنفغر " بالنون مفتوحاً مكسوراً وفتح الراء و " سيفرغ " بالياء مفتوحاً ومضموماً مع فتح

الراء وفي قراءة أبيّ " سنفرغ إليكم " بمعنى: سنقصد إليكم والثقلان: الإنس والجن سمياً بذلك لأنهما ثقلا الأرض.

{يا معشر الجنِّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السَّماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاَّ بسلطانٍ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان يُرسل عليكما شُواظٌ من نَّارٍ ونُحاسٌ فلا تنتصران فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان} {يا معشر الجنِّ والإنس} كالترجمة لقوله: أيها الثقلان " إن استطعتم " أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي فافعلوا ثم قال: لا تقدرون على النفوذ " إلاَّ بسلطانٍ " يعني بقوّة وقهر وغلبة وأنى لكم ذلك ونحوه: " وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء " العنكبوت: 22 وروى: أنَّ الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط بجميع الخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

قرئ: " شواظ ونحاس " كلاهما بالضم والكسر والشواظ: اللهب الخالص.

والنحاس: الدخان وأنشد: تُضيء كضوء سراج السَّليط لم يجعل الله فيه نُحاساً وقيل: الصفر المذاب يصبّ على رؤوسهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر.

وقرئ: " ونحس " جمع نحاس وهو الدخان نحو لحاف ولحف.

وقرئ: " ونحس " أي: ونقتل بالعذاب.

وقرئ: " نرسل عليكم شواظاً من نار ونحاساً " " فلا تنصران " فلا تمتنعان.

" فإذا انشقَّت السَّماء فكانت وردةً كالدهان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان فيومئذٍ لا يُسئل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ.

فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان} وردةً " حمراء " كالدهان " كدهن الزيت كما قال: " كالمهل " وهو درديّ الزيت وهو جمع دهن.

أو اسم ما يدهن به كالخزام والإدام.

قال: كأنَّهما مزادتا مُتعجِّلٍ فريَّان لمَّا تُدهنا بدهانِ وقيل: الدهان الأديم الأحمر.

وقرأ عمرو بن عبيد " وردة " بالرفع بمعنى: فحصلت سماء وردة فلئن بقيتُ لأرحلنَّ بغزوةٍ تحوي الغنائم أو يموت كريمُ " إنسٌ " بعض من الإنس " ولا جانٌّ " أريد به: ولا جن: أي: ولا بعض من الجن فوضع الجانّ الذي هو أبو الجن موضع الجن كما يقال: هاشم ويراد ولده.

وإنما وحد ضمير الإنس في قوله: " عن ذنبه " لكونه في معنى البعض.

والمعنى: لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهي سواد الوجوه وزرقة العيون.

فإن قلت: هذا خلاف قوله تعالى: " فوربك لنسألنهم أجمعين " الحجر: 92 وقوله: " وقفوهم إنهم مسؤلون " الصافات: 24.

قلت: ذلك يوم طويل وفيه مواطن فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر قال قتادة: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وقيل لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ولكن يسأل سؤال توبيخ.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد " ولا جأنٌّ " فراراً من التقاء الساكنين وإن كان على حده.

{يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان هذه جهنَّم التي يُكذِّب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميمٍ أنٍ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان} فيؤخذ بالنَّواصي والأقدام " عن الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره وقيل تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصي وتارة تأخذ بالأقدام " حميمٍ أنٍ " ماء حارّ قد انتهى حرّه ونضجه أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم.

وقيل: إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم.

وقيل: إن وادياً من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً.

وقرئ: " يطوّفون " منالتطويف.

ويطوّفون أي: يتطوّفون ويطافون.

وفي قراءة عبد الله: " هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليان لا تموتان فيها ولا تحييان يطوفون بينها " ونعمة الله فيما ذكره من هول العذاب: نجاة الناجي منه برحمته وفضله وما في الإنذار به من اللطف.

{ولمن خاف مقام ربِّه جنَّتان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان ذواتا أفنان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان فيهما عينان تجريان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان فيهما من كُلِّ فاكهةٍ زوجان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان مُتَّكئين على فرش بطائنها من إستبرقٍ وجنى الجنَّتين دانٍ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان}{مقام ربِّه} موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة " يوم يقوم الناس لرب العالمين " المطففين: 6 ونحوه: " ذلك لمن خاف مقامي " إبراهيم: 14 ويجوز أن يراد بمقام ربه: أن الله قائم عليه أي: حافظ مهيمن من قوله تعالى: " أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت " الرعد: 33 فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته.

وقيل: هو مقحم كما تقول: أخاف جانب فلان ذَعرتُ به القطا ونفيْتُ عنه مقام الذئبِ كالرَّجلِ اللَّعينِ يريد: ونفيت عنه الذئب.

فإن قلت: لم قال: " جنَّتان " قلت: الخطاب للثقلين فكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني.

ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي لأن التكليف دائر عليهما وأن يقال: جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل كقوله تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " يونس: 26 خص الأفنان بالذكر: وهي الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة: لأنها هي التي تورق وتثمر فمنها تمتد الظلال ومنها تجتنى الثمار.

وقيل: الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

قال: ومن كُلِّ أفنان اللَّذاذة والصَّبا لهوتبه والعيش أخضرُ ناضرُ " عينان تجريان " حيث شاءوا في الأعالي والأسافل.

وقيل: تجريان من جبل من مسك.

وعن الحسن: تجريان بالماء الزلال: إحداهما التنسيم والأخرى: السلسبيل " زوجان " صنفان: قيل: صنف معروف وصنف غريب " مُتَّكئين " نصب على المدح الخائفين.

أو حال منهم لأنَّ من خاف في معنى الجمع " بطائنها من إستبرقٍ " من ديباج ثخين وإذا كانت البطائن من الإستبرق فما ظنك بالظهائر وقيل: ظهائرها من سندس.

وقيل: من نور " دانٍ " قريب يناله القائم والقاعد والنائم.

وقرئ: " وجنى " بكسر الجيم.

{فيهنَّ قاصرات الطَّرف لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان كأنَّهنَّ الياقوت والمرجان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان} فيهنَّ " في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى.

أو في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس " قاصرات الطَّرف " نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ: لا ينظرن إلى غيرهم.

لم يطمث الإنسيات منهنّ أحد من الإنس ولا الجنيات أحد من الجن وهذا دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس وقرئ: " لم يطمثهنّ " بضم الميم.

قيل: هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان وصغار الدّر: أنصع بياضاً.

قيل: إنّ الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء " هل جزاء الإحسان " في العمل " إلاَّ الإحسان " في الثواب.

وعن محمد بن الحنفية: هي مسجلة للبرّ والفاجر.

أي: مرسلة يعني: أنّ كل من أحسن أُحسن إليه وكل من أساء أسيء إليه.

{ومن دونهما جنَّتان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان مُدهامَّتان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان فيهما عينان نضَّاختان فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورُمَّانٌ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان}

" ومن دونهما " ومن دون تينك الجنتين المدعودتين للمقرّبين " جنَّتان " لمن دونهم من أصحاب اليمين " مُدهامَّتان.

" قد ادهامّتا من شدة الخضرة " نضَّاختان " فوّارتان بالماء.

والنضخ أكثر من النضح لأنّ النضح غير معجمة مثل الرش فإن قلت: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منهما قلت: اختصاصاً لهما وبياناً لفضلهما كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران كقوله تعالى: " وجبريل وميكائيل " البقرة: 98 أو لأنّ النخل ثمره فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه.

ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً: لم يحنث وخالفه صاحباه.

{فيهنَّ خيراتٌ حسانٌ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان حورٌ مَّقصوراتٌ في الخيام فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان مُتَّكئين على رفرفٍ خُضرٍ وعبقريٍّ حسانٍ فبأيِّ ألاء ربِّكما تُكذِّبان تبارك اسم ربِّك ذي الجلال والإكرام} {خيرات} خيرّات فخففت كقوله عليه السلام: 118 " هينون لينون " وأما " خير " الذي هو بمعنى أخير فلا يقال فيه خيرون ولا خيرات.

وقرئ: " خيرات " على الأصل.

والمعنى: فاضلات الأخلاق حسان الخلق " مقصوراتٌ " قصرن في خدورهنّ.

يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدّرة.

وقيل: إنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة " قبلهم " قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين " مُتَّكئين " نصب على الاختصاص.

والرفرف: ضرب من البسط.

وقيل: البسط وقيل الوسائد وقيل كل ثوب عريض رفرف.

ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط: رفارف.

ورفرف السحاب: هيدبه والعبقري: منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب.

وقرئ: " رفارف خضر " بضمتين.

وعباقري كمدائني: نسبة إلى عباقري في اسم البلد وروى أبو حاتم: عباقري بفتح القاف ومنع الصرف وهذا لا وجه لصحته.

فإن قلت: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل: ومن دونهما قلت: مدهامّتان دون ذواتا أفنان ونضاختان دون: تجريان وفاكهة دون كل فاكهة وكذلك صفة الحور والمتكأ وقرئ: " ذو الجلال " صفة للاسم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 119 " من قرأ سورة الحمن أدّى شكر ما أنعم الله عليه ".

سورة الواقعة

وآياتها 96 وقيل 97 آية

{إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبةٌ خافضةٌ رافعةٌ إذا رُجَّت الأرض رجّاً وبسَّت الجبال بسّاً فكانت هباءً مُّنبثاً وكنتم أزواجاً ثلاثة} {وقعت الواقعة} كقولك: كانت الكائنة وحدثت الحادثة والمزاد

القيامة: وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة فكأنه قيل: إذا وقعت التي لا بدّ من وقوعها ووقوع الأمر: نزوله.

يقال: وقع ما كنت أتوقعه أي: نزل ما كنت أترقب نزوله.

فإن قلت: بم انتصب إذا قلت: بليس.

كقولك يوم الجمعة ليس لي شغل.

أو بمحذوف يعني: إذا وقعت كان كيت وكيت أو بإضمار اذكر " كاذبةٌ " نفس كاذبة أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب في تكذيب الغيب لأنّ كل نفس حينئذٍ مؤمنة صادقة مصدّقة وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات كقوله تعالى: " فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده " غافر: 84 " لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم " الشعراء: 201 " ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة " الحج: 55 واللام مثلها في قوله تعالى: " يا ليتني قدّمت لحياتي " الفجر: 24 أو: ليس لها نفس تكذبها وتقول لها: لم تكوني كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبنها يقلن لها: لن تكوني.

أو هي من قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم إذا شجعته على مباشرته وقالت له: إنك تطيقه وما فوقه فتعرّض له ولا تبال به على معنى: أنها وقعة لا تطاق شدّة وفظاعة.

وأن لا نفس حينئذٍ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها لأنهم يومئذٍ أضعف من ذلك وأذل.

ألا ترى إلى قوله تعالى: " كالفراش " المبثوث " القارعة: 4 والفراش مثل في الضعف.

وقيل: " كاذبةٌ " مصدر كالعاقبة بمعنى التكذيب من قولك: حمل على قرنه فما كذب أي: فما جبن وما تثبط.

وحقيقته: فما كذب نفسه فيما حدثته به.

من إطاقته له وإقدامه عليه.

قال زهير: إذا ما اللَّيث كذَّب عن أقرانه صدقًا أي: إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد " خافضةٌ رَّافعةٌ.

" على: هي خافضة رافعة ترفع أقواماً وتضع آخرين: إما وصفاً لها بالشدّة لأنّ الواقعات العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس وإما لأنّ الأشقياء يحطون إلى الدركات والسعداء يرفعون إلى الدرجات وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها فتخفض بعضاً وترفع بعضاً: حيث تسقط السماء كسفاً وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجوّ مرّ السحاب وقرئ: " خافضة رافعة " بالنصب على الحال " رُجَّت " حرّكت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء " وبُسَّت الجبال " وفتت حتى تعود كالسويق أو سيقت من بسّ الغنم إذا ساقها.

كقوله: " وسيرت الجبال " النبأ: 20 " منبثاً " متفرقاً.

وقرئ: بالتاء أي: منقطعاً.

وقرئ: " رجت وبست " أي: ارتجت وذهبت.

وفي كلام بنت الخس: عينها هاج وصلاها راج.

وهي تمشي تفاج.

فإن قلت: بم انتصب إذا رجت قلت: هو بدل من إذا وقعت.

ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة.

أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض وبسّ الجبال لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض " أزواجاً " أصنافاً يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو يذكر بعضها مع بعض أزواج.

{فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة}" فأصحاب الميمنة " الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم " وأصحاب المشئمة " الذين يؤتونها بشمائلهم.

أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية من قولك: فلان مني باليمين فلان مني بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل ولتفاؤلهم بالسانح وتطيّرهم من البارح ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن وسموا الشمال الشؤمى.

وقيل: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة: أصحاب اليمن والشؤم لأنّ السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم.

وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال.

{والسَّابقون السَّابقون أُولئك المقرَّبون في جنات النَّعيم ثُلَّةٌ مِّن الأوَّلين وقليلٌ من الأخرين على سررٍ موضونةٍ مُتَّكئين عليها مُتقابلين يطوف عليهم ولدانٌ مُخلَّدون بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ مِّن مَّعينٍ لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون وفاكهةٍ مما يتخيَّرون ولحم طيرٍ ممَّا يشتهون وحورٌ عينٌ كأمثال اللُّؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاَّ قيلاً سلاماً سلاما}" والسَّابقون " المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله عزّ وجل وقيل: الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا السابق المقرَّب ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين ورجل ابتكر الشرّ في حداثة سنه ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال " ما أصحاب الميمنة ".

" ما أصحاب المشأمة " تعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة.

والمعنى: أي شيء هم والسابقون السابقون يريد: والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم كقوله: وعبد الله عبد الله.

وقول أبي النجم: وشعري شعري كأنه قال: وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته وقد جعل السابقون تأكيداً.

وأولئك المقرّبون: خبراً وليس بذاك ووقف بعضهم على: والسابقون وابتدأ السابقون أولئك المقرّبون والصواب أن يوقف على الثاني لأنه تمام الجملة وهو في مقابلة: ما أصحاب الميمنة

وما أصحاب المشأمة " المُقرَّبون في جنَّات النَّعيم.

" الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم.

وقرئ: " في جنة النعيم " والثلة: الأمة من الناس الكثيرة.

قال: وجاءت إليهم ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ بجيشٍ كتيَّارٍ من السَّيلِ مُزْبدِ وقوله عز وجل: " وقليلٌ مِّن الأخرين.

" كفى به دليلاً على الكثرة وهي من الثل وهو الكسر كما أنَّ الأمّة من الأمّ وهو الشجّ كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم.

والمعنى: أنّ السابقون من الأوّلين كثيراً وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم " وقليلٌ مِّن الأخرين.

" وهم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: " مِّن الأوَّلين " من متقدّمي هذه الأمة و " مِّن الأخرين " من متأخريها.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 120 " الثلتان جميعاً من أمتي ".

فإن قلت: كيف قال: " وقليل من الآخرين " ثم قال: " وثلَّةٌ مِّن الأخرين.

"قلت: هذا في السابقين وذلك في أصحاب اليمين وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً

فإن قلت: فقد روي أنها لما نزلت شقّ ذلك على المسلمين فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجع ربه حتى نزلت " ثلة من الأولين وثلة من الآخرين " الواقعة: 9 - 40.

قلت: هذا لا يصح لأمرين أحدهما: أنّ هذه الآية واردة في السابقين وروداً ظاهراً وكذلك الثانية في أصحاب اليمين.

ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم والثاني: أنّ النسخ في الأخبار غير جائز وعن الحسن رضي الله عنه: سابقو الأمم أكثر من سابقي أمّتنا وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمّة.

وثلة: خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة " مَّوضونةٍ " مرمولة بالذهب مشبكة بالدّر والياقوت قد دوخل بعضها في بعض كما توضن حلق الدرع.

قال الأعشى: ومن نسْج داود موضونةٌ وقيل: متواصلة أدنى بعضها من بعض.

" مُّتكئين " حال من الضمير في على وهو العامل فيها أي: استقروا عليها متكئين " مُتقابلين " لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض.

وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب " مُخلَّدون " مبقون أبداً على شكل الولدان وحدّ الوصافة لا يتحوّلون عنه.

وقيل: مقرّطون والخلدة: القرط.

وقيل: هم أولاد أهل الدنيا: لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها.

روي عن عليّ رضي الله عنه وعن الحسن.

وفي الحديث: 121 " أولاد الكفار خدّام أهل الجنة ".

الأكواب: أوان بلا عرى وخراطيم والأباريق ذوات الخراطيم " لاَّ يُصدَّعون عنها " أي بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها.

أو لا يفرقون عنها.

وقرأ مجاهد: " لا يصدعون " بمعنى: لا يتصدعون لا يتفرقون كقوله: " يومئذ يصدّعون " الروم: 43 ويصدعون أي: لا يصدع بعضهم بعضاً لا يفرّقونهم " يتخيَّرون " يأخذون خيره وأفضله " يشتهون " إلاَّ رواكد جمرُهُنَّ هباءُ ومُشَجَّجٌ.

أو للعطف على ولدان وبالجر: عطفاً على جنات النعيم كأنه قال: هم في جنات النعيم وفاكهة ولحم وحور.

أو على أكواب لأن معنى {يطوف عليهم ولدانٌ مُخلَّدون} "بأكوابٍ " ينعمون بأكواب وبالنصب على: ويؤتون حورا " جزاء " مفعول له أي: يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم " سلاماً سلاماً " إما بدل من " قيلاً " بدليل قوله " لا يسمعون فيها لغواً إلاسلاماً " مريم: 62 وإما مفعول به لقيلا بمعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما.

والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاماً بعد سلام.

وقرئ: " سلام سلام " على الحكاية.

{وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدرٍ مَّخضودٍ وطلحٍ مَّنضودٍ وظلٍ مَّمدودٍ وماءٍ مَّسكوب وفاكهةٍ كثيرةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ وفرشٍ مرفوعةٍ إنَّا أنشأناهن إنشاءً عُرباً أتراباً لأصحاب اليمين ثُلةٌ مِّن الأوَّلين وثلَّةٌ مِّن الآخرين}

" السدر: شجر النبق.

والمخضود: الذي لا شوك له كأنما خضد شوكه.

وعن مجاهد: الموقر الذي تثني أغصانه كثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب.

والطلح: شجر الموز.

وقيل: هو شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة.

وعن السدي: شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل.

وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ: " وطلع " فقال وما شأن الطلح وقرأ قوله: " لها طلع نضيد " ق: 10 فقيل له: أو نُحوِّلها فقال: آي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحوّل.

وعن ابن عباس نحوه.

والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة " وظلٍ مَّمدودٍ.

" ممتدّ منبسط لا يتقلص كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس " مَّسكوبٍ " يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا لا يتعنون فيه.

وقيل: دائم الجرية لا ينقطع.

وقيل: مصبوب يجري إلى الأرض في غير أخدود " لاَّ مقطوعةٍ " هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا " ولا ممنوعةٍ " لا تمنع عن متناولها بوجه ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا.

وقرئ: " فاكهة كثيرة " بالرفع على: وهناك فاكهة كقوله: " وحور عين " الواقعة: 22 " وفرشٍ " جمع فراش.

وقرئ: " وفرش " بالتخفيف " مَّرفوعةٍ " نضدت حتى ارتفعت.

أو مرفوعة على الأسرة.

وقيل: هي النساء لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك.

قال الله تعالى: " هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون " يس: 56 ويدل عليه قوله تعالى: " إنَّا أنشأناهنَّ إنشاءً.

" وعلى التفسير الأول أضمر لهنّ لأنّ ذكر الفرش وهي المضاجع دلّ عليهن " أنشأناهن إنشاء " أي ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً من غير ولادة فإما أن براد.

اللاتي ابتدئ إنشاؤهن أو اللاتي أعيد إنشاؤهن.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 122 أنّ أمّ سلمة رضي الله عنها سألته عن قول الله تعالى: " إنَّا أنشأناهنَّ " فقال: " يا أم سلمة هنَّ

اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهنّ الله بعد الكبر " " أتراباً " على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهنَّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وأوجعاه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس هناك وجع ".

وقالت عجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: إنّ الجنة لا تدخلها العجائز فولت وهي تبكي فقال عليه الصلاة والسلام: " أخبروها أنها ليست يومئذٍ بعجوز " وقرأ الآية.

" عُرُباً " وقرئ: " عربا " بالتخفيف جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل " أتراباً " مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين وأزواجهنّ أيضاً كذلك.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 124 " يدخل أهل الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين " واللام في " لأصحاب اليمين.

" من صلة أنشأنا وجعلنا.

{وأصحاب الشِّمال ما أصحاب الشِّمال في سمومٍ وحميم وظلٍّ من يحموم لاَّ باردٍ ولا كريمٍ إنَّهم كانوا قبل ذلك مُترفين وكانوا يصرُّون على الحنث العظيم وكانواْ يقولون أئذا متنا وكُنَّا تُراباً وعظاماً أءنَّا لمبعوثون أو أباؤنا الأوَّلون قل إنَّ الأوَّلين والأخرين لمجموعون إلى ميقاتِ يومٍ

مَّعلوم ثمَّ إنَّكم أيُّها الضَّالون المُكذِّبون لأكلون من شجرٍ مِّن زقُّوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شُرب الهيم هذا نُزُلهم يوم الدِّين}{في سمومٍ} في حرّ نار ينفذ في المسام " وحميمٍ " وماء حار متناه في الحرارة " وظلٍ مِّن يحمومٍ.

" من دخان أسود بهيم " لا باردٍ ولا كريمٍ.

" نفي لصفتي الظل عنه يريد: أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال: سماه ظلاً ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوي إليه من أذى الحرّ وذلك كرمه ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه.

والمعنى أنه ظلّ حارّ ضارّ إلا أنّ للنفي في نحو هذا شأنا ليس للإثبات.

وفيه تهكم بأصحاب المشأمة وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة.

وقرئ: " لا بارد ولا كريم " بالرفع أي: لا هو كذلك و " الحنث " الذنب العظيم.

ومنه قولهم: بلغ الغلام الحنث أي: الحلم ووقت المؤاخذة بالمآثم.

ومنه: حنث في يمينه خلاف برّ فيها.

ويقال: تحنث إذا تأثم وتحرج " أو أباؤنا " دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف.

فإن قلت: كيف حسن العطف على المضمر في " لمبعوثون " من غير تأكيد بنحن قلت: حسن للفاصل الذي هو الهمزة كما حسن في قوله تعالى: " ما أشركنا ولا آباؤنا " لفصل " لا " المؤكدة للنفي.

وقرئ: " أو آباؤنا " وقرئ: " لمجمعون " " إلى ميقات يومٍ مَّعلوم " إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم والإضافة بمعنى من كخاتم فضة.

والميقات: ما وقت به الشيء أي: حدّ.

ومنه مواقيت الإحرام: وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً " أيها الضَّالُّون " عن الهدى " المكذِّبون " بالبعث وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم " من شجرٍ مِّن زقُّومٍ " من الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره.

وأنت ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ في قوله: " منها " و " عليه " ومن قرأ: " من شجرة من زقوم " فقد جعل الضميرين للشجرة وإنما ذكر الثاني على تأويل

الزقوم لأنه تفسيرها وهي في معناه " شرب الهيم " قرئ: بالحركات الثلاث فالفتح والضم مصدران.

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أيام أكل وشرب.

بفتح الشين.

وأما المكسور فبمعنى المشروب أي: ما يشربه الهيم وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء تشرب منه فلا تروى: جمع أهيم وهيماء.

قال ذو الرمّة: فأصبحت كالهيماء لا الماء مُبردٌ صداها ولا يقضي عليها هُيامها وقيل الهيم: الرمال.

ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض.

والمعنى: أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا ملؤا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم.

فإن قلت: كيف صحّ عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة وصفتان متفقتان فكان عطفاً للشيء على نفسه قلت: ليستا بمتفقتين من حيث إنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه: من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً فكانتا صفتين مختلفتين.

النزل: الرزق الذي يعدّ للنازل تكرماً له.

وفيه تهكم كما في قوله تعالى: " فبشرهم بعذاب أليم " آل عمران: 21 وكقول أبي الشعر الضبي.

وكُنَّا إذا الجبَّار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نُزلا وقرئ: " نزلهم " بالتخفيف.

{نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون أفرءيتم مَّا تُمنون ءأ نتم تخلقونه أم نحنالخالقون نحن قدَّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نُّبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكَّرون} {فلولا تصدقون } تحضيض على التصديق: إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به.

وإما بالبعث لأنّ من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً " ماتمنون " ما تمنونه أي: تقذفونه في الأرحام من النطف - وقرأ أبو السمال بفتح التاء - يقال: أمنى النطفة ومناها.

قال الله تعالى: " من نطفة إذا تمنى " النجم: 46.

" تخلقونه " تقدّرونه " قدّرنا بينكم الموت " تقديراً وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف

وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط.

وقرئ: " قدرنا " بالتخفيف.

سبقته على الشيء: إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه فمعنى قوله: " وما نحن بمسبوقين على أن نّبدّل أمثالكم " أنّا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه وأمثالكم جمع مثل: أي على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق وعلى أن " ننشأكم " في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها يعني: أنا نقدر على الأمرين جميعاً: على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم.

ويجوز أن يكون " أمثالكم " جمع مثل أي: على أن نبدّل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم وننشئكم في صفات لا تعلمونها.

قرئ: " النشأة " والنشاءة.

وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

{أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون

إنّا لمغرمون بل نحن محرومون} {أفرأيتم ما تحرثون} من الطعام أي: تبذرون حبه وتعلمون في أرضه " ءأنتم تزرعونه " تنبتونه وتردّونه نباتاً وينمي إلى أن يبلغ الغاية.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يقولنّ أحدكم: زرعت وليقل: حرثت " قال أبو هريرة: أرأيتم إلى قوله: " أفرءيتم."الآية.والحطام: من حطم كالفتات والجذاذ من فت وجذ: وهو ما صار هشيماً وتحطم " فظلتم " وقرئ بالكسر " فظللتم " على الأصل " تفكهون " تعجبون

وعن الحسن رضي الله عنه: تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عيه.

أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها.

وقرئ: " تفكنون " ومنه الحديث: " مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فبيناهم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقي قوم يتفكنون " أي: يتندمون " أنّا لمغرمون " لملزمون غرامة ما أنفقنا.

أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام: وهو الهلاك " بل نحن " قوم " محرومون " محارفون محدودون لا حظ لنا ولا بخت لنا ولو كنا مجدودين لما جرى علينا هذا.

وقرئ: " أئنا ".

{أفرءيتم الماء الذي تشربون ءأنتم أنزلتموه من المزن أمّ نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون}

" الماء الذي تشربون " يريد: الماء العذب الصالح للشرب.

و " المزن " السحاب: الواحدة مزنة.

وقيل: هو السحاب الأبيض خاصة وهو أعذب ماء " أجاجاً " ملحاً زعاقاً لا يقدر على شربه.

فإن قلت: لم أدخلت اللام على جواب " لو " في قوله: " لجعلناه حطاما " الواقعة 65 ونزعت منه ههنا قلت: إنّ " لو " لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أنّ الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك فإذا حذفت بعد ما صارت علماً مشهوراً مكانه فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفاً ومأنوساً به: لم يبال بإسقاطه عن اللفظ استغناء بمعرفة السامع.

ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول: خير لمن قال له: كيف أصبحتظ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه.

وتساوي حالي حذفه وإثباته لشهرة أمره.

وناهيك بقول أوس: حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلبا وحذفه " لم أر " فإذن حذفها اختصار لفظي وهي ثابتة في المعنى فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ونائب عنه.

ويجوز أن يقال: أنّ هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم.

ألا ترى أنك إنما تسقى ضيفك بعد أن تطعمه ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء: إذا سقيت ضيوف الناس محضاً سقوا أضيافهم شبماً زلالا وسقى بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

" أفرءيتم النار التي تورون ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم} {تورون} تقدحونها وتستخرجونها من الزناد والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى: الزند والأسفل: الزندة شبهوهما بالفحل والطروقة " شجرتها " التي منها الزناد " تذكرة " تذكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعايش كلها وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به.

أو جعلناها تذكرة وأنموذجاً من جهنم لما رويّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزأ من حرّ جهنم " " ومتاعاً " ومنفعة " للمقوين " للذين ينزلون القواء وهي القفر.

أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام.

يقال: أقويت من أيام أي لم آكل شيئاً " فسبح باسم ربك " فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك أو أراد بالاسم: الذكر أي: بذكر ربك.

و " العظيم " صفة للمضاف أو للمضاف إليه.

والمعنى: أنه لما ذكر ما دلّ على قدرته وإنعامه على عباده قال: فأحدث التسبيح وهو أن يقول: سبحان الله إما تنزيهاً له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ويكفرون نعمته وإما تعجباً من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظاهرة وإما شكراً لله على النعم التي عدّها ونبه عليها

{فلا أقسم بمواقع النجوم وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم إنّه لقرءانٌ كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيلٌ من ربّ العالمين} فلا أقسم " معناه فأقسم.

ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله: " لئلا يعلم أهل الكتاب " الحديد 29 وقرأ الحسن: " فلأقسم ".

ومعناه: فلأنا أقسم: اللام لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي: أنا أقسم كقولك: " لزيد منطلق " ثم حذف المبتدأ ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة والإخلال بها ضعيف قبيح.

والثاني: أن " لأفعلن " في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال " بمواقع النُّجوم " بمساقطها ومغاربها لعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله " وإنَّه لقسمٌ لَّو تعلمون عظيم.

" أو أراد بمواقعها: منازلها ومسايرها وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف.

وقوله: " وإنَّه لقسمٌ لَّو تعلمون عظيمٌ.

" اعتراض في اعتراض لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه وهو قوله: " إنَّه لقرءانٌ كريمٌ.

" واعترض ب " لَّو تعلمون " بين الموصوف وصفته.

وقيل: مواقع النجوم: أوقات وقوع نجوم القرآن أي: أوقات نزولها كريم حسن مرضي في جنسه من الكتب.

أو نفاع جم المنافع.

أو كريم على الله " في كتابٍ مكنونٍ.

" مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها: إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح.

وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس يعني مس المكتوب منه ومن الناس من حمله على القراءة أيضاً وعن ابن عمر أحب إليَّ أن لا يقرأ إلا وهو طاهر وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: 128 " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه " أي لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه.

وقرئ: " المتطهرون " بالإدغام.

و " المطهرون " من أطهره بمعنى طهره.

والمطهرون بمعنى: يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحي الذي ينزلونه " تنزلٌ " صفة رابعة للقرآن أي: منزل من رب العالمين.

أو وصف بالمصدر لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله تعالى فكأنه في نفسه تنزيل ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه فقيل: جاء في التنزيل كذا ونطق به التنزيل.

أو هو تنزيل على المبتدأ.

وقرئ: " تنزيلاً " على: نزل تنزيلاً.

" أفبهذا الحديث " يعني القرآن " أنتم مُّدهنون " أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به " وتجعلون رزقكم أنَّكم تُكذِّبون.

" على حذف المضاف يعني: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب أي: وضعتم التكذيب موضع الشكر.

وقرأ علي رضي الله عنه: " وتجعلون شكركم أنكم تكذبون " وقيل: هي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به.

وقيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها.

والرزق: المطر يعني: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم.

وقرئ: " تكذبون " وهو قولهم في القرآن: شعر وسحر وافتراء.

وفي المطر: هو من الأنواء ولأنّ كل مكذب بالحق كاذب.

{فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذٍ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاَّ تُبصرون فلولا إن كنتم غبر مدينين تُرجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقرَّبين فروحٌ وريحانٌ وجنَّت نعيمٍ وأمَّا إن كان من أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين وأمَّا إن كان من المكذِّبين الضَّالين فنزلٌ مِّن حميمٍ وتصلية جحيمٍ إنَّ هذا لهو حقُّ اليقين فسبح باسم ربِّك العظيم} ترتيب الآية: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين.

" فلولا " الثانية مكررة للتوكيد والضمير في " ترجعونها " للنفس وهي الروح وفي " أقرب إليه " للمحتضر " غير مدينين " غير مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم.

" ونحن أقرب إليه منكم " يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت.

والمعنى: إنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم: سحر وافتراء.

وإن أرسل إليكم رسولاً قلتم: ساحر كذاب وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم: صدق نوء كذا على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد " فأمَّا إن كان " المتوفى " من المقرَّبين " من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة " فروحٌ " فله استراحة.

وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فرُوح " بالضم.

وقرأ به الحسن وقال: الروح الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم.

وقيل: البقاء أي: فهذان له معاً وهو الخلود مع الرزق والنعيم.

والريحان: الرزق " فسلامٌ لَّك مِّن أصحاب اليمين.

" فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليك.

كقوله تعالى: " إلا قيلا سلاما سلاما " الواقعة: 26 " فنزلٌ مِّن حميمٍ.

" كقوله تعالى: " هذا نزلهم يوم الدين " الواقعة: 56 وقرئ بالتخفيف " وتصلية جحيمٍ.

" قرئت بالرفع والجر عطفاً على نزل وحميم " إنَّ هذا " الذي أنزل في هذه السورة

عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: 130 " من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً ".

سورة الحديد

مدنية وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{سبَّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم له مُلكُ السَّماوات والأرض يُحي ويميت وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ هو الأوَّل والأخر والظَّاهر والباطن وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ هو الَّذي خلق السَّماوات والأرض في ستَّة أيَّام ثمَّ استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السَّماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصيرٌ لَّه ملك السماوات والأرض وإلى الله تُرجع الأمور يولج الَّيل في النَّهار ويولج النَّهار في الَّيل وهو عليمٌ بذات الصُّدور} جاء في بعض الفواتح " سبَّح " على لفظ الماضي وفي بعضها على لفظ المضارع وكل واحد منهما معناه: أنّ من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيراه وديدنه وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى: " وتسبحوه " الفتح: 9 وأصله: التعدي بنفسه لأنّ معنى سبحته: بعدته عن السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في: نصحته ونصحت له وإما أن يراد بسبح لله: أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً " ما في السَّماوات والأرض " ما يتأتى منه التسبيح ويصح.

فإن قلت: ما محل " يُحي " قلت: يجوز أن لا يكون مرفوعاً على: وهو يحيي ويميت ومنصوباً حالاً من المجرور في " له " والجار عاملاً فيها.

ومعناه: يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء " هو الأوَّل " هو القديم الذي كان قبل كل شيء " والأخر " الذي يبقى بعد هلاك كل شيء " والظَّاهر " بالأدلة الدالة عليه " والباطن " لكونه غير مدرك بالحواس.

فإن قلت: فما معنى الواو قلت الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء.

وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الآخريين فهو المستمر الموجود في جميع الأوقات الماضية والآتية وهو في جميعها ظاهر وباطن: جامع للظهور بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس.

وفي هذا حجة على من جوّز إدراكه في الآخرة بالحاسة.

وقيل: الظاهر العالي على كل شيء الغالب له من ظهر عليه إذا علاه وغلبه.

والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه: وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.

{أمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ممَّا جعلكم مُّستخلفين فيه فالَّذين أمنوا منكم وأنفقوا لهمٌ أجرٌ كبيرٌ

وما لكم لا تؤمنون بالله والرَّسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين}

{مٌّستخلفين فيه} يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما موّلكم إياها وخوّلكم إياها وخوّلكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها فليست هي بأموالكم في الحقيقة.

وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنّواب فأنفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه.

أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم: بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به وانفعوا بالإنفاق منها أنفسكم " لا تُؤمنون " حال من معنى الفعل في مالكم كما تقول: مالك قائماً بمعنى: ما تصنع قائماً أي: وما لكم كافرين بالله.

والواو في " والرَّسول يدعوكم " واو الحال فهما حالان متداخلتان.

وقرئ: " وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم " والمعنى: وأي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان: حيث ركب فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون {إن كنتم مٌّؤمنين} لموجب مّا فإن هذا الموجب لا مزيد عليه.

وقرئ: " أخذ ميثاقكم " على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

" هو الَّذي يُنزِّل على عبده أيات بيِّناتٍ ليخرجكم مِّن الظٌّلمات إلى النٌّور وإنَّ الله بكم لرءوفٌ رَّحيم.

" " ليخرجكم " الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

أو ليخرجكم الرسول بدعوته " لرءوفٌ " وقرئ: " لرؤف ".

{وما لكم ألاَّ تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السَّماوات والأرض لا يستوي منكم مَّن أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجةً مِّن الَّذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكُلاًّ وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبيرٌ مِّن ذا الَّذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجرٌ كريمٌ} وما لكم ألاَّ تُنفقوا " في أن لا تنفقوا " ولله ميراث السَّماوات والأرض " يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره يعني: وأيّ غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسول الله مهلككم فوارث أموالكم وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله.

ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال: " لا يستوي منكم مَّن أنفق " قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوّة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجاً وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة " أولئك " الذي أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: 131 " لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه " أعظم درجة وقرئ: " قبل الفتح " " وكُلاًّ " وكل واحد من الفريقين " وعد الله الحسنى " أي المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات.

وقرئ: بالرفع على " وكل وعده الله " وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه أوّل من أسلم وأوّل من أنفق في سبيل الله.

القرض الحسن: الإنفاق في سبيله.

شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه " فيضاعفه له " أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً " أضعافا " من فضله " وله أجرٌ كريمٌ " يعني: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه: وقرئ: " فيضعفه " وقرئا منصوبين على جواب الاستفهام والرفع عطف على " يُقرض " أو على: فهو يضاعفه.

" يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم.

" " يوم ترى " ظرف لقوله: " وله أجرٌ كريمٌ " أو منصوب بإضمار " اذكر " تعظيماً لذلك اليوم.

وإنما قال: " بين أيديهم وبأيمانهم " لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون: سعى بسعيهم ذلك النور جنيباً لهم ومتقدماً.

ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة: " بُشراكم اليوم ".

وقرئ: " ذلك الفوز ".

{يوم يقول المنافقون والمنافقات للَّذين أمنوا انظرونا نقتبس من نُّوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرَّحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن مَّعكم قالوا بلى ولكنَّكم فتنتم أنفسكم وتربَّصتم وارتبتم وغرَّتكم الأمانيُّ حتَّى جاء أمر الله وغرَّكم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فديةٌ ولا من الَّذين كفروا مأواكم النَّار هي مولاكم وبئس المصير} يوم يقول " بدل من يوم ترى " انظرونا " انتظرونا لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم.

وهؤلاء مشاة.

وانظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به.

وقرئ: " أنظرونا " من النظرة وهي الإمهال: جعل اتئادهم في المضيّ إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم " نقتبس من نُّوركم " نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به " قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً " طرد لهم وتهكم بهم أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك فمن ثم يقتبس.

أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان.

أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم وإنما هو تخييب وإقناط لهم " فضُرب بينهم بسورٍ " بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شقّ الجنة وشق النار.

وقيل: هو الأعراف لذلك السور " باب " لأهل الجنة يدخلون منه " باطنه " باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة " وظاهره " ما ظهر لأهل النار " من قبله " من عنده ومن جهته " العذاب " وهو الظلمة والنار.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: " فضرب بينهم " على البناء للفاعل " ألم نكن مَّعكم " يريدون موافقتهم في الظاهر " فتنتم الأماني " طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار " حتَّى جاء أمر الله " وهو الموت " وغرَّكم بالله الغرور " وغرّكم الشيطان بأنّ الله عفوّ كريم لا يعذبكم

وقرئ: " الغرور " بالضم " فديةٌ " ما يفتدى به " هي مولاكم " قيل: هي أولى بكم وأنشد قول لبيد: فغدت كلا الفرجين تحسب أنَّه مُولي المخافة خلفها وأمامها وحقيقة مولاكم: محراكم ومقمنكم.

أي: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل: هو مئنة للكرم أي مكان لقول القائل: إنه الكريم.

ويجوز أن يراد: هي ناصركم أي لا ناصر لكم غيرها.

والمراد: نفي الناصر على البتات.

ونحوه قولهم: أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع.

ومنه قوله تعالى: " يغاثوا بماء كالمهل " الكهف: 29 وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

{ألم يأن للَّذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقِّ ولا يكونوا كالَّذين أُتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ مِّنهم فاسقون} {ألم يأن} من أنى الأمر يأني إذا جاء إناه أي: وقته.

وقرئ: " ألم يئن " من آن يئين بمعنى: أنى يأنى وألما يأن قيل: كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت.

وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن.

وعن الحسن رضي الله عنه: أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤون من القرآن أقل مما تقرؤون.

فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق.

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديداً فنظر إليهم فقال هكذا كنا حتى قست القلوب.

وقرئ: " نزّل ونزل " وأنزل " ولا يكونوا " عطف على تخشع وقرئ بالتاء على الالتفات ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا وذلك أنّ بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره.

فإن قلت: ما معنى: " لذكر الله وما نزل من الحقِّ " قلت: يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق: القرآن لأنه جامع للأمرين: للذكر والموعظة وأنه حق نازل من السماء وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله وإذا تلى القرآن كقوله تعالى: " إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً " الأنفال: 2 أراد بالأمد: الأجل كقوله: إذا انتهى أمده وقرئ: " الأمدّ " أي: الوقت الأطول " وكثيرٌ مِّنهم فاسقون " خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

" اعلموا أنَّ الله يحي الأرض بعد موتها قد بيَّنّا لكم الأيات لعلَّكم تعقلون.

{اعلموا أنَّ الله يُحي الأرض بعد موتها} قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض

{إنَّ المصَّدّقين والمصَّدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يُضاعف لهم ولهم أجرٌ كريمٌ} المصَّدّقين " المتصدّقين.

وقرئ: على الأصل " والمصدّقين ".

من صدّق وهم الذين صدّقوا الله ورسوله يعني المؤمنين.

فإن قلت: علام عطف قوله " وأقرضوا " قلت: على معنى الفعل في المصدّقين لأنّ اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى أصدّقوا كأنه قيل: إنّ الذين أصدّقوا وأقرضوا.

والقرض الحسن: أنّ يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة.

وقرئ: " يضعف " ويضاعف بكسر العين أي: يضاعف الله.

{والَّذين أمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّديقون والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم والَّذين كفروا وكذَّبوا بأياتنا أولئك أصحاب الجحيم}" يريد أنّ المؤمنين بالله ورسله هم عند الله

بمنزلة الصدّيقين والشهداء وهم الذي سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله " لهم أجرهم ونورهم " أي: مثل أجر الصدّيقين والشهداء ومثل نورهم.

فإن قلت: كيف يسوّى بينهم في الأجر ولا بدّ من التفاوت قلت: المعنى أنّ الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضل حتى يساوى أجرهم مع إضعافه أجر أولئك.

ويجوز أن يكون " والشُّهداء " مبتدأ و " لهم أجرهم " خبره.

{اعلموا أنَّما الحياة الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخر بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفَّار نباته ثمَّ يهيج فتراه مُصفرّاً ثمَّ يكون حطاماً وفي الأخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ مِّن الله ورضوانٌ وما الحياة الدُّنيا إلاَّ متاع الغرور} أراد أنّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر.

وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي: العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله.

وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه العاهة فهاج واصفرّ وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين.

وقيل: " الكفَّار " الزرّاع.

وقرئ: " مصفارّاً ".

{سابقوا إلى مغفرةٍ مِّن رَّبِّكم وجنَّةٍ عرضها كعرض السَّماء والأرض أُعدَّت للَّذين أمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم} سابقوا " سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار إلى جنة " عرضها كعرض السَّماء والأرض " قال السدي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين وذكر العرض دون الطول لأن كل ماله عرض وطول فإنّ عرضه أقل من طوله فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أنّ طوله أبسط وأمدّ.

ويجوز أن يراد بالعرض: البسطة كقوله تعالى: " فذو دعاء عريض " فصلت: 51 لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة: بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك: وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة " ذلك " الموعود من المغفرة والجنة " فضل الله " عطاؤه " يؤتيه من يشاء " وهم المؤمنون.

{ما أصاب من مُّصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلاَّ في كتابٍ من قبل أن نَّبرأها إنَّ ذلك على الله يسيرٌ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يُحبُّ كُلَّ مُختالٍ فخورٍ الَّذين يبخلون ويأمرون النَّاس بالبخل ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد} المصيبة في الأرض: نحو الجدب وآفات الزروع والثمار.

وفي الأنفس: نحو الأدواء والموت " في كتابٍ " في اللوح " مِّن قبل أن نبرأها " يعني الأنفس أو المصائب " إنَّ ذلك " إنّ تقدير ذلك وإثباته في كتابٍ " على الله يسيرٌ " وإن كان عسيراً على العباد ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال: {لِّكيلا تأسوا} {ولا تفرحوا} يعني أنكم إذا علمتم أنّ كل شيء مكتوب عند الله قلّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي لأنّ من علم أن ما عنده مفقود لا محالة: لم يتفاقم جزعه عند فقده لأنه وطن نفسه على ذلك وكذلك من علم أنّ بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال: لم

يعظم فرحه عند نيله " والله لا يُحبُّ كُلَّ مُختالٍ فخورٍ " لأنّ من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه: اختال وافتخر به وتكبر على الناس.

قرئ: " بما آتاكم " وأتاكم من الإيتاء والأتيان.

وفي قراءة ابن مسعود " بما أوتيتم " فإن قلت: فلا أحد يملك نفسه - عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها - أن لا يحزن ولا يفرح.

قلت: المراد: الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين والفرح المطغى الملهى عن الشكر فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر: فلا بأس بهما " الّذين يبخلون " بدل من قوله: " كُلَّ مُختالٍ فخورٍ " كأنه قال: لا يحب الذين يبخلون يريد: الذين يفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزّته عندهم وعظمه في عيونهم: يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينوه لهم وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته " ومن يتولّ " عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي: فإنَّ الله غنيّ عنه.

وقرئ: " بالبخل " وقرأ نافع: " فإنّ الله الغنيّ " وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

{لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النَّاس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافع للنَّاس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ} {لقد أرسلنا رُسلنا} يعني الملائكة إلى الأنبياء " بالبيِّنات " بالحجج والمعجزات " وأنزلنا معهم الكتاب " أي الوحي " والميزان " روي أنّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به " وأنزلنا الحديد " قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة اشياء من حديد: السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة.وروي: ومعه المرّ والمسحاة.وعن النبي صلى الله عليه

إنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد والنار والماء والملح.

وعن الحسن " وأنزلنا الحديد ": خلقناه كقوله تعالى: " وأنزل لكم من الأنعام " الزمر: 60 وذلك أنّ أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه " فيه بأسٌ شديدٌ " وهو القتال به " ومنافع للنَّاس " في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد " وليعلم الله من ينصره ورسله " باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين " بالغيب " غائباً عنهم قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه " إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ " غنيّ بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

{ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذُرِّيَّتهما النُّبوَّة والكتاب فمنهم مُّهتدٍ وكثيرٌ مِّنهم فاسقون} "والكتاب " والوحي.

وعن ابن عباس: الخط بالقلم يقال: كتب كتاباً وكتابة " فمنهم " فمن الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين.

وهذا تفصيل لحالهم أي: فمنهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق.

{ثُمَّ قفَّينا على أثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وأتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الَّذين اتَّبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاَّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقَّ رعايتها فأتينا الَّذين أمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ مِّنهم فاسقون} قرأ الحسن: " الأنجيل " بفتح الهمزة وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء لأنّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب.

وقرئ: " رآفة " على: فعالة أي: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم.

ونحوه في صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحماء بينهم " الفتح: 29.

والرهبانية: ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية: ومعناه الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف: فعلان من رهب كخشيان من خشى.

وقرئ: " ورهبانية " بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان: وهو جمع راهب كراكب وركبان وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر: تقديره.

وابتدعوا رهبانية " ابتدعوها " يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها " ما كتبناها عليهم " لم نفرضها نحن عليهم " إلاَّ ابتغاء رضوان الله " استثناء منقطع أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله " فما رعوها حقَّ رعايتها " كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه " فأتينا الَّذين أمنوا " يريد: أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى {وكثيرٌ منهم فاسقون} الذين لم يحافظوا على نذرهم.

ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها: صفة لها في محل النصب أي: وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم بمعنى: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه فما رعوها جميعاً حق رعايتها ولكن بعضهم فآتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم وكثير منهم فاسقون.

وهم الذين لم يرعوها.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا اتَّقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لَّكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفورٌ رَّحيمٌ} {يا أيها الذين أمنوا} يجوز أن يكون خطاباً للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا من غيرهم فإن كان خطاباً لمؤمني أهل الكتاب.

فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد " يؤتكم " الله " كفلين " أي نصيبين " من رَّحمته " لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله " ويجعل لَّكم " يوم القيامة " نوراً تمشون به " وهو النور المذكور في قوله: " يسعى نورهم " الحديد: 12.

" ويغفر لكم " ما أسلفتم من الكفر والمعاصي {لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدرون على شيءٍ مِّن فضل الله وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} {لئلا يعلم} ليعلم " أهل الكتاب " الذين لم يسلموا.

ولا مزيدة " ألاَّ يقدرون " أن مخففة من الثقيلة أصله: أنه لا يقدرون يعني: أنَّ الشان لا يقدرون " على شيءٍ مِّن فضل الله " أي: لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين:

والنور والمغفرة لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط.

وإن كان خطاباً لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: " أولئك يؤتون أجرهم مرتين " القصص: 54 ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله.

روى: 133 أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جعفراً رضي الله عنه في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً.

ائذن لنا في الوفادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لهم فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة: استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعوا وقدموا بأموال لهم فآسوا بها المسلمين فأنزل الله " الذين آتيناهم الكتاب البقرة: 121 إلى قوله: {ومما رزقناهم ينفقون} البقرة: 3 فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله: " يؤتون أجرهم مرّتين " القصص: 54 فخروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرّتين وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا فنزلت.

وروي أنّ مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت.

وقرئ: " لكي يعلم " و " لكيلا يعلم ".

و " ليعلم ".

و " لأن يعلم " بإدغام النون في الياء.

و " لين يعلم ".

بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء.

وعن الحسن: " ليلا يعلم " بفتح اللام وسكون الياء.

ورواه قطرب بكسر اللام.

وقيل: في وجهها: حذفت همزة أن وأدغمت نونها في لام لا فصار " للا " ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء كقولهم: ديوان وقيراط.

ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجرّ الفتح كما انشد: أُريد لأنسى ذكرها.

وقرئ: " أن لا يقدروا " " بيد الله " في ملكه وتصرفه.

واليد مثل " يؤتيه من يشاء " ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 134 " من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله ".

سورة المجادلة

مدنية وآياتها 22

بسم الله الرحمن الرحيم

{قد سمع الله قول الَّتي تجدلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ} {قد سمع الله} قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد كلمت المجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها

وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال: قد سمع الله لها.

وقرئ: " تحاورك " أي: تراجعك الكلام.

وتحاولك أي: تسائلك وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة: 136 رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فأبت فغضب وكان به خفة ولمم فظاهر منها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أوساً تزوّجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت بطني - أي: كثر ولدي - جعلني عليه كأمّه.

وروى: 137 أنها قالت له: إنّ لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا فقال: أنه قال لها: حرمت عليه فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ فقال: حرمت عليه فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حرمت عليه هتفت وشكت إلى الله فنزلت " في زوجها " في شأنه ومعناه " إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ " يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر.

فإن قلت: ما معنى " قد " في قوله: " قد سمع " قلت: معناه التوقع لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها.

{الَّذين يُظاهرون منكم مِّن نسائهم مَّا هُنَّ أُمَّهاتهم إن أُمَّهاتهم إلاَّ اللاَّتي ولدنهم وإنَّهم ليقولون مُنكراً من القول وزوراً وإنَّ الله لعفوٌّ غفورٌ والَّذين يُظاهرون من نسائهم ثمَّ يعودون لما قالوا فتحرير رقبةٍ مِّن قبل أن يتماسَّا ذلكم تُوعظون به والله بما تعملون خبيرٌ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا فمن لَّم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذابٌ أليم} {الَّذين يُظاهرون منكم} في " منكم " توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم " مَّا هُنَّ أُمَّهاتهم " وقرئ: بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية.

وفي قراءة ابن مسعود: " بأمّهاتهم " وزيادة الباء في لغة من ينصب.

والمعنى أن من يقول لامرأته أنت عليّ كظهر أمي: ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم وجاعلها مثلها.

وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين " إن أُمَّهاتهم إلاَّ اللاَّتي ولدنهم " يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ فالمرضعات

أمّهات لأنهن لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات وكذلك أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين لأن الله حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات.

وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة.

ولا بداخلات في حكم الأمهات فكان قول المظاهر: منكراً من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزوراً وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق " وإنَّ الله لعفوٌّ غفورٌ " لما سلف منه إذا تيب منه ولم يعد إليه ثم قال: " والَّذين يظاهرون من نسائهم ثُمَّ يعودون لما قالوا " يعني: والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول المنكر فقطعوه بالإسلام ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحرّر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة.

ووجه آخر: ثم يعودون لما قالوا: ثم يتداركون ما قالوا لأن المتدارك للأمر عائد إليه.

ومنه المثل: عاد غيث على ما أفسد أي: تداركه بالإصلاح.

والمعنى: أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار.

ووجه ثالث: وهو أن يراد بما قالوا: ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة

المقول فيه نحو ما ذكرنا في قوله تعالى: " ونرثه ما يقول " مريم: 80 ويكون المعنى: ثم يريدون العود للتماسّ.

والمماسة: الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها لشهوة " ذلكم " الحكم " تُوعظون به " لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه.

فإن قلت: هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ قلت: نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة كالرأس والوجه والرقبة والفرج أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ.

ومكان الأمّ ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع نحو أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع أو عمتي من النسب أو امرأة ابني أو أبي أو أمّ امرأتي أو ابنتها فهو مظاهر.

وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه.

وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه.

وقال الشافعي: لا يكون الظهار إلا بالأمّ وحدها وهو قول قتادة والشعبي.

وعن الشعبي: لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمّهات الوالدات دون المرضعات.

وعن بعضهم: لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً.

فإن قلت: فإذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة أن ترافعه قلت: لها ذلك.

وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسه ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها لأنه يضرّ بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع فيلزم إيفاء حقها.

فإن قلت: فإن مسّ قبل أن يكفر قلت: عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يُكفّر لما روي: 139 أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ظاهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها فقال عليه الصلاة والسلام: " استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر " فإن قلت: أي رقبة تجزئ في كفارة الظهار قلت: المسلمة والكافرة جميعاً لأنها في الآية مطلقة.

وعند الشافعي لا تجزي إلا المؤمنة.

لقوله تعالى في كفارة القتل: " فتحرير رقبة مؤمنة " النساء: 92 ولا تجزى أمّ الولد والمدبر والمكاتب الذي أدّى شيئاً فإن لم يؤدّ شيئاً جاز.

وعند الشافعي: لا يجوز: فإن قلت: فإن أعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مسّ قلت: عليه أن يستأنف - نهاراً مس - أو ليلاً - ناسياً أو عامداً - عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف ومحمد: عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبل وإلا بنى.

فإن قلت: كم يعطي المسكين في الإطعام قلت: نصف صاع من برّ أو صاع من غيره عند أبي حنيفة وعند الشافعي مدّاً من طعام بلده الذي يقتات فيه.

فإن قلت: ما بال التماس لك يذكر عند الكفارة بالإطعام كما ذكره عند الكفارتين قلت: اختلف في ذلك فعند أبي حنيفة: أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإنما ترك ذكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله.

وعند غيره: لم يذكر للدلالة على أن التفكير قبله وبعده سواء.

فإن قلت: الضمير في أن يتماسا إلام يرجع قلت: إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها " ذلك " البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا " بالله ورسوله " في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم " وتلك حدود الله " التي لا يجوز تعديلها " وللكافرين " الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها " عذابٌ أليمٌ ".

{إنَّ الَّذين يُحادُّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الَّذين من قبلهم وقد أنزلنا أيات بيناتٍ وللكافرين عذابٌ مُّهينٌ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كُلِّ شيءٍ شهيد}

{يُحادُّون} يعادون ويشاقون " كبتوا " أخزوا وأهلكوا " كما كبت " من قبلهم من أعداء الرسل.

قيل: أريد كبتهم يوم الخندق " وقد أنزلنا أيات بيناتٍ " تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به " وللكافرين " بهذه الآيات " عذابٌ مُّهينٌ " يذهب بعزهم وكبرهم " يوم يبعثهم " منصوب بلهم

أو بمهين.

أو بإضمار اذكر تعظيماً لليوم " جميعاً " كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث.

أو مجتمعين في حال واحدة كما تقول: حيّ جميع " فينبِّئهم بما عملوا " تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزى على رؤوس الأشهاد " أحصاه الله " أحاط به عدداً لم يفته منه شيء " ونسوه " لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور.

{ألم تر أن الله يعلم ما في السَّماوات وما في الأرض ما يكون من نَّجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعهم ولا خمسةٍ إلاَّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاَّ هو معهم أين ما كانوا ثُمَّ ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ} {ما يكون} من كان التامة.

وقرئ بالياء والتاء والياء على أنّ النجوى تأنيثها غير حقيقي ومن فاصله.

أو على أنّ المعنى ما يكون شيء من النجوى.

والنجوى: التناجي فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة أي: من نجوى ثلاثة نفر.

أو موصوفة بها أي: من أهل نجوى ثلاثة فحذف الأهل.

أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى: " خلصوا نجيا " يوسف 80 وقرأ لبن أبي عبلة: " ثلاثة وخمسة " بالنصب على الحال بإضمار يتناجون لأن نجوى يدل عليه.

أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه.

فإن قلت: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة قلت: فيه وجهان أحدهما: أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين: ثلاثة وخمسة فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك " ولا أدنى من " عدديهم " ولا أكثر إلا " والله معهم يسمع ما يقولون فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية: كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً.

وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله وصدق.

لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم والثاني: أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمخالين للشورى والمندوبون لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهى والأحلام ورهط من أهل الرأي و التجارب وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب.

ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فذكر عزّ وعلا الثلاثة والخمسة وقال: " ولا أدنى من ذلك " فدلّ على الاثنين والأربعة وقال " ولا أكثر " فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه.

وفي مصحف عبد الله: إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا تناجوا.

وقرئ: " ولا أدنى من ذلك ولا أكثر " بالنصب على أن لا لنفي الجنس.

ويجوز أن يكون: ولا أكثر بالرفع معطوفاً على محل لا مع أدنى كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوّة.

ويجوز أن يكون مرفوعين على الابتداء كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله وأن يكون ارتفاعهما عطفاً على محل " لا " " من نجوى " كأنه قيل: ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم.

ويجوز أن يكونا مجرورين عطفاً على نجوى كأنه قيل: ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم وقرئ: " ولا أكبر " بالباء.

ومعنى كونه معهم: أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى غليه ما هم فيه فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة.

وقرئ " ثم ينبئهم " على التخفيف.

{ألم تر إلى الَّذين نهوا عن النَّجوى ثُمَّ يعودون لما نُهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرَّسول وإذا جاءوك حيَّوك بما لم يُحيِّك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يؤيدون أن يغيظوهم فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته.

وقرئ: " ينتجون بالإثم والعدوان " بكسر العين ومعصيات الرسول " حيَّوك بما لم يُحيِّك به الله " يعني أنهم يقولون في تحيتك: السام عليك يا محمد والسام: الموت والله تعالى يقول: " وسلام على عباده الذين اصطفى " النمل: 59 و {يا أيها الرسول} المائدة: 41 و {يا أيها النبي} الأنفال: 64 {لو لا يُعذِّبنا الله بما نقول} كانوا يقولون: ماله إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول فقال الله تعالى: " حسبهم جهنَّم " عذاباً.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرَّسول وتناجوا بالبرِّ والتَّقوى واتقوا الله الَّذي إليه تُحشرون إنَّما النَّجوى من الشَّيطان ليحزن الَّذين أمنوا وليس بضارِّهم شيئاً إلاَّ بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون} {يا أيُّها الَّذين أمنوا} خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم.

ويجوز أن يكون للمؤمنين أي: إذا تناجيتم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشرّ {وتناجوا بالبرِّ والتَّقوى} وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 140 " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه " وروي: " دون الثالث ".

وقرئ: " فلا تناجوا " وعن ابن مسعود: إذا انتجيتم فلا تنتجوا " إنَّما النَّجوى " اللام إسارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بدليل قوله تعالى: " ليحزن الَّذين أمنوا " والمعنى: إنّ الشيطان يزينها لهم فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم " وليس " الشيطان أو الحزن " بضارِّهم شيئاً إلاَّ بإذن الله ".

فإن قلت: كيف لا يضرّهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأنّ أقاربهم قتلوا فقال: لا يضرهم الشيطان أو

الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله أي: بمشيئته وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة

وقرئ: " ليحزن " و " ليحزن ".

{يا أيُّها الَّذين أمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الَّذين أمنوا منكم والَّذين أُوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبيرٌ} {تفسَّحوا في المجالس} توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم: افسح عني أي: تنحّ ولا تتضامّوا.

وقرئ: " تفاسحوا " والمار: مجلس رسول الله وكانوا يتضامّون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه وقيل: هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله تعالى: " مقاعد للقتال " آل عمران: 121 وقرئ: " في المجالس " قيل: كان الرجل يأتي الصف فيقول: تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة.

وقرئ: " في المجلس " بفتح اللام: وهو الجلوس أي: توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه " يفسح الله لكم " مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك " انشزوا " انهضوا للتوسعة على المقبلين.

أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه: أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ولا تثبطوا ولا تفرطوا " يرفع الله " المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله والعالمين منهم خاصة " درجاتٍ والله بما تعملون " قرئ: بالتاء والياء.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 141 بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة ".

وعنه عليه السلام: 142 " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وعنه عليه السلام: 143 " يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله.

وعن ابن عباس: خيّر سليمان بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه.

وقال عليه السلام: 144 " أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم " وعن بعض الحكماء: ليت شعري أيّ شيء أدرك من فاته العلم وأيّ شيء فات من أدرك العلم وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً وكل عزّ لم يوطد بعلم فإلى ذلّ ما يصير.

وعن الزبيري العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا إذا ناجيتم الرَّسول فقدِّموا بين يدي نجواكم صدقةً ذلك خيرٌ لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإنَّ الله غفورٌ رَّحيمٌ ءأشفقتم أن تُقدموا بين يدي نجواكم صدقاتٍ فإذا لم تفعلوا} {بين يديّ نجواكم} استعارة ممن له يدان.

والمعنى: قبل نجواكم كقول عمر: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم يريد: قبل حاجته " ذلكم " التقديم " خيرٌ لكم " في دينكم " وأطهر " لأنّ الصدقة طهرة.

روي أن الناس أكثروا مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريدون حتى أملوه وأبرموه فأريد أن يكفوا عن ذلك فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدّم قبل مناجاته صدقة.

قال عليّ رضي الله عنه: 145 لما نزلت دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما تقول في دينار قلت: لا يطيقونه.

قال: كم قلت: حبة أو شعيرة قال: إنك لزهيد.

فلما رأوا ذلك: اشتدّ عليهم فارتدعوا وكفوا.

أما الفقير فلعسرته وأما الغنيّ فلشحه.

وقيل: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ.

وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار.

وعن عليّ رضي الله عنه: 146 إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي: كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم.

قال الكلبي: تصدق به في عشر كلمات سألهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن ابن عمر: كان لعليّ ثلاث: لو كانت لي واحدة منهنّ كانت أحبّ إليّ من حمر النعم: تزوجه فاطمة وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى.

قال ابن عباس: هي منسوخة بالآية التي بعدها.

وقيل: هي منسوخة بالزكاة " ءأشفقتم " أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء " فإذا لم تفعلوا " ما أمرتم به وشق عليكم و " وتاب الله عليكم " وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات " بما تعملون " قرئ بالتاء والياء.

" ألم تر إلى الَّذين تولوا قوماً غضب الله عليهم مَّا هم مِّنكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون.

أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً إنَّهم ساء ما كانوا يعملون.

اتَّخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدُّوا عن سبيل الله فلهم عذابٌ مُّهينٌ.

لَّن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم مِّن الله شيئاً أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنَّهم على شيءٍ ألا إنَّهم هم الكاذبون.

استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذكر الله أُولئك حِزب الشَّيطان ألا إنَّ حزب الشَّيطان هم الخاسرون.

" كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: " من لعنه الله وغضب عليه " المائدة: 60 ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين " مَّا هم مِّنكم " يا مسلمون " ولا مِّنهم " ولا من اليهود كقوله تعالى: " مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء " النساء: 143 " ويحلفون على الكذب " أي يقولون: والله إنا لمسلمون فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام " وهم يعلمون " أن المحلوف عليه كذب بحت.

فإن قلت: فما فائدة قوله: " وهم يعلمون " قلت: الكذب: أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه سواء علم المخبر أو لم يعلم فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه وهم عالمون بذلك متعمدون له كمن يحلف بالغموس وقيل: 147 كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل ابن نبتل وكان أزرق فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " علام تشتمني أنت وأصحابك " فحلف بالله ما فعل فقال عليه السلام: " فعلت " فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت " عذاباً شديداً " نوعاً من العذاب متفاقماً " إنَّهم ساء ما كانوا يعملون " يعني أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل مصرّين عليه.

أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

وقرئ: " إيمانهم " بالكسر أي: اتخذوا أيمانهم التي حلفوا بها.

أو إيمانهم الذي أظهروه " جُنَّةً " أي سترة يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم " فصدُّوا " الناس في خلال أمنهم وسلامتهم " عن سبيل الله " وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم.

وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصدّهم كقوله تعالى: " الَّذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب " النحل: 88.

" مِّن الله "من عذاب الله " شيئاً " قليلاً من الإغناء.

وروي أنَّ رجلاً منهم قال: لننرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا " فيحلفون " لله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة " كما يحلفون لكم " في الدنيا على ذلك " ويحسبون أنَّهم على شيءٍ " من النفع يعني: ليس العجب من حلفهم لكم فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتم الرسل وصفتهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحلّ كما قال: " ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه " الأنعام: 28 وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة والقرآن ناطق بثباته نطقاً مكشوفاً.

كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى: " والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " الأنعام: 23 - 24 ونحو حسبانهم أنهم على شيء من

النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم.

وقيل: عند ذلك: يختم على أفواههم " ألا إنَّهم هم الكاذبون " يعني أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة " استحوذ عليهم " استولى عليهم من حاذ الحمار العانة إا جمعها وساقها غالباً لها.

كان أحوذياً نسيج وحده وهو أحد

ما جاء على الأصل نحو: استصوب واستنوق أي: ملكهم " الشَّيطان " لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه " فأنساهم " أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم.

قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

{إنَّ الَّذين يُحادُّون الله ورسوله أُولئك في الأذلِّين}" في الأذلِّين " في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحداً أذل منهم.

{كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ} {كتب الله} في اللوح {لأغلبن أنا ورسلي} بالحجة والسيف أو بأحدهما.

{لاَّ تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الأخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا أباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروحٍ مِّنه ويدخلهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أُولئكً حزب الله ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون} {لاَّ نجد قوماً} من باب التخييل.

خيل أن من الممتنع المحال: أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانية أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: " ولو كانوا أباءهم " وبقوله: " أولئك كتب في قلوبهم الإيمان " وبقابلة قوله: " أُولئك حزب الشيطان " بقوله: " أولئك حزب الله " فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه بل هو الإخلاص بعينه " كتب في قلوبهم الإيمان " أثبته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم " وأيَّدهم بروحٍ مِّنه " بلطف من عنده حييت به قلوبهم.

ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي: بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به.

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان.

وعن عبد العزيز بن أبي روّاد: أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقول: 148 " اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيماأوحيت إليّ: " لا تجد قوماً} الآية وروي: 149 أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقط منها فقال له رسول الله: " أو فعلته " قال: نعم قال: " لا تعد " قال: والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته.

وقيل: في أبي عبيدة بن الجراح: قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد.

وفي أبي بكر: دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله: دعني أكرّ في الرعلة الأولى: قال: " متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري ".

وفي معصب بن عمير: قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد.

وفي عمر: قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر.

وفي علي وحمزة وعبيد بن الحارث: قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 151 " من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة ".

سورة الحشر

مدنية وهي أربع وعشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

{سبَّح لله ما في السَّماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الَّذي أخرج الَّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوَّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنُّوا أنَّهم مَّانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله مِّن حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرُّعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار}

صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبّي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صحبهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة فقالوا: الموت أحبّ إلينا من ذاك فتنادوا بالحرب.

وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم: لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين: طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم: آل أبي حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة.

اللام في " لأوَّل الحشر " تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: " يا ليتني قدمت لحياتي " الفجر: 24 وقولك: جئته لوقت كذا.

والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر.

ومعنى أوّ الحشر: أن هذا أوّل حشركم إلى الشام وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام.

أو هذا أوّل حشرهم وآخر حشرهم: إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام.

وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة لأنّ المحشر يكون بالشام.

وعن عكرمة: من شك أنّ المحشر ههنا - يعني الشام - فليقرأ هذه الآية.

وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم: لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما ظننتم أن يخرجوا " لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله " فأتاهم " أمر الله " من حيث لم يحتسبوا " من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم: وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه وذلك مما أضعف قوّتهم وقلّ من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب وألهمهم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم.وهذا كله لم يكن في حسبانهم.ومنه أتاهم الهلاك.

فإن قلت: أي فرق بين قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسماً وإسناد الجملة إليه: دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعه لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك: وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم

وقرئ: " فآتاهم الله " أي: فآتاهم الهلاك.

والرعب: الخوف الذي يرعب المصدر أي يملؤه وقذفه: إثباته وركزه.

ومه قالوا في صفة الأسد: مقذف كأنما قذف باللحم قذفاً لاكتنازه وتداخل أجزائه.

وقرئ: " يخرّبون ويخرجون " مثقلاً ومخففاً.

والتخريب والإخراب: الإفساد بالنقض والهدم.

والخربة: الفساد كانوا يخربون بواطنها والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار والذي دعاهم إلى التخريب: حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدّوا بها أفواه الأزقة.

وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج المليح.

وأما المؤمنين فداعيهم إزالة متحصنهم ومتمنعهم.

وأن يتسع لهم مجال الحرب.

فإن قلت: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين قلت: لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه " فاعتبروا " بما دبر الله ويسر من أمر إخراجكم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال.

وقيل: وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يورثهم اله أرضهم وأموالهم بغير قتال فكان كما قال: " لولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم في الدُّنيا ولهم في الأخرة عذاب النَّار.

ذلك بأنَّهم شاقوا الله ورسوله ومن يُشاق الله فإنَّ الله شديد العقاب.

يعني: أنّ الله قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم فلولا أنه كتب عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت " لعذَّبهم في الدُّنيا " بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة " ولهم " سواء أجلوا أو قتلوا " عذاب النَّار " يعني: إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

{ما قطعتم مِّن لينةٍ أو تركتموها قائمةً على أُصولها فبإذن الله وليجزى الفاسقين} {من لينةٍ} بيان لما قطعتم.

ومحل " ما " نصب بقطعتم كأنه قال: أي شيء قطعتم وأنت الضمير الراجع إلى ما في قوله: " أو تركتموها " لأنه في معنى اللينة.

اللينة: النخلة من الألوان وهي ضروب النخل ما خلا العجوة.

والبرنية وهما أجود النخيل وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها كالديمة.

وقيل: " اللينة " النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين.

قال ذو الرمّة: كأنَّ قُتودي فوقها عُشُّ طائرٍ على لينةٍ سوقاء تهفو جُنوبها وجمعها لين.

وقرئ: " قوّما " على أصلها.

وفيه وجهان: أنه جمع أصل كرهن ورهن.

أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو.

وقرئ: " قائماً على أصوله " ذهاباً إلى لفظ ما " فبإذن الله " فقطعها بإذن الله وأمره " ولخزى الفاسقين " وليذل اليهود ويغيظهم إذن في قطعها وذلك: 153 أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر أن تقطع نخلهم وتحرق قالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها فكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء.

فنزلت يعني: أنّ الله أذن لهم في قطعها ليزيدكم غيظاً ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا ويتصرفون فيها ما شاؤوا.

واتفق العلماء على أنّ حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأنّ تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق.

وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة.

وعن ابن مسعود: قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال.

فإن قلت: لم خصت اللينة بالقطع قلت: إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق.

وروي: 154 أن رجلين كانا يقطعان: أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا: تركتها لرسول الله وقال هذا: قطعتها غيظاً للكفار.

وقد استدل به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك واحتج به من يقول: كل مجتهد مصيب.

{وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركابٍ ولكن الله يُسلط رسله على من يشاء والله على كُلِّ شيءٍ قديرٌ مَّا أفاء الله على رسولَه من أهلَ القرى فلله وللرَّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم}

" أفاء الله على رسوله " جعله له فيئاً خاصة.

والإيجاف من الوجيف.

وهو السير السريع.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات.

ليس البر بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل على هينتكم " ومعنى " فما أوجفتم عليه " فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلاً ولا ركاباً ولا تعبتم في القتال عليه وإنما مشيتم إليه على أرجلكم.

والمعنى: أنّ ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء يعني: أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت.

لم يدخل العاطف على الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها غير أجنبية عنها.

بين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة " والدولة و الدولة " - بالفتح والضم - وقد قرئ: بهما ما يدول للإنسان أي يدور من الجد.

يقال: دالت له الدولة.

وأديل لفلان.

ومعنى قوله تعالى: " كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم " كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به.

أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم.

ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة الغلبة وكانوا يقولون: من عزّ بزّ.

والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية.

ومنه قول الحسن: اتخذوا عباداللہ خولا ومال دولاً يريد: من غلب منهم أخذه واستأثر به.

وقيل: " الدولة " ما يتداول كالغرفة: اسم ما يغترف يعني: كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء والدولة - بالفتح -: بمعنى التداول أي: كيلا يكون ذا تداول بينهم.

أو كيلا يكون إمساكه تداولاً بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء وقرئ: " دولة " بالرفع على " كان " التامة كقوله تعالى: " وإن كان ذو عسرة " البقرة: 280 يعني كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم.

أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء " وما أتاكم الرَّسول " من قسمة غنيمة أو فيء " فخذوه وما نهاكم " عن أخذه منها " فانتهوا " عنه ولا تتبعه أنفسكم " واتقُّوا الله " أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه " إنَّ الله شديد العقاب " لمن خالف رسوله والأجود أن يكون عاماً في كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وأمر الفيء داخل في عمومه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه لقي رجلاً محرماً وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا فقال الرجل: اقرأ عليّ في هذا آية من كتاب الله.

قال: نعم فقرأها عليه.

{للفقراء المهاجرين الَّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً مِّن الله ورضواناً وينصرون}
للفقراء " بدل من قوله: " لذي القربى " والمعطوف عليه والذي منع الإبدال من: لله وللرسول والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عزّ وجلّ أخرج رسوله من الفقراء في قوله: " وينصرون الله ورسوله " وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزّ وجلّ " أولئك هم الصَّادقون " في إيمانهم وجهادهم.

{والَّذين تبوَّءو الَّدار والإيمان من قبلهم يُحبُّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مِّما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يوق شُحَّ نفسه فأُولئك هم المفلحون} "والَّذين تبوءو " معطوف على المهاجرين وهم الأنصار فإن قلت: ما معنى عطف الإيمان على الدار ولا يقال: تبوّؤا الإيمان قلت: معناه تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً أو: وجعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك.

أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه.

أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان " من قبلهم " من قبل المهاجرين لأنهم سبقوهم في تبوّئ دار الهجرة والإيمان.

وقيل: من قبل هجرتهم " ولا يجدون " ولا يعملون في أنفسهم " حاجةً مِّمّا أوتوا " أي طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرين من الفيء وغيره والمحتاج إليه يسمى حاجة يقال: خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه " ولو كان بهم خصاصةٌ " أي: خلة وأصلها: خصائص البيت وهي فروجه والجملة في موضع الحال أي: مفروضة خصاصتهم: 156 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين: أبادجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة.

وقال لهم: " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم لكم شيء من الغنيمة فقالت الأنصار: بل يقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت " الشح " بالضم والكسر وقد قرئ بهما: اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع كما قال: يمارس نفساً بين جنبيه كزَّةً إذا همَّ بالمعروف قالت له مهلا وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها.

وأما البخل فهو المنع نفسه.

ومنه قوله تعالى: {وأحضرت الأنفس الشحّ} النساء 128.

{ومن يوق شحّ نفسه} ومن غلب ما أمرته به وخالف هواها بمعونة الله وتوفيقه " فأولئك هم المفلحون " الظافرون بما أرادوا.

وقرئ: " ومن يوقَّ ".

{والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوفٌ رحيم} {والذين جاءوا من بعدهم} عطف أيضاً على المهاجرين: وهم الذين هاجروا من بعد.

وقيل: التابعون بإحسان " غلاً " وقرئ: " غمرا " وهما الحقد.

{ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنَّكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنَّ الأدبار ثم لا ينصرون} {لإخوانهم} الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر " ولا نطيع فيكم " في قتالكم أحداً من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه.

أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة " لكاذبون " أي في مواعيدهم لليهود.

وفيه دليل على صحة النبوة: لأنه إخبار بالغيوب.

فإن قلت: كيف قيل " ولئن نصروهم " بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم قلت: معناه: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: {لئن أشركت ليحبطنّ عملك} الزمر 65 وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون.

والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أي: يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم.

أو لينهزمنّ اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين.

{لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنةٍ او من وراء جدرٍ بأسهم بينهم شديدٌ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذابٌ أليمٌ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريءٌ منك إني أخاف الله رب

العالمين فكان عاقبتهما في النار خالدين فيها وذلك جزاؤا الظالمين} "رهبة " مصدر رهب المبني للمفعول كأنه قيل: أشد مرهوبية.

وقوله: " في صدورهم " دلالة على نفاقهم يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أخيب في صدورهم من الله.

فإن قلت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم - وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله - ويجوز أن يريد أنّ اليهود يخافونكم في صدورهم أشدّ من خوفهم من الله لأنهم كانوا قوماً أولي بأس ونجدة فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم " لا يفقهون " لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته " لا يقاتلونكم " لا يقدرون على مقاتلتكم " جميعا " مجتمعين متساندين يعني اليهود والمنافقين " إلا " كائنين " في قرى محصنة " بالخنادق والدروب " أو من وراء جدرٍ " دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله الرعب في قلوبهم وان تأييد الله تعالى ونصرته معكم وقرئ: " جدر " بالتخفيف وجدار.

وجدر وجدر وهما: الجدار " بأسهم بينهم شديدٌ " يعني أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة لأنّ الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله " تحسبهم جميعاً " مجتمعين ذوي ألفة واتحاد " وقلوبهم شتَّى " متفرقة لا ألفة بينها يعني.

أنّ بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة.

وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم " قومٌ لاَّ يعقلون " أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم " كمثل الَّذين من قبلهم " أي مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب.

فإن قلت: بم انتصب " قريباً " قلت: بمثل على: كوجود مثل أهل بدر قريباً " ذاقُّوا وبال أمرهم " سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم كلأ وبيل: وخيم سيئ العاقبة يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا " ولهم " في الآخرة عذاب النار.

مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ثم متاركتهم لهم وإخلافهم " كمثل الشَّيطان " إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة والمراد استغواؤه قريشاً يوم بدر وقوله لهم: " لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم " إلى قوله: " إنّي بريءٌ مِّنك " الأنفال: 48 وقرأ ابن مسعود: " خالدين فيها " على أنه خبر أنّ و " في النَّار " لغو وعلى القراءة المشهورة: الظرف مستقر وخالدين فيها: حال.وقرئ: " أنا بريء " وعاقبتهما بالرفع.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا اتَّقوا الله ولتنظر نفسٌ مَّا قدَّمت لغدٍ واتَّقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون.

ولا تكونوا كالَّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أُولئك هم الفاسقون}

" كرر الأمر بالتقوى تأكيداً: واتقوا الله في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل واتقوا الله في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد.

والغد: يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له وعن الحسن: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد.

ونحوه قوله تعالى: " كأن لم تغن بالأمس " يونس: 24 يريد: تقريب الزمان الماضي.

وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران: يوم وغد.

فإن قلت: ما معنى تنكير النفس والغد قلت: أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قد من للآخرة كأنه قال فلتنظر نفس واحدة في ذلك.

وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه.

وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا ربحنا ما قدّمنا.

خسرنا ما خلفنا " نسوا الله " نسوا حقه فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده.

أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم كقوله تعالى: {لا يرتّد إليهم طرفهم} إبراهيم: 43.

{لا يستوي أصحاب النَّار وأصحاب الجنَّة أصحاب الجنَّة هم الفائزون} هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات: كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه بذلك على حقّ الأبوة الذي يقتضي البرّ والتعطف.

وقد استدل أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر.

{لو أنزلنا هذا القرءان على جبلٍ لَّرأيته خاشعاً مُّتصدعاً مِّن خشية الله وتلك الأمثال نضربها للنَّاس لعلَّهم يتفكرون.

هو الله الَّذي لا إله إلا هو علام الغيب والشهادة هو الرَّحمن الرَّحيم}

هذا تمثيل وتخييل كما مرّ في قوله تعالى: " إنا عرضنا الأمانة " الأحزاب: 72 وقد دل عليه قوله: " وتلك الأمثال نضربها للنَّاس " والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره.

وقرئ: " مصدّعاً " على الإدغام " وتلك الأمثال " إشارة إلى هذا

{هو الله الَّذي لا إله إلاَّ هو الملك القُدُّوس السَّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبِّر سُبحان الله عمَّا يُشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يُسبح له ما في السَّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} "الغيب " المعدوم " والشَّهادة " الموجود المدرك كأنه يشاهده.

وقيل: ما غاب عن العباد وما شاهدوه وقيل: السرّ والعلانية.

وقيل: الدنيا والآخرة " القدُّوس " بالضم والفتح - وقد قرئ بهما - البليغ في النزاهة عما يستقبح.

ونظيره: السبوح وفي تسبيح الملائكة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

و " السَّلام " بمعنى السلامة.

ومنه " دار السلام " يونس: 25 " سلام عليكم " الأنعام: 54 وصف به مبالغة في وصف كونه سليماً من النقائص. أو في إعطائه السلامة " والمؤمن " واهب الأمن.

وقرئ: بفتح الميم بمعنى المؤمن به على حذف الجار كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى: " واختار موسى قومه " الأعراف: 155 المختارون بلفظ صفة السبعين.

و " المهيمن " الرقيب على كل شيء الحافظ له مفيعل من الأمن إلا أن همزته قلبت هاء.

و " الجبَّار " القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد أي أجبره و " المتَّكبِّر " البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده.

و " الخالق " المقدر لما يوجده " والبارئ " المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة.

و " المصوِّر " الممثل.وعن حاطب بن أبي بلتعة أنه قرأ: " البارئ المصوّر "

بفتح الواو ونصب الراء أي: الذي يبرأ المصور أي: يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات.

وقرأ ابن مسعود: " وما في الأرض ".

عن أبي هريرة رضي الله عنه: 1157 سألت حبيبي صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال: " عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته " فأعدت عليه فأعاد عليّ فأعدت عليه فأعاد عليّ.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 1158 " من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ".

سورة الممتحنة

مدنية وهي ثلاث عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيُّها الَّذين أمنوا لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء تلقون إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءكم مِّن الحق يخرجون الرَّسول وإيَّاكم أن تؤمنوا بالله ربِّكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تُسرُّون إليهم بالمودَّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السَّبيل إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودُّوا لو}

روي: 159 أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: أمسلمة جئت قالت: لا.

قال: أفمهاجرة جئت قالت: لا.

قال: فما جاء بك قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة وقد ذهبت الموالي تعني: قتلوا يوم بدر فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزوّدوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً واستحملها كتاباً إلى أهل

مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة اعلموا أنّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريدوكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وعمر وطلحة والزبير والقداد وأبا مرثد - وكانوا فرساناً - وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها فأدركوها فجحدت وحلفت فهموا بالرجوع فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسلّ سيفه وقال: أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك فأخرجته من عقاص شعرها.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة: هي أحدهم فاستحضر رسول الله حاطباً وقال: ما حملك عليه فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش.

وروي: عزيزاً فيهم أي: غريباً ولم أكن من أنفسها وكل من معكم من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه.

وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدّقه وقبل عذره فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: " وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم فنزلت عدّى " اتخذ " إلى مفعوليه وهما عدوي وأولياء.

والعدوّ: فعول من عدا كعفوّ من عفا ولكونه زنه المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد.

فإن قلت: " تُلقون " بم يتعلق قلت: يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالاً من ضميره وبأولياء صفة له.

ويجوز أن يكون استئنافاً.

فإن قلت: إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هوله فأين الضمير البارز وهو قولك: تلقون إليهم أنتم بالمودّة قلت: ذلك إنما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال لو قيل: أولياء ملقين إليهم بالمودّة على الوصف.

لما كان بد من الضمير البارز والإلقاء عبارة عن إيصال المودّة والإفضاء بها إليهم: يقال ألقى إليه خراشي صدره وأفضى إليه بقشوره.

والباء في " بالمودَّة " إما زائدة مؤكدة للتعدّي مثلها في " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " البقرة: 195 وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف معناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودّة التي بينكم وبينهم.

وكذلك قوله: " تُسرُّون إليهم بالمودَّة " أي: تفضون إليهم بمودتكم سراً.

أو تسرّون إليهم إسرار رسول الله بسبب المودّة.

التي بينكم وبينهم فإن قلت: " وقد كفروا " حال مماذا قلت: إما من " لا تتَّخذوا " وإما من " تُلقون " أي: لا تتولوهم أو توادّونهم وهذه حالهم.

و " يخرجون " استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوّهم.

أو حال من كفروا.

و " أن تؤمنوا " تعليل ليخرجون أي يخرجونكم لإيمانكم و " إن كنتم خرجتم " متعلق بلا تتخذوا يعني: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

وقول النحويين في مثله: هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه.

و " تسرُّون " استئناف ومعناه: أيّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما وأنا مطلع رسولي على ما تسرون " ومن يفعله " ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

وقرأ الجحدري " لما جاءكم " أي: كفروا لأجل ما جاءكم بمعنى: أن ما كان يجب أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سبباً لكفرهم.

" إن يثقفوكم " إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم " يكونوا لكم أعداء " خالصي العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم " ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسُّوء " بالقتال والشتم وتمنوا لو ترتدون عن دينكم فإذن مودّة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم ونحوه قوله تعالى: {لا يألونكم خبالاً} آل عمران: 118 فإن قلت: كيف أورد جواب الشرط مضاعفاً مثله ثم قال " وودَّوا " بلفظ الماضي قلت: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضارّ الدنيا والدين جميعاً: من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردّكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأوّلها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذَّالون لها دونه والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه.

{لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصيرٌ}" لن تنفعكم أرحامكم " أي قراباتكم " ولا أولادكم " الذي توالون من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ثم قال: " يوم القيامة يفصل بينكم " وبين أقاربكم وأولادكم {يوم يفر المرء من أخيه}" عبس: 34 الآية فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرّ منكم غداً: خطأ رأيهم في موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك المولاة ثانياً ليريهم أن ما أقدموا عليه من أيّ جهة نظرت فيه وجدته باطلاً.

وقرئ: " يُفصل ويُفصَّل " على البناء للمفعول.

ويفصل ويُفصِّل على البناء للفاعل وهو الله عزّ وجل.

ونفصل ونفصل بالنون.

{قد كانت لكم أُسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والَّذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرءؤا منكم وممَّا تعبدون

من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتَّى تؤمنوا بالله وحده إلاَّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملك لك من الله من شيءٍ رَّبَّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للَّذين كفروا واغفر لنا ربَّنا إنَّك أنت العزيز الحكيم}
وقرئ: " أسوة وإسوة " وهو اسم المؤتسى به أي كان فيهم مذهب حسن مرضي بأن

يؤتسى به ويتبع أثره وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا حيث كاشفوهم بالعدوة وقشروا لهم العصا وأظهروا البغضاء والمقت وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله وما دام هذا السبب قائماً كانت العداوة قائمة حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة والبغضاء محبة والمقت مقة فأفصحوا عن محض الإخلاص.

ومعنى " كفرنا بكم " وبما تعبدون من دون الله: أنا لا نعتدّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم وما أنتم عندنا على شيء.

فإن قلت: مم استثني قوله: " إلاَّ قول إبراهيم " قلت: منقوله: " أسوةٌ حسنةٌ " لأنه أراد بالأسوة الحسنة: قولهم الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها.

فإن قلت: فإن كان قوله " لأستغفرنَّ لك " مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فما بال قوله: " وما أملك من الله من شيءٍ " وهو غير حقيق بالاستثناء.

ألا ترى إلى قوله {قل فمن يملك من الله شيئاً} المائدة: 17 قلت: أراد استثناء جملة قوله لأبيه والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده مبنيّ عليه وتابع له كأنه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار.

فإن قلت: بم اتصل قوله: " ربنا عليك توكَّلنا " قلت: بما قبل الاستثناء وهو من جملة الأسوة الحسنة.

ويجوز أن يكون المعنى: قولوا ربنا أمراً من الله تعالى للمؤمنين بأن يقولوه وتعليماً منه لهم تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم وتنبيهاً على الإنابة إلى الله والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم.

وقرئ: " برآء " شركاء.

وبراء على إبدال الضم من الكسر كرخال ورباب.

وبراء على الوصف بالمصدر.

والبراء والبراءة كالظماء والظماءة.

{لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد} ثم كرر الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم ولذلك جاء به مصدراً بالقسم لأنه الغاية في التأكيد وأبدل عن قوله: " لكم " قوله: " لمن كان يرجو الله واليوم الآخر " وعقبه بقوله: " ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميدُ " فلم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به.

{عسى الله أن يجعل بينكم وبين الَّذين عاديتم منهم مَّودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رَّحيمٌ} ولما نزلت هذه الآيات: تشدَّد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم فلما رأى الله عز وجل منهم الجدّ والصبر على الوجه الشديد وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم المولاة والمواصلة.

رحمهم فوعدهم تيسير ما تمنوه فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم وتمّ بينهم من التحاب والتصافي ما تمّ.

وقيل: 160 تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة وكانت أمّ حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن أبي جحش إلى الحبشة فتنصر وأرادها على النصرانية فأبت وصبرت على دينها ومات زوجها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي فخطبها عليه وساق عنه إليها مهرها أربعمائة دينار وبلغ ذلك أباها فقال: ذلك الفحل لا يقدع أنفه.

و " عسى " وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعل.

فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك.

أو قصد به إطماع المؤمنين والله قدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة " والله غفورٌ رَّحيمٌ " لمن أسلم من المشركين.

{لا ينهاكم الله عن الَّذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم مِّن دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون}

" أن تبرّوهم " بدل من الذين لم يقاتلوكم.

وكذلك " أن تولوهم " من الذين قاتلوكم: والمعنى: لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء.

وهذا أيضاً رحمة لهم لتشدّدهم وجدّهم في العداوة متقدمة لرحمته بتيسير إسلام قومهم حيث رخص لهم في صلة من لم يهاجر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم.

وقيل: أراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه.

وعن مجاهد: هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا.

وقيل: هم النساء والصبيان.

وقيل: 161 قدمت على أسماء بنت أبي بكر أمها قتيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت فأمرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها.

وعن قتادة: نسختها آية القتال " وتقسطوا إليهم " وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم.

وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم مترجمة عن حال مسلم يجترئ على ظلم أخيه المسلم.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهنَّ الله أعلم بإيمانهنَّ فإن علمتموهنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفار لا هنَّ حلٌّ لَّهم ولا هم يحلُّون لهنَّ وأتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهنَّ إذا أتيتموهنَّ أجورهُنَّ ولا تُمسكوا بعصم الكوافر وسئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا ذلكم حُكم الله يحكم بينكم والله عليمٌ حكيمٌ وإن فاتكم شيءٌ مِّن أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فأتوا الَّذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا

واتَّقوا الله الَّذي أنتم به مؤمنون} {إذا جاءكم المؤمنات} سماهنّ مؤمنات لتصديقهنّ بألسنتهنّ ونطقهنّ بكلمة الشهادة ولم يظهر منهنّ ما ينافي ذلك.

أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهم بالامتحان " فامتحنوهنَّ " فابتلوهن بالحلف والنظر في الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن.

162 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة: " بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض بالله ما خرجت التماس دنيا بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله " " الله أعلم بإيمانهنَّ " منكم لأنكم لا تكسبون فيه علماً تطمئن معه نفوسكم وإن استحلفتموهن ورزتم أحوالهن وعند الله حقيقة العلم به " فإن علمتموهنَّ مؤمناتٍ " العلم الذي تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات " فلا ترجعوهنَّ إلى الكفَّار " فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين لأنه لا حلّ بين المؤمنة والمشرك " وآتوهم مَّا أنفقوا " وأعطوا أزواجهنَّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور وذلك: 163 أن صلح الحديبة كان على أن من أتاكم من أهل مكة ردّ إليهم ومن أتى منكم مكة لم يردّ إليكم وكتبوا بذلك كتاباً وختموه فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبة فأقبل زوجها مسافر المخزومي.

وقيل صيفي بن الراهب فقال: يا محمد أردد عليّ امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف فنزلت بياناً لأن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء.

وعن الضحاك: كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد: أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا فإن دخلت في دينكم ولها زوج أن تردّ على زوجها الذي أنفق عليها وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك.

وعن قتادة: ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفت فأعطى زوجها ما انفق وتزوّجها عمر.

فإن قلت: كيف سمي الظنّ علماً في قوله: " فإن علمتموهنَّ " قلت: إيذاناً بأن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم وأن صاحبه غير داخل في قوله: " ولا تقف ما ليس لك به علم " الإسراء: 36 فإن قلت: فما فائدة قوله: " الله أعلم بإيمانهنَّ " وذلك معلوم لا شبهة فيه قلت: فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن.

فإنّ ذلك مما استأثر به علام الغيوب وأن ما يؤدي إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك وأن تكليفكم لا يعدوه ثم نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات إذا آتوهنّ أجورهنّ أي مهورهنّ لأن المهر أجر البضع ولا يخلو إما أن يراد بها ما كان يدفع إليهنّ ليدفعنه إلى أزواجهنّ فيشترط في إباحة تزوجهنّ تقديم أدائه وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهن ليدفعنه إلى أزواجهنّ فيشترط في إباحة تزوجهنّ تقديم أدائه وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهن على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به بأس وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهنّ لا يقوم مقام المهر وأنه لا بد من إصداق وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بذمة وبقي الآخر حربياً: وقعت الفرقة ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملاً " ولا تمسكوا بعصم الكوافر " والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب يعني: إياكم وإياهنّ ولا تكن بينكم وبينهنّ عصمة ولا علقة زوجية.

قال ابن عباس: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدنّ بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه.

وعن النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر.

وعن مجاهد: أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن " وسئلوا ما أنفقتم " من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار " وليسئلوا ما أنفقوا " من مهور نسائهم المهاجرات.

وقرئ: " ولا تمسكوا " بالتخفيف.ولا تمسكوا بالتثقيل.ولا تمسكوا.

أي: ولا تتمسكوا " ذلكم حُكم الله " يعني جميع ما ذكر في هذه الآية " يحكم بينكم " كلام مستانف.أو حال من حكم الله على حذف الضمير أي: يحكمه الله.أو جعل الحكم

حاكماً على المبالغة.

روي أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهنّ المشركين وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فنزل قوله: " وإن فاتكم " وإن سبقكم وانفلت منكم " شيءٌ " من أزواجكم: أحد منهن إلى الكفار وهو في قراءة ابن مسعود: أحد.

فإن قلت: هل لإيقاع شيء في هذا الموقع فائدة قلت: نعم الفائدة فيه: أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قلّ وحقر غير معوّض منه تغليظاً في هذا الحكم وتشديداً فيه " فعاقبتم " من العقبة وهي التوبة: شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء وأولئك تارة وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره.

ومعناه: فجاءت عقبتكم من أداء المهر فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر وهكذا عن الزهري: يعطي من صداق من لحق بهم.

وقرأ: " فأعقبتم " بالتشديد.

فعقبتم بالتخفيف بفتح القاف وكسرها فمعنى أعقبتم: دخلتم في العقبة وعقبتم: من عقبه إذا قفاه لأن كل واحدٍ من المتعاقبين يقفي صاحبه وكذلك عقبتم بالتخفيف يقال: ع قبه عقبه.

وعقبتم نحو تبعتم.

وقال الزجاج: فعاقبتم فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم والذي ذهبت زوجته كان يعطى من الغنيمة المهر وفسر غيرها من القراآت فكانت العقبى لكم أي: فكانت الغلبة لكم حتى

غنمتم.

وقيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري وفاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة وبروع بنت عقبة كانت تحت

شماس بن عثمان وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ودّ وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص.

وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة.

{يا أيُّها النَّبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لاَّ يُشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنَّ ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ ولا يعصينك في معروفٍ فبايعهنَّ واستغفر لهنَّ الله إنَّ الله غفورٌ رَّحيمٌ} {ولا يقتلن أولادهنَّ} وقرئ: " يقتلن " بالتشديد يريد: وأد البنات " ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ " كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك.

كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين " ولا يعصينك في معروفٍ " فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهاهنّ عنه من المقبحات.

وقيل: كل ما وافق طاعة الله فهو معروف.

فإن قلت: لو اقتصر على قوله: " ولا يعصينك " فقد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف قلت: نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب.

وروي: 164 أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال: أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متنكرة خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها فقال عليه الصلاة والسلام: " أبايعكن على أن لا يشركن بالله شيئاً فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقال عليه الصلاة والسلام: و " لا يسرقن " فقالت: إنّ أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فما أدري أتحل لي أم لا.

فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك فقال: " ولا يزنين ": فقالت: أو تزني الحرة وفي رواية: ما زنت منهن امرأة قط فقال عليه الصلاة والسلام " ولا يقتلن أولادهن " فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " لا يأتين ببهتان " فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق فقال: " ولا يعصينك في معروف " فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

وقيل في كيفية المبايعة: 165 دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ثم غمسن أيديهن.

وقيل: 166 صافحهن وكان على يده ثوب قطري.

وقيل: 167 كان عمر يصافحهن عنه.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا لا تتولَّوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الأخرة كما يئس الكفَّار من أصحاب القبور} روي أنّ بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم.

فقيل لهم " لا تتولَّوا قوماً " مغضوباً عليهم " قد يئسوا " من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة " كما يئس الكفَّار من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء.

وقيل: " من أصحاب القبور " بيان للكفار أي: كما يئس الكفار الذين قبروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 168 " من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة ".

سورة الصف

مدنية وآياتها 14

بسم الله الرحمن الرحيم

{سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين أمنوا لمَ تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص} "لمَ " هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بمَ وفيمَ وممّ وعمَ وإلام وعلام.

وإنما حذفت الألف لأنّ ما والحرف كشيء واحد وقع استعمالهما كثيراً في كلام المستفهم وقد جاء استعمال الأصل قليلاً والوقف على زيادة هاء السكت او الإسكان.

ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف كما سمع: ثلاثة أربعة بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد.

وروي أنّ المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فدلهم الله تعالى على الجهاد في سبيله فولوا يوم أحد فعيرهم.

وقيل: لما أخبر الله بثواب شهداء بدر قالوا لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد ولم يفوا.

وقيل: كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل وطعنت ولم يطعن وضربت ولم يضرب وصبرت ولم يصبر.

وقيل: 169 كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فقال عمر لصهيب: أخبر النبي عليه السلام أنك قتلته فقال: إنما قتلته لله ولرسوله فقال عمر: يا رسول الله قتله صهيب قال: كذلك يا أبا يحيى قال: نعم فنزلت في المنتحل.

وعن الحسن: نزلت في المنافقين.

ونداؤهم بالإيمان: تهكم بهم وبإيمانهم هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه قصد في " كبر " التعجب من غير لفظه كقوله: غلت نابٌ كليبٌ بواءها ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا.

ونصب " مقتاً " على تفسيره دلالة على أنّ قولهم مالا يفعلون مقت خالص لاشوب فيه لفرط تمكن المقت منه واختير لفظ البغض وأبلغه.

ومنه قيل: نكاح المقت للعقد على الرابة ولم يقتصر على جعل البغض كبيراً حتى جعل أشده وأفحشه.

و " عند الله " أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك.

وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا فسكت ثم قيل له حدثنا فقال: تأمرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله.

في قوله: {إنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله} عقيب ذكر مقت المخلف: دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا.

وقرأ زيد بن عليّ " يقاتلون " بفتح التاء.

وقرئ: " يقتلون " " صفا " صافين أنفسهم أو مصفوفين " كأنهم " في تراصهم من غير فرجة وخلل " بنيان " رصّ بعضه إلى بعض ورصف.

وقيل: يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص.

وعن بعضهم: فيه دليل على فضل القتال راجلاً لأنّ الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة.

وقوله: " صفاً كأنَّهم بنيانٌ " حالان متداخلان.

{وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تُؤذونني وقد تَّعلمون أنِّي رسول الله إليكم فلمَّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين}" وإذا " منصوب بإضمار اذكر.

أو: وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا " تؤذونني " كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه وعبادته البقر وطلبهم رؤية الله جهراً والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه " وقد تعلمون " في موضع الحال أي: تؤذونني عالمين علماً يقيناً " أني رسول الله إليكم " وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمي وتوقيري لا أن تؤذوني وتستهينوا بي لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله علماً بأن تعظيمه في تعظيم رسوله ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحق به " فلما زاغوا " عن الحق " أزاغ الله قلوبهم " بأن منع ألطافه عنهم " والله لا يهدي القوم الفاسقين " لا يلطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف.

فإن قلت: ما معنى " قد " في قوله " قد تعلموا " قلت: معناه توكيد كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهةً لكم فيه.

{وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبين

} قيل: إنما قال: " يا بني إسرائيل " ولم يقل: يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه.

والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديق ما تقدمني " من التوراة " وفي حال تبشيري " برسولٍ يأتي من بعدي " يعني: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر.

وقرئ: " من بعدي " بسكون الياء وفتحها والخليل وسيبويه يختاران الفتح.

وعن كعب: أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمة قال: نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل.

فإن قلت: بمن انتصب مصدقاً ومبشراً أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم قلت: بل بمعنى الإرسال لأن " إليكم " صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئاً لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها ولكن بما فيها من معنى الفعل فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل وقرئ: " هذا ساحرٌ مبين ".

{ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين} وأي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا سحر لأنّ السحر كذب وتمويه.

وقرأ طلحة بن مصرف: " وهو يدعي " بمعنى دعاه وادّعاه نحو: لمسه والتمسه.

وعنه: يدعي بمعنى يدعو وهوالله عز وجل.

{يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمُّ نوره ولو كره الكافرون} أصله " يريدون أن يطفئوا " كما جاء في سورة براءة وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك كما زيدت اللام في: لا أبالك تأكيداً لمعنى الإضافة في: لا أباك وإطفاء نور الله بأفواههم: تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: هذا سحر مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بقيه ليطفئه " والله متمّ نوره " أي متمّ الحق ومبلغه غايته.

وقرئ: بالإضافة.

{هو الَّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}" ودين الحق " الملة الحنفية " ليظهره " ليعليه " على الدين كله " على جميع الأديان المخالفة له ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام.

وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام.

وقرئ: " أرسل نبيه ".

{يا أيُّها الَّذين أمنوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمونً يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيِّبةً في جنَّات عدنٍ ذلك الفوز العظيم وأخرى تُحبُّونها نصرٌ مِّن الله وفتحٌ قريبٌ وبشر المؤمنين} "تنجيكم قرئ مخففاً ومثقلاً.

و " تؤمنون " استئناف كأنهم قالوا: كيف: نعمل فقال: تؤمنون وهو خبر في معنى الأمر ولهذا أجيب بقوله: " يغفر لكم " وتدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا.

فإن قلت: لم جيء به على لفظ الخبر قلت: للإيذان بوجوب الامتثال وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين.

ونظيره قول الداعي: غفر الله لك ويغفر الله لك: جعلت المغفرة لقوّة الرجاء كأنها كانت ووجدت.

فإن قلت: هل لقول الفراء أنه جواب " هل أدلُّكم " وجه قلت: وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد فكأنه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم فإن قلت: فما وجه قراءة زيد بن عليّ رضي الله عنهما: " تؤمنوا.

وتجاهدوا " قلت: وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر كقوله: مُحَمَّدُ تفقْدِ نفسك كُلُّ نفسٍ إذا ما خفت من أمرٍ تبالا وعن ابن عباس أنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه فنزلت هذه الآية فمكثوا ما شاء الله يقولون: ليتنا نعلم ما هي فدلهم الله عليها بقوله: " تؤمنون " وهذا دليل على أن " تؤمنون " كلام مستأنف وعلى أنّ الأمر الوارد على النفوس بعد تشوّف وتطلع منها إليه: أوقع فيها وأقرب من قبولها له مما فوجئت به " ذلكم " يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد " خيرٌ لَّكم " من أموالكم وأنفسكم.

فإن قلت: ما معنى قوله: " إن كنتم تعلمون " قلت: معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم حينئذٍ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون " وأخرى تُحبُّونها " ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ثم فسرها بقوله: " نصرٌ

مِّن الله وفتحٌ قريبٌ " أي عاجل وهو فتح مكة.

وقال الحسن: فتح فارس والروم.

وفي " تُحبُّونها " شيء من التوبيخ على محبة العاجل.

فإن قلت: علام عطف قوله " وبشر المؤمنين " قلت: على " تؤمنون " لأنه في معنى الأمر كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك.

فإن قلت: لم نصب من قرأ نصراً من الله وفتحاً قريباً قلت: يجوز أن ينصب على الاختصاص.

أو على تنصرون نصراً ويفتح لكم فتحاً.

أو على: يغفر لكم ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى نصراً من الله وفتحاً.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريِّن من أنصاري إلى الله قال الحواريُّون نحن أنصار الله فأمنت طَّائفةٌ مِّن بني إسرائيل وكفرت طَّائفةٌ فأيَّدنا الَّذين أمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين}

" قرئ: " كونوا أنصار الله وأنصاراً لله ".

وقرأ ابن مسعود: " كونوا أنتم أنصار الله ".

وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم.

فإن قلت: ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى صلوات الله عليه: " من أنصاري إلى الله " قلت: التشبيه محمول على المعنى وعليه يصح.

والمراد: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: " من أنصاري إلى الله ".

فإن قلت: ما معنى قوله: " من أنصاري إلى الله " قلت: يجب أن يكون معناه مطابقاً لجواب الحواريين " نحن أنصار الله " والذي يطابقه أن يكون المعنى: من جندي متوجهاً إلى نصرة الله وإضافة " أنصاري " خلاف إضافة " أنصار الله " فإنّ معنى " نحن أنصار الله ": نحن الذين ينصرون الله.

ومعنى " من أنصاري " من الأنصار الذين يختصون بي ويكونوا معي في نصرة الله ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرني مع الله لأنه لا يطابق الجواب.

والدليل عليه: قراءة من قرأ: " من أنصار الله ".

والحواريون أصفياؤه وهم أوّل من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً وحواريّ الرجل: صفيه وخلصانه من الحوار وهو البياض الخالص.

والموَّارى: الدرمك.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: 170 " الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي " وقيل: كانوا قصارين يحوّرون الثياب يبيضونها.

ونظير الحواري في زنته: الحوالي: الكثير الحيل " فأمنت طَّائفةٌ " منهم بعيسى " وكفرت " به " طَّائفةٌ فأيَّدنا " مؤمنيهم على كفارهم فظهروا عليهم.

وعن زيد بن عليّ: كان ظهورهم بالحجة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 171 " من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه ".

سورة الجمعة

مدنية وآياتها 11

بسم الله الرحمن الرحيم

{يسبِّح لله ما في السَّماوات وما في الأرض الملك القدُّوس العزيز الحكيم هو الَّذي بعث في الأُميِّن رسولاً مِّنهم يتلوا عليهم أياته ويزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مُّبين وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل

العظيم} قرئت صفات الله عزّ وعلا بالرفع على المدح كأنه قيل: هو الملك القدوس ولو قرئت منصوبة لكان وجها كقول العرب: الحمد لله أهل الحمد.

الأمي: منسوب إلى أمّة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم.

وقيل: بدأت الكتابة بالطائف أخذوها من أهل الحيرة وأهل الحيرة من أهل الأنباء.

ومعنى " بعث في الأُميِّن رسولاً منهم " بعث رجلاً أمياً في قوم أميين وقيل " منهم " كقوله تعالى: " من أنفسكم " التوبة: 128 يعلمون نسبه وأحواله.

وقرئ: " في الأمين " بحذف ياءي النسب " يتلوا عليهم أياته " يقرؤها عليهم مع كونه أميّاً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلمٍ وقراءة أمي بغير تعلم أية بينة " ويزكّيهم " ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية " ويعلّمهم الكتاب والحكمة " القرآن والسنة.

وإن في " وإن كانوا " هي المخففة من الثقيلة واللام دليل عليها أي: كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه " وآخرين " مجرور عطف على الأميين يعني: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم.

وقيل: 172 لما نزلت قيل: من هم يا رسول الله فوضع يده على سلمان ثم قال: " لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء " وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة ويجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب في " ويعلّمهم " أي: يعلمهم ويعلم آخرين لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوّله فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه " وهو العزيز الحكيم " في تمكينه رجلاً أميّاً من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر " ذلك " الفضل الذي أعطاه محمداً وهو أن يكون نبي أنبياء عصره ونبي العصور الغوابر.هو " فضل الله يؤتيه من يشاء " إعطاءه وتقتضيه حكمته.

{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين} شبه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها وذلك أنّ فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به - بالحمار حمل أسفاراً أي كتباً من كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبيه وظهره من الكد والتعب.

وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل " بئس " مثلاً " مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله " وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى: " حملوا التوراة ": كلفوا علمها والعمل بها " ثم لم يحملوها " ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها.

وقرئ: " حملوا التوراة " أي حملوها ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل.

وقرئ: " يحمل الأسفار " فإن قلت: " يحمل " ما محله قلت: النصب على الحال أو الجر على الوصف لأن الحمار كاللئيم في قوله: ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني " قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت أن كنتم صادقين.

ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين.

قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون.

" هاد يهود: إذا تهوّد " أولياء لله " كانوا يقولون.

نحن أبناء الله وأحباؤه أي: إن كان قولكم حقاً وكنتم على ثقة " فتمنوا " على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه ثم قال: " ولا يتمنَّونه أبدا " بسبب ما قدّموا من الكفر وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه " فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمنوا ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد منهم أن يتمنى وهي إحدى المعجزات.

وقرئ: " فتمنوا الموت " بكسر الواو تشبيهاً بلو استطعنا.

ولا فرق بين " لا " و " لن " في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل إلا أن في " لن " تأكيداً وتشديداً ليس في " لا " فأتى مرّة بلفظ التأكيد " ولن يتمنوه " البقرة: 95 ومرّة بغير لفظه " ولا يتمنونه " الجمعة: 7 ثم قيل لهم " إن الموت الَّذي تفرُّون منه " ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ملاقيكم لا محالة " ثُمَّ تردُّون " إلى الله فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب.

وقرأ زيد بن عليّ رضي الله عنه: إنه ملاقيكم.

وفي قراءة ابن مسعود: تفرون منه ملاقيكم وهي ظاهرة.

وأما التي بالفاء فلتضمن الذي معنى الشرط وقد جعل " إنَّ الموت الَّذي تفرُّون منه " كلاماً برأسه في قراءة زيد أي: إنَّ الموت هو الشيء الذي تفرّون منه ثم استؤنف: إنه ملاقيكم.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا إذا نودي للصَّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيرٌ

لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصَّلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تفلحون} "يوم الجمعة " يوم الفوج المجموع كقولكم: ضحكة كقولهم: ضحكة للمضحوك منه.

و " يوم الجمعة " بفتح الميم: يوم الوقت الجامع كقولهم: ضحكة ولعنة ولعبة ويوم الجمعة تثقيل للجمعة كما قيل: عسرة في عسر.وقرئ: بهن جميعاً.

فإن قلت: من في قوله: " من يوم الجمعة " ما هي قلت: هي بيان لإذا وتفسير له.

والنداء: الأذن. وقالوا: المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر وقد: 173 كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فإذا نزل أقام للصلاة ثم كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على ذلك حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذناً آخر فأمر بالتأذين الأوّل على داره التي تسمى زوراء فإذا جلس على المنبر: أذن المؤذن الثاني فإذا نزل أقام للصلاة فلم يعب ذلك عليه.

وقيل: أول من سماها " جمعة " كعب بن لؤي وكان يقال لها: العروبة.

وقيل: 174 إنّ الأنصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله ونصلي.

فقالوا: يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوا يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذٍ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه فأنزل الله آية الجمعة فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام وأما أوّل جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي: 175 أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف وأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة.

وعن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله: " فتمنوا الموت إن كنتم صادقين " وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 176 " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد ".

وعنه عليه السلام: 177 " أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد ".

وعنه صلى الله عليه وسلم "إنَّ لله تعالى في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار.

وعن كعب: إنّ الله فضل من البلدان: مكة ومن الشهور: رمضان ومن الأيام: الجمعة.

وقال عليه الصلاة والسلام: 179 " من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقي فتنة القبر " وفي الحديث: 180 " إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأوّل فالأوَّل على مراتبهم " وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

وقيل: أوّل بدعة أحدثت في الإسلام: ترك البكور إلى الجمعة.

وعن ابن مسعود: أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول: أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد.

ولا تقام الجمعة عند أبي حنيفة رضي الله عنه إلا في مصر جامع لقوله عليه السلام: 181 " ولا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع " والمصر الجامع: ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام ومن شروطها الإمام أو من يقوم مقامه لقوله عليه السلام: 182 " فمن تركها وله إمام عادل أو جائر.

الحديث " وقوله صلى الله عليه وسلم: 183 " أربع إلى الولاة: الفيء والصدقات والحدود والجمعات ".

فإن أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاض أو صاحب شرطة: لم يجز فإن لم يكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم: جاز وهي تنعقد بثلاثة سوى الإمام.

وعن الشافعي بأربعين.

ولا جمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ولا على الأعمى عند أبي حنيفة ولا على الشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد.

وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم: " فامضوا ".

وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: " فاسعوا ".

فقال: من أقرأك هذا قال أبيّبن كعب فقال: لا يزال يقرأ بالمنسوخ لو كانت " فاسعوا " لسعيت حتى يسقط ردائي.

وقيل: المراد بالسعي القصد دون العدو والسعي: التصرف في كل عمل.

ومنه قوله تعالى: " فلما بلغ معه السعي " الصافات: 102 " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " النجم: 39 وعن الحسن: ليس السعي على الأقدام ولكنه على النيات والقلوب.

وذكر محمد بن الحسن رحمه الله في موطئه: أن عمر سمع الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشي.

قال محمد: وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه " إلى ذكر الله " إلى الخطبة والصلاة ولتسمية الله الخطبة ذكراً له قال أبو حنيفة رحمه الله: إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله: الحمد لله سبحان الله: جاز.

وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال: الحمد لله وأرتج عليه فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوّال وستأتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد.

وعند صاحبيه والشافعي: لا بد من كلام يسمى خطبة.

فإن قلت: كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله قلت: ما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله فأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقاء بعكس ذلك فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه " صه " فقد لغا أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغياً نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام.

أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبواديهم وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذٍ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء فلما كان ذلك الوقت مظنة

الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضي إلى المسجد قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح " وذروا البيع " الذي نفعه يسير وربحه مقارب.

فإن قلت: فإذا كان البيع في هذا الوقت مأموراً بتركه محرماً فهل هو فاسد قلت: عامة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع.

قالوا: لأنّ البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب وعن بعض الناس: أنه فاسد.

ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح مع التوصية بإكثار الذكر وأن لا يليهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا ينفضون عنه لأنّ فلاحهم فيه وفوزهم منوط به وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في الله وعن الحسن وسعيد بن المسيب: طلب العلم وقيل: صلاة التطوّع وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظراً في هذه الآية.

{وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين} روي: 184 أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه خشوا أن يسبقوا إليه فما بقي معه إلا يسير.

قيل: ثمانية وأحد عشر واثنا عشر وأربعون فقال عليه السلام: " والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً " وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق فهو المراد باللهو وعن قتادة: فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير.

فإن قلت: فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع قلت: إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة فعند أبي حنيفة: يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع.

وعند صاحبيه: إذا كبر وهم معه مضى فيها.

وعند زفر: إذا نفروا قبل التشهد بطلت.

فإن قلت: كيف قال: " إليها " وقد ذكر شيئين قلت: تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه وكذلك قراءة من قرأ: " لهوا أو تجارة انفضوا إليها " وقرئ: " إليهما ".

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 185 " من قرأ سورة الجمعة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين ".

سورة المنافقون

مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إنَّ المنافقين

لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} أرادوا بقولهم: " نشهد إنك لرسول الله " شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم.

فقال الله عز وجلّ: قالوا ذلك " والله يعلم " أن الأمر كما يدل عليه قولهم: إنك لرسول الله والله يشهد أنهم لكاذبون في قولهم: نشهد وادعائهم فيه المواطأة.

أو إنهم لكاذبون فيه لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة فهم كاذبون في تسميته شهادة.

أو أراد: والله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم لأنهم كانوا يعتقدون أنّ قولهم: " إنَّك لرسول الله " كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

فإن قلت: أي فائدة في قوله تعالى: " والله يعلم إنَّك لرسوله " قلت: لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم الكاذبون لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله: " والله يعلم إنَّك لرسوله " ليميط هذا الإيهام " واتَّخذوا أيمانهم جنَّةً " يجوز أن يراد أنّ قولهم نشهد إنك لرسول الله يمين من أيمانهم الكاذبة لأنّ الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد يقول الرجل: أشهد وأشهد بالله وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى.

وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن " أشهد " يمين.

ويجوز أن يكون وصفاً للمنافقين في استجنانهم بالإيمان.

وقرأ الحسن البصري: إيمانهم أي: ما أظهروه من الإيمان بألسنتهم.

ويعضده قوله تعالى: {ذلك بأنَّهم أمنوا ثمَّ كفروا}

{ساء ما كانوا يعملون} من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله.

وفي " ساء " معنى التعجب الذي هو أمرهم عند السامعين " ذلك " إشارة إلى قوله: " ساء ما كانوا يعملون " أي ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً " ب " سبب " أنهم آمنوا ثم كفروا " أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان أي: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا " فطُبع على قلوبهم " فجسروا على كل عظيمة.

فإن قلت: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم فما معنى قوله: " أمنوا ثُمَّ كفروا " قلت: فيه ثلاثة أوجه أحدها: آمنوا أي: نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ثم كفروا: ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات.

ونحوه قوله تعالى: " يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم " التوبة: 74 أي: وظهر كفرهم بعد أن أسلموا.

ونحوه قوله تعالى: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} التوبة: 66 والثاني آمنوا: أي نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله تعالى: "

إذا لقوا الذين آمنوا " إلى قوله تعالى: {إنما نحن مستهزؤون} البقرة: 14 والثالث: أن يراد أهل الردة منهم.

وقرئ: " فطبع على قلوبهم " وقرأ زيد بن علي: " فطبع الله ".

{وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنَّهم خُشُبٌ مُّسنَّدةٌ يحسبون كُلَّ صيحةٍ عليهم هم العدوُّ فاحذرهم قاتلهم الله أنَّى يؤفكون} كان عبد الله بن أبيّ رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم.

فإن قلت: ما معنى قوله: " كأنَّهم خُشُبٌ مُّسنَّدةٌ " قلت: شبهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسندة إلى الحائط ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع.

ويجوز أن يراد بالخشب المسندة: الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم والخطاب في " رأيتهم تُعجبك " لرسول الله أو لكل من يخاطب

وقرئ: " يسمع " على البناء للمفعول وموضع " كأنَّهم خُشُبٌ " رفع على هم كأنهم خشب.

أو هو كلام مستأنف لا محل له.

وقرئ: " خشب " جمع خشبة كبدنة وبدن.

وخشب كثمرة وثمر.

وخشب كمدرة ومدر وهي في قراءة ابن عباس.

وعن اليزيدي أنه قال في " خُشُبٌ ": جمع خشباء والخشباء: الخشبة التي دعر جوفها شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم " عليهم " ثاني مفعولي يحسبون أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعاً بهم.

وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم.

ومن أخذ الأخطل: ما زلت تحسب كُلَّ شيءٍ بعدهم خيلا تكرُّ عليهم ورجالا يوقف على " عليهم " ويبتدأ " هم العدوُّ " أي الكاملون في العداوة: لأن أعدى الأعداء العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي " فاحذرهم " ولا تغترر بظاهرهم.

ويجوز أن يكون " هم العدوُّ " المفعول الثاني كما لو طرحت الضمير.

فإن قلت: فحقه أن يقال: هي العدوّ.

قلت: منظور فيه إلى الخبر كما ذكر في {هذا ربي} الأنعام: 76 وأن يقدر مضاف محذوف على: يحسبون كل أهل صيحة " قاتلهم الله " دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم.

أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك " أنَّى يؤفكون " كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم.

{إذا قيل تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رءوسهم ورأيتهم يصدُّون وهم مُّستكبرون.

سواءٌ عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنَّ الله لا يهدي القوم الفاسقين}

" لوَّوا رءوسهم " عطفوها وأما لوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً.

وقرئ: بالتخفيف والتشديد للتكثير.

{هم الَّذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتَّى ينفضُّوا ولله خزائن السَّماوات والأرض ولكنَّ المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رَّجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون} روي: 186 أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم: ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبيّ واقتتلا فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين: وسنان: يا للأنصار فأعان جهجاها جعَّال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا.

فقال عبد الله لجعال.

وأنت هناك وقال: ما صحبنا محمداً إلا لنلطم والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل عنى بالأعز: نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن ينحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد في عزّ من الرحمن وقوّة من المسلمين فقال عبد الله: اسكت فإنما كنت ألعب فأخبر زيد رسول الله فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله فقال: إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب.

قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري.

فأمر به أنصارياً فقال: فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذي بلغني قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب وهو قوله تعالى: " اتخذوا أيمانهم جنة " المنافقون: 2 فقال الحاضرون: يا رسول الله: شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم.

وروي أن رسول الله قال له: لعلك غضبت عليه قال: لا قال: فلعله أخطأ سمعك قال: لا قال: فلعله شبه عليك قال: لا.

فلما نزلت: لحق رسول الله زيداً من خلفه فعرك أذنه وقال: وفت أذنك يا غلام إنّ الله قد صدقك وكذب المنافقين.

ولما أراد عبد الله أن يدخل المدينة: اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن عبد الله غير رسول اللهاسمه وقال له إنّ حباباً اسم شيطان.

وكان مخلصاً وقال: وراءك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز وأنا الأذل فلم يزل حبيساً في يده حتى أمره رسول الله بتخليته.

وروي أنه قال له: لئن لم تقرّ لله ورسوله بالعز لأضربن عنقك فقال: ويحك أفاعل أنت قال: نعم.

فلما رأى منه الجدّ قال: أشهد أنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال رسول الله لابنه: " جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً " فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أومن فآمنت وأمرتموني أن أزكي مالي فزكيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزلت: " وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله " المنافقون: 5 ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات " سواءٌ عليهم " الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم.

أو لأن الله لا يغفر لهم.

وقرئ: " استغفرت " على حذف حرف الاستفهام لأنّ " أم " المعادلة تدل عليه.

وقرأ أبو جعفر " آستغفرت " إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلبا لهمزة الوصل ألفاً كما في: آلسحر وآلله " ينفضُّوا " يتفرقوا.

وقرئ: " ينفضوا " من أنفض القوم إذا فنيت أزوادهم.

وحقيقته: حان لهم أن ينفضوا مزادهم " ولله خزائن السَّماوات والأرض " وبيده الأرزاق والقسم وهو رازقهم منها وإن أبي أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون " لا يفقهون " ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان.

وقرئ: " ليخرجنّ الأعز منها الأذل " بفتح الياء.

وليخرجنّ على البناء للمفعول.

قرأ الحسن وابن أبي عبلة: لنخرجنّ بالنون ونسب الأعز والأذل.

ومعناه: خروج الأذل.

أو إخراج الأذل.

أو مثل الأذل " ولله العزَّة " الغلبة والقوّة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وهم الأخصاء بذلك كما أنّ المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين.

وعن بعض الصالحات - وكانت في هيئة رثة - ألست على الإسلام وهوالعز الذيلا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنّ رجلاً قال له: إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيهاً قال: ليس بتيه ولكنه عزة وتلا هذه الآية.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}" لا تُلهكم " لا تشغلكم " أموالكم " والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها: والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال وابتغاء النتاج والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها " ولا أولادكم " وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله " عن ذكر الله " وإيثاره عليها " ومن يفعل ذلك " يريد الشغل بالدنيا عن الدين " فأولئك هم الخاسرون " في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

وقيل: ذكر الله الصلوات الخمس.

وعن الحسن: جميع الفرائض كأنه قال: عن طاعة الله.

وقيل: القرآن وعن الكلبي: {أنفقوا من مَّا رزقناكم مِّن قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربِّ لولا أخَّرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدق وأكن مِّن الصَّالحين ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون}ّ " من " في " مَّا رزقناكم " للتبعيض والمراد: الإنفاق الواجب " مِّن أن يأتي أحدكم الموت " من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعضّ أنامله على فقد ما كان متمكناً منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: تصدّقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل.

وعنه: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها.

وعنه: أنها نزلت في ما نعى الزكاة ووالله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة فقيل له: أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة قال: نعم أنا أقرأ عليكم به قرآناً يعني: أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها وكذا عن الحسن: ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة.

وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة " لولا أخَّرتني ".

وقرئ: " أخرتن " يريد: هلا أخرت موتي " إلى أجلٍ قريبٍ " إلى زمان قليل " فأصَّدَّق " وقرأ أبي " فأتصدق " على الأصل.

وقرئ: " وأكن " عطفاً على محل " فأصَّدَّق " كأنه قيل: إن أخرتني أصدّق وأكن ومن قرأ: " وأكون " على النصب فعلى اللفظ.

وقرأ عبيد بن عمير: " وأكون " على " وأنا أكون " عدة منه بالصلاح " ولن يؤخِّر الله " نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي الحكمة.

والمعنى: إنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه.

وأنه هاجم لا محالة وأنّ الله عليم بأعمالكم فمجاز عليها من منع واجب وغيره لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله.

وقرئ: " تعملون " بالتاء والياء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: 187 " من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق ".

سورة التغابن

وهي ثماني عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{يسبِّح لله ما في السَّماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

هو الَّذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مُّؤمنٌ والله بما تعملون بصيرٌ خلق السَّماوات والأرض بالحقِّ وصوَّركم فأحسن صوركم وإليه المصير يعلم ما في السَّماوات والأرض ويعلم ما تُسرُّون وما تعلنون والله عليمٌ بذات الصُّدور} قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه وكذلك الحمد لأنّ أصول النعم وفروعها منه.

وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداء بأن نعمة الله جرت على يده " هو الَّذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مُّؤمنٌ " يعني: فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان وفاعل له كقوله تعالى: " وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون " الحديد: 26 والدليل عليه قوله تعالى: " والله بما تعملون بصيرٌ " أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم.

والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين فما فعلتم مع تمكنكم بل تشعبتم شعباً وتفرقتم أمماً فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم.

وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ومنكم مؤمن به.

فإن قلت: نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد وهل مثله إلا مثل من وهب سيفاً باتراً لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرّمة فقتل به مؤمناً أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق في فروته كما يذمون القاتل بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد قلت: قد علمنا أنّ الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعله فوجب أن يكون حسناً وأن يكون له وجه حسن وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها " بالحقِّ " بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وهو أن جعلها مقارّ

المكلفين ليعملوا فيجازيهم " وصوَّركم فأحسن صوركم " وقرئ: " صوركم " بالكسر لتشكروا.

وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه.

فإن قلت: كيف أحسن صوركم قلت: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور.

ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب كما قال عز وجل: " في أحسن تقويم " التين: 4.

فإن قلت: فكم من دميم مشوّه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون قلت: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه.

ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبوا عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها.

وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان.

نبه بعلمه ما في السماوات والأرض ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلنونه ثم بعلمه ذوات الصدور: أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ولا عازب عنه فحقه أن يتقي ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه.

وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد وكل ما ذكره بعد قوله تعالى: " فمنكم كافر ومنكم مؤمن " التغابن: 2 كما ترى في معنى الوعيد على الكفر وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملته والخلق: أعظم نعمة من الله على عباده والكفر: أعظم كفران من العباد لربهم.

{ألم يأتكم نبؤا الَّذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذابٌ أليمٌ ذلك بأنَّه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشرٌ يهدوننا وتولوا واستغنى الله والله غنيٌّ حميدٌ}" ألم يأتكم " الخطاب لكفار مكة.

" ذلك " إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة " بأنَّه " بأنَّ الشأن والحديث " كانت تأتيهم رسلهم.

أبشرٌ يهدوننا " أنكروا أن تكون الرسل بشراً ولم ينكروا أن يكون الله حجراً " واستغنى الله " أطلق ليتناول كل شيء ومن جملته إيمانهم وطاعتهم.

فإن قلت: قوله: " وتولَّوا واستغنى الله " يوهم وجود التولي والاستغناء معاً والله تعالى لم يزل غنياً.

قلت: معناه: وظهر استغناء الله حيث لم {زعم الَّذين كفروا أن لَّن يُبعثوا قل بلى وربّي لتبعثنَّ ثمَّ لتنبَّؤنَّ بما عملتم وذلك على الله يسيرٌ فأمنوا بالله ورسله والنُّور الَّذي أنزلنا والله بما تعملون خبيرٌ} الزعم: ادعاء العلم: ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: 188 "

زعموا مطية الكذب " وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية الكذب " زعموا " ويتعدّى إلى المفعولين تعدّي العلم.

قال: ولم أزْعمك عن ذاك معزلا و " أن " مع ما في حيزه قائم مقامهما.

والذين كفروا أهل مكة.

و " بلى " إثبات لما بعد لن وهو البعث " وذلك على الله يسيرٌ " أي لا يصرفه عنه صارف.

وعنى برسوله والنور: محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن.

{يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التَّغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يُكفر عنه سيئاته ويدخله جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والَّذين كفروا وكذَّبوا بأياتنا أولئك أصحاب النَّار خالدين فيها وبئس المصير} وقرئ: " نجمعكم " ونكفر.

وندخله بالياء والنون.

فإن قلت: بم انتصب الظرف قلت: بقوله: لتنبؤن أو بخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار "اذكر " " ليوم الجمع " ليوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون

التغابن: مستعار من تغابن القوم في التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء.

وفيه تهكم بالأشقياء لأنّ نزولهم ليس بغبن.

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: 189 " ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً.

وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسراً " ومعنى " ذلك يوم التغابن ".

وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم: استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت " صالحاً " صفة للمصدر أي: عملاً صالحاً.

{ما أصاب من مُّصيبةٍ إلاَّ بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيءٍ عليمٌ} {إلاَّ بإذن الله} إلا بتقديره ومشيئته كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه " يهد قلبه " يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير.

وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة.

وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه.

وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وعن مجاهد: إن ابتلى صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر.

وقرئ: " يهد قلبه " على البناء للمفعول والقلب: مرفوع أو منصوب.

ووجه النصب: أن يكون مثل سفه نفسه أي: يهد في قلبه.

ويجوز أن يكون المعنى:

أنّ الكافر ضالّ عن قلبه بعيد منه والمؤمن واجد له مهتد إليه كقوله تعالى: " لمن كان له قلب " ق: 37 وقرئ: " نهد قلبه " بالنون.ويهدّ قلبه بمعنى: يهتد.ويهدأ قلبه: يطمئن.ويهد.

ويهدا على التخفيف " والله بكُلِّ شيءٍ عليمٌ " يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.

{وأطيعوا الله وأطيعوا الرَّسول فإن توليتم فإنَّما على رسولنا البلاغ المبين الله لا إله إلاَّ هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون} "فإن تولّيتم " فلا عليه إذا توليتم لأنه لم يكتب عليه طاعتكم إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب " وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون " بعث لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على التوكل عليه والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدوَّاً لَّكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإنَّ الله غفورٌ رَّحيمٌ إنَّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ والله عنده أجرٌ عظيمٌ} إنّ من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ومن الأولاد أولاداً يعادون آبائهم ويعقونهم ويجرّعونهم الغصص والأذى " فاحذروهم " الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعاً أي: لما علمتم أنّ هؤلاء لا يخلون من عدوّ فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم " وإن تعفوا " عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها فإن الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم.

وقيل: إنّ ناساً أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين: وأرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو.

وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا أن يعفوا عنهم ويردّوا إليهم البرّ والصلة.

وقيل: كان عوف بن مالك الأشجعي ذا أهل وولد فإذا أراد أن يغزو أو تعلقوا به وبكوا إليه ورققوه فكأنه همّ بأذاهم فنزلت.

" فتنةٌ " بلاء ومحنة لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ولا بلاء أعظم منهما ألا ترى إلى قوله: " والله عنده أجرٌ عظيمٌ " وفي الحديث: 190 " يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: أكل عياله حسناته " وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 191 أنه كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قمصان أحمران يعثران ويقومان فنزل إليهما فأخذهما ووضعهما في حجره على المنبر فقال: " صدق الله " إنَّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ " رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما " ثم أخذ في خطبته.

وقيل: إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا {فاتَّقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون}" ما استطعتم " جهدكم ووسعكم أي: ابذلوا فيها استطاعتكم " واسمعوا " ما توعظون به " وأطيعوا " فيما تأمرون به وتنهون عنه " وأنفقوا " في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها " خيراً لأنفسكم " نصب بمحذوف تقديره: ائتوا خيراً لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفع وهذا تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حبّ الشهوات وزخارف الدنيا.

{إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حليمٌ عالم الغيب والشَّهادة العزيز الحكيم} وذكر القرض: تلطف في الاستدعاء " يضاعفه لكم " يكتب لكم بالواحدة عشراً أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة.

وقرئ: " يضعفه " " شكورٌ " مجاز أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب وكذلك " حليمٌ " يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

سورة الطلاق

مدنية وهي إحدى عشرة أو اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيُّها النَّبيُّ إذا طلَّقتم النِّساء فطلِّقوهنَّ لعدَّتهنَّ وأحصوا العدَّة واتقوا الله ربَّكم لا تُخرجوهُنَّ من بيوتهنَّ ولا يخرجن إلاّ أن يأتين بفاحشةٍ مُّبيِّنة وتلك حدود الله ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً فإذا بلغن أجلهنَّ فأمسكوهنَّ بمعروفٍ أو فارقوهُنَّ بمعروفٍ وأشهدوا ذوى عدلٍ مِّنكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يُوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الأخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إنَّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكُلِّ شيءٍ قدراً}

" خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم الخطاب لأنّ النبّي إمام أمّته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهاراً لتقدّمه واعتباراً لترؤسه وأنه مدرةُ قومه ولسانهم والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده في حكم

كلهم وسادّاً مسدّ جميعهم.

ومعنى " إذا طلَّقتم النِّساء " إذا أردتم تطليقهنّ وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه: كقوله عليه السلام: 193 " من قتل قتيلاً فله سلبه " ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلي " فطلِّقوهُنَّ لعدَّتهنَّ " فطلقوهن مستقبلات لعدتهن كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرّم أي: مستقبلاً لها.

وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: في قُبل عدتهنّ وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأوّل من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها.

والمراد: أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه ثم يخلين حتى تنقضي عدّتهن.

وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدّة وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة.

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحد في طهر واحد فأما مفرقاً في الأطهار فلا لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض: 194 ما هكذا أمرك الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة وروي أنه مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء فتلك العدّة التي أمر الله أن تطلق لها النساء " وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بأس بإرسال الثلاث وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح.

فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت والشافعي يراعي الوقت وحده.

فإن قلت: هل يقع الطلاق المخالف للسنة قلت: نعم وهو آثم لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: 196 أنّ رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه فقال لا " أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم " وفي حديث ابن عمر أنه قال: 197 يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثاً فقال له: " إذن عصيت وبانت منك امرأتك ".

وعن عمر رضي الله عنه: 198 أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً.

وأجاز ذلك عليه.

وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين: أنّ من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلّث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف.

فإن قلت: كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها قلت: الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا: لا تطلق للسنة إلا

واحدة.

وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ولا يراعى الوقت.

فإن قلت: هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة قلت: اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا.

والظاهر الكراهة.

فإن قلت: قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل فكيف صحّ تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن قلت: لا عموم ثم ولا خصوص ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل: " فطلِّقوهُنَّ

لعدَّتهنَّ " علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهن من المعتدات بالحيض " وأحصوا العدَّة " واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن " لا تُخرجوهُنَّ " حتى تنقضي عدتهنّ " من بيوتهنَّ " من مساكنهنّ التي يسكنها قبل العدة وهي بيوت الأزواج وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن قلت: معنى الإخراج: أن لا يأذنوا لهنّ في الخروج البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن وأن لا يأذنوا لهنّ في الخروج إذا طلبن ذلك إيذاناً بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك " إلاَّ أن يأتين بفاحشةٍ مُّبيِّنةٍ " قرئ بفتح للياء وكسرها.

قيل: هي الزنا يعني إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن وقيل: إلا أن يطلقن على

النشوز والنشوز يسقط حقهنَّ في السكنى.

وقيل: إلا أن يبذون فيحلّ إخراجهنّ لبذائهنّ وتؤكده قراءة أبيّ " إلا أن يفحش عليكم " وقيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه.

الأمر الذي يحدثه الله: أنيقلبقلبه من بغضها إلى محبتها ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها.

ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها.

والمعنى: فطلقوهنّ لعدتهن وأحصوا العدة لعلكم ترغبون وتندمون فتراجعون " فإذا بلغن أجلهنَّ " وهو آخر العدة وشارفته فأنتم بالخيار: إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها " وأشهدوا " يعني عند الرجعة والفرقة جميعاً.

وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله: " وأشهدوا إذا تبايعتم " البقرة: 282 وعن الشافعي: هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة.

وقيل: فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث " منكم " قال الحسن: من المسلمين.

وعن قتادة: من أحراركم " لله " لوجهه خالصاً وذلك أن تقيموها لا للشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم كقوله تعالى: {كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم} النساء: 135 أي: " ذلكم " الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط {يوعظ به ومن يتَّق الله} يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة وطريقه الأحسن والأبعد من الندم ويكون المعنى: ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضارّ المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد " يجعل " الله " لّه مخرجاً " مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ويفرّج عنه وينفس ويعطه الخلاص " ويرزقه " من وجه لا يخطره بباله ولا يحتسبه إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات وقل ماله.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 199 أنه سئل عمن طلق ثلاثاً أو ألفاً هل له من مخرج فتلاها.

وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال: لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجا بانت منك بثلاث والزيادة إثم في عنقك.

ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: " ذلكم يوعظ به " يعني: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: 200 أنه قرأها فقال: " مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة ".

وقال عليه السلام: 201 إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم {ومن يتَّق الله}" فما زال يقرؤها ويعيدها.

وروي: 202 أنّ عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً.

فأتى رسول الله فقال: أسر ابني وشكا إليه الفاقة فقال: ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدوّ فاستاقها فنزلت هذه الآية " بلغ أمره " أي يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب.

وقرئ: " بالغ أمره " بالإضافة " وبالغ أمره " بالرفع أيّ: نافذ أمره وقرأ المفضل: " بالغاً أمره " على أنّ قوله: " قد جعل الله " خبر إن وبالغاً حال " قدراً " تقديراً وتوقيتاً.

وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه لأنه إذا علم أنّ كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته: لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل.

{والَّائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهرٍ والَّائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلُهُنَّ أن يضعن حملهنَّ ومن يتَّقِ الله يجعل لَّه من أمره يسراً ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتَّقِ الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً} روي أن ناساً قالوا: قد عرفنا عدة ذوات الأقراء فما عدة اللائي لا يحضن فنزلت.

فمعنى " إن ارتبتم ": إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهنّ وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة " فعدَّتُهُنَّ ثلاثة أشهرٍ " وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك " والَّائي لم يحضن " هن الصغائر.

والمعنى: فعدتهن ثلاثة أشهر فحذف لدلالة المذكور عليه.

اللفظ مطلق في أولات الأحمال فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن.

وكان ابن مسعود وأبيّ وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون.

وعن عليّ وابن عباس: عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الأجلين.

وعن عبد الله: من شاء لاعنته أنّ سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في البقرة يعني: أنّ هذا اللفظ مطلق في الحوامل.

وروت أم سلمة: 203 أنّ سُبيعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: قد حللت فانكحي " يجعل لَّه من أمره يسراً

" ييسر له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى " ذلك أمّرُ الله " يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات.

والمعنى ومن يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرار والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك: استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم.

{أسكنوهُنَّ من حيث سكنتم مِّن وجدكم ولا تُضارُّوهُنَّ لتضيِّقوا عليهن وإن كُنَّ أُولات حملٍ فأنفقوا عليهنَّ حتَّى يضعن حملهنَّ فإن أرضعن لكم فأتوهُنَّ أجورهُنَّ وأتمروا بينكم بمعروفٍ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذُو سعةٍ مِّن سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممَّا أتاه الله }" أسكنوهُنَّ " وما بعده: بيان لما شرط من التقوى في قوله: " ومن يتَّقِ الله " كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات فقيل: اسكنوهن.

فإن قلت: من في " من حيث سكنتم " ما هي قلت: هي من التبعيضية مبعضها محذوف معناه: أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم أي بعض مكان سكناكم كقوله تعالى: " يغضوا من أبصارهم " النور: 30 أي بعض أبصارهم.

قال قتادة: إن لم يكن إلا بيت واحد فأسكنها في بعض جوانبه.

فإن قلت: فقوله: " من وجدكم " قلت: هو عطف بيان لقوله: " من حيث سكنتم " وتفسير له كأنه قيل: أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه.

والوجد: الوسع والطاقة.

وقرئ بالحركات الثلاث.

والسكنى والنفقة: واجبتان لكل مطلقة.

وعند مالك والشافعي: ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها.

وعن الحسن وحماد: لا نفقة ولا سكنى لها لحديث فاطمة بنت قيس: 204 أن زوجها أبتّ طلاقها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا سكنى لك ولا نفقة.

وعن عمر رضي الله عنه: 205 لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لها السكنى والنفقة " " ولا تضاروهن " ولا تستعملوا معهن الضرار " لتضيقوا عليهن " في المسكن ببعض الأسباب: من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج.

وقيل: هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق عليها أمرها.

وقيل: هو أن يلجئها إلى أن تفتدي منه.

فإن قلت: فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة فما فائدة الشرط في قوله: " وإن كنَّ أولات حملٍ فأنفقوا عليهنَّ " قلت: فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظانّ أن النفقة تسقط إذاً مضى مقدار عدة الحائل فنفى ذلك الوهم.

فإن قلت: فما تقول في الحامل المتوفى عنها قلت: مختلف فيها فأكثرهم على أنه لا نفقة لها لوقوع الإجماع على أنّ من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته فكذلك الحامل.

وعن عليّ وعبد الله وجماعة: أنهم أوجبوا نفقتها " فإن أرضعن لكم " يعني هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهنّ أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجية " فأتوهُنَّ أُجورهُنَّ " حكمهن في ذلك حكم الأظار ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهم ما لم يبنّ.

ويجوز عند الشافعي.

الائتمار بمعنى التآمر كالاشتوار بمعنى التشاور.

يقال: ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضاً.

والمعنى: وليأمر بعضكم بعضاً والخطاب للآباء والأمهات " بمعروفٍ " بجميل وهو المسامحة وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأمّ لأنه ولدهما معاً وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق عليه " وإن تعاسرتم فستُرضع له أُخرى " فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى: سيقضيها غيرك تريد: لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم وقوله: " له " أي للأب أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه " لينفق " كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه يريد: ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات كما قال: " ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره " البقرة: 36 وقرئ: " لينفق " بالنصب أي شرعنا ذلك لينفق.

وقرأ ابن أبي عبلة " قدّر " " سيجعل الله " موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا.

{وكأيِّن مِّن قريةٍ عتت عن أمر ربِّها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نُّكراً.

فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خُسراً أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً فاتَّقوا الله يا أُولي الألباب الَّذين أمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مُبيِّناتٍ ليخرج الَّذين أمنوا وعملوا الصَّالحات من الظُّلمات إلى النُّور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً} {عتت عن أمر ربِّها} أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد " حساباً شديداً " بالاستقصاء والمناقشة " عذاباً نُّكراً " وقرئ: " نكرا " منكراً عظيماً والمراد: حساب الآخرة وعذابها وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر وجيء به على لفظ الماضي كقوله تعالى: {ونادى أصحاب الجنَّة} الأعراف: 44 {ونادى أصحاب النار} الأعراف: 50 ونحو ذلك لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكأن قد كان وقوله: {أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً} تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقباً كأنه قال: أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك " يا أولي الألباب " من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه.

ويجوز أن يراد إحصاء السيئات واستقصاؤها عليهم في الدنيا وإثباتها في صحائف الحفظة وما أصيبوا به من العذاب في العاجل وأن يكون " عتت " وما عطف عليه: صفة للقربة.

وأعد الله لهم: جواباً لكأين " رَّسولاً " هو جبريل صلوات الله عليه: أبدل من ذكرا لأنه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى: إنزال الذكر فصح إبداله منه.

أو أريد بالذكر: الشرف من قوله: {وإنه لذكرٌ لك ولقومك} الزخرف: 44 فأبدل منه كأنه في نفسه شرف: إما لأنه شرف للمنزل عليه وإما لأنه ذو مجدٍ وشرف عند الله كقوله تعالى: {عند ذي العرش مكين} التكوير: 20 أو جعل لكثرة ذكره لله وعبادته كأنه ذكر.

أو أريد: ذا ذكر أي: ملكاً مذكوراً في السَّماوات وفي الأمم كلها.

أو دلّ قوله: {أنزل الله إليكم ذكراً} الطلاق: 10 على: أرسل فكأنه قيل: أرسل رسولاً أو أعمل ذكراً في رسولاً إعمال المصدر في المفاعيل أي: أنزل الله أن ذكر رسولا أو ذكره رسولا.

وقرئ" رسول " على: هو رسول.

أنزله " ليخرج الذين أمنوا " بعد إنزاله أي ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح: لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين وإنما أمنوا بعد الإنزال والتبليغ.

أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون.

قرئ: " يدخله " بالياء والنون " قد أحسن الله له رزقاً " فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب.

{الله الَّذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنَّ يتنزَّل الأمر بينهنَّ لتعلموا أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قديرٌ وأنَّ الله قد أحاط بكُلِّ شيءٍ علماً} {الله الذي خلق} مبتدأ وخبر.

وقرئ: " مثلهنّ " بالنصب عطفاً على سبع سماوات وبالرفع على الابتداء وخبره: من الأرض.

قيل: ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه.

وقيل: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وغلظ كل سماء كذلك والأرضون مثل السماوات " يتنزَّل الأمر بينهنَّ " أي يجري أمر الله وحكمه بينهن وملكه ينفذ فيهن.

وعن قتادة: في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه.

وقيل: هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره.

وقرئ: " ينزل الأمر " وعن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق قال: نعم.

قال: فما الخلق قال: إما ملائكة أو جنّ " لتعلموا " قرئ: بالتاء والياء.

من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

سورة التحريم

مدنية وتسمى سورة النبي صلى الله عليه وسلم وهي اثنتا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيُّها النَّبيُّ لم تُحرِّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفورٌ رَّحيمٌ قد فرض الله لكم تحلَّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم} روي: 207 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها: اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتيّ فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين.

وقيل: خلا بها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساؤه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية.

أن عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال: راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة.

وروي: 209 أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل فحرّم العسل فمعناه " لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك " من ملك اليمين أو من العسل.

و " تبتغي " إما تفسير لتحرم.

أو حال: أو استئناف وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله لأن الله عزّ وجل إنما أحل ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة " والله غفورٌ " قد غفر لك ما زللت فيه " رَّحيمٌ " قد رحمك فلم يؤاخذك به " قد فرض الله لكم تحلَّة أيمانكم " فيه معنيان أحدهما: قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك: حلل فلان في يمينه إذا استثنى فيها.

ومنه: حلا أبيت اللعن بمعنى: استثن في يمينك إذا أطلقها وذلك أن يقول: " إن شاء الله " عقيبها حتى لا يحنث.

والثاني: قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: 210 " لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم " وقول ذي الرّمة: قليلاً كتحليل الأليِّ فإن قلت: ما حكم تحريم الحلال قلت: قد اختلف فيه فأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه فإذا حرّم طعاماً فقد حلف على أكله أو أمة فعلى وطئها أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نيّة وإن نوى الظهار فظهار وإن نوى الطلاق فطلاق بائن " وكذلك إن نوى ثلاثاً فكما نوى وإن قال: نويت الكذب ديِّن فيما بينه وبين الله تعالى ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء.

وإن قال: كل حلال عليّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى ولا يراه الشافعي يميناً.

ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحده وحدهنّ وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده.

وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم: أنّ الحرام يمين وعن عمر: إذا نوى الطلاق فرجعي.

وعن علي رضي الله عنه: ثلاث.

وعن زيد: واحدة بائنة.

وعن عثمان: ظهار.

وكان مسروق لا يراه شيئاً ويقول: ما أبالي أحرمتها أم قصعة من ثريد وكذلك عن الشعبي قال: ليس بشيء محتجاً بقوله تعالى: " ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام " النحل: 116 وقوله تعالى: " ولا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم " المائدة: 87 وما لم يحرّمه الله تعالى فليس لأحد أن يحرّمه ولا أن يصير بتحريمه حراماً ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أحله الله: هو حرام عليّ وإن امتنع من مارية ليمين تقدمت منه وهو قوله عليه الصلاة والسلام: والله لا أقربها بعد اليوم فقيل له: " لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك " أي لم تمتنع منه بسبب اليمين يعني: أقدم على ما حلفت عليه وكفر عن يمينك.

ونحوه قوله تعالى: " وحرّمنا عليه المراضع " القصص: 12 أي منعناه منها.

وظاهر قوله تعالى: " قد فرض الله لكم تحلَّة أيمانكم " أنه كانت منه يمين.

فإن قلت: هل كفّر رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قلت: عن الحسن: أنه لم يُكفّر لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنما هو تعليم للمؤمنين.

وعن مقاتل: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية " والله مولاكم " سيدكم ومتولي أموركم " وهو العليم " بما يصلحكم فيشرعه لكم " الحكيم " فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة.

وقيل: مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم.

{وإذ أسرَّ النَّبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبَّأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعضٍ فلمَّا نبَّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبَّأني العليم الخبير} بعض أزواجه " حفصة.

والحديث الذي أسر إليها: حديث مارية وإمامة الشيخين " نبّأت به " أفشته إلى عائشة.

وقرئ: " أنبأت " به " وأظهره " وأطلع النبي عليه السلام " عليه " على الحديث أي: على إفشائه على لسان جبريل.

وقيل: أظهر الله الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم من الظهور " عرّف بعضه " أعلم ببعض الحديث تكرماً.

قال سفيان: مازال التغافل من فعل الكرام.

وقرئ: " عرف بعضه " أي: جاز عليه من قولك للمسيء: لأعرفن لك ذلك وقد عرفت ما صنعت.

ومنه: أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم وهو كثير في القرآن وكان جزاؤه تطليقه إياها.

وقيل: المعرف: حديث الإمامة والمعرض عنه: حديث مارية: وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لها: ألم أقل لك اكتمي عليّ قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباها.

فإن قلت: هلا قيل: فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضه قلت: ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعرف وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرمه وحلمه لم يوجدمنه إلا الإعلام ببعضه وهو حديث الإمامة.

ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله: " فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا " ذكر المنبأ.

كيف أتى بضميره.

{إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير} "إن تتوبا " خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما.

وعن ابن عباس: 211 لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة فسكبت الماء على يده فتوضأ فقلت: من هما فقال: عجباً يا ابن عباس - كأنه كره ما سألته عنه - ثم قال: هما حفصة وعائشة " فقد صغت قلوبكما " فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه.

وقرأ ابن مسعود: " فقد زاغت " " وإن تعاونا " عليه " بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره فلن يعدم هو من يظاهره وكيف يعدم المظاهر من الله " مولاه " أي وليه وناصره وزيادة " هو " إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه وأن يتولى ذلك بذاته " وجبريل " رأس الكروبيين وقرن ذكره بذكره مفرداً له من بين الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمكانته عنده " وصالح المؤمنين " ومن صلح من المؤمنين يعني: كُل من آمن وعمل صالحاً.

وعن سعيد بن جبير: من برئ منهم من النفاق.

وقيل: الأنبياء وقيل: الصحابة.

وقيل: الخلفاء منهم.

فإن قلت: صالح المؤمنين واحد أم جمع قلت: هو واحد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد الجنس كقولك: لا يفعله من صلح منهم.

ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر.

ويجوز أن يكون أصله: صالحوا المؤمنين بالواو فكتب بغير واو على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه كما جاءت أشياءُ في المصحف متبوعٌ فيها حكم اللفظ دون وضع الخط " والملائكة " على تكاثر عددهم وامتلاء السماوات من جموعهم " بعد ذلك " بعد نصرة الله وناموسه وصالحي المؤمنين " ظهيرٌ " فوج مظاهر له كأنهم يدٌ واحدةٌ على من يعاديه فما يبلغ تظاهر امرأتين علي من هؤلاء ظهراؤه فإن قلت: قوله: " بعد ذلك " تعظيم الملائكة ومظاهرتهم

وقد تقدمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ونصرة الله تعالى أعظم وأعظم.

قلت: مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله فكأنه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى لفضلهم على جميع خلقه.

وقرئ: " تظاهرا " وتتظاهرا.

وتظهرا.

" عسى ربه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنَّ مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ وأبكارا.

" قرئ: " يبدله " بالتخفيف والتشديد للكثرة " مسلماتٍ مؤمناتٍ " مقرَّاتٍ مخلصاتٍ " سائحاتٍ " صائماتٍ.

وقرئ: " سيِّحاتٍ " وهي أبلغ.

وقيل للصائم: سائح لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره.

وقيل: سائحاتٍ مهاجراتٍ وعن زيد بن أسلم: لم تكن في هذه الأمة سياحةٌ إلا الهجرة.

فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيراً منهن ولم تكن على وجه الأرض نساءٌ خيرٌ من أمهات المؤمنين قلت: إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والنزول على هواه

ورضاه خيراً منهن وقد عرض بذلك في قوله: " قانتاتٍ " لأن القنوت هو القيام بطاعة الله وطاعة الله في طاعة رسوله.

فإن قلت: لما أخليت الصفات كله عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات فلم يكن بدٌّ من الواو.

{يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون} "قوا أنفسكم " بترك المعاصي وفعل الطاعات " وأهليكم " بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم.

وفي الحديث: 212 " رحم الله رجلاً قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعهم معه في الجنة " وقيل: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله.

وقرئ: " وأهلوكم " عطفاً على واو " قوا " وحسن العطف للفاصل.

فإن قلت: أليس التقدير: قوا أنفسكم وليقِ أهلوكم أنفسكم قلت: لا ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده فكأنه قيل: قوا إنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب " ناراً

وقودها الناس والحجارة " نوعاً من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي حجارة الكبريت وهي أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها.

وقرئ: " وقودها " بالضم أي ذو وقودها " عليها " يلي أمرها وتعذيب أهلها " ملائكةٌ " يعني الزبانية التسعة عشر وأعوانهم " غلاظٌ شدادٌ " في أجرامهم غلظة وشدة أي: جفاءٌ وقوة.

أو في أفعالهم جفاءٌ وخشونة لاتأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه " ما أمرهم " في محل النصب على البدل أي: لا يعصون ما أمر الله.

أي: أمره كقوله تعالى: " أفعصيت أمري " طه: 93 أو لا يعصونه فيما أمرهم.

فإن قلت: أليست الجملتان في معنى واحد قلت: لا فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبهونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه.

فإن قلت: قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى: " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة " البقرة: 24 وقال: " أعدت للكافرين " البقرة: 24 فجعلها معدةً للكافرين فما معنى مخاطبته به بالمؤمنين قلت: الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فإنهم مساكنون الكفار في دارٍ واحدة فقيل للذين آمنوا: قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدت لهم هذه النار الموصوفة.

ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد والندم على الدخول في الإسلام وأن يكون خطاباً للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره " يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون.

" أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا لأنه لا عذر لكم.

أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

{يا أيُّها الَّذين أمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النَّبيَّ والَّذين أمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كُلِّ شيءٍ قدير} "توبة نصوحاً " وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازى والنصح: صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات وذلك: أن يتوبوا على القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين أشد الاغتمام لا رتكابها عازمين على انهم لا يعودون في قبيح من البائح إلى أن يعود اللبن في الضرع موطنين أنفسهم على ذلك.

وعن علي رضي الله تعالى عنه: انه سمع أعرابياً يقول: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك فقال: يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين.

قال: وما التوبة قال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب: الندامة وللفرائض: الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وان تعزم على أن لاتعود

وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي.

وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه.

وعن شهر بن حوشب: أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار.

وعن ابن السماك: أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك.

وقيل: توبة لا يتاب منها.

وعن السدي: لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله.

وقيل: نصوحاً من نصاحة الثوب أي: توبة ترفو خروقك في دينك وترم خلك.

زقيل: خالصة من قولهم: عسل ناصح إذا خلص من الشمع.

ويجوز أن يراد: توبة تنصح الناس أي: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها.

وقرأ زيد بن علي توبا نصوحا وقرئ: نصوحا بالضم وهو مصدر نصح.

والنصح والنصوح كالشكر والشكور والكفر والكفور أي: ذات نصوح.

أو تنصح نصوحاً.

أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له " عسى ربكم " إطماع من الله لعبادة وفيه وجان احدهما: ان يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل.

ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت.

والثاني: أن يجيء به تعليماً للعباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء والذي يدل على المعنى الأول وأنه في معنى البت: قراءة ابن أبي عبلة:

ويدخلكم بالجزم عطفاً على محل عسى أن يكفر كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيآتكم ويدخلكم " يوم لا يخزى الله " نصب بيدخلكم ولا يخزي: تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم " يسعى نورهم " على الصراط " أتمم لنا نورنا " قال ابن عباس: يقولون ذلك إذا طفىء نور المنافقين إشفاقاً.

وعن الحسن: الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقرباً إلى الله كقوله تعالى: " واستغفر لذنبك " غافر: 55 وهومغفور له.

وقيل: يقوله أدناهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطىء أقدامهم لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً.

وقيل: السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفاً فأولئك الذين يقولون: " ربنا أتمم لنا نورنا " فإن قلت: كيف يشفقون والمؤمنون آمنون " أم من يأتي آمنا يوم القيامة " فصلت: 40.

" لا خوف عليهم " يونس: 62 " لا يحزنهم الفزع الأكبر " الأنبياء: 103 أو كيف يتقربون وليست الدار دار تقرب قلت: أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين المن.

واما التقرب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة: سماه تقربا.

{يا أيها النبى جهد الكفار والمنفقين واغلظ عليهم ومأويهم جهنم وبئس المصير}" جهد الكفار " بالسيف " والمنفقين " بالاحتجاج واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة.

وعن قتادة: مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم.

وعن مجاهد: بالوعيد.

وقيل: بإفشاء أسرارهم.

" ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوطٍ كانتا تحت عبدين من عبادنا صلحين فخانتا هما فلم يغيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الدخلين " مثل الله عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله " وقيل " لهما عند موتهما أو يوم القيامة: " ادخلا النار مع " سائر " الداخلين " الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط.

ومثل حال المؤمنين - في أن وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق

بالكلمة العظمى ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً.

وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر.

ونحوه في التغليظ قوله تعالى {ومن كفر فإن الله غني عن العالمين} وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وان لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإن ذلك الفضل لا ينفعها إلا مع كونهما مخلصتين و التعريض بحفصة

أرجج لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره.

فإن قلت ما فائدة قوله: " من عبادنا " قلت: لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في افنسان كائناً من كان وانه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله: قال عبدين من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانه لأن عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده.

فإن قلت: ما كانت خيانتهما قلت: نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين فأمرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون وامرأة لوط دلت على ضيفانه.

ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقاً وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما بغت امرأة نبي قط.

{وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظلمين ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القنتين " وامرأة فرعون: آسية بنت مزاحم.

وقيل: هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعذبها فرعون

عن أبي هريرة: أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحى على صدرها.

وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقي بروحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه.

وعن الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة: أريت بيتها في الجنة يبنى.

وقيل: إنه من درة.

وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة قلت طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولهم: " في الجنة " أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: " عندك ".

" من فرعون وعمله " من عمل فرعون.

أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم وخصوصاً من عمله وهو: الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم " ونجنى من القوم الظلمين " من القبط كلهم.

وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والآلتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل: من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين: " فافتح لنب وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين " الشعراء: 118 " ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين " يونس: 86.

" فيه " في الفرج.

وقرأ ابن مسعود: فيها كما قرئ في سورة الأنبياء والضمير للجملة وقد مر لي في هذا الظرف كلام.

ومن بدع التفاسير: أن الفرج هو جيب الدرع ومن أحصنته: منعته جبريل وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييباً لأنفسهن " وصدقت " قرئ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني: وصفتها بالصدق وهو معنى التصديق بعينه.

فإن قلت: فما في كلمات الله والكتبه قلت: يجوز أن يراد بكلماته: صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها وبكتبه: الكتب الأربعة وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم وجيمع ما كتبه في اللوح وغيره.

وقرئ: بكلمة الله وكتابه أي: بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل.

فإن قلت: لم قيل " من القنتين " على التذكير قلت: لن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على إناثه.

و " من " للتبعيض ويجوز أن يكون لا بتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم.

كمل من الرجل كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد.

وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وأما ما روي أن عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمى آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارة تنم عليه وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم وأسلم من ذلك.

عن رسول اله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً.

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية وتسمى: الواقية والمنجية لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر

بسم الله الرحمن الرحيم

{تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيءٍ قدير الذي خلق الموت والحيوة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ فأرجع

البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير} " تبارك " تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين " الذي بيده الملك " على كل موجود " وهو على كل " ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة " قدير " وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والتسلاء عليه.

والحياة: ما يصح بوجوده الإحساس.

وقيل: ما يوجب كون الشيء حياً وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر.

والموت عدم ذلك فيه ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه.

والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون " ليلبوكم " وسمى علم الواقع منهم باختبارهم بلوى وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر.

وحوه قوله تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم} محمد: 31.

فإن قلت: من أين تعلق قوله: " أيكم أحسن عملاً " بفعل البلوى قلت: من حيث أنه تضمن معنى العلم فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملا وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملا أم هو كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوله كما تقول: علمته هو أحسن عملا.

فإن قلت: أتسمي هذا تعليقاً قلت: لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعاً كقولك: علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق.

ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدراً بحرف الإستفهام وغير مصدر به ولو كان تعليقاً لا فترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق.

وعلمت زيداً منطلقاً.

" احسن عملا ".

قيل: أخلصه وأصوبه لأنه إذا كان خالصاً غير صواب لم يقبل وكذلك إذا كان صواباً غير خالص فالخالص: أن يكون لوجه الله تعالى والصواب: أن يكون على السنة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فلما بلغ قوله: " أيكم أحسن عملا " قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله يعني: أيكم أتم عقلا عن الله وفهما لأغراضه والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه.

وقدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم " وهو العزيز " الغالب الذي لا يعجزه من أسماء العمل " الغفور " لمن تاب من أهل الإساءة " طباقاً " مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل: إذا خصفها طبقاً على طبق وهذا وصف بالمصدر.

أو على ذات طباق أو على: طوبقت طباقاً " من تفاوتٍ " وقرىء: من تفوت ومعنى البناءين واحد كقولهم: تظاهروا من نسائهم.

وتظهروا.

وتعاهدته وتعهدته أي: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض إنما هي مستوية مستقيمة

وحقيقة التفاوت: عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه.

ومنه قولهم: خلق متفاوت.

وفي نقيضه: متناصف.

فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها قلت: هي صفة مشايعة لقوله: " طباقاً " وأصلها: ما ترى فيهن من تفاوت فوضع مكان الضمير قوله " خلق الرحمن " تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت: وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب والخطاب في ما ترى للرسول أو لكل مخاطب.

وقوله تعالى: " فارجع البصر " متعلق به على معنى التسبيب أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهن ثم قال: " فارجع البصر " حتى يصح عندك ما أخبرت به المعانية ولا تبقى معك شبهة فيه " هل ترى من فطورٍ " من صدوع وشقوق: جمع فطر وهو الشق.

يقال: فطره فانفطر.

ومنه: فطر ناب البعير كما يقال: شق وبزل.

ومعناه: شق اللحم فطلع.

وأمره بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتتبعاً يلتمس عيباً وخللاً " ينقلب إليك " أي إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب بل يرجع إليك بالخسوء والحسور أي: بالبعد عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والقماءة وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد.

فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً برجعه كرتين اثنتين قلت: معنى التثنية التكرير بكثرة كقولك: لبيك وسعديك تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض وقولهم في المثل: دهدرين سعد القين من ذلك أي: باطلاً بعد باطل.

فإن قلت: فما معنى ثم ارجع قلت: أمره برجع البصر ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعاود ويعاود إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

" ولقد زينا السماء الدنيا بمصبيح وجعلها رجوما للشيطين وأعتدنا لهم عذاب السعير " " الدنيا " القربى لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها: السماء الدنيا منكم.

والمصابيح السرج سميت بها الكواكب والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها " بمصابيح " أي بأي مصابيح لا توازيها

مصابيحكم إضاءة وصممنا إلى ذلك منافع أخرى: أنا جعلناها رجوما لأعدائكم للشياكين الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر.

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدي بها.

فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف مالا علم له به وعن محمد بن كعب: في السماء والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة.

والرجوم: جمع رجم: وهو مصدر سمي به ما يرجم به.

ومعنى كونها مراجم للشياطين: أن الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة في الفلك على حالها.

وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقص.

وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب.

ومنهم من يخبله.

وقيل: معناه وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون.

" وأعتدنا لهم عذاب السعير " في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

{وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير إن الذين يخشون ربهم بالغيب}

{وللذين كفروا بربهم} أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم " عذاب جهنم " ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك.

وقرىء: عذاب جهنم بالنصب عطفاً على عذاب السعير " إذا ألقوا فيها " أي طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة يرمى به.

ومثله قوله تعالى: {حصب جهنم} الأنبياء: 98.

" سمعوا لها شهيقاً " إما لأهلها ممن طرحهم فيها.

أو من أنفسهم كقوله: " لهم فيها زفير وشهيق " هود: 106 وإما للنار تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق " وهي تفور " تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ويقولون: فلان يتميز غيظاً ويتقصف غضباً وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء: إذا وصفوه بالإفراط فيه.

ويجوز أن يراد: غيظ الزبانية " ألم يأتكم نذير " توبيخ يزدادون به عذاباً إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم.

وخزنتها: مالك وأعوانه من الزبانية " قالوا بلى " أعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثه الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة وإنما أتوا من قبل أنفسهم واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده.

فإن قلت: " إن أنتم إلا في ضلال كبير " من المخاطبون به قلت: هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين على أن النذير بمعنى الإنذار.

والمعنى: ألم يأتكم أهل نذير.

أو وصف منذورهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذاراً وكذلك " قد جاءنا نذير " ونظيره قوله تعالى: {إنا رسول رب العالمين} الشعراء: 16 أي حاملاً رسالته.

ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول: أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا.

أو أرادوا بالضلال الهلاك.

أو سموا عقاب الضلال باسمه.

أو من كلام الرسل لهم حكوه الخزنة أي قالوا لنا هذا فلم نقبله " لو كنا نسمع " الإنذار سماع طالبين للحق.

أي نعقله عقل متأملين.

وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل.

ومن بدع التفاسير: أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعبدهم وكأن من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة وعدة المبشرين من الصحابة: عشرة لم يضم إليهم حادي عشر وكأن من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين " بذنبهم " بكفرهم في تكذيبهم الرسل " فسحقاً " قرىء بالتخفيف والتثقيل أي: فبعداً لهم اعترفوا أو جحدوا فإن ذلك لا ينفعهم.

" وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار والإجهار.

ومعناه: ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما ثم أنه علله ب " إنه عليم بذات الصدور " أي بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها فكيف لا يعلم ما تكلم به.

ثم أنكر أن لا يحيط علماً بالمضمر والمسر والمجهر " من خلق " الأشياء وحاله أنه اللطيف الخبير المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن.

ويجوز أن يكون " من خلق " منصوباً بمعنى: ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله.

وروي أن المشركين كانوايتكلمون فيما بينهم بأشياء فيظهر الله رسوله عليها فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد فنبه الله على جهلهم.

فإن قلت: قدرت في " ألا يعلم " مفعولاً على معنى: ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق فهلا جعلته مثل قولهم: وهو يعطي ويمنع وهلا كان المعنى: ألا يكون عالماً من هو خالق لأن الخلق لا يصح إلا مع العلم قلت: أبت ذلك الحال التي هي قوله: " وهو اللطف الخبير " لأنك لو قلت: ألا يكون عالماً من هو خالق وهو اللطيف الخير: لم يكن معنى صحيحاً لأن ألا يعلم معتمد على الحال.

والشيء لا يوقت بنفسه فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء.

{هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رقه وإليه النشور " المشي في مناكبها: مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك}

وقيل: مناكبها جبالها.

قال الزجاج: معناه سهل لكم السلوك في جبالها فإذا أمكنم السلوك في جبالها فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل.

وقيل: جوانبها.

والمعنى: وإليه نشوركم فهو مسائلكم عن شكر ما انعم به عليكم.

{أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير " " من في السماء " فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه.

والثاني: أنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه وكانوا يدعونه من جهتها فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب كما تقول لبعَ المشبهة: أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل إذا رأيته يركب بعَ المعاصي " فستعلمون " قرئ: بالتاء والياء " كيف نذير " أي إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم " صفتٍ " باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها لأنهن إذا بسطتها صففن قوادمها صفاً " ويقبضن " ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

فإن قلت: لم قيل: ويقبضن ولم يقل: وقابضات قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها.

وأما القبض فطارئ على البسط للأستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح {ما يمسكهن إلا الرحمن} بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي وبنى الأجسام على شكل

وخصائص قد تأتى منها الجري في الجو " إنه بكل شئ بصير " يعلم كيف يخلق يدبر العجائب.

{أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرورٍ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتوٍ ونفورٍ} " أمن " يشار إليه من الجموع ويقال " هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون " الله إن أرسل عليكم عذابه " أمن " يشار إليه ويقال " هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه " وهذا على التقدير.

ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم فكأنهم الجند الناصر والرازق.

ونحوه قوله تعالى: " أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا " الأنبياء: 3.

" بل لجوأ في عتوٍ ونفورٍ " بل تمادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه.

{أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصر والأفئدة قليلاً ما تشكرون قل هو الذي ذراكم في الأرض}

يجعل أكب مطاوع " كبه " يقال: كببته فأكب من الغرائب والشواذ.

ونحوه: قشعت الريح السحاب فأقشع وما هو كذلك ولا شيء من بناء أفعل مطاوعاً ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه وإنما أكب من باب انفض وألأم ومعناه: دخل في الكب وصار ذا كب وكذلك أقشع السحاب: إذا دخل في القشع.

ومطاوع كب وقشع: انكب وانقشع.

فإن قلت ما معنى " يمشي مكياً على وجهه " وكيف قابل " يمشي سوياً على صراط مستقيم " قلت: معناه: يمشي معتسفاً في مكان معتاد غير مستو فيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكباً فحاله نقيض حال من يمشي سوياً أي: قائماً سالماً من العثور والخرور.

أو مستوي الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو.

ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وانه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له وهو مثل للمؤمن والكافر

وعن قتادة: الكافر أكب على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه.

وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام.

وبالسوي: رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين فلما رأوه} الضمير للوعد.

والزلفة: القرب وانتصابها على الحال أو الظرف أي: رأوه ذا زلفة أو مكاناً ذا زلفة {سيئت وجوه الذين كفروا} أي ساءت رؤية الوعد وجوههم: بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا وكما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب " وقيل " القائلون: الزبانية " تدعون " تفتعلون من الدعاء أي: تطلبون وتستعجلون به.

وقيل: هو من الدعوى أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون.

وقرئ: تدعون وعن بعض الزهاد: أنه تلاها في أول الليل في صلاته فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن تودي لصلاة الفجر ولعمري إنها لوقاذة لم تصور تلك الحالة وتأملها.

{قل أرء يتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} كان كفار مكة يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين: إما أن نهلك كما تتمنون فنقلب إلى الجنة او نرحم بالنصرة والإدلة للإسلام كما نرجو فأنتم ما تصنعون من يحيركم - وأنتم كافرون - من عذاب النار لا بد لكم منه يعني: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لا هلاك بعده وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه.

أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم والآخذين بحجزكم من النار وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم فإن المقتول على أيدينا هالك.

أو إن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم وإن رحمنا بالإيمان فيمن يجير من لا إيمان فيمن يجير من لا إيمان له.

{قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين} فإن قلت لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا قلت: لوقوع آمنا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

{قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين} " غوراً " غائراً ذاهباً في الأرض.

وعن الكلبي لا تناله الدلاء وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا.

وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجيء به الفؤوس والمعاول فذهب ماء عينيه نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته.

سورة ن

مكية وهي اثنان وخمسون آية

{ن والقلم وما يسطرون} قرئ: ن والقلم بالبيان والإدغام وبسكون النون وفتحها وكسرها كما في ص.

والمراد هذا الحرف من حروف المعجم: وأما قولهم: هو الدواة فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة من ان يكون جنساً أو علماً فإن كان جنساً فأين الإعراب والتنوين وغن كان علماً فأين الإعراب وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام.

فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنساً أن تجره وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة كأنه قيل: ودواة والقلم وإن كان علما أن تصرفه وتجره أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث وكذلك التفسير بالحوت: إما أن يراد نون من النينان أو يجعل علما للبهموت الذي يزعمون والتفسير باللوح من نور أو ذهب والنهر في الجنة نحو ذلك وأقسم بالقلم: تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف " وما يسطرون " وما يكتب من كتب وقيل ما يسطره الحفظة وما موصولة أو مصدرية ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في " يسطرون " لهم كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم.

أو وسطرهم ويراد بهم كل ما يسطر أو الحفظة.

{ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون}

فإن قلت: بم يتعلق الباء في " بنعمة ربك " وما محله قلت: يتعلق بمجنون منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً في قولك: أنت بنعمة الله عاقل مستوياً في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً وما ضرب زيد عمراً: تعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي.

والمعنى استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسداً وأنه من إنعام الله عليه بحصافة اعقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة " وإن لك " على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه " لأجراً " لثواباً " غير ممنون " غير مقطوع كقوله: " عطاء غير مجذوذ " هو: 1.

أو غير ممنون عليك به لأنه ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء وإنما الفواضل لا الأجور على الأعمال.

{وإنك لعلى خلقٍ عظيم} استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات من قومه وحسن مخالقته ومداراته لهم.

وقبل: هو الخلق الذي أمره اله تعالى به في قوله تعالى: " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " الأعراف: 199 وعن عائشة رضي الله عنها: أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كانت خلقه

{فستبصر ويبصرون بأيتكم المفتون} " المفتون " المجنون لأنه فتن: أي محن بالجنون.

أو لأن العرب يزعمون أنه من تخبيل الجن وهم الفتان للفتاك منهم والباء مزيدة.

أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود أي: بأيكم الجنون او بأي الفريقين منكم الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الإسم وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما وهذا كقوله تعالى: " سيعلمون غداً من الكذاب الأشر " القمر: 26.

{إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون} {إن ربك هو أعلم} بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله " وهو أعلم " بالعقلاء وهم المهتدون.

أو يكون وعبداً ووعداً وأنه أعلم بجزاء الفريقين " فلا تطع المكذبين " تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة وآلهتهم مدة ويكفوا عنه غوائلهم " لو تدهن " لو تلين وتصانع " فيدهنون " فإن قلت: لم رقع " فيدهنون " ولم ينصب بإضمار " أن " وهو جواب التمني قلت: قد عدل به إلى طريق آخر: وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي: فهم يدهنون كقوله تعالى: " فمن يؤمن بربه فلا يخاف " الجن: 13 على معنى: ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ.

او ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك.

قال سيبويه: وزعم هرون أنها في بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا.

{ولا تطع كل حلاف مهين همازٍ مشاء بنميم مناع للخير معتدٍ أثيم عتل بعد ذلك زنيمٍ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أسطير الأولين سنسمه على الخرطوم} " حلافٍ " كثير الحلف في الحق والباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف.

ومثله قوله تعالى: {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم} البقرة: 224.

" مهينٍ " من الناس " هماز " عياب طعان.

وعن الحسن.

يلوى شدقية في أقفية الناس " مشاء بنميم " مضرب نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم.

والنميم والنميمة: السعاية وأنشدني بعض العرب: تشببي تشبب النميمه تمشي بها زهرا إلى تميمه " مناع للخير " بخيل.

والخير: المال.

أو مناع أهله الخير وهو الإسلام فذكر الممنوع منه دون الممنوع كأنه قال: مناع من الخير.

قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي: كان موسراً وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم وللحمته: من أسلم منكم منعته رفدي عن ابن عباس.

وعنه: انه أبو جهل.

وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث.

وعن السدي: الأخنس بن شريق أصله في ثقيف وعداده في زهرة ولذلك قيل: زنيم " معتدٍ " مجاوز في الظلم حده " أثيمٍ " كثير الآثام " عتل " غليظ جاف من عتله: إذا قاده بعنف وغلظة " بعد ذلك " بعدما عدله من المثالب والنقائص " زنيم " دعي.

قال حسان: وأنت زنيم نيط في ءال هاشمٍ كما نيط خلف الراكب القدح الفرد وكان الوليد دعيا في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده.

وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها.

ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده و " بعد ذلك " نظير ثم في قوله: {ثم كان من الذين آمنوا} البلد: 17 وقرأ الحسن: عتل رفعاً على الذم وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك.

والزنيم: من الزنمة وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها لأنه زيادة معلقة بغير أهله " أن كان ذا مال " متعلق بقوله: " ولا تطع " يعني ولا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال.

أي: ليساره وحظه من الدنيا.

ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى: لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين كذب آياتنا ولا يعمل فيه: قال " الذي هو جواب إذا لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب.

وقرئ: أأن كان على الاستفهام على: إلا لأن كان ذا مال وبنين كذب.

أو اتطيعه لأن كان ذا مال.

وروى الزبيري عن نافع: إن كان بالكسر والشرط للمخاطب أي: لا تطع كل حلاف شارطاً يساره لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى: " لعله يتذكر " طه: 44 الوجه: اكرم موضع في الجسد والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة.

وقالوا الأنف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين.

وقالوا في الذليل: جدع أنفه ورغم أنفه فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة لن السمة على الوجه شين وإذالة فكيف بها على اكرم موضع منه ولقد: وسم العباس أبا عره في وجهها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكرموا الوجوه فوسمها في جواعرها وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة.

وقيل معناه: سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة كما عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة بان بها عنهم.

وقيل: خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه.

وقيل: سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعاً فلا تخفى كما لا تخفى السمة على الخرطوم.

وعن النضر بن شميل:

ان الخرطوم الخمر وأن معناه: سنحده على شربها وهو تعسف.

وقيل للخمر: الخرطوم كما قيل لها: السلافة.

وهي ما سلف من عصير العنب.

أو لأنها تطير في الخياشيم.

" إنا بلوناهم كما بلونآ أصحب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين ان على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حردٍ قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحن ربنا إنا ظالمين فأقبل بعضهم يتلوامون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً إنا إلى ربنا راغبون كذلك العذاب الأخرة اكبر لو كانوا يعلمون " إنا بلونا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله صلى اله عليه وسلم عليهم " كما بلونا أصحب الجنة " وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكداس وما أخطأه القطاف من العنب وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت فكان يجتمع لهم شيء كثير فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال فحلفوا ليصرمنها مصبحين في السدف خفية عن المساكين ولم يستثنوا في يمينهم فأحرق الله جنتهم.

وقيل: كانوا من بني إسرائيل " مصبحين " داهلين في الصبح مبكرين " ولا يستثنون " ولا يقولون إن شاء الله.

فإن قلت: لم سمي استثناء وإنما هو شرط قلت: لنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث إن معنى قولك: لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله.

واحد " فطاف عليها " بلاء أو هلاك " طائف " كقوله تعالى: " وأحيط بثمره " الكهف: 42 وقرئ: طيف " فأصبحت كالصريم " كالمصرومة لهلاك ثمرها.

وقيل: الصريم الليل أي.

احترقت فاسودت.

وقيل: النهار أي: يبست وذهبت خضرتها.

أو لم يبق فيها شيء من قولهم: بيض الإناء إذا فرغة.

وقيل الصريم الرمال " صارمين " حاصدين.

فغن قلت: هلا قيل: اغدوا إلى حرثكم وما معنعلى قلت: لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه: كان غدوا عليه كما تقول: غدا عليهم العدو.

ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال كقولهم: يغدى عليه بالجفنة ويراح أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين " يتخافتون " يتسارون فيما بينهم.

وخفى وخفت وخفد: ثلاثتها في معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش " أن لا يدخلنها " أن مفسرة.

وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول أي يتخافتون يقولون لا يدخلنها والنهي عن الدخول للمسكين نهي لهم عن تمكينه منه أي: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك: لا أرينك ههنا.

الحرد: من حردت السنة إذا منعت خيرها وحردت الإبل إذا منعت درها.

والمعنى: وغدوا قادرين على نكد لا غير عاجزين عن النفع يعني أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان وذلك انهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة.

أو وغدوا على محارة جنتهم وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها أي: غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع أو لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم: عاقبهم الله بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد.

و " قادرين " من عكس الكلام للتهكم أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين وعلى حرد ليس بصلة قادرين وقيل: الحرد بمعنى الحرد.

وقرئ: على حرد أي لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض كقوله تعالى: " يتلاومون " القلم: 30 وقيل: الحرد القصد والسرعة يقال: حردت حردك.

وقال: أقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغلة وقطا حراد: سراع يعني: وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون: نحن نقدر على صرامها وزي منفعتها عن المساكين.

وقيل: " حردٍ " علم للجنة أي غدواً على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم.

أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان " قالوا " في بديهة وصولهم " إنا لضالون " أي ضللنا جنتا وما هي بها لما رأوا من هلاكها فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: " بل نحن محرومون " حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا " أو سطهم " أعدلهم وخيرهم من قولهم: هو من سطة قومه وأعطني من سطات مالك.

ومنه قوله تعالى: {أمة وسطا} البقرة: 143.

{لولا تسبحون} لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم كأن أو سطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا اله وانتقامه من المجرمين وتربوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فعيرهم.

والدليل عليه قولهم: " سبحان ربنا إنا كنا ظالمين " فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ولكن بعد خراب البصرة.

وقيل: المراد بالتسبيح.

الاستثناء لا لتقائهما في معنى التعظيم لله لأن الاستثناء تفويض إليه والتسبيح تنزيه له وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم.

وعن الحسن: هو الصلاة كأنهم كانوا يتوانون في الصلاة وإلا لنهتهم عن الفحشاء والمنكر ولكانت لهم لطفاً في أن يستثنوا ولا يحرموا " سبحان ربنا " سبحوا الله ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح ثم اعترفوا بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء " يتلاومون " يلوم بعضهم بعضاً لأن منهم من زين ومنهم من قبل ومنهم من أمر بالكف وعذر ومنهم من عصى الأمر ومنهم من سكت وهو راض " أن يبدلنا " قرئ بالتشديد والتخفيف " إلى ربنا راغبون " طالبون منه الخير راجون لعفوه " كذالك العذاب " مثل العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا " ولعذاب الأخرة " أشد وأعظم منه وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار فقال: لقد كلفتني تعباً.

وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيراً منها.

وروي عن ابن نسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم با جنة يقال لها الحيوان: فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً.

{إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم} " عند ربهم " أي في الآخرة " جنات النعيم " ليس فيها إلا التنعم الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنان الدنيا.

{أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم فيه لما تخيرون أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون " كان صناديد قريش يرون وفور حطهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا فقيل: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين.

ثم قيل لهم على طريقة الالتفات " ما لكم كيف تحكمون " هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم " أم أنكم كتاب " من السماء " تدرسون " في ذلك الكتاب أن ما تختارونه وتشتهونه لكم كقوله تعالى: " أم لكم سلطان مبن فأتوا بكتابكم " الصافات: 156 - 157 والأصل تدرسون أن لكم ما تخيرون بفتح أن لأنه مدروس فلما جاءت اللام كسرت.

ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو كقوله: " وتركنا عليه في الأخرين سلم على نوح في العالمين " الصافات: 8 - 79.

وتخير الشيء واختاره: أخذ خيره ونحوه: تنخله وانتخله: إذا أخذ منخوله ز لفلان علي يمين بكذا: إذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به يعني: ام ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد فإن قلت: بم يتعلق " إلى يوم القيامة " قلت: بالمقر في الظروف أي: هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها إلا يومئذٍ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمونز ويجوز أن يتعلق ببالغة على أنها تبلغ ذلكم اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم.

وقرأالحسن بالغة بالنصب على الحال من الضمير في الظروف " إن لكم لما تحكمون " جواب القسم لأن معنى " أم لكم أيمن علينا " أم أقسمنا لكم.

" أيهم بذلك زعيم أم لهم شركاء فلياتوا بشركائهم إن كانوا صادقين " " أييهم بذلك " الحكم " زعيم " أي قائم به وبالاحتجاج لصحته كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم " أم لهم شركاء " أي ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه " فليأتوا " بهم " عن كانوا صادقين " في دعواهم يعني: أن احداً لا يسلم لهم

هذا ولا يساعدهم عليه كما انه لا كتاب لهم ينطق به ولا عهد لهم به عند الله ولا زعيم لهم يقوم به.

" يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خشعة أبصرهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون " الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام: مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب وابداء خدامهن عند ذلك.

قال حاتم: أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا وقال ابن الرقيات: تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العذراء فمعنى " يؤم يكشف عن ساقٍ " في معنى: يوم يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيحً: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل.

وأما من شبه يكشف الرحمن عن ساقه فأما المؤمنون فيخرون سجداً وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأن فيها سفافيد ومعناه: يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله وهو الفزع الأكبر يوم القيامة ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن.

فإن قلت: فلم جاءت منكرة في التمثيل قلت: للدلالة على انه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف كقوله: {يوم يدع الداع إلى شيء نكر} القمر: 6 كأنه قيل: يوم يقع أمر فظيع هائل ويحكى هذا التشبيه عن مقاتل: وعن أبي عبيدة: خرج من خراسان رجلان أحدهما: شبه حتى مثل وهو مقاتل بن سليمان والآخر نفي حتى عطل وهو جهم بن صفوان ومن أحسن بعظم مضار فقد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه.

وقرئ: يوم نكشف بالنون.

وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال أي: يوم تشتد الحال أو لساعة كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز.

وقرئ: نكشف يالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف: إذا دخل في الكشف.

ومنه.

أكشف الرجل فهو مكشف إذا انقلبت شفته العليا.

وناصب الظرف: فليأتوا.

أو إضمار اذكر أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ.

وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه: تعقم أصلابهم أي ترد عظاماً بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع

والخفض.

وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً أي فقارة واحدة.

فإن قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف قلت: لا يدعون إليه تعبداً وتكليفا ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيراً لهم وتنديماً على ما فرطوا فيه حين دعوا إلى السجود وهم سالمون الأصلاب والمفاصليمكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

{فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين " يقال: ذرني وإياه يريدون كله إلي فإني أكفيه كأنه يقول: حسبك إيقاعاً به أن تكل أمره إلي وتخلي بيني وبينه فإني عامل بما يجب أن يفعل به مطبق له والمراد: حسبي مجازياً لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل علي في الانتقام منه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديداً للمكذبين.

استدرجه إلى كذا: إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيهز واستدراج الله العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلوا رزق الله ذريعة ومتسلقا إلى ازياد الكفر والمعاصي " من حيث لا يعلمون " أي: من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه إيثاراً لهم وتفضيلاً على المؤمنين وهو سبب لهلاكهم {وأملي لهم}.

وأمهلهم كقوله تعالى: {إنما نملي لهم ليزدادوا إثما} آل عمران: 178 والصحة والرزق والمد في العمر: إحسان من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة ولكنهم يجعلونه سبباً في الكفر باختيارهم فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج.

وقيل: كم من مستدرج بالإحسان إليه وكم من مفتون بالثناء عليه وكم من مغرور بالستر عليه.

وسمي إحسانه وتمكينه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً للتورط في الهلكة ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك.

{أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون} المغرم: الغرامة أي لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان " أم عندهم الغيب " أي اللوح " فهم يكتبون " منه ما يحكمون به.

{فأصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لو لا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجفاجتباه ربه فجعله من الصالحين " " لحكم ربك " وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم " ولا تكن كصاحب الحوت " يعني: يونس عليه السلام " إذ نادى " في بطن الحوت " وهو مكظوم " مملوء غيظاً من كظم السقاء إذا ملأه والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود: تداركته.

وقرأ الحسن: تداركه أي تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى: لولا أن كان يقال فيه تتداركه كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان أي كان يقال فيه سيقوم.

والمعنى: كان متوقعاً منه القيام.

ونعمة ربه: أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه.

وقد اعتمد في جواب لولا على الحال أعني قوله: " وهو مذموم " يعني أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ولولا توبته لكانت حاله على الذم.

روي أنها نزلت بأحد برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل به فأراد أن يدعو على الذين انهزموا.

وقيل: حين أراد أن يدعو ثقيف.

وقرئ: رحمة من ربه " فأجتباه ربه " فجمعه إليه وقربه بالتوبة عليه كمال قال: " ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى " طه: 122 " فجعله من الصالحين " أي من الأنبياء.

وعن ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في نفسه وقومه.

{وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصرهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين} إن مخففة من الثقيلة واللام علمها.

وقرئ ليزلقونك بضم الياء وفتحها.

وزلقه وأزلقة بمعنى: ويقال: زلق الرأس وأزلقه: حلقه: وقرئ ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك وقولهم: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ويكاد يأكلني أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله.

قال: يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزل بمواطئ الأقدام وقيل: كانت العين في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عانه فأريد بعض العيانين على أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فقال: لم أر كاليوم رجلا فعصعه الله.

وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية " لما سمعوا الذكر " أي القرآن لم يملكوا أنفسهم حسدا على ما أوتيت من النبوة {ويقولون إنه لمجنون} حيرة في أمره وتنفيرا عنه وإلا فقد علموا أنه أعقلهم.

والمعنى: أنهم جننوه لأجل القرآن {وما هو إلا ذكر} وموعظة " للعالمين " فكيف يجنن من جاء بمثله.

عن رسول الله صلى اله عليه وسلم: من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم.

سورة الحاقة

مكية وآياتها 52

بسم الله الرحمن الرحيم

{الحاقة ما الحاقة وما أدرتك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتيةٍ سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوما

فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية فهل ترى لهم من باقيةٍ} " الحاقة " الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المحيء التي هي آتية لا ريب فيها.

أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب.

أو التي تحق فيها الأمور أي: تعرف على الحقيقة من قولك لا أحق هذا أي: لا أعرف حقيقته.

جعل الفعل لها وهو لأهلها وارتفاعها على الابتداء وخبرها " ما الحاقة " والأصل: الحاقة ما هي أي أي شيء هي تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها " وما أدراك " وأي شيء أعلمك ما الحاقة يعني: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها عى أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك وما في موضع الرفع على الابتداء.

و " أدراك " معلق عنه لتضمنه معنى الا ستفهام القارعة التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال والسماء بالانشقاق والإنفطار والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار.

ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع.

في الحاقة: زيادة في وصف شدتها ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم " بالطاغية " بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة.

واختلف فيها فقيل: الرجفة.

وعن ابن عباس: الصعقة.

وعن قتادة: بعث الله عليهم صيحة فأهمدتهم.

وقيل: الطاغية مصدر كالعافية أي: بطغيانهم وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله " بريح صرصر " والصرصر: الشديدة الصوت لها صرصرة.

وقيل: الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر: فهي تحرق لشدة بردها " عاتية " شديدة العصف والعتو استعارة.

أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم.

وقيل: عنت على خزانها فخرجت بلا كسل ولا وزن: وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أرسل الله سفينة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل ثم قرأ: " إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية " الحاقة: 11 وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ " بريح صرصرٍ عاتية " ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها.

الحسوم: لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود.

أو مصدراً كالشكور والكفور فإن كان جمعاً فمعنى قوله: " حسوماً " نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة.

أو متتابعة هبوب الرياح: ما خفت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم.

وإن كان مصدراً: فإما أن ينتصب بفعله مضمراً أي: تحسم حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً.

أو يكون صفة كقولك: ذات حسوم.

أو يكون مفعولاً له أي: سخرها عليهم للاستئصال.

وقال عبد العزيز بن زارة الكلابي: ففرق بين بينهم زمان تتابع فيه أعوام حسوم وقرأ السدي حسوماً بالفتح حالاً من الريح أي: سخرها عليهم مستأصلة.

وقيل: هي أيام العجوز وذلك أن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها.

وقيل: هي أيام العجز وهي آخر الشتاء: وأسماؤها: الصن والصنبر والوبر.

والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفئ الجمر.

وقيل: مكفئ الظعن ومعنى " سخرها عليهم " سلطها عليهم كما شاء " فيها " في مهابها.

أو في الليالي والأيام.

وقرئ: أعجاز نخيل " من باقيةٍ " من بقية أو من نفس باقية.

أو من بقاء كالطاغية: بمعنى الطغيان.

" ومن قبله " يريد: ومن عنده من تباعه.

وقرئ: ومن قبله أي: ومن تقدمه.

وتعضد الأولى قراءة عبد الله وأي ومن معه وقراءة أبي موسى: ومن تلقاءه " والمؤتفكات " قرى قوم لوط " بالخاطئة " بالخطأ.

أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ العظيم " رابيةً " شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح.

يقال: ربا الشيء يربو: إذا زاد " ليربو في أموال الناس " الروم: 39.

{إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية} " حملناكم " حملنا آباءكم " في الجارية " في سفينة لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين كان حمل آبائهم منة عليهم وكأنهم هم المحمولون لأن نجاتهم سبب ولا دتهم " لنجعلها " الضمير للفعلة: وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة " تذكرة " عظة وعبرة " أذن واعية "

من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته وما حفظته في غير نفسك فقد أوعيته كقولك: وعيت الشيء في الظرف.

وعن النبي وصلى الله عليه وسلم.

أنه قال لعلي رضي الله عنه عند نزول هذه الآية: سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي قال علي رضي الله عنه: فما نسيت شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى.

فإن قلت: لم قيل: أذن واعية وعلى التوحيد والتنكير قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله وأن ما سواها لايبالي بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين.

وقرئ: وتعيها بسكون العين للتخفيف: شبه تعي بكيد.

{فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذٍ وقعت الواقعة وانشقت السماء وهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية} أسند الفعل إلى المصدر وحسن تذكيره للفصل.

وقرأ أبو السمال نفخة واحدة بالنصب مسنداً للفعل إلى الجار والمجرور.

فإن قلت: هما نفختان فلم قيل: واحدة قلت معناه أنها لا تثنى في وقتها.

فإن قلت: فأي النفختين هي قلت الأولى لأن عندها فساد العالم وهكذا الرواية عن ابن عباس.

وقد روي عنه أنها الثانية.

فإن قلت: أما قال بعد " يومئذ تعرضون " والعرض إنما هو عند النفخة الثانية قلت: جعل اليوم إسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب فلذلك قيل: " يومئذٍ تعرضون " كما تقول: جئته عام كذا وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته " وحملت " ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال.

أو بخلق من الملائكة.

أو بقدرة الله من غير سبب.

وقرئ: وحملت بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة " فدكتا " فدكت الجملتان: جملة الأرضين وجملة الجبال فضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيباً مهيلا وهباء منبثاً والدك أبلغ من الدق.

وقيل: فبسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا من قولك: اندك السنام إذا انفرش وبعير أدك وناقة دكاء.

ومنه: الدكان " فيومئذ وقعت الواقعة " فحينئذ نزلت النازلة وهي القيامة " واهية " مسترخية ساقطة القوة جداً بعد ما كانت محكمة مستمسكة.

بريد: والخلق الذي يقال له الملك ورد إليه الضمير مجموعاً في قوله: " فوقهم " على المعنى: فإن قلت: ما الفرق بين قوله: " والملك " وبين أن يقال والملائكة قلت: الملك أعم منالملائكة ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة " على أرجائها " على جوانبها: الواحد رجا مقصور يعني: أنها تنشق وهي مسكن الملائكة فينضوون إلى أطرافها وما حولها من حافاتها " ثمانية " أي: ثمانية منهم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية وروي: ثمانية أملاك: أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤوسهم وهم مطرقون مسبحون.

وقيل: بعضهم على صورة الإنسان وبعضهم على صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور

وبعضهم على صورة النسر.

وروي: ثمانية أملاك في خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها: مسيرة سبعين عاماً.

وعن شهر بن حوشب: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك.

وعن الحسن: الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف وعن الضحاك: ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله.

ويجوز أن تكون الثمانية من الروح أو من خلق آخر فهو القادر على كل خلق " سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون " يس: 36.

العرض: عبارة عن المحاسبة والمساءلة.

شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله.

وروى أن في يوم القيامة ثلاث عرضات.

فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله " خافية " سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم.

{فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه فهو في عيشةٍ راضيةٍ في جنةٍ عاليةٍ قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} " فأما " تفصيل للعرض: هاء: صوت يصوت به فيفهم منه معنى خذ كأف وحس وما أشبه ذلك.

و " كتابيه " منصوب بهاؤم عند الكوفيين وعند البصريين باقرؤا لأنه أقرب العاملين.

ونظيره " آتوني أفرغ عليه قطراً " الكهف: 96 قالوا: ولو كان العامل الأول لقيل: اقرؤه وأفرغه والهاء في " كتابيه " للسكت وكذلك في " حسابية " و " مالية " و " سلطانيه " وحق هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل وقد استحب إيثار الوقف إيثاراً لثباتها في المصحف.

وقيل: لا بأس بالوصل والإسقاط.

وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغيرهاء.

وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعاً لا تباع المصحف " ظننت " علمت.

وإنما أجري الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام.

ويقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت " راضيةٍ " منسوبة إلى الرضا كالدارع والنابل.

والنسبة نسبتان: نسبة بالحرف ونسبة بالحرف ونسبة بالصيغة.

أو جعل الفعل لها مجازاً وهو لصاحبها " عاليةٍ " مرتفعة المكان في السماء.

أو رفيعة الدرجات.

أو رفيعة المباني والقصور والأشجار " دانية " ينالها القاعد والنائم.

يقال لهم " كلوا واشربوا هنيئاً " أكلا وشراباً هنيئاً.

أو هنيتم هنيئاً على المصدر " بما أسلفتم " بما قدمتم من الأعمال الصالحة " في الايام الخالية " الماضية من أيام الدنيا.

وعن مجاهد: أيام الصيام أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله.

وروي يقول الله عز وجل: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا وأشربوا هنيئاً

{وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عني مالية هلك عني سلطانيه} الضمير في " ياليتها " للموتة: يقول: يا ليت الموتة التي منها " كانت القاضية " أي القاطعة لأمري فلم أبعث بعدها ولم ما ألقى.

أو للحالة أي: ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علي لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها " ما أغنى " نفي أو استفهام على وجه الإنكار أي: أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار " هلك عنى سلطانيه " ملكي وتسلطي على الناس وبقيتفقيراً ذليلاً.

وعن عبن عباس: انها نزلت في الأسود بن عبد الأشد.

وعن فناخسرو الملقب بالعضد أنه لما قال: عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية.

وقال ابن عباس: ضلت عني حجتي.

ومعناه: بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا.

{خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلةٍ ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخطئون}" ثم الجحيم صلوه " ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس.

يقال: صلى النار وصلاه النار.

سلكه في السلسلة: أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثناؤها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة وجعلها سبعين ذراعاً إرادة الوصف بالطول كما قال: " إن تستغفر لهم سبعين مرة " التوبة: 80 يريد: مرات كثيرة لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد.

والمعنى في تقديم السلسلة على السلك: مثله في تقديم الجحيم على التصلية.

أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم.

ومعنى " ثم " الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم وما بينها وبين السلك في السلسلة لا على تراخي المدة إنه تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد فأجيب بذلك.

وفي قوله: " ولا يحصن على طعام المسكين " دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين أحدهما: عطفه على الكفر وجعله قرينة له.

والثاني: ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف يتارك الفعل وما أحسن قول القائل: إذا نزل الأضياف كان عذوراً على الحي حتى تستقل مراجله يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس علهم.

وعن أبي الدرداء أن كان يحض امرأته على كثير المرق لأجل المساكين وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر وقيل: هو منع الكفار.

وقولهم: " أنطعم من لو يشاء الله أطعمه " يس: 47 والمعنى على بذل طعام المسكين " حميم " قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه وفرون منه كقوله: " ولا يسأل حميم حميماً " المعارج: 10 والغسلين: غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم فعلين من الغسل " الخاطئون " الآثمون أصحاب الخطايا.

وخطئ الرجل: إذا تعمد الذنب وهم المشركون: عن ابن عباس: وقرئ: الخاطيون بإبدال الهمزة ياء والخاطون بطرحها.

وعن ابن عباس: ما الخاطون كلنا نخطو وروى عنه أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون إنما هو الخاطئون ما الصابون إنما هو الصابئون: ويجوز أن يراد: الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله.

{فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسولٍ كريم وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين} هو إقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة لأنها لا تخرج من قسمين: مبصر وغير مبصر وغير مبصر.

وقيل: الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجن والخلق والخالق ولنعم الظاهرة والباطنة إن هذا القرآن " لقول رسول كريم " أي يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله " وما هو بقول شاعر " ولا كاهن كما تدعون والقلة في معنى العدم.

أي: لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة.

والمعنى: ما أكفركم وما أغفلكم " تنزيل " أي: هو تنزيل.

بياناً لأنه قول رسول نزل عليه " من رب العالمين " وقرأ أبو السمال: تنزيلاً أي نزل تنزيلاً.

وقيل: الرسول الكريم جبريل عليه السلام.

وقوله: " وما هوبقول شاعر " دليل على أنه محمد صلى الله عليه وسلم: لأن المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ولا كاهن.

{ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمن ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين وإنه لتذكره للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم} التقول: افتعال القول لأن فيه تكلفاً من المفتعل وسمى الأقوال المتقولة أقاويل تصغيراً بها وتحقياً كقولك: الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أفعولة من القول والمعنى: ولو ادعى علينا شيئاً لم لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته.

وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه ومعنى {أخذنا منه باليمين} لأخذنا بيمينه كما أن قوله " لقطعنا منه الوتين " لقطعنا وتينه وهذا بين: نياط القلب وهو حبل الوريد: إذا قطع مات صاحبه.

وقرئ: ولو تقول على البناء للمفعول قيل " حجزين " في وصف أحد لأنه في معنى الجماعة وهو اسم يقع في النفي العام مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

ومنه قوله تعال: {لا نفرق بين أحد من رسله} البقرة: 285 {لستن كأحد من النساء} الأخراب: 32 والضمير في عنه للقتل أي: لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه.

أو لرسول الله أي: لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه والخطاب للناس وكذلك في قوله تعالى: {وإنا لنعلم أن منكم مكذبين} وهو إيعاد على التكذيب.

وقيل الخطاب للمسلمين.

والمعنى: أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن " وإنه " الضمير للقرآن " لحسرة " على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به.

أو للتكذيب وإن القرآن لليقين كقولك: هو لعالم حق العالم وجد العالم.

والمعنى: لعين اليقين ومض اليقين " فسبح " الله بذكر اسمه العظيم وهو قوله: سبحان الله واعبده شكراً على ما أهلك له من إيحائه إليك.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حساباً يسيراً.

سورة المعارج

مكية وآياتها أربع وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يومٍ كان مقداره خمسن ألف سنةٍ فأصبر صبراً جميلاً إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسئل حميم حميما يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تئويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى نزاعةً للشوى تدعوا من ادبر وتولى وجمع فأوعى} ضمن " سأل " معنى دعا فعدي تعديته كأنه قيل: دعا داع " بعذابٍ واقع " من قولك: دعا بكذا.

إذا استدعى وطلبه.

ومنه قوله تعالى: {يدعون فيها بكل فاكهة}: 55 وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

وقيل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل بعذاب للكافرين.

وقرئ: سال سائل وهو على وجهين: إما أن يكون من السؤال ةهي لغة قريش يقولون: سلت تسأل وهما يتسيلان وأن يكون من السيلان.

ويؤيده قراءة ابن عباس سال سيل والسيل: مصدر في معنى السئل كالغور بمعنى الغائر.

والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب فذهب بهم وأهلكهم.

وعن قتادة: سأل سائل عن عذاب الله على من ينزل وبمن يقع فنزلت وسأل على هذا الوجه مضمن معنى: عن واهتم فإن قلت: بم يتصل قوله: " للكافرين " قلت: هو على القول الأول متصل بعذاب صفة له أي: بعذاب واقع كائن للكافرين أو بالفعل أي: دعا للكافرين بعذاب واقع أو بواقع أي: بعذاب نازل لأجلهم وعلى الثاني: هو كلام مبتدأ جواب للسائل أي: هو للكافرين.

فإن قلت: فقوله " من الله " بم يتصل قلت: يتصل بواقع أي واقع من عنده أو بدافع بمعنى: ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه " ذى المعارج " ذي المصاعد جمع معرج ثم وصف المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع فقال: " تعرج الملائكة والروح إليه " إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره " في يومٍ كان مقداره " كمقدار مدة " خمسين ألف سنةٍ " مما يعد الناس والروح.

جبريل عليه السلام أفرده لتميزه بفضله.

وقيل: الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما أن الملائكة حفظة على الناس.

فإن قلت: بم يتعلق قوله " فاصبر " قلت: بسأل سائل لأن استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالوحي وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر عليه وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو فإنما سأل على طريق التعنت وكان من كفار مكة.

ومن قرأ: سال سائل أو سيل فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد شارفت الانتقام وقد جعل " في يومٍ " من صلة " واقع " أي: يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم وهو يوم القيامة: إما أن يكون استطالة له لشدته على الكفار وإما لأنه على الحقيقة كذلك.

قيل: فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر.

الضمير في " يرونه " للعذاب الواقع أو ليوم القيامة فيمن علق في يوم بواقع أي: يستبعدونه على جهة الإحالة نحن " نراه قريباً " هيناً في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر فالمراد بالبعيد: البعيد من الإمكان وبالقريب: القريب منه نصب " يوم تكون " بقريباً أي: يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم.

أو بإضمار يقع لدلالة واقع عليه أو يوم تكون السماء كالمهل.

كان كيت وكيت.

اوة هو بدل عن في يوم فيمن علقه بواقع " كالمهل " كدردي الزيت.

وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها " كالعهن " كالصوف المصبوغ أواناً لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف أوانها وغرابيب سود فإذا بست وطيرت في الجو: أشبهت العهن المنقوش إذا طيرته الريح " ولا يسئل حميم حميما " أي لا يسأله بكيف حالك ولا يكلمه لأن بكل أحد ما يشغله عن المساءلة " يبصرونهم " أي يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم فما يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضاً وإنما يمنعهم التشاغل: وقرئ: يبصرونهم وقرئ: ولا يسئل على البناء للمفعول أي: لا يقال لحميم أين حميمك ولا يطلب منه لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب.

فإن قلت: ما موقع يبصرونهم قلت: هو كلام مستأنف كأنه لما قال " ولا يسئل حميم حميما " قيل: لعله لا يبصره فقيل: يبصرونهم ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم.

فإن قلت: لم جمع الضميران في " يبصرونهم " وهما للحميمين قلت: المعنى على العموم لكل حميمن لا لحميمين اثنين.

ويجوز أن يكون " يبصرونهم " صفة أي: حميماً مبصرين معرفين إياهم.

قرئ: يومئذ بالجر والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن ومن عذاب يومئذ بتنوين عذاب ونصب " يومئذ " وانتصابه بعذابه بعذاب.

لأنه في معنى تعذيب " وفصيله " عشيرته الأدنون الذين فصل عنهم " تئويه " تضمه انتماء إليها او لياذاً بها في النوائب ينجيه " الافتداء. أو من في الأرض.

وثم: لا ستبعاد الإنجاء يعني: تمنى او كان هؤلاء جيمعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات أن ينجيه " كلآ " ردع للمجرم عن الودادة وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب ثم قال: " إنها " والضمير للنار ولم يجر لها ذكر لأن ذكر العذاب دل عليها.

ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر أو ضمير القصة.

و " لظى " علم للنار منقول من اللظى: بمعنى اللهب.

ويجوز أن يراد اللهب.

و " نزاعة " خبر بعد خبر لأن أو خبر للظى إن كانت الهاء ضمير القصة أو صفة له إن أردت اللهب والتأنيث لأنه في معنى النار.

أو رفع على التهويل أي: هي نزاعة بالنصب على الحال المؤكدة أو على أنها متلظية نزاعة أو على الاختصاص للتهويل.

والشوى: الأطراف أو جمع شواة: وهي جلدة الرأس تنزعها نزعاً فتبتكها ثم تعاد " تدعوا " مجاز عن إحضارهم كأنهم تدعوهم فتحضرهم.

ونحوه قول ذي الرمة: تدعو أنفه الربب وقوله: ليالى اللهو يطبيني فأتبعه وقول أبي النجم: تقول للرائد أعشبت انزل وقيل: تقول لهم: إلي إلي يا كافر يا منافق.

وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثم تلتقطهم التقاط الحب فيجوز أن يخلق الله فيها كلاماً كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم وكما خلقه في الشجرة ويجوز أن يكون دعاء الزبانية.

وقيل: تدعو تهلك من قول العرب: دعاك الله أي: أهلكك.

قال: " من أدبر " عن الحق " وتولى " عنه " وجمع " المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه وتشاغل به عن الدين وزهى باقتنائه وتكبر.

{إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دآئمون والذين في أموالهم حق معلوم للسآئل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمونٍ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جناتٍ مكرمون} أريد بالإنسان الناس فلذلك استثنى منه إلا المصلين.

والهلع: سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير.

وعن أحمد بن يحيى قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع فقلت: قد فسره الله ولا يكون تفسير أبين من تفسيره وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس والخير: المال والغنى والشر: الفقر.

أو الصحة والمرض: إذا صح الغني منع المعروف وسح بماله وإذا مرض جزع وأخذ يوصي.

ولمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه كأنه مجبول عليهما مطبوع وكأنه أمر خلقي وضروي غير اختياري كقوله تعالى: {خلق الإنسان من عجل} الأنبياء: 37 والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع ولأنه ذم من الله والله لا يذم فعله والدليل عليه: استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وظلفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم.

شر ما أعطي ابن آدم شح هالع وجبن خالع فإن قلت: كيف قال: " على صلاتهم دائمون " ثم على صلاتهم يحافظون قلت: معنى دوامهم عليها أن يواضبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشئ من الشواغل كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أفضل العمل أدومه وغن قل وقول عائشة: كان عمله ديمة.

ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكلموها بسنتها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها " حق معلوم " هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة.

السائل: الذي يسأل " والمحروم " الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم " يصدقون بيوم الدين " تصديقاً بأعمالهم واستعدادهم له ويشفقون من عذاب ربهم واعترض بقوله: " إن عذاب ربهم غير مأمون " أي لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه.

وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء.

قرئ: بشهادتهم وبشهاداتهم والشهادة من جملة الأمانات.

وخصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها.

وفي زيها: تضييعها وإبطالها.

{فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا إنا خلقناهم مما يعلمون فلا أقسم برب المشارق والمغرب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصبٍ يوفضون خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} كان المشركون يحتفون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه.

ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت " مهطعين " مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك " عزين " فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة كأن كل فرقة تعزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى: فهم مفترقون.

قال الكميت.

ونحن وجندل باغٍ تركنا**كتائب جندكٍ شتى عزيناً

وقيل: كان المستهزؤون خمسة أرهط " كلا " ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ثم علل ذلك

بقوله: {إنا خلقناهم مما يعلمون} إلى آخر السورة وهو كلام دال على إنكارهم البعث فكانه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء فمن أين يطمعون في دخول الجنة فإن قلت: من أي وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث قلت: من حيث إنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى كالا حتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل وذلك قوله: " خلقناهم مما يعلمون " أي من النطف وبالقدرة على ان يهلكهم ويبدل ناساً خيراً منهم وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة.

ويجوز أن يراد: إنا خلقناهم مما يعلمون أي: من النطفة المذرة وهي منصبهم الذي لا منصب أو ضع منه.

ولذلك أبهم وأخفى: إشعاراً بأنه منصب يستحيا من ذكره فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم.

وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل.

وقرئ: برب المشرق والمغرب ويخرجون ويخرجون ومن الأجداث سراعاً بالإظهار والإدغام

ونصب ونصب: وهو كل ما نصب فعبد من دون الله " يوفضون " يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون} " أن أنذر " أصله: بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل: وهي أن الناصبة للفعل والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له أنذر أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار.

ويجوز أن تكون مفسرة لأن الإرسال فيه معنى القول.

وقرأ ابن مسعود أنذر بغير أن على إرادة القول.

و " أن اعبدوا " نحو " أن أنذر " في الوجيهين.

فإن قلت: كيف قال " ويؤخركم " مع إخباره بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلا تناقض قلت: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة.

فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجسل مسمى أي: إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الألف ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن لكم حيلة فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

" قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاءى إلا فراراً وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصبعهم في ءاذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ثم إنى دعوتهم جهاراً ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهراً ما لكم لا ترجون الله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ألم تروا كيف خلق الله سبع سماواتٍ طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً " " ليلاً ونهاراً " دائباً من غير فتور مستغرقاً به الأوقات كلها " فلم يزدهم دعاءى " جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار.

والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فراراً لأنه سبب الزيادة.

ونحوه " فزادتهم رجساً إلى رجسهم " التوبة: 125 " فزادتهم إيماناً " التوبة: 124 " لتغفر لهم " ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح لإعراضهم عنه.

سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة " واستغشوا ثيابهم " وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله.

وقيل لئلا يعرفهم ويعضده قوله تعالى: " ألا إنهم يثنون صدورهم لستخفوا من ألا حين يستغشون ثيابهم: هو: 5 الإصرار: من أصر الحمار على العانة إذا سر أذنية وأقبل عليها يكدمها ويطردها: استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها " واستكبروا " وأخذتهم العزة من اتباع نوح وطاعته وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استكبارهم وعتوهم.

فإن قلت: ذكر أنه دعاهم ليلاً ونهاراً ثم دعاهم جهاراً ثم دعاهم في السر والعلن فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف.

قلت: قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا اثنى بالمجاهرة فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان.

ومعنى " ثم " الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

" جهاراً " منصوب بدعوتهم نصب المصدر لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود.

أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم.

ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهاراً أي: مجاهراً به.

أو مصدراً في موضع الحال أي: مجاهراً.

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحب إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة ترغيباً في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين كما قال: " وأخرى تحبونها نصر من الله " الصف: 13 " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات " الأعراف: 96 " ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم المائدة: 66 " وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم " الجن: 16 وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة: حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة.

وروي: سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه.

وعن عمر رضي الله عنه: أنه خرج يسقي فما زاد على الاستغفار فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ وعن الحسن: أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال: استغفر الله وشكا إليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية.

والسماء: المظلة لأن المطر منها ينزل إلى السحاب ويجوز أن يراد السحاب أو المطر من قوله: إذا نزل السماء بأرض قوم والمدرار: الكثير الدرور ومفعال مما يستوى فيه المذكر والمؤنث كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال " جنات " بساتين " لا ترجون لله وقاراً " لا تأملون له توقياً أي تعظيماً.

والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب " لله " بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار.

وقوله: " وقد خلقكم أطوراً " في موضع الحال كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به لأنه خلقكم أطواراً أي تارات: خلقكم أولا تراباً ثم خلقكم نطفاً ثم خلقكم علقاً ثم خلقكم مضغاً ثم خلقكم عظاماً ولحماً ثم أنشأكم خلقاً آخر.

أولا تخافون لله حلماً وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبة لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقر إذ ثبت واستقر.

نبههم على النظر في أنفسهم أولاً لأنها أقرب منظور فيه منهم ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر " فيهن " في السموات وهو في السماء الدنيا لأن بين السموات ملابسة من حيث إنها طباق فجاز أن يقال: فيهن كذا وإن لم يكن في جميعهن كما يقال: في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها.

وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما: إن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض " وجعل الشمس سراجاً " يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره والقمر ليس كذلك إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء الشمس.

ومثله قوله تعالى: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً} يونس: 5 والضياء: أقوى من النور.

استعير الإنبات للإنشاء كما يقال: زرعك الله للخير وكانت هذه الاستعارة أدل على الحدوث لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات: ومنه قيل للحشوية: النابتة والنوابت لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أولية لهم فيه.

ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة.

والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتاً.

أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم " ثم يعيدكم " مقبورين ثم " يخرجكم " يوم القيامة وأكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقاً ولا محالة جعلها بسطاً مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه " فجاجاً " واسعة منفجة.

{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً} " واتبعوا " رؤسهم المقمين أصحاب الأموال والأولاد وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة في الدنيا زائدة " خساراً " في الآخرة وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها تحقيقاً له وتثبيتاً وإبطالاً لما سواه.

وقرئ: وولده بضم الواو وكسرها " ومكروا " معطوف على لم يزده وجمع الضمير وهو راجع إلى من لأنه في معنى الجمع والماكرون: هم الرؤساء وكرهم: احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه.

وقولهم لهم: لا تذرن الهتكم إلى عبادة رب نوح " مكراً كباراً " قرئ بالتخفيف والتثقيل.

والكبار أكبر من الكبير والكبار أكبر من الكبار ونحوه: طوال " ولا تذرن وداً " كأن هذه المسميات كانت أكبر أصناهمه وأعظمها عندهم فخصوها بعد قولهم " تذرن ءالهتكم " وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث وقيل هي أسماء رجال صالحين.

وقيل: من أولاد آدم ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتهم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: غنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

وقيل: كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر.

وقرئ وداً بضم الواو.

وقرأ الأعمش ولا يغوثا ويعوقا بالصرف وهذه قراءة مسكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف: إما التعريف ووزن الفعل وإما التعريف والعجمة ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات وردا وسوعاً ونسراً كما قرئ: وضحاها بالإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواج " وقد أضلوا "

الضمير لرؤساء.

ومعناه: وقد أضلوا " كثيراً " قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ليسوا بأول من أضلوهم.

أو قد أضلوا بإضلالهم كثيراً يعني أن هؤلاء المضلين فيهم كثرة.

ويجوز أن يكون للأصنام كقوله تعال: {إنهن أضللن كثيراً من الناس} إبراهيم: 36.

فإن قلت: علام عطف قوله: " ولا تزد الظالمين " قلت: على قوله: " رب إنهم عصونى " على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد " قال " وبعد الواو النائبة عنه: ومعناه قال رب إنهم عصوني وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً أي: قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال كقولك: قال زيد نودي للصلاة وصل في المسجد تجكي قوليه معطوفاً أحدهما على صاحبه.

فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته قلت: المراد بالضلال: أن يخذلوا ويمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به بل لا يحسن الدعاء بخلافه.

ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع والهلاك لقوله تعالى: {ولا تزد الظالمين إلا تباراً} نوح: 28

{مما خطياتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً} تقديم " مما خطيئتهم " لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم وأكد هذا المعنى بزيادة ما وفي قراءة ابن مسعود من خطيئاتهم ما أغرقوا بتأخير اصلة وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا فغن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهن وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ويعلم أن معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى وقرئ خطيئاتهم بالهمزة.

وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها وخطاياها وخطيئتهم بالتوحيد على إرادة الجنس ويجوز أن يراد الكفر " فأدخلوا ناراً " جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم لا قترابه ولأنه كائن لا محالة فكأنه قد كان أو أريد عذاب القبر.

ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير: أصابه ما يصيب المقبور من العذاب.

وعن الضحاك: كانوا يغرقون من جانب.

وتنكير النار إما لتعظيمها أو لأن الله أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعاً من النار " فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً " تعريض بإتخاذهم آلهة من دون الله وأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله كقوله تعالى: {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا} الأنبياء: 43.

" دياراً " من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما بالدار ديار وديور كقيام وقيوم وهو

فيعال من الدور.

أو من الدار أصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد ويمت ولو كان فعالاً لكان دوراً.

فإن قلت: بم علم أن أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة قلت: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: أحذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك وقد أخبره الله وجل انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ومعنى " ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً " لايلدوا إلا من سيفجر ويكفر.

فوصفهم بما يصيرون إليه كقوله عليه الصلاة والسلام.

(من قتل قتيلاً فله سلبه)

{رب أغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً} " ولوالدي " أوه لمك بن متوشلخ وامه شمخا بنت أنوش: كانا مؤمنين.

وقيل هما آدم وحواء.

وقرأ الحسين بن علي " ولولدي " يريد: ساما وحاما " بيتي " منزلي.

وقيل: مسجدي.

وقيل: سفينتي خص أولا من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات " تباراً " هلاكاً.

فإن قلت: ما فعل صبيانهم حين أغرقوا قلت: غرقوا معهم لا على وجه العقاب ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق وكأن ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون.

ومنه يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى وعن الحسن: أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب.

وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام ".

سورة الجن

مكية وآياتها 28

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا} قرئ أحى وأصله وحي يقال: أو حي إليه ووحى إليه فقلبت الواو همزة كما يقال: أعد وأزن {وإذا الرسل أقتت} المرسلات: 11 وهو من اقلب المطلق جوازهفي كل واو مضمومة

وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كإشاح وإسادة وإعاء أخيه وقرأ ابن أبي عبلة وحى على الأصل " أنه استمع " بالفتح لأنه فاعل أوحى.

وإنا سمعنا: بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليهما البواقي فما كان من الوحي فتح وما كان من قول الجن كسر وكلهن من قولهم إلا الثنتين الأخريين {وأن المساجد} الجن: 18 {وانه لما قام} الجن: 19 ومن فتح كلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في آمنا به كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهنا وكذلك البواقي " نفر من الجن " جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة.

وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم " فقالوا إنا سمعنا " أي: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كقوله: {فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا} الأحقاف: 29 - 30 " عجباً " بديعاً مبايناً لسائر المتب في حسن نظمه وصحة معانية قائمة فيه دلائل الإعجاز.

وعجب مصدر يوضع موضع العجيب.

وفيه مبالغة: وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره " بهدى إلى الرشد " يدعو إلى الصواب.

وقيل: إلى التوحيد والإيمان.

والضمير في " به " للقرآن ولما كان الإيمان به إيماناً بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك: قالوا: " ولن نشرك بربنا أحدا " أي: ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان.

ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل لأن قوله: " بربنا " يفسره " جد ربنا " عظمته من قولك: جد فلان في عيني أي: عظم.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا قرأ القرة وآل عمران حد فينا.

وروي: في أعيننا.

أو ملكه وسلطانه أو غناه استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت لأن الملوك والأغياء هم المجدودون والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته.

أو لسلطانه وملكوته أو لغناه.

وقوله: " ما اتخذ صاحبةً ولا ولدا " بيان لذلك.

وقرئ جداً ربنا " على التمييز و جد ربنا بالكسر أي: صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه واتخاذه احبة وولداً فاستعظموه ونزهوه عنه.

سفيههم: إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجن.

والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره.

ومنه: أشط في السوم إذا أبعد فيه أي: يقول قولا هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله وكان في ظننا أن أحداً من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفتري عليه ما ليس بحق فكنا نصدقهم فيم أضافوا إليه من ذلك حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم " كذبا " قولاً كذباً أي: مكذوباً فيه.

أو نصب نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول.

ومن قرأ أن لن تقول وضع كذباً موضع تقولا ولم يجعله صفة لأن التقول لا يكون إلا كذباً.

{وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن فزادوهم رهقاً وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً} الرهق: غشيان المحارم.

والمعنى: ان الإنس باستعاذتهم بهم زادوهم كبراً وكفراً وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى في واد قفر في بعض مسايره وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الادي من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الجن والإنس فذلك رهقهم.

أو فزاد الجن الإنس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم " وأنهم " وأن الإنس " ظنوا كما ظننتم " وهو من كلام الجن يقوله بعضهم لبعض.

وقيل الآيتان من جملة الوحي.

والضمير في وأنهم ظنوا للجن والخطاب في " ظننتم " لكفار قريش.

{وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً} اللمس: المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف قال: مسسنا من الآباء شيئاً وكلنا إلى نسب في قومه غير واضع يقال: لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه ونحوه: الجس.

في قولهم جسوه بأعينهم وتجسسوه.

والمعنى: طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها.

والحرس: اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل: شداداً ونحوه.

أخشى رجيلاً أو ركيباً غاديا لأن الرجل والركب مفردان في معنى الرجال والركاب.

والرصد: مثل الحرس: اسم جمع للراصد على معنى: ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع.

ويجوز أن يكون صفة للشهاب.

بمعنى الراصد أو كقوله: " ومعي جياعاً يعني يجد شهاباً راصداً له ولأجله.

فإن قلت: كأن الرجم لم يكن في الجاهلية وقد قال الله تعالى: " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين " الملك: 5 فذكر فائدتين في خلق الكواكب: التزيين

ورجك الشياطين قلت: قال بعضهم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إحدى آياته والصحيح أنه كان قبل المبعث وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية.

قال بشر بن أبي خازم: والعير يرهقها الغبار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب وقال أوس بن حجر: وقال عوف بن الخرع: يرد علينا العير من دون إلفه أو الثور كالدرى يتبعه الدم ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم: كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلاً.

وعن معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال: نعم.

قلت: أرأيت قوله تعالى: " وأنا كنا نقعد " فقال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهما: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار فقال: ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية فقالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم.

وفي قوله: " ملئت " دليل على ان الحادث هو المل والكثرة وكذلك قوله: " نقعد منها مقاعد " أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن ملئت المقاعد كلها وهذا ذكر ما حملهم على الضر في البلاد حتى عثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعوا قراءته.

" وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أراد بهم ربهم رشدا " يقولون: لما حدث هذا من كثرة الرجم ومنع الاستراق قلنا: ما هذا إلا لأمر أراده الله بأهل الأرض ولا يخلو من أن يكون شراً أو رشداً أي: خيرا من عذاب أو رحمة او من خذلان أو توفيق.

{وأنا ومنا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً} " منا الصالحون " منا الأبار المتقون " ومنا دون ذلك " ومنا قوم دون ذلك فحذف الموصوف كقوله: وما منا إلا له مقام ملعلوم الصافات: 164 وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه أو أرادوا الطالحين " كنا طرائق قدداً " بيان للقسمة المذكورة أي: كنا ذوي مذاهب مفترقة مختلفة.

أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة.

أو كنا في طرائق مختلفة كقوله: كما عسل الطريق الثغلب أو كانت طرائقنا طرائق قدداً على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه والقدة من قد كالقطعة من قطع ووصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق.

{وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً} " في الأرض " و " هرباً " حالان أي: لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء.

وقيل: لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن نعجزه هرباً إن طلبنا.

والظن بمعنى اليقين وهذه صفة أحوال الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم: منهم أخيار وأشرار ومقتصدون وأنهم يعتقدون أن اله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجى عنه مهرب.

{وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقاً} " لما سمعنا الهدى " هو سماعهم القرآن وإيمانهم به " فلا يخاف " فهو لا يخاف أي فهو غير خائف ولأن الكلام في تقدير مبتدأ وخبر دخلت الفاء ولولا ذلك لقيل: لا يخف.

فإن قلت: أي فائدة: في رفع الفعل وتقديرمبتدأ قبله حتى يقعخبراً له ووجوبإدخال الفاء وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: فهو لا يخاف فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره وقرأ الأعمش: فلا يخف على النهي " بخسا ولا رهقاً " أي جزاء بخس ولا رهق لأنه لم يبخس أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما.

وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام.

المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم ويجوز أن يراد: فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأولفى ولا أن ترهقه ذلة من قوله عز وجل: {ترهقهم ذلة} القلم: 43.

{وأنا منا المسلمون ومنا القسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا} " القاسطون " الكافرون الجائرون عن طريق الحق.

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: أن الحجاج قال له حين أراد قتله: ما تقول في قال: قاسط عادل فقال القوم: ما أحسن ما قال حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج: يا جله إنه سماني ظالماً مشركاً وتلا لهم قوله تعالى: " وأما القاسطون " وقوله تعالى: {ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} الأنعام: 1 وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعدقاسطيهم وما وعد مسلميهم وكفى به وعداً أن قال: " فأولآئك تحروا رشداً " فذكر سبب الثواب وموجبه والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

{وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفقتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً} " وألو استقانةا " أن مخففة من الثقيلة وهو من جملة الموحى والمعنى: وأوحي إلي أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريقة المثلى أي: لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله والطاعة ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم.

وذكر الماء الغدق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها.

وقرئ بهما لأنه أصل المعاش وسعة الرزق " لنفتنهم فيه " لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه.

ويجوز أن يكون معناه: وان لم استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم لنفتنهم فيه: لتكون النعمة سبباً في اتباعهم شهواتهم ووقوعهم في الفتنة وازديادهم إثماً أو لنعذبهم في كفران النعمة " عن ذكر ربه " عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه " يسلكه " وقرئ بالنون مضمومة ومفتوحة أي: تدخله " عذاباً " والأصل: نسلكه في عذاب كقوله: {ما سلككم في سفر} المدثر: 42 فعدى إلى مفعولين: إما بحذف الجار وإيصال الفعل كقوله: {واختار موسى قومه} الأعراف: 155 وإما بتضمينه معنى ندخله يقال: سلكه وأسلكه قال: حتى إذا أسلكوهم في قتائدةٍ والصعد: مصدر صعد يقال: صعد صعداً وصعوداً فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه.

ومنه قول عمر رضي الله عنه: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح يريد: ما شق على ولا غلبني.

{وأن المساجد لله فلا تعدوا مع الله أحدا} {وأن المساجد} من جملة الموحى.

وقيل معناه: ولأن المساجد " الله فلا تدعوا " على اللام متعلقة بلا تدعوا أي: فلا تدعوا " مع الله أحد " في المساجد لأنها الله خاصة ولعبادته: وعن الحسن: يعني الأرض كلها لأنها جعلت للنبي صلى الله عليه وسلم مسجداً.

وقيل: الماد بها المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد.

ومنه قوله تعالى: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه} البقرة: 114 وعن قتادة: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمرنا أن تخلص لله الدعوة إذا دخلنا المساجد.

وقيل: المساجد أعضاء السجود السبعة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أسجد على سبعة آراب: وهي الجبهة والأنف واليدان والركبتان والقدمان وقيل: هي جمع مسجد وهو السجود.

{وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً} " عبد الله " النبي صلى الله عليه وسلم.

فإن قلت: هلا قيل: رسول الله أو النبي قلت: لأن تقديره: وأوحى إلي أنه لما قام عبد الله فلما كان واقعاً في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه: جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبدا.

ومعنى قام يدعوه قالم يعبده يريد: قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته صلى الله عليه ولسلم " كادوا يكونون عليه لبداً " أي يزدحمون عليه متراكمين تعجباً مما رأوا ممن عبادته واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً وساجداً وإعجاباً بما تلا من القرآن لأنهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره.

وقيل معناه: لما قام رسولاً يعبد الله وحده مخالفاً للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه: كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين " لبداً " جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض ومنه لبدة الأسد وقرئ لبدا واللبدة في معنى اللبدة ولبدا: جمع لابد كساجد وسجد ولبدا بضمتين: جمع لبود كصبور وصبر وعن قتادة: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناوأه.

ومن قرأ وإنه بالكسر: جعله من كلام الجن: قالوه لقومهم حين رجعوا إليهم حاكين ما رأوا من صلاته وازدحام أصحابه عليه في ائتمامهم به.

{قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحداً قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أصعف ناصراً وأقل عدداً قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً عالم الغيب فلا

يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسولٍ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهمٍ وأحصى كل شيءٍ عددا " قال للمتظاهرين عليه " إنما أدعوا ربي " يريد: ما أتيتكم بأمر منكر وإنما أعبد ربي وحده " ولا أشرك به أحداً " وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على مقتى وعداوتي.

أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين: ليس ما ترون من عبادتي الله ورفضي الإشراك به بأمر يتعجب منه إنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكاً.

أو قال الجن لقومهم ذلك حطاية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولا رشداً " ولا نفعاً أو أراد بالضر الغي ويدل عليه قراءة أبي غياً ولا رشداً والمعنى لا أسنطيع أن أضركم وأن أنفعكم إنما الضار والنافع الله.

أو لا أستطيع أ أقسركم علىالغي والرشد وإنما القادر على ذلك الله عز وجل: و " إلا بلاغاً " استثناء منه.

أي لا أملك إلا بلاغاً من الله و " قل إني لن يجيرني " جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه على معنى أن الله إن أراد به سوءاً من مرض أو موت أو غيرهما: لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذا يأوي إليه والملتجأ وأصله المدخل من اللحد.

وقيل: محيصاً ومعدلاً وقرئ قال لا أملك أي قال عبد الله للمشركين أو للجن.

ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم.

وقيل: بلاغاً بدل من " ملتحداً " أي: لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به.

وقيل: "إلا " هي أن لا ومعناه: أن لا أبلغ بلاغاً كقولك إن لا قياماً فقعوداً " ورسالاته " عطف على بلاغاً كأنه قيل: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات.

والمعنى: إلا أن أبلغ عن الله فأقول: قال الله كذا ناسباً لقوله إليه وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان.

فإن قلت: ألا يقال: بلغ عنه ومنه قوله عليه الصلاة والسلام.

بلغوا عني بلغوا عني قلت: من ليست بصلة للتبليغ إنما هي بمنزلة من في قوله: {براءة من الله} التوبة: 1 بمعنى بلاغاً كائناً من الله.

وقرئ فأن له نار جهنم على: فجزاؤه أن له نار جهنم كقوله: " فأن لله خمسه " الأنفال: 41 أي: فحكمه أن لله خمسه.

وقال: " خالدين " حملا على معنى الجمع في من.

فإن قلت: بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له قلت: بقوله: {يكونون عليه لبدا} الجن: 19 على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويتقلون عددهم {حتى إذا رأوا ما يوعدون} من يوم بدر وإظهار الله له عليهم.

أو من يوم القيامة " فسيعلمون " حينئذ أنهم " أضعف ناصراً وأقل عدداً " ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال: من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده كأنه قال: لا

يزالون على ما هم عليه " حتى إذا رأوا ما يوعدون " قال المشركون: متى يكون هذا الموعود إنكاراً له فقيل " قل " إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه فإن الله قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد.

وأما وقته فما أدري متى يكون لأن اله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة.

فإن قلت: ما معنى قوله: " أم يجعل له ربى أمداً " والأمد يكون قريباً وبعيداً ألا ترى إلى قوله: {تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً} آل عمران: 30 قلت: كان رسول الله صلى اله عليه وسلم يستقرب الموعد فكأنه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية أي: هو " عالم الغيب فلا يظهر " فلا يطلع و " من رسولٍ " نبين لمن ارتضى يعني: أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة لا كل مرتضى.

وفي هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل.

وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الاتضاء وأدخله في السخط " فإنه يسلك من بين يديه " يدي من ارتضى للرسالة " ومن خلفه رصداً " حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه.

وعن الضحاك: ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك " ليعلم " الله " أن قد أبلغوا رسالات ربهم " يعني الأنبياء: وحد أولا على اللفظ في قوله: من بين يديه ومن خلفه ثم جمع على المعنى كقوله: {فإن له نار جهنم خالدين} الجن: 23 والمعنى: ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان وذكر العلم كذكره في قوله تعالى {حتى نعلم المجاهدين} محمد: 31 وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول {وأحاط بما لديهم} بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفاً فهو مهيمن عليها حافظ لها {وأحصى كل شيءٍ عدداً} من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه وعدداً: حال أي: وضبط كل شيء معدوداً محصوراً.

أو مصدر في معنى إحصاء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جني صدق محمداً صلى الله عليه وسلم وكذب به عتق رقبة.

سورة المزمل

مكية وآياتها تسعة عشر وقيل: عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها المزمل قم البل إلا قليلاً نصفه أو أنقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً}

" المزمل " المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه: أي تلفف بها بإدغام التاء في الزاي ونحوه: المدثر في المتدثر وقرئ المتزمل على الأصل والمزمل بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرها.

على أنه اسم فاعل أو مفعول من زمله وهو الذي زمله غيره أو زمل نفسه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائماً بالليل متزملاً في قطيفة فنبه ونودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن.

أى ترى إلى قول ذي الرمة: وكائن تخطت ناقتي من مفازةٍ ومن نائم عن ليلها متزمل يريد: الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاضم الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه: فأتت به حوش الفؤاد مبطناً سهداً إذا ما نام ليل الهوجل وفي أمثالهم: أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بأن يختار على الهجود التهجد وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة في الله لا جرم أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قد نشمر لذلك من أصحابه حق التشمر وأقبلوا على إحياء ليليهم ورفضوا له الرقاد والدعة وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت أوانهم وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم.

فخفف عنهم.

وقيل: كان متزملا في مرط لعائشة يصلي فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسن لحاله التي كان عليها وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أنا سئلت ما كان تزميله قال: كان مرطا طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي فسئلت: ما كان قال: والله ما كان خزاً ولا قزاً ولا مرعزى ولا إبريسما ولا صوفاً: كان سداه شعراً ولحمته وبراً.

وقيل: دخل على خديجة وقد جثت فرقا أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد فقال: زملوني زملوني وحسب أنه عرض له فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل: يا أيها المزمل.

وعن عكرمة: أن المعنى: يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً أي: حمله والزمل: الحمل.

وازدمله: احتمله وقرئ قم الليل بضم الميم وفتحها.

قال عثمان بن جنى: الغرض بهذه الحركة التبلغ بها هرباً من التقاء الساكنين فبأي الحركان تحرك فقد وقع الغرض " نصفه " بدل من الليل.

وإلا قليلاً: استثناء من النصف كأنه قال: قم أقل من نصف الليل.

والضمير في منه وعليه للنصف والمعنى التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه.

وإن شئت جعلت نصفه بدلا من قليلاً وكان تخييراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل وإن شئت قلت: لما كان معنى {قم اليل إلا قليلاً نصفه} إذا أبدلت النصف من الليل قم أقل من نصف الليل رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف فكأنه قيل: قم أقل من نصف الليل.

أو: قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلاً.

فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث.

ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلا وفسرته به أن تجعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف: وهو الربع كأنه قيل أو انقص منه قليلاً نصفه.

وتجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع كأنه قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه.

ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث فيكون تخييراً بين النصف والثلث والربع.

فإن قلت: أكان القيام فرضاً أم نفلاً قلت: عن عائشة رضي الله عنها أن الله جعله تطوعاُ بعد أن كان فريضة.

وقيل كان فرضاً قبل أن تفرض الصلواتالخمس ثم نسخ بهن إلا ما تطوعوا به.

وعن الحسن: كان قيام ثلث الليل فريضة وكانوا على ذلك سنة.

وقيل: كان واجباً وإنما وقع التخيير في المقدار ثم نسخ بعد عشر سنين.

وعن الكلبي: كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين ومنهم من قال: كان نفلاً بدليل التخيير في لمقدار ولقوله تعالى: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك} الإسراء: 79 ترتيل القرآن: قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل: وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان وألا يهذه هذا ولا يسرده سرداً كما قال عمر رضي الله عنه: شر السير الحقحقة.

وشر القراءة الهذرمة حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر الألص.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها و " ترتيلاً " تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه ما لا بد منه للقارئ.

{إنا سنلقى عليك قولا ثقيلاً} هذه الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكليف شاقة ثقيلة على المكلفين وخاصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته فهي أثقل عليه وأبهظ له وأراد بهذا الاعتراض: أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده.

وعن عائشة رضي الله عنها: رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديدد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً.

وعن الحسن: ثقيل في الميزان.

وقيل: ثقيل على المنافقين.

وقيل كلام لو وزن ورجحان ليس بالسفساف.

{إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً} " ناشئة اليل " النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي: تنهض وترتفع من نشأت السحابة: إذا ارتفعت ونشأ من مكانه ونشز: إذا نهض قال: نشأنا إلى خوصٍ برى نيها السرى والصق منها مشرفات القماحد وقيام الليل على أن الناشئة مصدر من ًنشأ إذا قام ونهض على فاعلة: كالعاقبة ويدل عليه ما روى عن بيد بن عمير: قلت لعائشة: رجل قام من أول الليل أتقولين له قام ناشئة قالت لا إنما الناشئة القيام بعد النوم.

ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة التي تنشأ بالليل أي: تحدث وترتفع.

وقيل: هي ساعات الليل كلها لأنها تحدث واحدة بعد اخرى.

وقيل: الساعات الول منه.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: " إن ناشئة اليل " هذه ناشئة الليل " هي أشد وطئاً " هي خاصة دون ناشئة النهار أشد مواطأة يواطئ قليها لسانها: إن أردت النفس.

او يوطئ فيها قلب القائم لسانه: إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات.

أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص.

وعن الحسن: أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق.

وقرئ: أشد وطأ بالفتح والكسر.

والمعنى: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل.

أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار من قوله عليه الصلاة والسلام.

اللهم اشدد وطأتك على مضر " وأقوم قيلاً " وأسد مقالا وأثبت قراءة لهدو الأصوات.

وعن أنس رضي الله عنه قرأ: وأصوب قيلا فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي: وأقوم فقال: إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد.

وروى أو بزيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ: فحاسوا بحاء غير معجمة فقيل له: إنما هو " جاسوا " الإسراء: 5 بالجيم فقال: جاسوا وحاسوا واحد.

{إن لك في النهار سبحاً طويلاً} " سبحاً " تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك ولا تفرغ إلا بالليل فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل.

وأما القراءة بالخاء فاستعارة من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه لا نتشار الهم وتفرق القلب بالشواغل كلفه قيام الليل ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه: وهو أن الليل أعون على المواطأة وأشد للقراءة لهدو الرجل وخفوت الصوت وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد.

وقيل: فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

{واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً} " واذكر اسم ربك " ودم على ذكره في ليلك ونهارك واحرص عليه وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله صلى اله عليه وسلم يستغرق به ساعات ليله ونهاره " وتبتل إليه " وانقطع إليه.

فإن قلت: كيف قيل " تبتيلاً " مكان تبتلا قلت: لأن معنى تبتل بتل نفسه فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل " رب المشرق والمغرب " قرئ مرفوعاً على المدح ومجروراً على البدل من ربك.

وعن ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسم كقولك: الله لأفعلن وجوابه " لا إلاه إلا هو " كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد.

وقرأ ابن عباس رب المشارق والمغارب " فاتخذه وكيلاً " مسبب عن التهليلة لأنه هو وحده هو الذي يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور.

وقيل " وكيلاً ": كفيلاً بما وعدك من النصر

والإظهار الهجر الجميل: أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم من حسن المخالفة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم وقيل: هو منسوخ بآية السيف.

{وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصةٍ وعذاباً أليماً يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً} إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه أو بعدو يشتعي أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال: ذرني وإياه أي: لا تحتاج إلى الظفر بمرادك ومشتهاك إلا أن تخلى بيني وبينه بأن تكل أمره إلي وتستكفينيه فإن في ما يفرغ بالك ويجلي همك وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض كأنه إذا لم يكل أمره إليه فكأنه منعه منه فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه.

النعمة: - بالفتح - التنعم وبالكسر: الإنعام وبالضم: المسرة يقال: نعم ونعمة عين وهم صناديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفة " إن لدينا " ما يضاد تنعمهم من أنكال: وهي القيود الثقال عن الشعبي: إذا ارتفعوا استفلت بهمز الواحد: نكل ونكل.

ومن حجيم: وهي النار الشديدة الحر والاتقاد.

ومن طعام ذي غصة وهو الذي ينشب في الحلوق فلا يساغ يعني الضريع وشجر الزقوم.

ومن عذاب أليم من سائر العذاب فلا ترى موكلاً إليه أمرهم موذوراً بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام.

وروي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية فصعق.

وعن الحسن: أنه أمسى صائماً.

فأتي بطعام فعرضت له هذه الآية فقال: ارفعه ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال: ارفعه وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت الناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فجاؤا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق " يوم ترجف " منصوب بما في لدينا.

والرجفةز الزلزله والزعزعة الشديدة.

والكثيب: الرمل المجتمع من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله.

ومنه الكثبة من اللبن قالت الضائنة: أجز جفالا وأحلب كثباً عجالا أي: كانت مثل رمل مجتموع هيل هيلا أي: نشر واسيل.

{إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلاً} الخطاب لأهل مكة " شهداً عليكم " يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم.

فإن قلت: لم نكر الرسول ثم عرف قلت: لأنه أراد: أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المذكور بعينه " وبيلاً " ثقيلاً غليظاً من قولهم: كلأ

{فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعدم مفعولاً} " يوماً مفعول به أي: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر.

ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً.

ويجوز أن يكون ظرفاً أي: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء لن تقوى الله خوف عقابه " يجعل الولدان شيباً " مثل في الشدة يقال في اليوم الديد: يوم يشبب نواصي الأطفال والأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب.

قال أبو الطيب: والهم يخترم الجسيم نحافةً ويشيب ناصية الصبي ويهرم وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب.

وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النا فمن هول ذلك أصبحت كما ترون.

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول.

وأن الأطفال يبلغون فيه أو ان الشيخوخة والشيب " السماء منفطر به " وصف لليوم بالشدة أيضاً وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ظنك بغيرها من الخلائق.

وقرئ: منفطر ومنفطر والمعنى: ذات انفطار.

أو على تأويل السماء بالسقف أو على تأويل السماء شئ منفطر والباء في " به " مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به يعني: أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به.

ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالاً يؤدي إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه كقوله: {ثقلت في السموات والأرض} الأعراف: 187 " وعدم " من إضافة المصدر إلى المفعول والضمير لليوم.

ويجوز أن يكون مضافاً إلى الفاعل وهو الله عز وعلا ولم يجر له ذكر لكونه معلوماً.

{إن هذه تذكرة فمن شآء اتخذ إلى ربه سبيلاً} " إن هذه " الآيات الناطقة بالوعيد الشديد " تذكرة " موعظة " فمن شآء " اتعظ بها.

واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية.

ومعنى اتخاذ السبيل إليه: التقرب والتوسل بالطاعة.

{إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلواة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} " أدنى من ثلثي اليل " أقل منهما وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت: قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك.

وقرئ ونصفه وثلثه بالنصب على أنك نقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث: وهو مطابق لما مر في أول السورة: من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث - وبين قيام الزائد عليه - وهو الأدنى من الثلثين.

وقرئ ونصفه وثلثه: بالجر أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث وهو مطابق لتخيير بين النصف: وهو أدنى من الثلثين والثلث: وهو أدنى من النصف.

والربع: وهو أدنى من الثلث وهو الوجه الخير " وطائفة من الذين معك " ويقوم ذلك جماعة من أصحابك {والله يقدر الليل والنهار} ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا اله وحده وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه والضمير في " لن تحصوه " لمصدر يقدر أي علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها باتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط: وذلك شاق عليكم بالغ منكم " فتاب عليكم " عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر.

كقوله: {فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن} البقرة: 187 والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم كما يرفع التبعة عن التائب.

وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها بعض أركانها كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود يريد:

فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأول ثم نسخا جميعاً بالصلوات الخمس.

وقيل: هي قراءة القرآن بعينها قيل: يقرأ مائة آية ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن وقيل: من قرأ آية كتب من القانتين.

وقيل: خمسين آية.

وقد بين الحكمة في النسخ.

وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله.

وقيل: سوى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه: كان عند الله من الشهداء.

وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رجل: أضرب في الأرض أبتغى من فضل الله.

و " علم " اسئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ " وأقيموا الصلواة " يعني المفروضة والزكاة الواجبة وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة.

وإنما وجبت بعد ذلك.

ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيا " وأقرضوا الله قرضاً حسناً " يجوز أن يريد: سائر الصدقات وأن يريد: أداء الزكاة على أحسن وجه: من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق وأن يريد: كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال " خيراً " ثاني مفعولي وجد.

وهو فصل.

وجاز وإن لم يقع بين معرفتين.

لأن أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة.

وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجراً بالرفع على الابتداء والخبر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة.

سورة المدثر

مكية وهي ست وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

" يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر} ط المدثر " لابس الدثار وهو ما فوق الشعار: وهو الثوب الذي يلي الجسد.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: الأنصار شعار والناس دثار وقيل: هي أول سورة نزلت.

وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد إنك رسول الله فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً فنظرت فوقي فرأيت شيئاً وفي رواية عائشة: فنظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه - فرعبتورجعت إلى خديجة فقلت: دثوني دثروني فنزل جبريل وقال: يا أيها المدثر وعن الزهري: أول ما نزل: سورة " اقرأ باسم ربك " إلى قوله: " ما لم يعلم " فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلو شواهق الجبال فأتاه جبريل فقال: إنك نبي الله فرجع إلى خديجة وقال: دثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزل: يا أيها المدثر.

وقيل: سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه مفكراً كما يفعل المغموم.

فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه.

وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول.

من دثره.

وقال: دثرت هذا الأمر وعصب بك كما قال في المزمل: قم من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم " فأنذر " فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

والصحيح أن المعنى: فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد " وربك فكبر " واختص ربك بالتكبير: وهو الوصف بالكبرياء وأن يقال: الله أكبر.

ويروى: أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي وقد يحمل على تكبير الصلاة ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره " وثيابك فطهر " أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها وهي الأولى والأحب في غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطبيب أن يحمل خبثاً.

وقيل: هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذيول وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسة.

وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات.

يقال: فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق.

وفلان دنس الثياب للغادر وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه فكنى به عنه.

ألا ترى إلى قولهم: أعجبني زيد ثوبه كما يقولون: أعجبني زيد عقله وخلقه ويقولون: المجد في ثوبه والكرم تحت حلته ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاه عنى بتطهير الظاهر وتنقية وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء والرجز قرئ بالكسر والضم وهو العذاب ومعناه: اهجر ما يؤدي إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم.

والمعنى الثبات على هجره لأنه كان بريئاً منه.

{ولا تمنن تستكثر ولربك فاصر} قرأ الحسن ولا تمن وتستكثر مرفوع منصوب المحل على الحال أي: ولا نعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً أو طالباً للكثيرك نهى عن الاستغزار: وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من لموهوب وهذا جائز.

ومنه الحديث: المستغزر يثاب من هبته وفيه وجهان احدهما: ان يكون نهياً خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق والثاني: أن يكون نهى تنزيه لا تحريم له ولأمته وقرأ الحسن تستكثر بالسكون.

وفيه ثلاثة أوجه: الإدال من تمنن.

كأنه قيل: ولا تمنن لا تستكثر على أنه من المن في قوله عز وجل: {ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى} البقرة: 262 لأن من شأن المنان بما يعطي أن يستكثره أي: يراه كثيراً ويعتد به وأن يشبه ثرو بعضد فيسكن تخفيفاً وأن يعتبر حال الوقف.

وقرأ الأعمش بالنصب بإضمار أن كقوله: ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وتؤيده قراءة ابن مسعود ولا تمنن أن تستكثر ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها كما روي: احضر الوغى بالرفع " ولربك فاصبر " ولوجه الله فاستعمل الصبر.

وقيل: على أذى المشركين.

وقيل: على أداء الفرائض.

وعن النخعي: على عطيتك كأنه وصله بما قبله وجعله صبراً على العطاء من غير استكثار والوجه أن يكون أمراً بنفس الفعل وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه ويراد الصبر على أذى الكفار لأنه أحد ما يتناوله العام.

{فإذا نقر في الناقور فذالك يومئذٍ يوم عسير على الكافرين غير يسير} والفاء في قوله: " فإذا نقر " للتسبيب كأنه قال: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه.

والفاء في " فذالك " للجزاء فإن قلت: بم انتصب إذا وكيف صح أن يقع " يومئذ " ظرفاً ليوم عسير قلت: انتصب إذا بما دل عليه الجزاء لأن المعنى: فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين والذي أجاز وقوع " يومئذٍ " ظرفاً ليوم عسير: ان المعنى: فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي وقع حين ينقر في الناقور.

واختلف في أنها النفخة الولى أم الثانية.

ويجوز أن يكون يومئذ مبنياً مرفوع المحل بدلا من " ذلك " و " يوم عسير " خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير.

فإن قلت: فما فائدة قوله: " غير يسير " و ط عسير " مغن عنه قلت: لما قال: " على الكافرين " فقصر العسر عليهم قال: " غير يسير " ليؤذن بأن لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا.

{ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم ادبرواستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر}

" وحيداً " حال من الله عز وجل على معنيين أحدهما: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم.

والثاني: خلقته وحدي لم شركني في خلقه أحد.

أو حال من المخلوق على معنى: خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد كقوله: " ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة " الأنعام: 94 وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية فإن كان ملقباً به قبل فهو تهكم به وبلقبه وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمونه - من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه في الدنيا - إلى وجه الذم والعيب: وهو أنه خلق وحيداً لا مال له ولا ولد فآتاه الله ذلك فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه " ممدوداً " مبسوطاً كثيراً: أو ممداً بالنماء من مد النهر ومد نهر آخر.

قيل: كان له الزرع والضرع والتجارة.

وعن ابن عباس: هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال.

وقيل: كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره سيفاً وشتار.

وقيل: كان له ألف مثقال.

وقيل: أربعة آلاف وقيل تسعة آلاف وقيل: ألف ألف وعن ابن جريج: غلة شهر بشهر " وبنين شهوداً " حضوراً معه بمكة لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة لأنها مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيتهم وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إلهم.

ويجوز أن يكون معناه: أنهم رجال يشهدون مهع المجامع والمحافل.

أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه.

وعن مجاهد: كان له عشرة بنين.

وقيل: ثلاثة عشر.

وقيلك سبعة كلهم رجال: الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة " ومهدت له تمهيداً " وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه اجتماعهما: هو الكمال عند أهل الدنيا.

ومنه قول الناس: آدم الله تأييدك وتمهيدك يريدون: زيادة الجاه والحشمة.

وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش " ثم يطمع " استبعاد واستنكار لطعمه وحرصه يعنى أنه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة وقيل: إنه

كان يقول: إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي " كلا " ردع له وقطع لرجائه وطمعه " إنه كان لا يأتنا عنيداً " تعليل للردع على وجه الاسئناف كأن قائلا قال: لم لا يزاد فقيل: إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته والكافر لا يستحق المزيد ويروى: أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك " سأرهقه صعوداً ط سأغشيه عقبة شاقة المصعد: وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق وعن النبي صلى الله عليه وسلم: يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت وعنه عليه الصلاة والسلام: الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً " إنه فكر " تعليل للوعيد كأن الله عاجله بالفقر بعد الغنى والذل بعد العز في الدنيا بعناده ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره وتسميته القرآن سحراً.

ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعة بقوله: " سأرهقه صعوداً " رداً لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له وإخباراً بانه من أشد أهل النار عذاباً ويعلل ذلك بعناده ويكون قوله: " إنه فكر " بدلاً من قوله: " إنه كان لأياتنا عنيداً " بياناً لكنه عناده.

ومعناه " فكر " ما يقول في القرآن " وقدر " في نفسه ما يقول وهيأه " فقتل كيف قدر " تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز.

ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش.

أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به أو هي حكاية لما كرروه من قولهم.

" قتل كيف قدر " تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله.

ومعنى قول القائل: قتله الله ما أشجعه.

وأخزاه الله ما أشعره: الإشعار بأنه قد بلغ لمبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك.

روي: أن الوليد قال لني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى فقالت قريش: صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط وتزعمون أن كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب فقالوا في كل ذلك: اللهم لا ثم قالوا: فما هو ففكر فقال: ما هو إلا ساحر.

أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل فارتج النادي فرحاً وفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه " ثم نظر " في وجوه الناس ثم قطب وجهه ثم زحف مدبراً وتشاوس مستكبراً لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء وهم بأن يرمي بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استبط استهزاء به.

وقيل: قدر ما يقوله ثم نظرفيه ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول.

وقيل: قطب في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثم أدبر " عن الحق " واستكبر " عنه فقال ما قال.

" وثم نظر " عطف على " فكر وقدر " والدعاء: اعتراض بينهما.

فإن قلت: ما معنى " ثم " الداخلة في تكرير الدعاء قلت الدلالة على أن الكزة الثانية أبلغ من الأولى.

ونحوه قوله: فإن قلت: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها قلت: الدلالة على أنه قد تأنى في التأمل وتمهل وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد.

فغن قلت: فلم قيل " فقال إن هذا " بالفاء بعد عطف ما قبله بثم قلتك لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث.

فإن قلت: فلم لم يوسط حرف العطفبين الجملتين قلت: لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى الوكيد من المؤكد.

{سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين أمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهاذا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر " " سأصليه سقر " بدل من {سأرهقه صعوداً} المدثر: 17 " لا تبقي " شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد.

أو لا تبقي على شيء ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة " لواحة " من لوح الهجير.

قال: تقول ما لا حك يا مسافر يا ابنة عمي لا حنى الهواجر قيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل.

والبشر: أعالي الجلود.

وعن الحسن.

تلوح للناس كقوله: {ثم لترونها عين اليقين} التكاثر: 7 وقرئ لواحة نصباً على الاختصاص للتهويل {عليها تسعة عشر} أي يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكاً.

وقيل: صنفاً من الملائكة.

وقيل: صفاً.

وقيل نقيباً.

وقرئ: تسعة عشر بسكون العين لتوالي الحركات في ما هو في حكم اسم واحد وقرئ تسعة أعشر جمع عشير مثل: يمين وأيمن جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ولا يستروحون إليهم ولأنهم أقوم من خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم ولأنهم أشد الخلق بأساً وأقواهم بطشاً.

عن عمرو بن دينار: واحد منهم يدفع بالفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيهة ومضر.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم.

كأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم لأحدهم مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم في النار بالجبل عليهم وروي أنه لما نزلت " عليها تسعة عش " قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن بطشوا برجل منهم فال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فأكفوني أنتم اثنين فانزل الله "

وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة " أي ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

فإن قلت: قد جعل افتنان الكافرين بعدة الزبانية سبباً لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين فما وجه صحة ذلك قلت ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً لذلك وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً وذلك أن المراد بقوله " وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا " وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر فوضع " فتنة للذين كفروا " موضع " تسعة عشر " لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزيء ولا يذعن إذعان المؤمن وإن خفى عليه وجه الحكمة كأنه قيل ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله وازدياد المؤمنين إيماناً لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ولما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك.

فإن قلت: لم قال " ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون " والاستيقان وازدياد الإيمان دلا على انتفاء الاتياب قلت: لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفي الشك.

كان آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس وثلج الصدر ولأن فيه تعريضاً بحال من عداهم كأنه قال: ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والمفر.

فإن قلت: كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والسورة مكية ولم يكن بمكة نفاق وإنما نجم بالمدينة قلت: معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة " والكافرون " بمكة " ماذا أراد الله بهاذا مثلاً " وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب وذلك لا يخالف كون السورة مكية.

ويجوز أن يراد بالمرض: الشك والارتياب لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب.

فإن قلت: قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب قول المنافقين والكافرين ما قالوا فهب أن اللإستيقان وإنتفاء الإرتياب يصح أن يكونا غرضين فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضاً قلت: أفادت اللام معنى العلة والسبب ولا يجب في العلة أن تكون غرضاً الا ترى إلى قولك: خرجت من البلد لمخافة الشر فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك.

" مثلاً " تمييز لهذا او حال منه كقوله: " هذه ناقة الله لكم آية " هود: 64 فإن قلت: لم سموه مثلا قلت: هو استعارة من المثل المضروب.

لأنه مما غرب من الكلام وبدع استغراباً منهم لهذا العدد واستبداعاً له.

والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأي غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ومرادهم إنكاره من أصله وأنه ليس من عند اله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص.

الكاف في " كذلك " نصب وذلك: إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين يعني: يفعل فعلا حسناً مبيناً على الحكمة زوالصواب فيراه المؤمنون حكمة ويذعنون له لاعتقادهم أن أفعال الله ملها حسنة وحكمة فيزيدهم إيماناً وينكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفراً وصلالا " وما يعلم جنود ربك " وما عليه كل جند من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة " إلا هو " ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة أو: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها.

وقيل: هو جواب لقول أبي جهل: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر " وما جعلنا أصحاب النار - إلى قوله - إلا هو " اعتراض.

وقوله: " وما هي إلا ذكرى " متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي: وما سقر وصفتها إلا تذكرة " للبشر " أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

{كلا والقمر واليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر}" كلا " إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيراً.

ودبر بمعنى أدبر كقبل بمعنى أقبل.

ومنه صاروا كأمس الدابر.

وقيل: هو من دبر الليل النهار إذا خلفه.

قرئ إذ أدبر " إنها لإحدى الكبر " جواب القسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد.

والكبر: جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائها فلما جمعت فعلة على فعل: جمعت فعلى عليها ونظير ذلك: السوافي في جمع السافياء.

والقواصح في جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة أي: لإحدى ابلايا أو الدواهي الكبر ومعنى كونها إحداهن: أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها.

كما تقول: هو أحد الرجال وهير إحدى النساء و " نذيرا " تمييز من إحدى على معنى: إنها لإحدى الدواهي إنذاراً كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً.

وقيل هي حال.

وقيل: هو متصل بأول السورة يعني: قم نذيراً وهو من بدع التفاسير.

وفي قراءة أبي نذير بالرفع خبر بعد خبر لأن أو بحذف المبتدأ " أن يتقدم " في موضع الرفع بالابتداء.

ولمن شاء: خبر مقدم عليه كقولك: لمن توضأ أن يصلي ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر ولمراد بالتقدم والتأخر: السبق إلي الخبر والتخلف عنه: وهو كقوله: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} الكهف: 29 ويجوز أن يكون " لمن شاء " بدلاً من " للبشر " على أنها منذرة للمكلفين الممكنين الذين إن شاؤا تقدموا ففازوا وإن " كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جناتٍ يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين " " رهينة " ليست بتأنيث رهين في قوله: {كل امرئ بما كسب رهين} الطور: 21 لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة: أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل كأنه قال: رهن رمس.

والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند بكسبها عند الله غير مفكوك " إلا أصحاب اليمين " فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم كما يخلص الراهن رهنة بأداء الحق.

وعن علي رضي الله عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة " جناتٍ " أي هم في جنات لا يكتنه وصفها " يتساءلون عن المجرمين " يسأل بعضهم بعضاً عنهم.

أو يتساءون غيرهم عنهم كقولك: دعوته وتداعيناه.

فإن قلت: كيف طابق قوله " ما سلككم " وهو سؤال للمجرمين قوله: يتساءلون عن المجرمين " وهو سؤال عنهم وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم قلت: ماسلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم لأن المسؤلين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم " ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين " إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه الخوض: الشروع في الباطل وما لا ينبغي فإن قلت: لم يسألونهم وهم عالمون بذلك قلت: توبيخا لهم وتحسيراً وليكون حكاية الله ذلك في كتابه تذكرة للسامعين.

وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال: أنهم إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار.

فإن قلت: أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه قلت: يحتمل الأمرين جميعاً.

فإن قلت: لم أخر التكذيب وهو أعظمها قلت: أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيماً للتكذيب.

كقوله {ثم كان من الذين آمنوا} البلد: 17 " اليقين " الموت ومقدماته أي: لو شفع لهم الشافعون جميعاً من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم.

وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ لأنها تزيد في درجات المرتضين.

{فما لهم عن التذكره معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة بل يريد كل امريء منهم

أن يؤتى صحفاً منشرة كلاً بل لا يخافون الأخرة كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة} " عن التذكرة " عن التذكير وهو العظة يريد: القرآن أو غيره من المواعظ و " معرضين " نصب على الحال كقولك: مالك قائماً والمستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه.

وقرئ بالفتح: وهي المنفرة المحمولة على النفار: والقسورة: جماعة الرماة الذين يتصيدونها.

وقيل: الأسد يقال: ليوث قساور وهي فعولة من القسر: وهو القهر والغلبة وفي وزنه الحيدرة من أسماء الأسد.

وعن ابن عباس: ركز الناس وأصواتهم.

وعن عكرمة: ظلمة الليل شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر جدت في نفارها مما أفزعهم.

وفي تشبيههم بالحمر: مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين.

كما في قوله: " كمثل الحمار يحمل أسفاراً " الجمعة: 5 وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل.

ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر وعدوها إذا وردت ماء فأحسست عليه بقانص " صحفاً منشرة " قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها أو كتباً كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد وذلك أنهم قالوا لرسول الله

صلى الله عليه وسلم: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر فيها باتباعك ونحوه قوله: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه} الإسراء: 93 وقال: {ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم} الآية الأنعام: 7.

وقيل: قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار.

وقيل: كانوا يقولون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك وهذا من الصحف المنشرة بمعزل.

إلا أن يراد بالصحف المنشرة: الكتابات الظاهرة المكشوفة وقرأ سعيد بن جبير: صحفا منشرة بتخفيفهما على أن أنشر الصحف ونشرها: واحد كأنزله.

ردعهم بقوله " كلاً " عن تلك الإرادة وزجرهم عن اقتراح الآيات ثم قال: " بل لا يخافون الأخرة " فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لا متناع إيتاء الصحف ثم ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة وقال: " إنه تذكرة " يعني تذكرة بليغة كافية مبهم أمرها في الكفاية " فمن شاء " أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينه فعل فإن نفع ذلك راجع إليه.

والضمير في " إنه " " وذكره " للتذكرة في قوله " فما لهم عن التذكرة معرضين " المدثر: 49 وإنما ذكر لأنها في معنى الذكر أو القرآن " وما يذكرون إلا أن يشاء الله " يعني: إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إله.

لأنه مطبوع على قلوهم.

معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً " هو أهل التقوى وأهل المغفرة " هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو أهل أن يتقي وأهل أن يغفر لمن اتقاه وقرئ يذكرون بالياء والتاء مخففاً ومشدداً.

هن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة.

سورة القيامة

مكية وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسئل أيان يوم القيامة} إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس: لا وأبيك ابنة العامري لا يدعى لقوم أني أفر وقال غوثة بن سلمى: وفائدتها توكيد القسم وقالوا إنها صلة مثلها في {لئلا يعلم أهل الكتاب} الحديد: 29 وفي قوله: في بئر لا حورٍ سرى وما شعر واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض والاعتراض صحيح لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد.

ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته.

والوجه أن يقال: هي للنفي.

والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له يدلك عليه قوله تعالى: {فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} الواقعة: 75 - 76 فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

وقيل إن لا نفي لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا أي ليس الأمر على ما ذكرتم ثم قيل: أقسم بيوم القيامة.

فإن قلت: قوله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون} النساء: 65 والأبيات التي أنشدتها: المقسم عليه فيها منفي فهلا زعمت أن لا التي قبل القسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً كقوله: " لا أقسم بيوم القيامة " لا تتركون سدى قلت: لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنه لم يقصر.

ألا ترى كيف لقي " لا أقسم بهذا البلد " البلد: 1 بقوله: " لقد خلقنا الإنسان " التين: 4 وكذلك " فلا أقسم بمواقع النجوم " الواقعة: 75 بقوله: " إنه لقرآن كريم " وقرئ: لأقسم على أن اللام للأبتداء.

وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه: لأنا أقسم.

قالوا: ويعضده أنه في الإمام بغير ألف " بالنفس اللوامة " بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أي في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان.

وعن الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا لائماً نفسه وإن الكافر يمضي قدما لا يعاتب نفسه.

وقيل: هير التي تتلوم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة.

وعلى التفريط إن كانت مسيئة.

وقيل: هي نفس آدم لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة.

وجواب القسم ما دل عليه قوله " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه " وهو لتبعثن.

وقرأ قتادة: أن لن نجمع عظامه على البناء للمفعول.

والمعنى: نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميماً وفاتا مختلطاً بالتراب وبعدما سفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض.

وقيل إن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه يقول فيهما: اللهم اكفني جاري السوؤ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به أو يجمع الله العظام فنزلت " بلى " أو جبت ما بعد النفي وهو الجمع فكأنه قيل " بلى " نجمعها و " قادرين " حال من الضمير في نجمع أي: نجمع العظام قادرين علي تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول إلى أن نسوي بنانه أي: أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه.

أو على أن نسوي بنانه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام.

وقيل: معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه أي نجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينهما فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً

مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج.

وقرئ قادرون أي: نحن قادرون " بل يريد " عطف على " أيحسب " فيجوز أن يكون مثله استفهاماً وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر.

أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب " ليفجر أمامه ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه.

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: يقدم الذنب ويؤخر التوبة.

يقول: سوف أتوب سوف أتوب: حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله " يسئل " سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة في قوله " أيان يوم القيامة " ونحوه " ويقولون متى هذا الوعد

{فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره " " برق البصر " تحير فزعا وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.

وقرئ: برق من البريق أي لمع من شدة شخوصه.

وقرأ أبو السمال بلق إذا انفتح وانفرج.

يقال: بلق الباب وأبلقته " وخسف القمر " وذهب ضوؤه أو ذهب بنفسه.

وترئ: وخسف على البناء للمفعول " وجمع الشمس والقمر " حيث يطلعها الله من المغرب.

وقيل: وجمعنا في ذهاب الضوءي وقيل: يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار.

وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى " المفر " بالفتح المصدر وبالكسر: المكان.

ويجوز أن يكون مصدراً كلالمرجع.

وقرئ بهما " كلا " ردع عن طلب المفر " لا وزر " لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك " إلى ربك " خاصة " يومئذ " مستقر العباد أي استقرارهم.

يعني: أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره وينصبوا إليه أو إلى حكمه ترجع أمور العباد لا يحطكم فيها غيره كقوله: {لمن الملك اليوم } غافر: 16 أو إلى ربك مستقرهم أي: موضع قرارهم من جنة أو نار أي: مفوض ذلك إلى مشيئته من شار أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار " بما قدم " من عمل عمله " و " بما " أخر " منه لم يعمله أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه.

أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده.

وعن مجاهد: بأول عمله وآخره.

ونحوه: فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه " بصيرة " حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله: " فلما جاءتهم آياتنا مبصرة " النمل: 13 أو عين بصيرة

والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ففيه ما يجزئ عن الإنباء لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون " النور: 24 " ولو ألقى معاذيره " ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها.

وعن الضحاك: ولو أرخى ستوره وقال: المعاذير الستور واحدها معذار فإن صح فلأنه يمنع رؤية المتحجب كما تمنه المعذرة عقوبة المذنب.

فإن قلت: أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير قلت: المعاذير ليس بجمع معذرة إنما هو اسم جمع لها ونحوه: المناكير في المنكر.

{لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءاته فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بينه كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الاخره وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقره} الضمير في " به " للقرآن.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحي نازع جبريل القرءاة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلت منه فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضى إليه وحيه ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيهز والمعنى: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل صلوات الله عليه يقرأ " لتعجل به " لتأخذه على عجلة ولئلا يتفلت منك.

ثم علل النهي عن العجلة بقوله " إن علينا جمعة " في صدرك وإثبات قراءته في لسانك " فإذا قراناه " جعل قراءة جبريل قراءته: والقرآن القراءة " فاتبع قرءانه " فكن مقفياً له فيه ولا تراسله وطأمن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ فنحن في ضمان تحفيظه " ثم إن علينا بيانه " إذا أشكل عليك شيء من معانيه كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه {ولا تجعل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه} طه: 144 " كلا " ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وإنكار لها عليه وحث على الأناة والتؤدة وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله: " بل تحبون العاجلة " كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة " وتذرون الأخرة ط وقرئ بالياء وهو أبلغ فإن قلت: كيف اتصل قوله " لا تحرك به لسانك " إلى آخره بذكر القيامة قلت: اتصاله به من جهة هذا للتخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الأهتمام بالآخرة.

اوجه: عبارة عن الجملة والناضرة من نضرة التعيم " إلى ربها ناظرة " تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره وهذا معنى تقديم المفعلول ألا ترى إلى قوله: {إلى ربك يومئذ المستقر} القيامة: 12 {إلى ربك يومئذ المساق} {إلى الله تصير الأمور} الشوري: 53 {وإلى الله المصير} آل عمران: 28 {وإليه ترجعون} البقرة: 245 {عليه توكلت وإليه أنيب} هود: 88 كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظراً إليه: محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي تريد معنى التوقع والرجاء.

ومنه قول القائل: وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق لناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول: عيينتي نو يظرة إلى الله وإليكم والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه والباسر: الشديد العبوس والباسل: أشد منه ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه " تظن " تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته
وفظاعته " فاقرة " داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير.

{كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راقٍ وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذٍ المساق} " كلا " ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين.

والضمير في " بلغت " للنفس وإن لم يجر لها ذكر لأن الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم: أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر وتقول العرب: أرسلت يريدون: جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء " التراقى " العظام المكتنفة لثغره النحر عن يمين وشمال.

ذكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها: وقال حاضروا صاحبها - وهو المحتضر - بعضهم لبعض " من راقٍ " أيكم يرقيه مما به وقيل: هو كلام ملائكة الموت: أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب " وظن " المحتضر " أنه الفراق " أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة " والتفت " ساقه بساقه والتوت عليها عند علز الموت.

وعن قتادة: ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليهما جوالاً.

وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة على أن الساق مثل في الشدة.

وعن سعيد بن المسيب: هما ساقاه حين تلفان في أكفانه " المساق " أي يساق إلى الله وإلى حكمه.

{فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى} {فلا صدق ولا صلى} يعني الإنسان في قوله: {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه} القيامة: 3 ألا ترى إلى قوله: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} القيامة: 36 وهو معطوف على {يسأل أيان يوم القيامة} القيامة: 6 أي: لا يؤمن بالبعث فلا صدق بالرسول والقرآن.

ولا صلى ويجوز أن يراد: فلا صدق ماله بمعنى: فلا زكاة.

وقيل: نزلت في أبي جهل " يمتطى " يتبخر.

وأصله يتمطط أي: يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه.

وقيل: هو من المطا وهو الظهر لأنه يلويه.

وفي الحديث: إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم يعني: كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وتولى عنه وأعرض ثم ذهب إلى قومه يتبختر افتخاراً بذلك " أولى

{أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى} " فخلق " فقدر " فسوى " فعدل " منه " من الإنسان " الزوجين " الصنفين " أليس ذلك " الذي أنشأ هذا الإنشاء " بقادرٍ " على الإعادة.

وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً بيوم القيامة.

سورة الإنسان

مدينة وآياتها إحدى وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

{هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً} " هل " بمعنى قد في الاستفهام خاصة والأصل: أهل بدليل قوله: أهل رأونا بسفع القاع ذي الأكم فالمعنى: أقد أتى على التقرير والتقريب جميعاً أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب " حين من الذهر لم يكن " فيه " شيئاً مذكوراً " أي كان شيئاً منسياً غير مذكور نطفة في الأصلاب والمراد بالإنسان: جنس بني آدم بدليل قوله: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة} الإنسان: 2 " حين من الدهر " طائفة من الزمن الطويل الممتد فإن قلت: ما محل " لم يكن شيئاً مذكوراً " قلت: محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور.

أو الرفع على الوصف لحين كقوله: {يوما لا يجزي والد عن ولده} لقمان: 33 وعن بعضهم: أنها تليت عنده فقال: ليتها تمت أراد: ليت تلك الحالة تمت وهي كونه شيئاً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف.

{إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً} " نطفة أمشاج " كبرمة أعشار وبرد أكياش: وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للأفراد.

ويقال أيضاً: نطفة مسج قال الشماخ: طوت أحشاء مرتجة لوقت على مشج سلالته مهين ولا يصح أمشاج أن يكون تكسيراً له بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما.

ومشجه ومزجه: بمعنى.

والمعنى من نطقة قد امتزج فيها الماءان.

وعن ابن مسعو: هي عروق النطقة.

وعن قتادة: أمشاج ألوان وأطوار يريد: انها تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة " نبتليه " في موضع الحال أي: خلقناه مبتلين له بمعنى: مريدينابتلاءه كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً تريد: قاصداً به الصيد غداً.

ويجوز أن يراد: ناقلين له من حال إلى حال فسمي ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة.

وعن ابن عباس: نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة.

وقيل: هو في تقدير التأخير يعني: فجعلناه سميعاً بصيرا لنبتليه وهو من التعسف.

{إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً} شاكراً وكفوراً: حالان من الهاء في هديناه أي: مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً.

أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل السمع كان معلوماً منه أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة.

ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً كقوله: {وهديناه النجدين} البلد: 10 ووصف السبيل بالشكروالكفر مجاز.

وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في أما وهي قراءة حسنة والمعنى: أما شاكراً فبتوفيقنا وأما كفوراً فبسوء اختياره.

{إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيراً} ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد.

وقرئ سلاسل غير منون.

ولاسلا بالتنوين.

وفيه وجهان: أحدهما أن تكون هذه النون بدلا من حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف.

والثاني: أن يكون صاحب القراءة به ممن ضري برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف.

{إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً} " الأبرار " جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشهاد.

وعن الحسن: هم الذين لا يؤذن الذر والكأس: الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتسمى الخمر نفسها: كأساً " مزاجها " ما تمزج به " كافوراً " ماء كافور وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده.

و " عينا " بدل منه.

وعن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك.

وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور.

و " عينا " على هذين القولين: بدل من محل " من كاس " على تقدير حذف مضاف كأنه قيل: يشربون فيها خخمراً خمر عين.

أو نصب على الاختصاص.

فإن قلت: لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً وبحرف الإلصاق آخراً قلت: لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته وأما العين فبها يمزجون شرابهم فكان المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول: شربت الماء بلعسل " يفجرونها " يجرونها حيث شاؤا من منازلهم " تفجيراً " سهلا لا يمتنع عليهم " يوفون " جواب من عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله عليه أوفى " مستطيرا " فاشياً منشراً بالغاً أقصى المبالغ من استطار الحريق واستطار الفجر.

وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر " على جه " الضمير للطعام أي: مع اشتهائه والحاجة إليه

ونحوه {وآتى المال على حبه} البقرة: 177 {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} آل عمران: 92 وعن الفضيل بن عياض: على حب الله " وأسيراً " عن الحسن: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه.

وعند عامة العلماء: يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات وعن قتادة: كان أسيرهم يومئذ المشرك وأخوك المسلم أحق أن تطعمه.

وعن سعيد بن جبير وعطاء: هو الأسير من أهل القبلة وعن ابي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون.

وسمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الغريم أسيراً فقال غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك " إنما نطعمكم " على إدارة القول.

ويجوز أن يكون قولا باللسان منعاً لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله فلا معنى لمكافأة الخلق.

وأن يكون قولهم لهم لطفاً وتفقيهاً ونبيهاً على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله.

وعلى عائشة رضي الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله.

ويجوز أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً.

وعن مجاهد: اما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله منهم فأثنى عليهم.

والشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر " إنا نخاف " يحتمل أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة.

ووصف اليوم بالعبوس.

مجاز على طريقين: أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم.

روي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وان يشبه في شدته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل: والقمطرير: الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه.

قال الزجاج: يقال: اقمطرت الناقة: إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وزمت بأنفها فاشتقه من اقطر وجعل الميم مزيدة.

قال أسد بن ناعصة.

واصطليت الحروب في كل يوم باسل الشر قمطرير الصباح " فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسروراً وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً متكئين فيها على الأرايك لا يرون فيها سمشاً ولا زمهريراً ودانيةً عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ويطاف عليهم بأنيةٍ من فضةٍ وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة قدورها تقديراً ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عليهم ثياب سندسٍ خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضةٍ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مسكوراً " " ولقاهم نضرة وسرواً " أي: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرواً في القلوب وهذا يدل على أن اليوم موصوف بعبوس أهله " بما صبروا " بصبرهم على الإيثار.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلى لله عليه وسلم في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما: ان يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوهم بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها.

فساءه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

فإن قلت: ما معنى ذكر الحرير مع الجنة قلت: المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعرى بستانا فيه مأكل هني وحريراً فيه ملبس بهي.

يعني: أن هواءها معتدل لا حر شمس يحمي ولا شدة برد تؤذي.

وفي الحديث: هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر.

وقيل: الزمهرير القمر.

وعن ثعلب: انه في لغة طيئ.

وأنشد:

وليلةٍ ظلامها قد اعتكر ** قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى: أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

فإن قلت: ودانيةً عليهم ظلالها " علام عطفت قلت: على الجملة التي قبلها لأنها في موضع الحال من المجزيين وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في عليهم إلا أنها اسم مفرد وتلك جملة في حكم مفرد تقديره: غير رائين فيها شمساً ولا زمهريراً ودانية عليهم ظلالها ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنو الظلال عليهم وقرئ ودانية بالرفع على أن ظلالها مبتدأ ودانية خبر والجملة في موضع الحال والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً والحال أن ظلالها دانية عليهم ويجوز أن تجعل " متكئين " و " لايرون " و " ودانيةً " كلها صفات لجنة.

ويجوز أن يكون " ودانيةً " معطوفة على جنة أي: وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنها وعدوا جنتين كقوله {ولمن خاف مقام ربه جنتان} الرحمن: 46 لأنهم وصفوا بالخوف: {إنا نخاف من ربنا} الإنسان: 10 فإن قلت: فعلام عطف " وذللت " قلت: هي - إذا رفعت " ودانية " - جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية وإذا نصبتها على الحال فهي حال من دانية أي: تدنو ظلا لها هليم في حال تذليل قطوفها لهم.

أو معطوفة عليها على: ودانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها وإذا نصبت " ودانية " على الوصف فهي صفة مثلها ألا ترى أنك لو قلت: جنة ذللت قطوفها: كان صحيحاً وتذليل القطوف: أن تجعل ذللا لا تمنع على قطافها كيف شاؤا.

أو تجعل ذليلة لهم خاضعة متقاصرة من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصيراً " قوارير قوارير " قرئا غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما.

وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصله وفي الثاني لإتباعه الأول ومعنى قوارير من " فضة " أنها مخلوقة من فضة وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها.

فإن قلت: ما معنى " كانت " قلت هو من - يكون - في قوله: {كن فيكون} البقرة 117 أي: تكونت قوارير بتكون الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتين الجوهرين المتباينين.

ومنه كان في قوله: " كان مزاجها كافوراً " وقرئ قوارير من فضة بالفرع على: هي قوارير " قدروها " صفة لقوارير من فضة.

ومعنى تقديرهم لها: أنهمقدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا.

وقيل: الضمير للطائفين بها دل عليهم قوله: {ويطاف عليهم} الإنسان: 15 على أنهم قدروا شرابها على قدر الري وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز.

وعن مجاهد: لا تفيض ولا تغيض.

وقرئ: قدروها على البناء للمفعول.

ووجهه أن يكون من قدر منقولا من قدر.

تقول: قدرت الشيء ودرنيه فلان: إذا جعلك قادراً له.

ومعناه: جعلوا قادرين له كما شاؤا.

وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها والعرب تستلذه وتستطيبه.

قال الأعشى: كأن القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأرياً مشورا وكأن طعم الزنجيل به إذ ذقته وسلافة الخمر و " سلسبيلاً " لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها يعني: أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة.

يقال: شراب سلسل وسلسل وسلسبيل وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية.

ودلت على غاية السلاسة.

قال الزجاج: السلسبيل في اللغة: صفة لما كان في غاية السلاسة.

وقرئ سلسبيل على منع الصرف لاجتماع العلمية والتأنيث: وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أم معناه سل سبيلا إليها وهذا غي مستقيم على ظاهره.

إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلاً جعلت علما للعين كما قيل: تأبط شراً وذرى حباً وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح وهو مع استقامة في العربية تكلف وابتداع وعزوه إلى مثل علي رضي الله عنه أبدع وفي شعر بعض المحدثين: سل سبيلاً فيها إلى راحة النف س براحٍ كأنها سلسبيل و " عينا " بدل من " زنجبيلا " وقيل: تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه.

أو يخلق الله طعمه فيها.

" وعينا " على هذا القول: مبدلة من كأسا " كأنه قيل: ويسقون فيها كأساً كأس عين.

أو منصوبة على الاختصاص.

شبهوا في حسنهم وصفاء أوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم بالؤلؤ المنثور وعن المأمون: انه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ.

فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال: لله در أبي نواس وكأنه أبصر هذا حيث يقول: " كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب وقيل: شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لنه أحسن وأكثر ماء " رأيت " ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر لسبع ويعم كأنه قيل: وإذا أوجدت الرؤية ثم ومعناه: أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثر وملك كبير و " ثم " في موضع النصب على الظرف يعني في الجنة ومن قال: معناه ما ثم فقد أخطأ لأن ثم صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة " كبيراً " واسعاً وهنيئاً.

يروى: أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه.

وقيل لا زوال له.

وقيل: إذا أرادوا شيأ كان.

وقيل: يسلم عليهم الملائكة ويتأذنون عليهم قرئ عاليهم بالسكون على أنه مبتدأ خبره " ثياب سندسٍ " أي ما يعلوهم من لباسهم ثياب سنس.

وعليهم بالنصب على أنه حال من الضمير في " ويطوف عليهم " أو في " حسبتهم " أي يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب.

أو حسبتهم لؤلؤاً عالياً لهم ثياب.

ويجوز أن يراد: رايت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب.

وعاليتهم: بالرفع والنصب على ذلك وعليهم.

وخضر وإستبرق: بالرفع حملا على الثباب وبالجر على السندس.

وقرئ وإستبرق نصباً في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمي وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف تقول: الإستبرق إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب.

وقرئ واستبرق بوصل الهمزة والفتح: على أنه مسمى باستفعل من البريق وليس بصحيح أيضاً: لأنه معرب مشهور تعريبه وان أصله استبره " وحلوا " عطف على {ويطوف عليهم}

فإن قلت: ذكر ههنا أن ههنا أن أساورهم من فضة وفي موضع آخر أنها من ذهب.

قلت: هب أنه قيل وحلوا أساور من ذهب ومن فضة وهذا صحيح لا إشكال فيه على انهم يسورون بالجنسين: إما على المعاقبة وإما على الجمع كما تزاوج نساء الدينا بين أنواع الحلي وتجمع بينها وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران: سوار من ذهب وسوار من فضة " شراباً طهوراً " ليس برجس كخمر الدنيا لأن كونها رجساً بالشرع لا بالعقل وليست الدار دار تكليف.

أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها.

أو لأنه لا يؤول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك.

أي: يقال لأهل الجنة " إن هذا " وهذا إشارة إلى ما تقدم من عطاء الله لهم: ما جوزيتم به على أعمالكم وسكر به سعيكم والشكر مجاز.

{إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً} تكرير الضمير بعد إيقاعه إسماً لان: تاكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الل بالتزيل ليتقرر في نفس رسول الله صلى

الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تزيله على أي وجه نزل إلا حكمة وصواباً كأنه قيل: ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً منجماً إلا أنا لا غيري عرفتني حكيماً فاعلاً لكل ما أفعله بدواعي الحكمة ولقد دعني حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمكافة والمصابرة وسأنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين " فاصبر لحكم ربك " الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح وتأخيره نصرتك على أعدائك من اهل مكة ولا تطع منهم أحداً قلة صبر منك على أذاهم وضجراً من تأخر الظفر وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونه إلى أن يرجع عن أمره ويبذلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم إن اجابهم.

فإن قلت: كانوا كلهم كفرة فما معنى القسمة في قوله " أثماً أو كفوراً " قلت: معناه ولا تطع منهم راكباً لما هو إثم داعياً لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر فنهي أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث.

وقيل: الآثم عتبة والكفور: الوليد لأن عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق

وكان الوليد غالياً في الكفر شديد الشكيمة في العتو.

فإن قلت: معنى أو: ولا تطع احدهما فهلا جيء بالواو ليكون نهياً عن طاعتهما جميعاً قلت: لو قيل: ولا تطعهما جاز أن يطيع أحدهما وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما: عن طاعتهما جميعاً أنهى.

كما إذا نهى أن يقول لأبويه: أف علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى " واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً " ودم على صلاة الفجر والعصر " ومن اليل فاسجد له " وبعض الليل فصل له.

أو يعني صلاة المغرب والعشاء وأدخل من على الظرف للتبعيض كما دخل على المفعول في قوله: {يغفر لكم من ذنوبكم} نوح: 4 {وسبحه ليلاً طويلاً} وتهجد له هزيعاً طويلا من الليل: ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

{إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً} " إن هؤلاء " الكفرة " يحبون العاجلة " يؤثرونها على الآخرة كقوله: {بل تؤثرون الحياة الدنيا} الأعلى: 16 " وراءهم " قدامهم أو خلف ظهورهم لا يعبأون به " يوماً ثقيلاً " استعير الثقيل لشدته وهوله من الشيء الثقيل الباهظ لحامله.

ونحوه: {ثقلت في السموات والأرض} الأعراف: 187 الأسر: الربط والتوثيق.

ومنه: أسر الرجل إذا وثق بالقد وهو الإسار وفرس

مأسور الخلق وترس مأسور بالعقب.

والمعنى: شدنا توصيل عظامهم بعضها ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب.

ومثله قولهم: جارية معصوبة الخلق ومجدولته " وإذا شئنا " أهلكناهم و " بدلنا أمثالهم " في شدة الأسر يعني: النشأة الأخرى.

وقيل: معناه: بدلنا غيرهم ممن يطيع.

وحقه ان يجيء بإن لا بإذا كقوله {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم} محمد: 38 {إن يشأ يذهبكم} النساء: 133.

{إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيما يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما} " هذه " إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة " فمن شاء " فمن اختار الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة " ومايشاؤن " الطاعة " إلا أن يشاء الله " بقسرهم عليها " إن الله كان عليماً " بأحوالهم وما يكون منهم " حكيماً " حيث خلقهم مع علمه بهم.

وقرئ تشاؤن بالتاء.

فإن قلت: ما محل أن يشاء الله قلت النصب على الظرف وأصله: إلا وقت مشيئة الله وكذلك قراءة ابن مسعود: إلا ما يشاء الله لأن ما مع الفعل كأن معه " يدخل من يشاء " هم المؤمنون ونصب " والظالمين " بفعل يفسره.

اعد لهم نحو: أو عد وكافأ وما أشبه ذلك وقرأ ابن مسعود: وللظالمين على: وأعد للظالمين

وقرأ ابن الزبير: والظالمون على الابتداء وغيرها أولى لذهاب الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها مع مخالفتها للمصحف.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريراً

سورة المرسلات

مكية وآياتها خمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{والمرسلات عرفاً فاعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً} أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عن انحطاطن بالوحي.

أو نشرن الشرائع في الأرض.

أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء " عذراً " للمحقين " أو نذراً ط للمبكلين.

أو أقسم برياح عذاب أرسلهن.

فعصفن وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله: " ويجعله كسفاً " الروم: 48 أو بسحائب نشرن الموات ففرقن بين من يشكر لله تعالى وبين من يكفر كقوله: {لأسقيناهم ماء غداً لنفتنهم فيه} الجن: 16 فألقين ذكراً إما للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها وإما إنذاراً للذين

يغفلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت.

فإن قلت: ما معنى عرفاً قلت: متتابعة كشعر العرف يقال: جاؤا عرفاً واحداً وهم عليه كعرف الضبع: إذا تألبوا عليه ويكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر وانتصابه على أنه مفعول له أي: أرسلن للإحسان والمعروف والأول على الحال.

وقرئ عرفا على التثقيل نحو نكر في نكر.

فإن قلت: قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب فكيف إرسالهم معروفاً قلت: إن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم.

فإن قلت: ما العذر والنذر وبما انتصبا قلت: هما مصدران من أعذار إذا محا الإساءة ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والشكر يجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذرة وجمع نذير بمعنى الإنذار.

أو بمعنى العاذر والمنذر.

وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكراً على الوجهين الأولين أو على المفعول له.

وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين

{إنما توعدون لواقع فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت وإذا الجبال نسفت وإذا الرسل أقتت لأي يومٍ أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذٍ للمكذبين} إن الذي توعدونه من مجيء يوم القامة لكائن نازل لا ريب فيه وهو جواب القسم وعن بعضهم: أن المعنى: ورب المرسلات " طمست " محيت ومحقت.

وقيل ذهب بنورها ومحق ذواتها موافق لقوله " انتثرت " و " انكدرت " ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور " فرجت " فتحت فكانت أبواباً.

قال الفارجي: باب الأمير المبهم " نسفت " كالحب إذا نسف بالمنسف.

ونحوه {وبست الجبال بساً} الواقعة: 5 {وكانت الجبال كثيباً مهيلاً} المزمل: 14 وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشيء إذا اختطفته وقرئت كمست وفرجت ونسفت مشددة.

قرئ أقتت وقتت بالتشديد والتخفيف فيهما.

والأصل: الواو ومعنى توقيت الرسل: تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

والتأجيل: من الأجل كالتوقيت: من الوقت " لأي يومٍ أجلت " تعظيم لليوم وتعجيب من هوله " ليومٍ الفصل " بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق.

والوجه أن يكون معنى وقتت: بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره: وهو يوم القيامة.

وأجلت: أخرت.

فإن قلت: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: " ويل يومئذ للمكذبين " قلت: هو أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه.

ونحوه {سلام عليكم} النعام: 54 ويجوز: ويلا بالنصب ولكنه لم يقرأ يه.

يقال: ويلا له ويلا كيلا.

{ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الأخرين كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذٍ للمكذبين} قرأ قتادة نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى أهلكه قال العجاج: ومهمة هالك من تعرجا " ثم نتبعهم " بالرفع على الاستئناف وهو وهعيد لأهل مكة يريد: ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ويقويها قراءة ابن مسعود ثم سنتبعهم وقرئ بالجزم للعطف على نهلك.

ومعناه: أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى " كذالك " مثل ذلك الفعل الشنيع " نفعل " بكل من أجرم إنذاراً وتحذيراً من عاقبة الجرم وسوء أثره.

{ألم نخلقكم من ماءٍ مهينٍ فجعلناه في قرارٍ مكينٍ إلى قدرٍ معلومٍ فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذٍ للمكذبين} {إلى قدرٍ معلومٍ} إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به: وهو تسعة الأشهر وأما دونها أو ما فوقها " فقدرنا " فقدرنا ذلك تقديراً " فنعم القادرون " فنعم المقدرون له

نحن.

او فقدرنا على ذلك فنعم القدرون عليه نحن والأول أولى لقراءة من قرأ فقدرنا بالتشديد ولقوله {من نطفة خلقه فقدره} عبس: 19.

{ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواناً وجعلنا فيها رواسي شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فراتاً ويل يومئذ للمكذبين} الكفات: من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه: وهو اسم ما يكفت كقولهم: الضمام والجماع لما يضم ويجمع يقال: هذا الباب جماع الأبواب وبه انصب " أحياءً وأمواتاً " كأنه قيل: كافتة أحياء وأمواتاً.

وبفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت.

والمعنى: تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها.

وقد استدل بعض أصحاب الشافعي رحمه الله على قطع النباس بأن الله تعلى جعل الأرض كفاتاً للأموات فكان بطنها حرزاً لهم فالنباش سارق من الحرز.

فإن قلت: لم قيل أحياء وأمواتاً على التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعاً قلت: هو من تنكير التفخيم كانه قيل: تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات.

ويجوز أن يكون المعنى: تكفتكم أحياء وأموتاً فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس.

فإن قلت: فالتكير في " رواسي شمخاتٍ " و " ماء فراتاً " قلت: يحتمل إفادة التبعيض لأن في السماء جبالا قال الله تعالى: {وننزل من السماء من جبال فيها من برد} النور: 43 وفيها ماء فرات أيضاً بل هي معدنه ومصبه وان يكون للتفخيم.

{انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلي ظلٍ ذي ثلاث شعبٍ لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب إنها ترمي بشررٍ كالقصر كأنه جمالت صفر ويل يومئذٍ للمكذبين هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذٍ للمكذبين} أي يقال لهم: انطلقوا إلى ما كذبتم به من العذاب وانطلقوا الثاني تكرير.

وقرئ: انطلقوا على لفظ الماضي إخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعاً منه " إلى ظلٍ ط يعني دخان جهنم كقوله: {وظل من يحموم} الواقعة: 43 " ذي ثلاث شعب " بتشعب لعظمه ثلاث شعب وهكذا الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب.

وقيل: يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش " لا ظليلٍ " تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين " ولا يغنى " في محل الجر أي: وغير مغن عنهم من حر اللهب شيئاً " بشررٍ " وقرئ: بشرار " كالقصر " أي كل شررة كالقصر من القصور في عظمها.

وقيل: هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو: جمرة وجمر.

وقرئ كالقصر بفتحتين: وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر.

وقرأ ابن مسعود: كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن.

وقرأ سعيد ابن جبير كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحوج " جمالت " جمع جمال.

أو جمالة جمع جمل شبهت بالقصور ثم بالجمال لبيان التشبيه.

ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل.

وقرئ جمالات بالضم: وهي قلوس الجسور.

وقيل: قلوس سفن البحر الواحدة جمالة وقرئ جمالة بالكسر بمعنى: جمال وجمالة بالضم: وهي القلس.

وقيل " صفر " لإرادة الجنس.

وقيل " صفر " سود تضرب إلى الصفرة.

وفي شعر عمران بن حطان الخارجي: دعنهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى وقال أبو العلاء: " حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمى بكل شرارةٍ كطراف فشبهها بالطراف وهوبيت الأدم في العظم والحمرة وكأنه قصد بخبثه: أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله حمراء توطئة لها ومناداة عليها وتنبيها لسامعين على مكانها ولقد عمي: جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا " كأنه جمالات صفر " فإنه بمنزلة قوله: كبيت أحمر وعلى أن

في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين: من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء وفي التشبيه بالجمالاتوهي القوس: تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم والطول والصفرة فأبعد الله إغرابه في طرافه وما نفخ شدقيه من قرئ بنصب اليوم ونصبه الأعمش أي: هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ويوم القيامة طويل ذو مواطن ومواقيت: ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت ولذلك ورد الأمران في القرآن.

أو جعل نطقهم كلا نطق لأنه لا ينفع ولا يسمع " فيعتذرون " عطف على " يؤذن " منخرط في سلك النفي.

والمعنى: ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن ولو نصب لكان مسبباً عنه لا محالة.

{هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذٍ للمكذبين إن المتقين في ظلالٍ وعيون وفواكه مما يشتهون كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون إنا كذلك نجزي المحسنين ويل يومئذ للمكذبين} " جمعناكم والأولين " كلام موضح لقوله: " هاذا يوم الفصل " لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين النبياء وأممهم.

فلا بد من جمع الولين والآخرين حتى يقع ذلك الفصل بينهم " فإن كان لكم كيد فكيدون " تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة " كلوا واشربوا " في موضع الحال من ضمير المتقين في الظرف الذي هو في ظلال أي: هم مستقرون في ظلال مقولا لهم ذلك.

{كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ويل يومئذٍ للمكذبين وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل

يومئذٍ للمكذبين فبأي حديث بعده يؤمنون} كلوا وتمتعوا فإن قلت: كيف يصح أن يقال لهم ذلك في الآخرة قلت: يقال لهم ذلك في الآخرة إيذاناً بانهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم وكانوا من اهله تذكيراً بحالهم السمجة وبما جنوا على انفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد.

وفي طرقته قوله: " إخوتي لا تبعدوا أبداً وبلى والله قد بعدوا يريد: كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك وعلل ذلك بكطونهم مجريمين دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياماً قلائل ثم البقاء في الهلاك أبداً ويجوز أن يكون {كلوا وتمتعوا} المراسلات: 46 كلاماً مستأنفاً خكاباً للمكذبين في الدنيا " اركعوا " اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه.

واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على إستكبارهم.

وقيل: ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود: وقيل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فقالوا: لا نجبى فإنها مسبة علينا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود " بعدم " بعد القرآن يعني أن القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة فحين لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده " يؤمنون " وقرئ تؤمنون بالتاء.

من قرأ سورة والمرسلات كتب أنه ليس من المشركين

سورة عم يتساءلون

مكية وتسمى سورة النبأ وهي أربعون أو إحدى وأربعون آية بسمالله الرحمن الرحيم " عم يتساءلون عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون " " عم " أصله عما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر.

قال حسان رضي الله عنه.

على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ في رماد والاستعمال الكثيرعلى الحذف والأصل: قليل ومعنى هذا الاستفهام: تفخيم الشأن كأنه قال عن أي شأن يتاءلون ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي هليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول: ما الغول وما العنقاء تريد: أي شيء هو من الأشياء هذا أصله ثم جرد العبارة عن التفخيم حتى وقع في

كلام من لا تخفى عليه خافية " يتساءلون " يسأل بعضهم بعضاً.

أو يتساءلون غيرهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين نحو: يتداعونهم ويتراءونهم

والضمير لأهل مكة: كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء " عن النبإ العظيم " بيان للشأن المفخم.

وعن ابن كثير أنه قأ عمه بهاء السكت ولا يخلو: إما ان يجري الوصل مجرى الوقوف وإما أن يقف ويبتدئ " يتساءلون عن النبإ العظيم " على أن يضمر " يتساءلون " لأن ما بعده يفسره كشيء يبهم ثم يفسر.

فإن قلت: قد زعمت أن الضمير في يتساءلون للكفار.

فما تصنع بقوله " هم فيه مختلفون " قلت: كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ومنهم من يشك.

وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً وكانوا جميعاً يسألون عنه.

أما المسلم فليزداد خشية واستعداداً وأما الكافر فليزداد استهزاء.

وقيل: المتساءل عنه القرآن.

وقيل: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقرئ يساءلون بالإدغام وستعلمون بالتاء.

{كلا سيعلمون ثم كلا سعلمون} " كلا " ردع للمتسائلين هزؤا.

و " سيعلمون " وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لأنه واقع لا ريب فيه.

وتكرير الردع مع الوعيد تشديد في ذلك ومعنى " ثم " الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول وأشد.

{ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرت ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجناتٍ ألفافاً} فإن قلت: كيف اتصل به قوله: " ألم نجعل الأرض مهاداً " قلت: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة فما وجه إنكار قدرته على البعث وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات أو قيل لهم: ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة.

والحكيم لا يفعل فعلا عبثاً وما تنكرونه من البعث والجزاءء مؤد إلى انه عابث في كل ما فعل " مهاداً " فراشاً.

وقرئ مهداً ومعناه: أنها لهم كالمهد للصبي: وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الأمير.

أو وصف بالمصدر.

أو بمعنى: ذات مهد أي أرسناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد " سباتاً " موتاً.

والمسبوت.

الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة.

والنوم: احد التوفيين وهو على بناء الأدواء.

ولما جعل النوم موتاً جعل اليقظة معاشاً أي: حياة في قوله: " وجعلنا النهار معاشاً " النبأ: 11 أي: وقت معاش تستقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم وكاسبكم.

وقيل: السبات الراحة " لباساً " يستركم عن العيون إذا أردتم هرباً من عو أو بيتاً له.

أو إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كيثر من وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تخبر أن المانوية تكذب " سبعاً سبع سموات " شداداً " جمع شديدة يعني: محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان " وهاجاً " متلألئا وقاداً يعني: الشمس: وتوهجت النار: إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها المعصرات: السحائب إذا أعصرت أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك: اجز الزرع إذا حان له أن يجز.

ومنه: أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض.

وقرأ عكرمة: بالمعصرات وفيه وجهان: أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب وأن تراد السحائب لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها كما تقول: أعطى من يده درهما واعطى بيده وعن مجاهد: المعصرات الرياح ذوات الأعاصير.

وعن الحسن وقتادة: هي السموات.

وتأويله: أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكأن السموات يعصرن أي: يحملن على العصر ويمكن منه.

فإن قلت: فما وجه من قرأ.

" من المعصرات " وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير والمطر لا ينزل من الريا قلت: الرياح هي التي تنشئ اللسحاب وتدر أخلافه فصح أن تجعل مبدأ للإنزال وقد جاء: أن الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب فإن صح ذلك فالإنزال منها ظاهر فغن قلت: ذكر ابن كيسان أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات والعاصر هو المغيث لا المعصر.

يقال: عصره فاعتصر.

قلت: وجهه أن يريد اللاتي أعصرن أي حان لها أن تعصر أي: تغيث " ثجاجاً " منصباً بكثرة يقال: ثجه وثج بنفسه وفي الحديث: أفضل الحج: العج والثج أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي.

وكان ابن عباس مثجاً يسيل غرباً يعني أن يثج الكلام ثجا في خطبته.

وقرأ الأعرج ثجاجاً ومثجج الماء: مصابه والماء ينثجج في الوادي " حباً ونباتاً " يرد ما يتقوت من نحو الحنطة والشعير وما يعتلف من التبن والحشيش كما قال: {كلوا وارعوا أنعامكم} طه: 54 و {والحب ذو العصف والريحان} الرحمن: 12.

" ألفافاً " ملتفة ولا واحد له كالأوزاع والأخياف.

وقيل: الواحد لف.

وقال صاحب الإقليد: أنشدني الحسن بن علي الطوسي: جنة لف وعيش مغدق وندامى كلهم بيض زهر وزعم ابن قتيبة أنه لفاء ولف ثم ألفاف: وما أظنه واجداً له نظيراً من نحو خضر وأخضار وحمر وأحمار ولو قيل: هو جمع ملتفة بتقدير حذف الوائد لكان قولاً وجيها.

{إن يوم الفصل كان ميقاتاً يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً وفتحت السماء فكانت أبواباً وسيرت الجبال فكانت سراباً} " كان مياتاً " كا في تقدير الله وحكمه حداً توقت به الدنيا وتنتهي عنده أو حدا للخلائق ينتهون إليه " يوم ينفخ " بدل من يوم الفصل أو عطف بيان " فتأتون أفواجاً " من القبور إلى الموقف أمماً كل أمة مع إمامهم.

وقيل: جماعات مختلفة.

وعن معاذ رضي الله عنه أن سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معاذ سألت عن أمر عظيم من المور ثم أسل عينيه وقال: تحشر عشرة أصناف من أمتي: بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون: أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمياً وبعضهم صماً بكماً وبعضهم يمضغون أسنتهم فهي مدلاة على صدورهم: يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتناً من الجيف ويعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس.

وأما الذين على صورة الخنازير: فأهل السحت.

وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمي فالذين يجورون في الحكم وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم وظاما الذين يمضغون أسنتهم فالعلماء والقصاص الذين

خالف قولهم أعمالهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السطان وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء وقرئ وفتحت بالتشديد والتخفيف.

والمعنى: كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة كقوله: {وفجرنا الأرض عيوناً} القمر: 12 كأن كلها عيون تتفجر وقيل: الأبواب الطرق والمالك أي: تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء " فكانت سراباً " كقوله: {فكانت هباء منبثاً} الواقعة: 6.

يعني أنها تصير شيئاً كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثات جواهرها.

{إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مأبا لابثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً جزآء وفاقاً إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً وكل شيءٍ أحصيناه كتاباً فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً} المرصاد: الحد الذي يكون فيه الرصد.

والمعنى: أن جهنم هي حد الطاغين الذي يرصدون فيه للعذاب وهي مآبهم.

أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهي مآب للطاغين.

وعن الحسن وقتادة نحوه قالا: طريقاً وممراً لأهل الجنة وقرأ ابن يعمر أن جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصاداً للطاغين كأنه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء.

قرئ لابثين ولبثين واللبث أقوى لأن اللابث من وجد منه اللبث ولا يقال لبث إلا لمن شأنه اللبث كالذي يجثم بالمكان لا يكادد ينفك منه " أحقاباً " حقباً بعد حقب كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ولا يكاد يتسعمل الحقب والحقيبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها والاشتقاق يشهد لذلك.

ألا ترى إلى حقيبة الراكب والحقب الذي وراء التصدير وقيل: الحقب ثمانون سنة ويجوز أن يراد: لابثين فيها أحقاباً غير ذائقين فيها برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب.

وفيه وجه آخر: وهو أن يكون من: حقب عامنا.

إذا قل مطره وخيره وحقب فلان: إذا أخطأة الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالا عنهم يعني لا بثين فيها حقبين جحدين.

وقوله: {لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً} تفسير له والاستثناء منقطع يعني: لا يذوقون فيها برداً وروحاً ينفس عنهم حر النار ولا شراباً يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً وقيل البرد النوم وانشد: فلو شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا وعن بعض العرب: منع البرد البرد.

وقرئ غساقاً بالتخفيف والتشديد: وهو ما يغسق أي: يسيل من صديدهم " وفاقاً " وصف بالمصدر.

او ذا وفاق.

وقرأ أبو حيوة: وفاقاً فعال من وفقه كذا كذاباً وفعال في باب فعلكله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره وسمعنى بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فساراً ما سمع بمثله.

وقرئ بالتخفيف وهو مصدر كذب بدليل قوله: وهو مثل قوله: {أنبتكم من الأرض نباتاً} نوح: 17 يعني: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً.

أو تنصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بأياتنا فكاذبوا مكاذبة.

أو كذبوا بها مكاذبين لأنهم إذا كانوا عن المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده.

وقرئ كذاباً وهو جمع كاذب أي: كذبوا بأياتنا كاذبين وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب يقال: رجل كذاب كقولك: حسان وبخال فيجعل صفة لمصدر كذبوا أي: تكذيباً كذاباً مفرطاً كذبه وقرأ أبو السمال: وكل شيء أحصيناه بالفع على الابتداء " كتاباً " مصدر في موضع إحصاء وأحصينا: في معنى كتبنا لانتقاء الإحصاء والكتبة في معنى الضبط والتحصيل

او يكون حالا في معنى: مكتوباً في اللوح وفي صحف الحفظة.

والمعنى: إحصاء معاصيهم كقوله: {أحصاه الله ونسوه} المجادلة: 6 وهو اعتراض.

وقوله: " فذوقوا " مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وهي آية في غاية الشدة وناهيك بلن نزيدكم وبدلا لته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة.

وبمجيئها على طيرقة الالتفات شاهداً على أن الغضب قد تلالغ وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

{إن للمتقين مفازاً حدآئق وأعناباً وكواعب أتراباً وكأساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً جزآءً من ربك عطاءً حساباً} " مفازاً " فوزاً وظفراً بالبغية.

أو موضع فوز وقيل: نجاة مما فيه أولئك أو موضع نجاة وفسر المفاز بما بعده والحدائق: البساتين فيها أنواع الشجر المثمر.

والأعناب: الكوم والكواعب: اللاتي فلكت ثديهن وهن النواهد والأتراب اللدات: والدهاق: المترعة وأدهق الحوض: ملأه حتى قال قطنى قرئ ولا كذاباً بالتشديد والتخفيف أي: لا يكذب بعضه بعضاً ولا يكذبه أو لا يكاذبه.

وعن علي رصي الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين " جزاءً " مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله: {إن للمتقين مفازاً} كأنه قال: جازي المتقين بمفاز و " عطاءً " نصب بجزاء نصب المفعول به أي: جزاهم عطاء "و " حساباً " صفة بمعنى: كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي.

وقيل: على حسب أعمالهم وقرأ ابن قطيب حساباً بالتشديد على أن الحساب بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك.

{رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح والملآئكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صواباً ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه}

قرئ رب السموات و الرحمن بالرفع على: هو رب السموات الرحمان.

أو رب السموات مبتدأ والرحمان صفة ولا يملكون: خبر أو هما خبران وبالجر على البدل من ربك ويجر الول ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره " لا يملكون " أو هو الرحمن لا يملكون والضمير في " لا يملكون " لأهل السموات والأرض أي: ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه.

أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه.

" يوم يقوم " متعلق بلا يملكون أو بلا يتكلمون.

والمعنى: إن الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه وهم اروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض والروح: أعظم خلقاً من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين.

وقيل: هو ملك عظيم ما خلق الله بعد العرش خلقاً أعظم منه.

وقيل: ليسوا بالملائكة وهم يأكلون.

وقيل: جبريل.

هما شريطتان: أن يكون المتكلم منهم مأذوناً له في الكلام.

وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} الأنبياء " 28.

{إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً}

" المرء " هو الكافر لقوله تعالى: {إنا أنذرناكم عذاباً قريباً} والكافر: ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ويعني " ما قدمت يداه " من الشر كقوله: {وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم} الأنفال: 50 - 51 {ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك} الحج: 9 - 10 {بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين} البقرة: 95 وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أي ينظر أي شيء قدمت يداه وموصلة منصوبة بينظر ياقل: نظرته بمعنى نظرت إليه والراجع من الصلة محذوف وقيل: المرء عام وخصص من الكافر.

وعن قتادة: هو المؤمن " يا ليتني منت ترابا " في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف.

أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أبعث.

وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يرده تراباً فيود الكافر حاله وقيل: الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال {خلقتني من نار وخلقته من طين} الأعراف: 12.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة.

سورة النازعات

مكية وهي خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذٍ واجفة أبصارها خاشعة يقولون أإنا لمردودون في الحافرة أءذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة} أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها.

من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها وبالطوائف لتي تسبح في مضيها أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم " غرقاً " إغراقاً في النزع أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها أو أقسمبخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب.

والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك: ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد إلى بلد والتي تسبح في جريها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وإسناد التدبير إليها لنها من أسبابه أو أقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب.

وإغراقها في النزع: ان تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً من علم الحساب.

وقيل النازعات أيدي الغزاة او أنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنشط الأوهاق والمقسم عليه محذوف وهو لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

و " يوم ترجف " منصوب بهذا المضمر.

و " الراجفة " الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى: وصفت بما يحدث بحدوثها " تتبعها الرادفة " أي الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية.

ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى: {قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون} النمل: 72 أي القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها وهي رادفة لهم لاقترابهم.

وقيل الراجفة الأرض والجبال من قوله: " يوم ترجف الأرض والجبال " المزمل: 14 والرادفة: السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك.

غفإن قلت: ما محل تتبعها قلت: الحال أي: ترجف تابعتها الرادفة.

فإن قلت: كيف جعلت " يوم ترجف " ظرفاً للمضمر الذي هو لتبعثن ولا يبعثون عند النفخة الأولى قلت: المعنى لتبعثن في الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان وهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى ودل على ذلك أن قوله: " تتبعها الرادفة " جعل حالاً عن الراجفة.

ويجوز أن ينتصب " يوم ترجف " بما دل عليه " قلوب يومئذٍ واجفة " أي يوم ترجف وجفت القلوب " واجفة " شديدة الاضطراب والوجيب والوجيف: أخوان " خاشعة " ذليلة.

فإن قلت: كيف جاز الابتداء بالنكرة قلت: " قلوب " مرفوعة بالابتداء و " واجفة " صفتها " أبصارها خاشعة " خبرها فهو كقوله: {ولعبد مؤمن خير من مشرك} البقرة: 221 فإن قلت: كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب قلت: معناه أبصار أصحابها بدليل قوله: " يقولون " " في الحافرة " في الحالة الأولى يعنون: الحياة بعد الموت.

فإن قلت: ما حقيقة هذه الكلمة قلت: يقال: رجع فلان في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي: أثر فيها بمشيه فيها: جعل أثر قدميه حفراً كما قيل: حفرت أسنانه حفراً: إذا أثر الأكال في أسناخا.

والخط المحفور في الصخر.

وقيل: حافرة كما قيل: عيشة راضية أي: منسوبة إلى الحفر والرضا أو كقولهم: نهارك صائم ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته أي إلى طريقته وحالته الأولى.

قال: أحافرة على صلعٍ وشيبٍ معاذ الله من سفهٍ وعارٍ يريد: أرجوعاً إلى حافرة وقيل: النقد عند الحافرة يريدون عند الحالة الأولى: وهي الصفقة وقرأ أبو حيوة في الحفرة والحفرة بمعنى: المحفورة.

يقال: حفرت أسنانه فحفرت حفراً وهي حفرة وهذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة.

ياقل: نخر العظم فه نخر وناخر كقولك طمع فهو طمع وطامع وفعل أبلغ من فاعل وقد قرئ بهما: وهو البالي الأجوف الذي تمر فيه الريح فيسمع له بخير.

" وإذاً " منصوب بمحذوف تقديره: أنذاكنا عظاماً نرد ونبعث " كرة خاسرة " منسوبة إلى الخسران أو خاسر أصحابها.

والمعنى: أنها إن صحت فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها وهذا استعزاء منهم فإن قلت بم تعلق قوله " فإنما هي زجرة واحدة " قلت: بمحذوف معناه: لا تستصعبوها فغنما هي زجرة واحدة يعني: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل فغنها سهلة هينة في قدرته ما هي إلا صيحة واحدة يريد النفخة الثانية " فإذا هم " أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها من قولهم: زجر البعير إذا صاح عليه.

والساهرة: الأرض البيضاء المتوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها: نائمة.

قال الأشعث بن قيس: "

وساهرة يضحى السراب مجللاً ** لأفطارها قد جبتها ملثما

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة.

وعن قتادة: فإذا هم في جهنم.

{هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فاخذه الله نكال الأخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} "
اذهب " على إرادة القول.

وفي قراءة عبد الله أن أذهب لأن في النداء معنىالقول.

هل لك في كذا وهل لك إلى كذا كما تقول: هل ترغب فيه وهل ترغب إليه " إلى أن تزكى " إلى أن تتطهر من الشرك وقرأ أهل المدينة تزكى بالإدغام " وأهديك إلى ربك " وأرشدك إلى معرفة الله أنبهك عليه فتعرفه " فتخشى " لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة.

قال الله تعالى: " إنما يخشى الله من عبادة العلماء " فاطر: 28 أي العلماءبه وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر من خشي الله: أتى منه كل خير.

ومن امن: اجترأ على كل شر.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول وستزله بالمداراة من عتوه كما أمر بذلك في قوله: {فقولا له قولا ليناً} طه: 44 " الأية الكبرى " قلب العصا حية لأنها كانت المقدمة والأصل والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتقيها بيده فقيل له: أدخل يدك في جيبك أو أرادهما جميعاً إلا أنه جعلهما واحة لأن الثانية كأنها من جملة الولى لكونها تابعة لها " فكذب " بموسى والآية الكبرى وسماهما ساحراً وسحراً " وعصى " الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر وان الطاعة قد وجبت عليه " ثم أدبر يسعى " أي لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسعى: يسرع في مشيته.

قال الحسن كان رجلاً طياشاً خفيفاً.

أو تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته وأريد: ثم أقبل يسعى كما تقول: أقبل فلان يفعل كذا بمعنى: أنشأ يفعل فوضع " أدبر " موضع: أقبل لئلا يوصف بالإقبال " فحشر " فجمع السحرة كقوله: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين} الشعراء: 53.

" فنادى " في المقام الذي اجتمعوا فيه معه.

أو أمر منادياً فنادى في الناس بذلك.

وقيل قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة.

وعن ابن عباس: كلمته الأولى: {ما علمت لكم من إله غيري} القصص: 38 والآخرة: {أنا ربكم العلى} النازعات: 34.

" نكال " هو مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله كأنه قيل: نكل الله به نكال الآخرة والأولى والنكال بمعنى التكيل كالسلام بمعنى التسليم.

يعني الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة.

وعن ابن عباس: نكال كلمتيه الآخرة وهي قوله: " أنا ربكم الأعلى " والأولى وهي قوله: {ما علمت لكم من إله غيري} القصص: 28 وقيل: كان بين الكلمتين أربعون سنة.

وقيل عشرون.

{أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم} الخطاب لمنكري البعث يعني " ءأنتم " أصعب " خلقاً " وإنشاء " أم السماء " ثم بين كيف خلقها فقال " بناها " ثم بين البناء فقال " رفع سمكها " أي جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمسائة عام " فسواها " فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور.

أو فتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها من قولك: سوى فلان أمر فلان.

غطش الليل وأغطشه الله كقولك: ظلم واظلمه.

ويقال أيضاً: أغطش الليل كما يقال أظلم " وأخرج ضحاها " وأبرز ضوء شمسها يدل عليه قوله تعالى: {والشمس وضحاها} الشمس: 1 يريد وضوئها.

وقولهم: وقت الضحى للوقت الذي تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها وأضيف الليل والشمس إلى المساء لأن الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوها " ماءها " عيونها المتفجرة بالماء " ومرعاها " ورعيها وهو في الأصل موضع الرعى.

ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسى وهو الإضمار على شريطة التفسير.

وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء.

فإن قلت: هلا أدخل حرف العطف على أخرج قلت: فيه وجهان أحدهما: ان يكون معنى " دحاها " بسطها ومهدها للسكنى ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكانها من تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها والسكون بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجلال وإثباتها أو تادا لها حتى تستقر ويستقر عليها.

والثاني: أن يكون " وأخرج " حالاً بإضمار قد كقوله: {أو جاؤكم حصرت صدورهم} النساء: 90 وأراد بمرعاها: ما يأكل الناس والأنعام.

واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: {يرتع ويلعب} يوسف: 12 وقرئ: نرتع من الرعى ولهذا قيل: دل الله سبحانه بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح لأنه من الماء " متاعاً لكم " فعل ذلك تمتيعاً لكم " ولا نعامكم " لأن منفعة ذلك التمهيد واصلة إليهم و إلى أنعامهم.

{فإذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى} " الطامة " الداهية التي تطم على الدواهي أي: تعلو وتغلب.

وفي أمثالهم: جرى الوادي فطم على القرى وهي القيامة لطمومها على كل هائلة.

وقيل: هي النفخة الثانية.

وقيل: الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار " يوم يتذكر " بدل من إذا جاءت يعني: إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها وكان قد نسيها كقوله: {أحصاه الله ونسوه} المجادلة: 6 و " ما " في " ما سعى " موصولة أو مصدرية " وبرزت " أظهرت وقرأ أبو نهيك وبرزت " لمن يرى " للرائين جميعاً أي: لكل واحد يعني: انها تظهر إظهاراً بينا مكشوفاً يراها أهل الساهرة كلهم كقوله: قد بين الصبح لذي عينين يريد: لكل من له بصر وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد وقرأ ابن مسعود لمن رأى وقرأ عكرمة لمن ترى والضمير للجحيم كقوله: {إذا رأتهم من مكان بعيد} الفرقان: 12 وقيل: لمن ترى يا محمد

{فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى} " فأما " جواب " فإذا " أي: فإذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك والمعنى: فغن الجحيم مأواه كما تقول للرجل: غض الطرف تريد: طرفك وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة ولكن لما علم أن الطاغى هو صاحب المأوى وانه لا يغض الرجل طرف غيره: تركت الإضافة ودخول حرف التعريف في المأوى والطرف للتعريف لأنهما معروفان " وهي " فصل أو مبتدأ.

{وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى} " ونهى النفس " الأمارة بالسوء " عن الهوى " المردي وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير.

وقيل: الآتيان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه.

{يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر} {أيان مرساها} متى إرساؤها أي إقامتها أرادوا: متى يقيمها الله ويثبتها ويكونها وقيل أيان منهاها ومستقرها كما أن مرسى الفينة مستقرها حيث تنتهي إليه " فيم أنت " في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به يعني: ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها في شيء.

وعن عائشة رضي الله عنها: لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها.

والمعنى: انهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها ثم قال: " إلى ربك منتهاها أي منتهى علمها لم يؤت علمها أحداً من خلقه.

وقيل: " فيم " إنكار لسؤالهم أي فيم هذا السؤال ثم قيل: أنت من ذكراها أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة ذكر من ذكرها وعلامة من علاماتها فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها " إنما أنت من يخشاها " أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة

لهم في علمه وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون من إنذارك لطفاً له في الخشية منها.

وقرئ منذر بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة كقولك: هو منذر زيد أمس أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا وقيل: في القبور " إلا عشية أو ضحاها " فإن قلت: كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية قلت: لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد.

فإن قلت: فهلا قيل: إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة قلت: الدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوماً كاملاً ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته فهو كقوله: {لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} الأحقاف: 35.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة.

سورة عبس

مكية وآياتها 42 وقيل 41

بسم الله الرحمن الرحيم

{عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه} أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم - و أم مكتوم أم أبيه واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بين عامر بن لؤي - وعنده صناديد قريش: عتبة وسبية ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام.

والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم - فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ويقول له: هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقال أنس: رأيته يوم القادسية وعليه درع وله راية سوداء.

وقرئ عبس بالتشديد للمبالغة ونحوه: كلح " أن جاءه " منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين.

ومعناه: عبس لأن جاءه الأعمى أو أعرض لذلك.

وقرئ ءأأن جاءه بهمزتين وبألف بينهما ووقف على " عبس وتولى " ثم ابتديء على معنى: ألأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكاراً عليه.

وروى أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ولا تصدى لغني.

وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانيا جبنى عليه تم يقبل على لجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة.

وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك كأنه يقول: قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفا وترؤفاً وتقريباً وترحيباً ولقد تأدب الناس بأدب الله في هذا تأدباً حسناً فقد روي عن سفيان الثوري رحمه الله أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء " وما يدريك " وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى " لعله يزكى " أي يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم " أو يذكر " أو يتعظ " فتنفعه " ذكراك أي: موعظتك وتكون له لطفاً في بعض الطاعات.

والمعنى: أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر ولو دريت لما فرط ذلك منك.

وقيل: الضمير في " لعله " للكافر.

يعني أنك طعمت في أن يتزكى بالإسلام أو يتذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طعمت فيه كائن.

وقرئ فتنفعه بالرفع عطفاً على يذكر.

وبالنصب جواباً للعل كقوله: {فأطلع إلى إله موسى} غافر: 37 " تصدى " تتعرض بالإقبال عليه والمصاداة المعارضة وقرئ تصدى بالتشديد بإدغام التاء في الصاد.

وقرأ أبو جعفر: تصدى بضم التاء أي: تعرض.

ومعناه: يدعةك داع إلى التصدي له: من الحرص والتهالك على إسلامه وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام " إن عليك إلا البلاغ " الشورى: 48 " يسعى " يسرع في طلب الخير " وهو يخشى " الله أو يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك.

وقيل: جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة " تلهى " تتشاغل من لهي عنه التهى وتلهى وقرأ طلحة بن مصرف: تتلهى وقرأ أبو جعفر تلهى أي: يلهيك شأن الصناديد فإن قلت: قوله: " فأنت له تصدى " " فأنت عنه تلهى " كأن فيه اختصاصاً قلت: نعم ومعناه: إنكار التصدي والتلهي عليه أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدى للغني ويتلهى عن الفقير.

{كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعةٍ مطهرة بأيدي سفرةٍ كرام برره} " كلا " ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله " إنها تذكرة " أي موعظة يجب الاتعاظ والعلمل بموجبها " فمن شاء ذكره " أي كان حافظاً له غير ناس وذكر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ " في صحفٍ " صفة لتذكرة يعني: انها مثبتة في صحف منسخة من اللوح " مكرمةٍ " عند الله " مرفوعةٍ " في السماء.

أو مرفوعة المقدار " مطهرة " منزهة عن أيدي السياطين لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرين " سفرةٍ " كتبة ينتسخون الكتب من اللوح " بررة " أتقياء.

وقيل: هي صحف النبياء كقوله: {إن هذا لفي الصحف الأولى} الأعلى: 18 وقيل السفرة: القراء وقيل: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

" قتل الإنسان ما أكفره من أي شيءٍ خلقه من نطفه فقدوم ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا ساء أنشره كلا لما يقضى ما أمره "

{قتل الإنسان} دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأن القتل قاصارى شدائد الدنيا وفظائعها.

و " ما أكفره " تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن مساً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة مع تقارب طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر متنه ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها.

وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه إلى ما يجب عليه من القيام بالشكر " من أي شيءٍ خلقه " من أي شيء حقير مهين خلقه ثم بين ذلك الشيء بقوله: " من نطفة خلقه فقدره " فهيأه لما يصلح له ويختص به.

ونحو {وخلق كل شيء فقدره تقديراً} الفرقان: 2 نصب السبيل بإضمار يسر وفسره بيسر والمعنى: ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه.

أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريقي الخير والشر بإقداره وتمكينه كقوله: {إنا هديناه السبيل} الإنسان: 3 وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين له سبيل الخير والشر " فأقبره " فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض جزراً للسباع والطير كسائر الحيوان يقال: قبر الميت إذا دفنه وأقبره الميت إذا أمره أن يقبره وكنه منه ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحاً " أنشره " أنشأه النشأة الأخرى.

وقرئ نشره " كل " ردع للإنسان عما هو عليه " لما يقض " لم يقض بعد مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية " ما أمره " الله حتى يخرج عن جميع أوامره يعني: أن إنساناً لم يخل من تقصير قط.

{فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتونا ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولانعامكم} ولما عدد النعم في نفسه: اتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال: {فليظر الإنسان إلى طعامه} إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره أنا صببنا الماء يعني الغيث.

قرئ بالكسر على الاستئناف وبالفتح على البدل من الطعام وقرأ الحسين بن علي رضي الله عنهما أنى صببنا بالإمالة على معنى: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

وشققنا: من شق الأرض بالنبات ويجوز أن يكون من شقها بالكراب على البقر وأسند الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

والحب: كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما.

والقضب: الرطبة والمقضاب: أرضه سمي بمصدر قضبه إذا قطعه لأنه يقضب مرة بعد مرة " وحدائق غلباً ط يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول: حديقة ضخمة وأن يجعل شجرها غلباً أي: عظاماً غلاظاً.

والأصل في الوصف بالغلب: الرقاب فاستعير.

قال عمرو بن معد يكرب: والأب: المرعى لأنه يؤب أي يؤم وينتجع.

والأب والأم أخوان قال: جذمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأب به والمكرع وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به.

وعن عمر رضي الله عنه: أنه قرأ هذه الآية فقال: كل هذا قد عرفنا فما الأب ثم رفض عصاً كانت بيده وقال: هذا لعمر اله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ثم قال: أتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه فإن قلت: فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته.

قلت: لم يذهب إلى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً عندهم فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعاً له أو لإنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكرلله - على ما تبين لك ولم يشكل - مما عدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجميلة إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن.

{فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل أمرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذٍ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة} يقال: صخ لحديثه مثل: أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأن الناس يصخون لها " يفر " منهم لاشغاله بما هو مدفوع إليه ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً وبدأ بالأخ ثم بالأبوين أنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحي كأنه قال: يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه.

وقيل: يفر منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات.

يقول الأخ: لم تواسني بمالك.

والأبوان: قصرت في برنا.

والصاحبة: أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت.

والبنون: لم تعلمنا ولم ترشدنا وقيل: أول من يفر من أخيه: هابيل ومن أبويه: إبراهيم ومن صاحبته: نوح ولوط ومن ابنه نوح " يغنيه " يكفيه في الاهتمام به.

وقرئ يعينيه أي يهمه " مسفرة " مضيئة متهللة من أسفر الصبح: إذا أضاء وعن ابن عابس رضي الله عنهما: من قيام الليل لما روي في الحديث: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك: من آثار الوضوء.

وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله " غيرة " غبار يعلوها " فترة " سواد كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت وكأن الله عز وجل يجمع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر.

سورة التكوير

مكية وآياتها 29

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت وإذا المؤدةسئلت بأي ذنبٍ قتلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت} في التكوير وجهان: ان يكون من كورت العمامة إذا لفقتها أي: يلف ضوءها لفاً فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق وهو عبارة عن إزالتها والذهابها لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطاً غير ملفوف.

أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وطوي ونحوه قوله: {يوم نطوي السماء} الأنبياء: 104 أن يكون من طعنه فجوره

وكورة: إذا ألقاه أي: تلقى وتطرح عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار فإن قلت: ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية قلت: بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كورت لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط " انكدرت " انقضت قال: أبصر خربان فضاء فانكدر ويروى في الشمس والنجوم: انها تطرح في جهنم ليراها من عبدها كما قال: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} الأنبياء: 98 " سيرت " أي على وجه الأرض وأبعدت.

أو سيرت في الجو تسيير السحاب كقوله {وهي تمر مر السحاب} النمل: 88 والعشار في جمع عشراء كالنفاس في جمع نفساء: وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة وهي أنفس ما تكون عند أهلها وأعزها عليهم " عطلت " تركت مسيبة مهملة.

وقيل: عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالها بأنفسهم وقرئ عطلت بالتخفيف " حشرت " جمعت من كل ناحية.

قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص.

وقيل: إذا قضى بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته.

كالطاووس ونحوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها موتها.

يقال: إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة.

وقرئ حشرت بالتشديد " سجرت " قرئ بالتخفيف والتشديد من

سجر التنور: إذا ملأه بالحطب أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً.

وقيل: ملئت نيراناً تضطرم لتعذيب أهل النار.

وعن الحسن: يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة " زوجت " قرنت كل نفس بشكلها وقيل: قرنت الأرواح بالأجساد.

وقيل بكتبها وأعمالها.

وعن الحسن هو كقوله: " وكنتم أزواجاً ثلاثة " الواقعة: 7 وقيل: نفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكافرين بالشياطين وأد يئد مقلوب من آد يؤد: إذا أثقل.

قال الله تعالى: {ولا يؤده حفظهما} البقرة: 255 لأنه إثقال بالتراب: كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها: ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: أنظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليهاالتراب حتى تستوي البئر بالأرض.

وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإن ولدت ابناً حبسته فإن قلت: ما حملهم على وأد البنات قلت: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن.

أو الخوف من الإملاق كما قال اله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق} الإسراء: 31 وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهن.

وصعصعة بن ناجية ممن منعالوأد فبه افتخر الفرزدق في قوله: فإن قلت: فما معنى سؤال المؤودة عن ذنبها الذي قتلت به ولا سئل الوائد عن موجب قتله لها قلت: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى: {أأنت قلت للناس}" إلى قوله: {سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} المائدة: 116 وقرئ سألت أي: خاصمت عن نفسها وسألت الله أوقاتلها وإنما قيل " قتلت " بناء على أن الكلام إخبار عنها ولو حكى ما خوطبت به حين شئلت.

فقيل: قتلت أو كلاهما حين سئلت لقيل: قتلت.

وقرأ ابن عباس رضي عنهما: قتلت على الحكاية وقرئ قتلت بالتشديد وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب وإذا بكت الله الكافر ببراءة الموؤدة من الذنب: فما أقبح به وهو الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يكر عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل المبكت من العذاب الشديد السرمد وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن ذلك فاحتج بهذه الآية نشرت قرئ بالتخفيف والتشديد يريد: صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب.

عن قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ثم تنشر يوم القيامة فلينظر رجل ما يملي في صحيفته وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يحشر الناس عراة حفاة فقالت أم سلمة: كيف بالنساء فقال: شغل الناس يا أم سلمة قالت: وما شغلهم قال: نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل ويجوز أن يراد: نشرت بين أصحابها أي فرقت بينهم.

وعن مرثد بن وداعة: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية وتقع صحيفة المافر في يده في سموم وحميم أي مكتوب فيها ذلك وهي صحف غير صحف الأعمال " كشطت " كشفت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء وقرأ ابن مسعود قشطت واعتقاب الكاف والقاف كثير.

يقال: لبكت الثريد ولبقته والكافور والقافور " سعرت " وقدت إيقاداً شديداً وقرئ سعرت بالتشديد للمبالغة.

قيل: سعرها غضب الله تعلى وخطايا بني آدم " أزلفت " أدنيت من المتقين كقوله تعالى: {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} ق: 31 قيل: هذه اثنتا عشرة خصلة.

ست منها في الدنيا وست في الآخرة.

و " علمت " هو عامل النصب في " إذا الشمس كورت " وفيما عطف عليه.

فإن قلت: كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله: {يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضراً} آل عمرا: 30 لا نفس واحدة فما معنى قوله: " علمت نفس " قلت: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه.

ومنه قوله عز وجل: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين} الحجز: 2 وعناه: معنى كم وأبلغ منه وقول قد أترك القرن مصفراً أنامله وتقول لبعض قواد العسكر: كم عندك من الفرسان فيقول: رب فارس عندي.

أو لا تعدم عندي فاراساً وعنده المقانب: وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه.

ولكنه أراد إظهار براءته من الزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن قارئاً قرأها عنده فلما بلغ " علمت نفس ما أحضرت " قال: وانقطاع ظهرياه.

{فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس} " الخنس " الرواجع بينا ترى النجم في آخر البرج إذكر راجعاً إلى أوله و " الجوار " السيارة.

و " الكنس " الغيب من كنس الوحش: إذا دخل كناسه.

قيل: هي الدراري الخمسة: بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها: وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس.

وقيل: هيجميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وكنس بالليل: أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها عسعس الليل وسعسع: إذا أدبر.

قال العجاج: حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقيل عسعس: إذا أقبل ظلامه.

فإن قلت: ما معنى تنفس الصبح قلت: إذا أقبل الصبح: أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز وقيل: تنفس الصبح.

{إنه لقول رسولٍ كريم ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين} " إنه " الضمير للقرآن {لقول رسولٍ كريم} هو جبريل صلوات الله عليه " ذي قوةٍ " كقوله تعالى: {شديد القوى ذو مرة} النجم: 5 - 6 لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن قال: {عند ذي العرش} ليدل على عظم منزلته ومكانته " ثم " إشارة إلى الظرف المذكور أعني: عند

ذي العرش على أنه عند الله مطاع في ملائكته المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه.

وقرئ ثم تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة {وما صاحبكم بمجنون} " وما صاحبكم " يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم " بمجنون " كما تبهته الكفرة وناهيك بهذا دليلاً على دلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة ومباينة منزلته لمنزلة أفضل الإنس محمد صلى الله عليه وسلم إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما وقاسيت بين قوله: {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين} وبين قوله: {وما صاحبكم بمجنون} {ولقد رءاه} ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل " بالأفق المبين " بمطلع الشمس الأعلى " وما هو " وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك " بضنين " بمتهم من الظنة وهي التهمة وقرئ بضنين من الضن وهو البخل أي: لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه أو يسأل تعليمه فلا يعلمه وهو في مصحف عبد الله بالظاء وفي مصحف أبي بالضاد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما.

وإتقان الفصل بين الضاد والظاء: واجب.

ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارئ فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقا غير صواب وبينهما بون بعيد فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أضبط يعمل بكلتا يديه وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصوةل الثنايا العليا وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء.

ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فإن قلت: فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه.

قلت: هو كواضع الذال مكان الجيم والثاء مكان الشين لأن التفاوت بني الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما " وما هو " وما القرآن " يقول شيطانٍ رجيمٍ " أي بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

" فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين " " فأين تذهبون " استضلال لهم كما ياقل لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيات الطريق: أين تذهب مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل " لمن شاء منكم " بدل من العالمين وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شاؤا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعاً " وما تشاءون " الاستقامة يامن يشاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه.

أو: وما تشاؤنها أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته.

سورة الانفطار

مكية وآيانها 19

{إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت} " انفطرت " انشقت " فجرت " فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالمالحوزال البرزخ الذي بينهما وصارت البحار بحراً واحداً وروي أن الأرض تنشف الماء بعدامتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عند الحسن وقرئ فجرت بالتخفيف.

وقرأ مجاهد: فجرت على النباء للفاعل والتخفيف.

بمعنى: بغت لزوال الرزخ نظراً إلى قوله تعالى: {لا يبغيان} الرحمن: 20 لأن البغي والفجور أخوان.

بعثر وبحثر بمعنى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما.

والمعنى: بحثت وأخرج موتاها.

وقيل: لبراءة المبعثرة لأنها بعثرت أسرار المنافقين.

{يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك} فإن قلت: ما معنى قوله: {ما غرك بربك الكريم} وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به وإنما يغتر بالكريم كما يروي عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه فنظر فإذا هو بالباب فقال له: ما لك لم تجبني قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك فاستحسن

جوابه وأعتقه وقالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه.

قلت معناه أن حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله عليه حيث خلقه حياً لينفعه وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدها مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب غتراراً بالتفضل الول فإنه منكر خارج من حد الحكمة ولهذا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها.

غره جهله وقال عمر رضي الله عنه: غره حمقه وجهله.

وقال الحسن: غرة والله شيطانه الخبيث أي: زين له المعاصي وقال له: أفعل ما شئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولا وهو متفضل عليك آخراً حتى ورطه وقيل للفضيل ابن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: {ما غرك بربك الكريم} ماذا تقول قال أقول: غرتني ستورك المرخاة.

وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويطن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم: إنما قال " بربك الكريم " دون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول: غرني كرم الكريم.

وقرأ سعيد بن جبير: ما أغرك إما على التعجب وإما على الاستفهام من قولك: غر الرجل فو غار: إذا غفل من قولك: بيتهم العدو وهم غارون.

وأغره غيره: جعله غاراً " فسواك " فجعلك سويا سالم الأعضاء " فعدلك " فصيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ولا بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر.

أو جعلك معتدل الخلق تمشي قائماً لا كالبهائم.

وقرئ فعدلك بالتخفيف وفيه وجهان أحدهما: أن يكون بمعنى المشدد أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت والثاني " فعدلك " فصرفك.

يقال: عدله عن الطريق يعني: فعدلك عن خلقة غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق.

أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيآت.

" نا " في " ما شاء " مزيدة أي: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه فإن قلت: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها قلت: لأنها بيان لعدلك.

فإن قلت: بم يتعلق الجار قلت: يجوز أن يتعلق بركبك.

على معنى: وضعك في بعض الصور وكنك فيه وبمحذوف أي ركبك حاصلاً في بعض الصور ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعدلك ويكون في أي معنى التعجب أي فعدلك في صورة عجيبة ثم قال: ما شاء ركبك.

أي ركبك ما شاء من التراكيب يعني تركيباً حسناً " كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون " " كلا " ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتسلق به.

وهو موجب الشكر والطاعة إلى عكسهما الذي هو الكفر والمعصية.

ثم قال: " بل تكذبون بالدين " أصلا وهو الجزاء أو دين الإسلام.

فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً وهو شر من الطمع المنكر " وإن عليكم لحافظين " تحقيق لما يكذبون به من الجزاء يعني أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجاوزوا بها وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم: تعظيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأمور ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ويجازي به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة.

وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين وعن الفضيل أن كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

{إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغآئبين} {وما هم عنها بغائبين} كقوله: {وما هم بخارجين منها} المائدة: 37 ويجوز أن يراد: يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك يعني: في قبورهم وقيل: أخبر الله في هذه السورة أن لابن أدم ثلاث حالات: حال الحياة التي يحفظ فيها عمله وحال الآخرة التي يجازى فيها وحال البرزخ وهو قوله: " وما هم عنها بغائبين ".

{وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله} يعني أن أمر يوم الدين بحيث لا تدرك دراية دار كنهة في الهلول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه والتكرير لزيادة التهويل ثم أجمل القول في وصفه فقال " يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً " أي لا تستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه ولا أمر إلا لله وحده.

من رفع فعلى البدل من يوم الدين أو على: هو يوم لا تملك ومن نصب فبإضمار يدانون لأن الدين يدل عليه أو بإضمار اذكر ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في محل الرفع

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة.

سورة المطففين

مكية وآياتها 36

بسم الله الرحمن الرحيم

{ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لربٍ العالمين}

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل.

وقيل: قدمها وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان: بكيل بأحدهما ويكتال بالآخر.

وقيل: كان أهل المدينة تجاراً يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم.

وقال: خمس بخمس قيل: يا رسول اله وما خمس بخمس قال: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشافيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشافيهم الموت ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر وعن علي رضي الله عنه: أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له: أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت.

كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل.

وعن ابن عباس: إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين: بهما هلك من كان قلبكم: المكيال والميزان وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جيمعاً وكانا مفرقين في الحرمين: كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكليلون وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له: اتق الله وأوف الكيل فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمان حتى إن العرق ليلجمهم وعن عنكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار فقيلله: إن ابنك

كيال أو وزان فقال: أشهد أنه في النار وعن أبي رضي الله عنه: لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤوس المكاييل وألسن الموازين لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم: أبدل على مكان من للدلالة على ذلك.

ويحوز أن يتعلق على بيستةفةن ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصة أي: يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها وقال الفراء من وعلى يعتقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه فإذا قال اكتلت عليك فكأنه قال: أخذت ما عليك وإذا قال: اكتلت منك فكقوله: استوفيت منك والضمير في {كالوهم أو وزنوهم} ضمير منصوب راجع إلى الناس.

وفيه وجهان: أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال: ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلاً ولقد نهيتك عن نبات الأوبر والحريص يصيدك إلا الجواد بمعنى: جنيت لك ويصيد لك وأن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والمضاف هو المكيل أو الموزون ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد وذلك أن المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا وهو كلام متنافر لأن الحديث

واقع في الفعل لا في المباشر والتعلق في إبطاله بخط المصحف وأن الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه: ركيك لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط على أني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدي الأئمة المتقين هذه الألف مرفوضة لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى جيمعاً لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك: هم لم يدعوا وهو يدعو فمن لم يثبتها قال: المعنى كاف في التفرقة بينهما.

وعن عيسى بن عمر وحمزة: أنهما كانا ثيرتكبان ذلك أي يجعلان الضميرين للمطففين ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا فإن قلت: هلا قيل: أو اتزنوا كما قيل " أو وزنوهم " قلت: كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إللا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً " يخسرون " ينقصون يقال: خسر الميزان وأخسره " ألا يظن " إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجزاء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً " أنهم مبعثون " ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة.

وعن قتادة: أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك واعدل كما تحب أن يعدل لك.

وع الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة.

وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين: أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيمالذي سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء بل في كل قول وعمل وقيل: الظن بمعنى اليقين والوجه ما ذكر ونصب " يوم يقوم " بمبعوثون.

وقرئ بالجر بدلاً من يوم عظيم وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السوة فلما بلغ قوله: {يوم يقوم الناس لرب العالمين} بكى نحيباص وامتنع من قراءة ما بعده.

{كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم} " كلا " ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه ثم أتبعه وعيد الفجارعلى العموم وكتاب الفجار: ما يكتب من أعمالهم فإن قلت: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه في سجين وفسر سجيناً بكتاب مرقوم فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم.

فما معناه: قلت " سجين " كتاب جامع هو ديوان الشر: دون الله فيه أعمال الشياكطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة.

أو معلم من رآه أنه لا خير فيه فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمي سجيناً: فعيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق.

لنه سبب الحبس والتضييق في جهنم أو لأنه مطروح كما روي تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس وذريته استهانة به وإذالة وليشهده الشياطين المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون.

فإن قلت: فما سجين أصفة هو أم اسم قلت: بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتك.

وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف.

{ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيمٍ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون} " الذين يكذبون " مما وصف به للذم لا للبيان كقولك فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث " كلا " ردع للمعتدي الأثيم عن قوله: {ران على قلوبهم} كركبها كما يركب الصأ وغلب عليها: وهو أن يصر على الكبائر ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب يال: ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا والغين: الغيم ويقال: ران فيه النوم رسخ فيه ورانت به الخمر: ذهبت به.

وقرئ بإدغام اللام في الراء وبالإظهار والإدغام أجود.

واميلت الألف وفخمت " كلا " ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم.

وكونهم محجوبين عنه: تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهار المكرمين لديهم ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم.

قال: إذا اعتروا باب ذي عبية رجبوا والناس من بين مرجوب ومحجوبٍ وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي ملكية: محجوبين عن رحمته.

وعن ابن كيسان: عن كرامته.

{كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون} " كلا " ردع عن التكذيب.

وكتاب الأبرار: ما كتب من أعمالهم.

وعليون: علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقيلين منقول من جمع علي فعيل من العلو كسجين من السجن سمى بذلك إما لأنه سبب الاتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له وتعظيماً.

وروي " إن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانة اوحى إليهم إنكم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه وأنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين فقد غفرت له وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحي إليهم: أنتم {إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيقٍ مختومٍ ختامه مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون} " الأرائك " الأسرة في الحجال " ينظرون " إلى ما شاؤا مد أعينهم إليه من مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله من النعمة والكرامة وإلى أعدائهم يعذبون في النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك " نضرة النعيم " بهجة التنعم وماءه ورونقه كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفة وقرئ تعرف على البناء للمفعول ونضرة النعيم - بالرفع.

الرحيق الشراب الخالص الذي لا غش فيه " مختومٍ " تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة.

وقيل " ختامه مسك " مقطعة رائحة مسك إذا شرب وقيل: يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك

وقرئ خاتمة بفتح التاء وكسرها أي: ما يختمبه ويقطع " فليتنافس المتنافسون " فليرتغب المرتغبون " تسنيمٍ " علم لعين بعينها: سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه: إما لأنها أرفع شرابٍ في الجنة وإما لأنها تأتيهم من فوق على ما روي أنها تجري في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم " عينا " نصب على المدح وقال الزجاج: نصب على الحال.

وقيل: هي للمقربين يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة.

{إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين} هم مشركو مكة: أو جبهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم: كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزؤن بهم.

وقيل: جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " يتغامزون " يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم " فكهين " ملتذين بذكرهم والسخرية منهم أي: ينسبون المسلمين إلى الضلال " وما أرسلوا " على المسلمين " حافظين " موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم.

او هو من جملة قول الكفار وإنهم إذا رأوا المسلين قالزا: إن هؤلاء لضالون وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدهم أياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك.

{فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون}

{على الأرائك ينظرون} حال من " يضحكون " أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفة: وهم على الأرائك آمنون: وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم ثوبه وأثابه: بمعنى إذا جازاه قال اوس: " سأجزيك أو يجزيك عنى مئوب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدى وقرئ بإدغام اللام في الثاء.

عن رسول اله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة.

سورة الانشقاق

مكية وآياتها 25

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت والقت ما فيها وتخلت وأذنت} حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب أو اكتفاء بماعلم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار.

وقيل: جوابها ما دل عليه فملاقيه أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه.

ومعناه: إذا انشقت بالغمام كقوله تعالى: {ويوم تشقق السماء بالغمام} الفرقان: 25 وعن علي رضي الله عنه: تنشق من المجرة أذن له: استمع له.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن.

وقول حجاف بن حكيم: " اذنت لكم لما سمعت هريركم والمعنى: أنها فعلت في انقادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع كقوله: {أتينا طائعين} فصلت: 11 " وحقت " من قولك هو محقوق بكذا وحقيق به يعني: وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمنتنع.

ومعناه الإيذان بأن القادر بالذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك " مدت " من مد الشيء فامتد: وهو ان تزال جبالها وآكامها وكل أمت فيها حتى تمتد وتنبسط ويتوي ظهرها كما قال تعالى: {قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا} طه: 106 - 107 وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مدت مد الأديم العكاظي لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه وأمت واستوى أو من مده بمعنى أمده أي: زيدت سعة وبسطة " وألقت ما فيها " ورمت بما في جوفها مما دفن فيها من الموتى والكنوز " وتخلت " غاية الخلو حتى لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو كما ياقل: تكرم الكريم وترحم الرحيم: إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة وتكلفا فوق ما في طبعهما " وأذنت لربها " في إلقاء ما في بطنها وتخليها.

{يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبوراً ويصلى سعيراً إنه كان في أهله مسروراً إنه ظن أن لن يجور بلآ إن ربه كان به بصيراً} الكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها من كدح جله: إذا خدشه ومعنى " كادح إلى ربك " جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء " فملاقيه " فملاق له لا محالة لا مفر لك منه وقيل: الضمير في ملاقيه للكدح " يسيراً " سهلاً هينا لا يناقش فيه ولا يعترض بما سوءه ويشق عليه كما يناقش أصحاب الشمال.

وعن عائشة رضي الله عنها: هو أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من يحاسب يعذب فقيل يا رسول الله: فسوف يحاسب حساباً يسيراً.

قال: ذلكم العرض من نوقش في الحساب عذب " إلى أهله " إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين.

أو إلى فريق المؤمنين.

أو إلى أهله في الجنة من الحور العين " ورآء ظهره " قيل: تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره.

وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره " يدعوا ثبوراً " يقول: يا ثبوراه.

والثبور: الهلاك.

وقرئ ويصلى سعيراً كقوله: {وتصليه جحيم} الواقعة: 94 ويصلى: بضم الياء والتخفيف كقوله: {ونصله جهنم} النساء: 115 " في أهله " فيما بين ظهرانيهم أو معهم على أنهم كانوا جميعاً مسرورين يعني أنه كان في الدنيا مترفا بطرا مستبشراً كعادة الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب.

ولم يكن كئيباً حزيناً متفكراً كعادة الصلحاء والمتقين وحطاية الله عنهم {إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين} الطور: 26 {ظن أن لن يحور} لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً بالمعاد.

يقال: لا يحور ولا يحول أي: لا يرجع ولا يتغير.

قال لبيد: يحور رماداً بعد إذ هو ساطع وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها: حوري أي: ارجعي " بلى " إيجاب لما بعد النفي في " لن يحور " أي: بلى ليحورن " إن ربه كان به بصيراً " وبأعماله لا ينساها ولا تخفي عليه فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها.

وقيل: نزلت الآيتان في أبي سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد.

الفق: الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس بسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه في إحدى الورايتني: أنه البياض وروى أسد بن عمرو: أنه رجع عنه سمي لرقته ومنه الشفقة على الإنسان: رقة القلب عليه " وما وسق " وما جمع وضم قال: وسقه فاتسق واستوسق.

قال: مستوسقات لو يجدن سائقا ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين: استع واستوسع.

ومعناه: وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها " إذا اتسق " إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة قرئ: التركبن على خطاب الإنسان في " يا أيها الإنسان " ولنركبن بالضم على خطاب الجنس لن النداء للجنس ولتركبن بالكسر على خطاب النفس وليركبن بالياء على: ليركبن الإنسان والطبق: ما طابق غيره ياقل: ما هذا بطبق لذا أي: لا يطابقه ومنه قيل للغطاء الطبق وإطباق الثرى: ما تطابق منه ثم قيل للحال المطابقة لغيرها: طبق ومنه قوله عز وعلا " طبقاً عن طبقٍ " أي حالاً بعد حال: كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول: ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة من قولهم: هو على طبقات.

ومنه: طبق الظهر لفاره الواحدة: طبقة على معنى: لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقاتفي الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها.

فإن قلت: ما محل عن طبق قلت: النصب على أنه سفة لطبقاً أي: طبقا مجاوزاً لطبق.

أو حال من الضمير في لتركين أي: لتركين طبقاً مجاوزين لطبق.

أو مجاوزاً أو مجاوزة على حسب القراءة: وعن مكحول: كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه.

{فما لهم لا يؤمنون وإذا قريء عليهم القرآن لا يسجدون بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون فبشرهم بعذابٍ أليمٍ إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون} " لا يسجدون " لا يستكينونً ولا يخضعون.

وقيل: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم {واسجد واقترب} العلق: 19 فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر فنزلت.

وبه احتج أبو حنيفة رضي اله عنه على وجوب السجدة وعن ابن عباس ليس في المفصل سجدة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سجد فيها وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها.

وعن انس: صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا وعن الحسن: هي غير واجبه " الذين كفروا " إشارة إلى المذكورين " بما يوعون " بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ويدخرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة انشقت أعادة الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره.

سورة البروج

مكية وآياتها 22

بسم الله الرحمن الرحيم

{والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهدٍ ومشهود} هي البروج الاثنا عشر وهي قصور السماء على التشبيه.

وقيل: " البروج " النجوم التي هي منازل القمر وقيل: عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها.

وقيل: أبواب السماء " واليوم الموعود " يعني وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه والمراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلهم وبالمشهود: ما في ذلك اليوم من عجائبه وطريق تنكيرهما: إما ما ذكرته في قوله: {علمت نفس ما أحضرت} التكرير: 14 كأنه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود.

وإما الإبهام في الوصف كأنه قيل: وشاهد مشهود لا يكتنه وصفهما.

وقد اضربت أقاويل المفسرين فيهما فقيل: الشاهد والمشهود: محمد صلى الله عليه وسلم ويوم القيامة وقيل: عيسى وأمته لقوله:

{وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم} المائدة: 177 وقيل: امة محمد وسائر الأمم: وقيل: يوم التروية ويوم عرفة وقيل: يوم عرفة ويوم الجمعة.

وقيل الحجر الأسود والحجيج وقيل الأيام والليالي وبنو آدم وعن الحسن ما من يوم إلا وينادى: إني يوم جديد وإني على ما يعمل في شهيد فاغتنمني فو غابت شمس لم تدركني إلى يوم القيامة وقيل: الحفظة وبنو آدم.

وقيل: الأنبياء ومحمد صلى الله عليه وسلم.

{قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيءٍ شهيد} فإن قلت: أين جواب القسم قلت: محذوف يدل عليه قوله: {قتل أصحاب الأخدود} كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون يعني كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتكيرهم بما جرى على من تقدمهم: من التعذيب على الإيمان.

وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم ويصيروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش كما قيل: قتلأصحاب الأخدود وقتل: دعاء عليهم كقوله: {قتل الإنسان ما أكفره} عبس: 17 وقرئ قتل بالتشديد.

والخدود: الخد في الأرض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى: الخق والأخقوق.

ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جرذات.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كان لبعض الملوكساحر فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر وكان في طريق الغلام راهب: فسمع منه فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس.

فاخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فقتلها وكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمة والأبرص ويشفي من الأدواء وعمي جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله فقال: من رد عليك بصرك فقال: ربي فغضب فعذبه.

فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه فقد بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقور فلججوا به لغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله رب الغلام ثم ترميني به فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس: آمنا برب الغلام فقيل للملك.

نزل بك ما كنت تحذر فأمر بأخاديد في أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبي يا أماه اصبري فإنك على الحق فاقتحمت.

وقيل: قال لها قعي ولا تنافقي.

وقيل: قال لها ماهي إلا غميضة فصبرت.

وعن علي رضي الله عنه: أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: يا أيها الناس إن الله قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعذ ذلك فتقول: إن الله حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له: ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا فقالت له: ابسط فيهم السيف فلم يقبلوا فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها فهم الذين أرادهم الله بقوله: " قتل أصحاب الأخدود " وقيل: وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من جمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد.

وقيل: سبعين ألفاً وذكر أن طول الأخدود: أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدودتعوذ من جهد البلاء " النار " بدل اشتمال من الأخدود {ذات الوقود} وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس وقرئ الوقود بالضم " إذا " ظرف لقتل أي لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها.

ومعنى " عليها " على ما يدنو منها من حافات الأخدود كقوله: وبات على النار الندى والمحلق وكما تقول: مررت عليه تريد: مستعليا لمكان يدنو منه ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين: أنهم وكلوا بذلك وجعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب.

ويجوز أن يراد: انهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون شهادتهم يوم القايمة {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون} النور: 24 {وما نقموا منهم} وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان كقوله: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم قال ابن الرقيات: " مانقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا وقرأ أبو حيوة نقموا بالكسر والفصيح: هو الفتح.

وذكر الأوصاف التي ستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه حميداً منعماً يجب له الحمد على نعمته ويرجي ثوابه {له ملك المساوات والأرض} فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقريراً لأن " ما نقموا منهم " هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يعد له عذاب " والله على كل شيء شهيد " وعيد لهم يعني أنه علم ما فعلوا وهو مجازبهم عليه.

{إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} ويجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصة وبالذين آمنوا: المطروحينفي الأخدود.

ومعنى فتنوهم عذبوهم بالنار وأحرقوهم " فلهم " في الآخرة " عذاب جهنم " بكفرهم " ولهم عذاب الحريق " وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين.

أولهم عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين أي: بلوهم بالأذى على العموم والمؤمنين: المفتونين وأن للفاتنين عذابين في الآخرة: لكفرهم ولفتنتهم.

{إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد}
البطش: الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم: وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذهم بالعذاب والانتقام " إنه هو بئ ويعيد " أي يبدئ البطش ويعيده يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة أو دل باقتداره على الابداء والإعادة على شدة بطشه وأوعد الكفرة بانه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإداء وكذبوا بالإعادة وقرئ يبدأ " الودود " الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود: من إعطائهم ما أرادوا وقرئ ذي العرش صفة لربك وقرئ المجيد بالجر صفة للعرش ومجد الله عظمته ومجد العرش: علوه وعظمته " فعال " خبر مبتدأ محذوف وإنما قيل: فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة.

{هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ} " فرعون وثمود " بدل من الجنود وأراد بفرعون إياه وآله كما في قوله: {من فرعون وملئهم} يونس: 83 والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم {بل الذين كفروا} من قومك " في تكذيب " أي: تكذيب واستيجاب للعذاب والله عالم بأحوالهم وقارد عليهم وهم لا يعجزونه.

والإحاطة بهم من ورائهم: مثل لأنهم لا يفرقونه كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به.

ومعنى الإضراب: أن أمرهم أعجب من أمر أولئك لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا وكذبوا أشد من تكذيبهم " بل هو " أي بل هذا الذي كذبوا به " قرءان مجيد " شريف عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه.

قرئ قرآن مجيد بالإضافة أي: قرآن رب مجيد.

وقرأ يحيى بن يعمر: في لوح واللوح: الهواء يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح " محفوظ " من وصول الشياطين إليه وقرئ محفوظ بالرفع صفة للقرآن.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات.

سورة الطارق

مكية وآياتها 17

بسم الله الرحمن الرحيم

{والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب} " النجم الثاقب " المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل: دريء لأنه يدرؤه أي: يدفعه.

ووصف بالطارق لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتي ليلا: طارق: أو لأنه يطرق الجني أي يصكه

والمراد: جبنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها.

فإن قلت: ما يشبه قوله {وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب} إلا ترجمة كلمة بأخرى فبين لي أي فائدة تحته قلت: أراد الله عز من قائل: أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيماً له لما

عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة وان ينبه على ذلك فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره وهو الطارق ثم قال: {وما أدراك ما الطارق} ثم فسره بقوله: " النجم الثاقب " كل هذا إظهار لفخامة سأنه كما قال {فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} الواقعة: 75 - 76 روي: أن أبا طالب كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحط نجم فامتلأ ما ثم نوراً فجزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا فقال عليه السلام: هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله فعجب أبو طالب فنزلت.

{إن كل نفس لما عليها حافظ} فإن قلت: ما جواب القسم قلت {إن كل نفس لما عليها حافظ} لأن إن لا تخلو فيمن قرأ لما مشددة بمعنى: إلا أن تكون نافية.

وفيمن قرأها مخففة على أن ما صلة تكون مخففة من {وكان الله على كل شيء رقيباً} الأحزاب: 52 {وكان الله على كل شيء مقيتاً} النساء: 85 وقيل: ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب.

ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين.

{فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترآئب} فإن قلت: ما وجه اتصال قوله " فلينظر " بما قبله قلت: وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قارد على وجزائه فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ولا يملى على حافظه إلا ما يسره في عاقبته " مم خلق " استفهام جوابه " خلق من ماءٍ دافق " والدفق: صب فيه دفع ومعنى دافق: النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق كاللابن والتامر او الإسناد المجازي والدفق في الحقيقة لصاحبه ولم يقل ماءين لا متزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه " من بين الصلب والترائب " من بين صلب الرجل وترائب المرأة: وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة.

وقرئ الصلب بفتحتين والصلب بضمتين.

وفيه أربع لغات: صلب وصلب وصلب وصالب قال العجاج: في صلبٍ مثل العنان المؤدم وقيل: العظم والعصب من الرجل واللحم والدم من المرأة.

{إنه على رجعه لقادرٍ يوم تبلى السرآئر فما له من قوة ولا ناصرٍ} " إنه " الضمير للخالق لدلالة خلق عليه ومعناه: إن ذلك الذي خلق الإنسان ابتداء من نطفة " على رجعه " على إعادته خصوصاً " القادر " لبين القدرة لا يلتاث عليه ولا يعجز عنه.

كقوله : إنني لفقير " يوم تبلى " منصوب برجعه ومن جعل الضمير في " رجعه " للماء وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل.

أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بمضمر " السرآئر " ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما أخفى من الأعمال وبلاؤها.

تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد: سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر فقال: ماأغفله عما في

" والسماء مالطارق " " فما له " فما للإنسان " من قوةٍ " من منعة في نفسه يمتنع بها " ولا ناصرٍ " ولا مانع يمنعه.

سمي المطر رجعاً كما سمي أوباً قال: رباء شماء لا يأوي لقلتها إلا السحاب وإلا الأوب والسبل تسمية بمصدري: رجع وآب وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من البحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعاً وأوباً ليرجع ويؤب.

وقيل: لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً.

قالت الخنساء: كالرجع في المدجنة السارية.

والصدع: ما تتصدع عنه الأرض من النبات " إنه " الضمير للقرآن " فصل " فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان " وما هو بالهزل " يعني أنه جد كله لا هوادة فيه.

ومن حقه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور معظماًفي القلوب يترفع به قارئه وسامعه وأن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح وأن يلقي ذهنه إلى أن جبار السموات يخاطبه فيأمره وينهاه ويعده بوعده حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فأدنى أمره أن يكون جاداً غير هازل فقد نعى الله ذلك على المشركينفي قوله: {وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون} النجم: 60 - 61 {والغوا فيه} فصلت: 26.

{إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً} " إنهم " يعني أهل مكة يعلمون المكايد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق وأنا أقالهم بكيدي:

من استدراجي لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم " فمهل الكافرين " يعني لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به {أمهلهم رويداً} أي إمهالاً يسيراً وكرر وخالف بين اللفظسن لزيادة التسكين منه والتصبير.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بععدد كل نجم في السماء عشر حسنات.

سورة الأعلى

مكية وأياتها 19

بسم الله الرحمن الرحيم

{سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى}
تسبيح اسمه عوز وعلا: تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه كالجبر والتشبيه ونحو ذلك مث 4 ل أن يفسر العلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاقتدار لا بمعنى العلو في المكان والاستواء على العرش حقيقة وأن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم.

ويجوز أن يكون " العلى " صفة للرب والاسم وقرأ علي رضي الله عنه: سبحان ربي الأعلى.

وفي الحديث.

لما نزلت: فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعلوها في ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك العلى قال: اجعلوها في سجودكم وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت وفي السجود: اللهم لك سجدت " خلق فسوى " أي خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صدر عن عالم وأنه صنعة حكيم " قدر فهدى " قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت ولقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله وهدايات الله للإنسان إلى ما لا يحد من مصالحه وما لا يحصر من حوائجه في أغذيته وأدويته وفي أبواب دنياه ودينه وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض: باب واسع وشوط بطين لا يحيط به وصف واصف فسبحان ربي الأعلى.

قرئ: قدر بالتخفيف " أحوى " صفة لغثاء أي " أخرج المرعى " أنتبه " فجعله "

بعد خضرته ورفيفة " غثاء أحوى " دربنا أسود.

ويجوز أن يكون " أحوى " حالا من المرعى أي: أخرجه أحوى أسود من شدة الخضرة والري فجعله غثاء بعد حويه.

{سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى} بشره الله بإعطاء آية بينة وهي: أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه " إلا ما شاء الله " فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته كقوله: " أو ننسها " البقرة: 106 وقيل: كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل فقيل: لا تعجل فإن جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ثم لا تنساه إلا ما شاء الله ثم تذكره بعد النسيان.

أو قال: إلا ما شاء الله يعني: القلة والندرة كما روي.

أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة فحسب أبي أنها نسخت فسأله فقال: نسيتها أو قال: إلا ما شاء الله: والغرض نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله ولا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي.

وقيل قوله: " فلا تنسى " على النهي والألف مزيدة للفاصلة كقوله: " السبيلا " الأحزاب: 67 يعني: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة " إنه يعلم الجهر " يعني أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر فلا تفعل فأنا أكفيك ما تخافه.

أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم وما ظهر وبطن من أحوالكم وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه فينسى من الوحي ما يشاء ويترك محفوظاً ما يشاء.

{ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى} " ونيسرك لليسرى " معطوف على " ستقرئك " وقوله: " إنه يعلم الجهر وما يخفى " اعتراض ومعناه: ونوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل يعني: حفظ الوحي.

وقيل للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذاً.

وقيل: نوفقك لعمل الجنة.

فإن قلت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى استراط النفع قلت: هو على وجهين احدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتواً وطغياناً وكان النبي صلى اله عليه وسلم يتلظى حسة وتلهفاً ويظداد جداً في تذكيرهم وحرصاً عليه فقيل له: {وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ق: 45 {فاصفح عنهم وقل سلام} الزخرف: 89 {فذكر إن نفعت الذكرى} وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير.

والثاني: أن يكون ظاهره شرطاً ومعناه ذما للمذكرين وإخباراً عن حالهم واستبعاداً لتأثير الذكرى فيهم وتسجيلاً عليهم بالطبع على قوبهم كما تقول للواعظ: عظ المكاسين إن سمعوا منك

قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون " سيذكر " فيقبل التذكرة وينتفع بها " من يخشى " الله وسوء العاقبة فينظر ويفكر حتى يقوده النظر إلى اتباع الحق: فأما هؤلاء فغير خاشين ولا ناظيرن فلا تأمل أن يقبلوا منك " ويتجنبها " ويتجنب الذكرى ويتحاماها " الأشقى " الكافر لأنه أشقى من الفاسق.

أو الذي هو أشقى الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة " النار الكبرى " السفلى من أطباق النار قيل " الكبرى " نار جهنم.

والصغرى نار الدنيا وقيل " ثم " لأن الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلي فهو متراخ عنه في مراتب الشدة والمعنى: لا يموت فيتسريح ولا يحيى حياة تنفعه.

{قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى} " تزكى " تطهر من الشرك والمعاصي.

أو تطهر للصلاة.

أو تكثر من القوى من الزكاة وهو النماء.

أو تفعل من الزكاة كتصدق من الصدقة " فصلى " أي الصلوات الخمس نحو قوله: {وأقام الصلاة وآتى الزكاة} البقرة: 177 وعن ابن مسعود: رحم الله امرأة تصدق وصلى.

وعن علي رضي الله عنه أنه التصدق بصدقة الفطر وقال: لاأبالي أن لا أجد في كتابي غيرها لقوله قد أفلح من تزكى أي أعطى زكاة الفطر فتوجه إلى المصلى فصلى صلاة العيد وذكر اسم ربه فكبر تكبيرة الإفتتاح وبه يحتج على وجوب تكبيرة الإفتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة عليها وعلى أن الإفتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل.

وعن ابن العباس رضي الله عنه: ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له.

وعن الضحاك: وذكر اسم ربه في طريق الصملى فصلى صلاة العيد " بل تؤثرون الحياة الدنيا " فلا تفعلون ما تفلحون به.

وقرىء: يؤثرون على الغيبة.

ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود: بل أنتم تؤثرون " خير وأبقى " أفضل في نفسها وأنعم وأدوم

وعن عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب.

{إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى} " وهذا " إشارة إلىقوله: " قد أفلح " إلى " أبقى " يعني أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف.

وقيل: إلى ما في السورة كلها.

وروي: عن أبي ذر رضي الله عنه " أنه سأل رسول الله صلى عليه وسلم: كم أنزل الله من كتابظ فقال: مائة وأربعة كتب منها على آدم: عشر صحف وعلى شيث: خمسون صحيفة وعلى أخنوع وهو إدريس: ثلاثون صحيفة وعلى إبراهيم: عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقيل: إن في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للساته عارفاً بزمانه مقبلاً

من قرأسورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أتزله الله يعالى على إبراهيم وموسى ومحمد وكان إذا قرأها قال: سبحان ربي الأعلى.

وكان علي وابن عباس يقولان ذلك.

وكان يحبها وقال: أول من قال سبحان ربي الأعلى ميكائيل.

سورة الغاشية

مكية وآياتها 26

بسم الله الرحمن الرحيم

{هل أتاك حديث الغاشية} " الغاشية " الداهية التي تغش الناس بشدائدها ولبسهم أهوالها.

يعني القايمة من قوله: {يوم يغشاهم العذاب} العنكبوت: 55 وقيل: النار من قوله: {وتغشى وجوههم النار} إبراهيم: 50 {ومن فوقهم غواش} الأعراف: 41: يومئذٍ " يوم إذ غشيت " خاشعة " ذليلة " عاملة ناصبة " تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهوجرها السلاسل والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود من نار وهبوطها في دور منها.

وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت فهي في نصب منها في الآخرة وقيل: عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة.

من قوله {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل}: الفرقان: 23.

{وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً} الكهف: 104 {أولئك الذين حبطت أعمالهم} آل عمران: 22 وقيل: هم أصحاب الصوامع ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب وقرئ عاملة ناصبة على الشتم وقرئ تصلى بفتح التاء وتصلى بضمها وتصلى بالتشديد.

وقيل: المصلى عن العرب: أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمراً كثراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو في التنور فلا يسمى مصلياً {أنية} متناهية في الحر كقوله: {وبين حميم آن} الرحمن " 144 الضريع يبيس الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل قال أبو ذؤيب: رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً بان عنه النحائص وقال: وحبس في هزم الضريع فكلها حدباء دامية اليدين حرود فإن قلت: كيف قيل " ليس لهم طعام إلا من ضريع " وفي الحاقة " ولا طعام إلا من غسلين " الحاقة: 36 قلت: العذاب ألوان والمعذبون طبقات فمنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع: لكل باب منهم جزء مقسوم " لايسمن " مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام.

أو ضريع يعني: أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم غلإنس وأنما هو شوك والشوك مما ترعاه الإبل وتتوع به وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه.

ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه: وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن.

أو أريد: أن لا طعام لهم أصلاً: لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمعزل كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد: نفي الظل على التوكيد.

وقيل: قالت كفار قريش: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت " لا يسمن " فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنتوا بذلك وهو الظاهر فيرد قولهم بنفي السمن والشبع.

وأما أن يصدقوا فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم إنما هو من غير مسمن ولا مغن من جوع.

{وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حاميةً تسقى من عينٍ آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضيةً في جنةٍ عاليةٍ لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي

مبثوثة} ناعمة " ذات بهجة وحسن كقوله: {تعرف في وجوههم نضرة النعيم} المتطففين: 24 أو متنعمة " لسعيها راضية " رضيت بعملها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب " عاليةٍ " من علو المكان أو المقدار " لا تسمع " يا مخاطب او الوجوه " لاغية " أي لغوا أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم.

وقرئ: لا تسمع على البناء للمفعول بالتاء والياء " فيها عين جارية " يريد عيوناً في غاية الكثرة كقوله: {علمت نفس} التكوير: 14 " مرفوعة " من رفعة المقدار أو السمك ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم.

وقيل: مخبوءة لهم من رفع الشيء إذا خبأة " موضوعة " كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم عتيدة حاضرة لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها.

أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب.

ويجوز أن يراد: موضوعة عن حد الكبار أو ساط بين الصغر والكبر كقوله: {قدورها تقدياً} الإنسان: 16 " مصفوفة " بعضها إلى جنب بعض.

مساند ومطارح أينما أراد أن يجلسجلس على مسورة واستند إلى أخرى " وزرابي " وبسط عراض فاخرة.

وقيل: هي الطنافس التي لها خمل رقيق جميع زربية " مبثوثة " مبسوطة أو مفرقة في المجالس.

{أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت

وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطرٍ إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن ألينا إيابها ثم إن علينا حسابهم} {أفلا ينظرون إلى الإبل} نظر اعتبار " كيف خلقت " خلقاً عجيباً دالاً على تقدير مقدر شاهداً بتدبير مدبر حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعاز ضعيفاً ولا تمانع صغيراً وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار وعن بعض الحكماء.

أنه حدث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد لا إبل بها ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال العناق وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى إن أظماءها لترتفع إلى العشر فصاعداً وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم.

وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحاً القاضي فقلت: أين تريد قال: أريد الكناسة: قلت: وما تصنع بها قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت.

فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم ولم يدع من زعم أن الإبل السحابإلى قوله إلا طلب المناسبة ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك وإنما رأى السحاب مسبهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز " كيف رفعت " رفعاً بعيد المدى بلا مساك وبغير عمد.

و " كيف نصبت " نصبا ثابتاً فهي راسخة لا تميل ولا تزول و " كيف سطحت " سطحاً بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للمتقلب عليها.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلقت ورفعت ونصبت وسطحت: على البناء للفاعل وتاء الضمير والتقدير: فعلتها فحذف المفعول.

وعن هارون الرشيد أنه قرأ: سطحت بالتشديد والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤ منوا به ويستعدوا للقائه.

أي: لا ينظرون فذكرهم ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون " إنما أنت مذكر " كقوله: {إن عليك إلا البلاغ} اشورى: 48 " لست عليهم بمصيطر " بمتسلط

كقوله: {ما أنت عليهم بجبار} ق: 45 وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم وقولهم: تسيطر يدل عليه " إلا من تولى " استثناء منقطع أي: لست بمستول عليهم ولكن من تولى " وكفر " منهم فإن الله الولاية والقهر.

فهو يعذبه " العذاب الأكبر " الذي هو عذاب جهنم.

وقيل: هو استثناء من قوله: " فذكر " أي: فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض.

وقرىء ألا من تولى على التنبيه.

وفي قراءة ابن مسعود فإنه يعذبه وقرأ ابو جعفر المدني إيابهم بالتسديد.

ووجهه أن يكون فيعالاً مصدر أيب فيعل من الإياب.

أو أن يكون أصله أواباً: فعالاًمن أوب ثم قيل: إيواباً كديوان من دوان ثم فعل به ما فعل بأصل: سيد وميت.

فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف قلت: معناه التشديد في الوعيد وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الإنتقام وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير.

ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً

سورة الفجر

مكية وآياتها 30 وقيل: 29

بسم الله الرحمن الرحيم

{والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر} أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله: {والصبح إذا أسفر} المدثر: 34 {والصبح إذا تنفس} التكوير: 18 وقيل: بصلاة الفجر.

وأراد بالليالي العشر: عشر ذي الحجة.

فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها.

أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها.

فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التكير ولأن ليال معلومة معهودة قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ولأن الأحسن أن تكون اللامات منتجانسة ليكون الكلام أبعد من الأغاز والتعمية وبالشفع والوتر: إما الأشياء كلها شفعها ووترها وإما شفع هذه الليالي وترها.

ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر ووترها يوم عرفة لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها وقد.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه فسرهما بذلك.

وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتهلي عنه وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم " إذا يسر " إذا يمضي كقوله: {والليل إذ أدبر} المدثر: 33 والليل إذا عسعس التكوير: 17 وقرئ والوتر بفتح الواو وهما لغتان كالحبر والحبر في العدد وفي الترة: الكسر وحده.

وقرئ الوتر بفتح الواو وكسر التاء: رواها يونس عن أبي عمرو وقرئ والفجر والوتر ويسر: بالتنوين وهوالتنوين الذي يقع بدلاً من حرف الإطلاق.

وعن ابن عباس: وليال عشر بالإضافة يريد: وليال أيام عشر.

وياء " يسر " تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة وقيل: معنى يسري يسري فيه " هل في ذلك " أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء " قسم " أي مقسم به " لذى حجرٍ " يريد: هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها.

أو: هل في إقسامي بهاإقسام لذي حجر أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه.

والحجر: العقل لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما سمى عقلا ونهية لأنه يعقل وينهى.

وحصاة: من الإحصاء وهو الضبط وقال الفراء: يقال: إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذ بن يدل عليه قوله: {فصب علهم ربك سوط عذاب} الفجر: 13.

{ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوطج عذاب إن ربك لبالمرصاد " قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد كما يقال لبني هاشم: هاشم.

ثم قيل للأولين منهم عاد الولى وإرم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم: عاد الأخيرة.

قال ابن الرقيات: مجداً تليداً بناه أوله أدرك عاداً وقبلها إرما فإرم في قوله " بعادٍ إرم " عطف بيان لعاد وإيذان بأنهم عاد الولى القديمة.

وقيل: " إرم " بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة وتقديره: بعاد أهل إرم كقوله: " واسأل القرية " يوسف: 82 ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث.

وقرأ الحسن: بعاد أرم مفتوحين.

وقرئ بعاد إرم بسكون الراء على التخفيف كما قرئ: بورقكم وقرئ بعاد إرم ذات العماد بإضافة إرم إلى ذات العماد.

والإرم: العلم يعني: بعاد أهل أعلام ذات العماد.

و " ذات العماد " اسم المدينة وقرىء بعاد إرم ذات العماد أي جعل الله ذات العماد رميماً بدلاً من فعل ربك وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى: أنهم كلنوا بدويين أهل عمد أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم الأعمدة ومنه قولهم: رجل معمد وعمدان: إذا كان طويلاً.

وقيل: ذات البناء الرفيع وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين.

وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد فملكاً وقهراً ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال أبني مثلها فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة: وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من البرجد والياقوت.

وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم و ليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له.

فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الجل " لم يخلق مثلها " مثل عاد " فب البلد " عظم أجرام وقوة كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحماها فيلقيها على الحي فيهلكهم أو لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا.

وقرأ ابن الزبير لم يخلق مثلها أي: لم يخلق الله مثلها " خابوا الصخر " قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً كقوله: {وتنحتون من الجبال بيوتاً} الشعراء: 149 قيل: أول من نحت الجبال والصخور والرخام: ثمود وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة.

قيل له: ذو الأوتاد لكثرة جتوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا أو لتعذيبه بالأوتاد كما فعل بماشطة بنته وبآسية " الذين طغوا " أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم.

ويجوز أن يكون مرفوعاً على: عم الذين طغوا أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه وذكر السوط: إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما

يعذب به.

وعن عمر بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة فأخذهم بسوط منها.

المرصاد: المكان الذي يترتب فيه الرصد مفعال من رصده كلميقات من وقته وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وانهم لا يفوتونه.

وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك فقال: بالمرصاد.

عن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إن ربك لبالمرصاد يا فلان عر ض له في هذا النداء بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة فلله دره أي سد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بإنكاره ويقصع أهل الهواء والبدع باحتجاجه.

{فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن} فإن قلت: بم اتصل قوله " فأما الإنسان " قلت: بقوله: " إن ربك لبالمرصاد " كأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة وهو مرصد بالعقوبة للعاصي فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها.

فغن قلت: فكيف توازن قوله فأما الإنسان " إذا ما ابتلاه ربه " وقوله: " وأما إذا ما ابتلاه " وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما وأما تقول: أما الإنسانفكفور وأما الملك فشكور.

اما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك قلت: هما متوازنان من حيث إن التقدير: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه وذلك أن قوله " فيقول ربي أكرمن " خبر المبتدأ والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل ربي أكر من وقت الابتلاء فوجب أن يكون " فيقول " الثاني خبر لمبتدأ واجب تقيره.

فإن قلت: كيف سمي كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء قلت: لأن كل واحد منهما اختبار للعبد فغذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع فالحكمة فيهما واحدة.

ونحوه قوله تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة} الأنبياء: 35 فإن قلت: هلا قال: فأهانه وقدر عيه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه قلت لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة وأما التقدي فليس بإهانة له لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ولكن تركاً للكرامة وقد يكون المولى مكرماً لعبده ومهيناً له وغير مكرم ولا مهين وإذا أهدى لك زيد هدية قلت: اكرمني ابالهدية ولا تقول: أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك.

فإن قلت: فقد قال: " فأكرمه " فصحح إكرامه وأثبته ثم أنكر قوله: " ربي أكرمن " وذمه عليه كما أنكر قوله " أهانن " وذمه عليه.

قلت: فيه جوابان أحدهما: أنه إنما أنكر قوله ربي أكرمنوذمه عليه لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته وهو قصده إلي أن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقاً مستوجباً على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم كقوله: {إنما أوتيته على علم عندي} القصص: 78 وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتد الله إلا به وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويررون استحقاق الكرامة من أجلها.

والثاني: أن ينسشاق الإنكار والذم إلى قوله: " ربي أهانن " يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هواناً وليس بهوان ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله: " فأكرمه " وقرئ فقدر بالتخفيف والتشديد وأكرمن وأهانن: بسكون النون في الوقف فيمن ترك الياء في الدرج مكفياً منها بالكسرة.

{كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحآضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جماً} " كلا " ردع للإنسان عن قوله ثم قال بل هناك شر من هذا القول.

وهو: أن الله يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرة وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ويحبونه فيشحون به قرئ يكرمون وما بعده بالياء والتاء.

وقرئ تحاضون أي: يحض بعضكم بعضاً: وفي قراءة ابن مسعود: ولا تحاضون بضم التاء من المحاضة " أكلاً لما " ذا لم وهو الجمع بين الحلال والحرام.

قال الحطيئة: يعني: أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم.

وقيل كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ويأكلون تراثهم مع تراثهم.

وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك فيلم في الأكل بين حلاله وحرامه.

ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلا مهلا من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلا واسعاً بين ألوان المشتهيات من الطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الوارث البطالون " حباً جماً " كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق.

{كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاًصفاً وجاىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد " " كلا " ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم.

ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة ويومئذ بدل من " إذا دكت الأرض " وعامل النصب فيهما يتذكر " دكاً دكا " دكاً بعد دك.

كقوله: حسبته بابا بابا أي: كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا.

فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله والحركة والإنتقال إنما يجوزان على من كان في جهة قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه: مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضوره عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم " صفاًصفاً " ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاًبعد صف محدقين بالجن والأنس " وجاىء يومئذ بجهنم " كقوله: {وبرزت الجحيم} النازعات: 36 وروي: أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف في وجهه حتى اشتد على أصحابه فأخبروا علياً رضي الله عنه فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين علتقيه ثم قال: يا نبي الله بأبي أنت وأمي ما الذي حدث اليوم وما الذي غيرك فتلا عليه الآية.

فقال علي له: كيف يجاء بها قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع.

أي يتذكر ما فرط فيه أو يتعظ " وأنى له الذكرى " ومن أين له منفعة الذكرى لا بد من تقدير حذف المضاف وإلا فبين: يوم يتذكر وبين " وأنى له الذكرى " تناف وتناقض " قدمت لحياتي " هذه وهي حياة الآخرة أو وقت حياتي في الدنيا كقولك: جئته لعشر ليال خلون من رجب وهذا أبين دليل على أن الإختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي كمذهب أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر قرىء: بالفتح يعذب ويوثق وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي عمرو أنه رجع إليها في آخر عمره والضمير للإنسان الموصوف.

وقيل: هو أبي بن خلف أي: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد كقوله: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} الإسراء: 15 وقرىء بالكسر والضمير لله تعالى أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم.

أو للإنسان أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

{يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي} " يأتيها النفس " على إرادة القول أي: يقول الله للمؤون: " يأتيها النفس " إما أن يكلمه إكراماًله كما كلم موسى صلوات الله عليه أو على لسان ملك.

و " المطمئنة " الآمنة التي يستفزها خوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي بن كعب: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة فإن قلت: متى يقال لها ذلك قلت: إما عند الموت.

وإما عبد البعث وإما عند دخول الجنة.

على معنى: راجعي إلى موعد ربك " راضية " بما أوتيت " مرضية " عند الله " فأدخلى في عبادي " في جملة عبادي الصالحين وانتظمي في لكهم " واخلى جنتي " معهم وقيل: النفس الروح.

ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي.

وقرأ ابن عباس: فادخلي في عبدي وقرأ ابن مسعود: في جسد عبدي وقرأ أبي: ائتي ربك راضية مرضية اخلي في عيدي وقيل: نزلت في حمزة بن عبد الملطلب.

وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله والظاهر العموم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة.

سورة البلد

مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يقول أهلكت مالاً لبدا أيحسب أن لم يره أحد} أقسم الله سبحانه بالبلد الحرام وبما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: {وأنت حل بهذا البلد} يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك وفيه تثبيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة

وتعجيب من حالهم فيعداوته أو سلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده فتح مكة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه.

فقال: وأنت حل بهذا البلد يعني: وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر

وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ما شاء وحرم ما شاء.

قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة.

ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان ثم قال: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبل ولن تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد.

فقال العباس: يار رسول الله إلا إلا ذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال صلى الله عليه وسلم: إلا الإذخر.

فإن قلت: أين نظير قوله: " وأنت حل " في معنى الاستقبال قلت: قوله عز وجل: {إنك ميت وإنهم ميتون} الزمر: 30 ومثله واسع في كلام العباد تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو وهو في كلام الله أوسع لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة.

وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة عن وقت نزولها فما بال الفتح فإن قلت: ما المراد بوالد وما ولد قلت: رسول الله صلى اله عليه وآله وسلم ومن ولده أقسم ببلده الذي هةو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه.

فأن قلت: لم نكر قلت: فلإبهام المستقل بالمدح والتعجب.

فإن قلت: هلا قيل ومن ولد قلت فيه ما في قوله: " والله أعلم بما وضعت: آل عمران: 36 أي: بأي شيء وضعت يعني موضوعاً عجيب الشأن.

وقيل: هما آدم وولده.

وقيل: كل والد وولد.

والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبداً فهو أكبد: إذا وجعت كبده وانتفخت فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة.

ومنه اشتقت المكابدة كما قيل: كبته بمعنى أهلكه.

وأصله: كبده إذا أصاب كبده.

قال لبيد: ياعين هلا بكيت أربد إذا قمنا وقام الخصوم في كبد أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

والضمير في " لأيحسب " لبعض صناديد قريش ال 1 ذي كان روسل الله صلى الله عليه وسلم يكابد منهم ما يكابد.

والمعنى: أيظن هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة ولن يقدر الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عيه ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم وأنه يقول: " أهلكت مالاً لبدا " يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر " أيحسب أن لم يره أحد " حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخاراً بينهم يعني: ان الله كان يراه وكان عليه رقيباً.

ويجوز أن يكون الضمير للإنسان على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف ومن شرفه أنك حل به مما يقترفه أهله من المآثم منحرج بريء فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به " لقد خقنا الإنسان في كبدٍ " أي: في مرض: وهو القلب وفساد الباطن يردي: الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعلمون الصالحات.

وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد: هو أبو الأشد وكان قوياً يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقولك من أزالني عنه فله كذا فلا ينزع إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه.

وقيل: الوليد بن المغيةلبدا قرئ بالضم والكسر: جمع لبدة ولبدة وهو ما تلبد بريد الكثرة: وقرئ: لبداً بضمتين: جمع لبود.

ولبدا: بالتشديد جمع لابد.

{أم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبةٍ او إطعام في يومٍ ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة} {ألم تجعل له عينين} يبصر بهما المرئيَات " ولساناً " يترجم به عن ضمائره " وشفتين " يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك " وهديناه النجدين " أي: طريقي الخبر والشر.

وقيل: الشديين " فلا أقتحم العقبة " يعني: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة: من تلك الرقاب وإطهعام اليتامى والمساكين ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة وأساس كل خير بل غمط النعم وكفر بالمنعم.

والمعنى: ان الإتفاق على هذا الوجه هو الإتفاق المرضي النافع عند الله لا أن يهلك مالاً لبداً في الرياء والفخار فيكون مثله {كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم} "آل عمران: 117 الآية.

فإن قلت: قلما تقع لا الداخلة على الماضي إلا مكرره ونحو قوله: فأي أمرٍ سيئ لا فعله لا يكاد يقع فما لها لم تكرر في الكلام الأفصح قلت: هي متكررة في المعنى لأن معنى {فلا أقتحم العقبة} فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً.

ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك.

وقال الزجاج قوله: ثم كان من الذين أمنوا يدل على معنى: " فلا اقتاحم العقبة " ولا آمن.

والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة.

والقحمة: الشدة وجعل الصالحة: عقبة وعملها: اقتحاماً لها لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس.

وعن الحسن: عقبة والله شديدة.

مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان.

وفك الرقبة: تخليصها من رق أو غيره.

أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دلني على عخمل يدخلني الحنة.

فقال: تعتق النسمة وتفك الرقبة.

قال: أو ليسا سواء قال: لا إعتاقها أن تنفرد بعتقها.

وفكها: ان تعين في تخليصها.

من قود أو غرم.

والعتق والصدقة: من أفاضل الأعمال.

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: أن العتق أفضل من الصدقة.

وعند صاحبيه: الصدقة أفضل والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة قال: الرقبة أفضل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من فك رقبة فك الل بكل عضو منها عضواً منه من النار.

قرئ: قلك رقبة أو إطعام على: هي فك رقبة أو إطعام.

وقرئ: فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم العقبة.

وقوله: {وما أدراك ما العقبة} اعتراض ومعناهه: أنك لم تدركنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله والمسغبة والمقربة والمتربة: مفعلات من سغب: إذا جاع.

وقرب في النسب يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي وترب: إذا افتقر ومعناه التصق بالتراب.

وأما أترب فاتسغنى أي: صار ذا مال كالتراب في الكثرة كما قيل: أثري.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: " ذا متربةٍ " الذي مأواه المزابل ووصف اليوم بذي مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب: ذو نصب.

وقرأ الحسن ذا مسغبة نصبه

{ثم كان من الذين آمنوا وتواصلوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار موصده} ثم كان من الذين أمنوا "

جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت لأن الإيمان هو اسابق المقدم على غيره ولا يثبت علم صالح إلا به.

والمرحمة: الرحمة أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه.

أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين.

او بما يؤدي إلى رحمة الله.

الميمنة والمشأمة: اليمين والشمال.

أو اليمن والشؤم أي: الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهن.

قرئ: موصدة بالوا والهمزة من وصدت الباب وآصت الباب وآصدته: إذا أطبقته وأغلقته.

وعن أبي بكر بن عياش: لنا أمام يهمز مؤصدة فاشتهر أن أسد أذني إذا سمعنه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

{والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}
ضحاها: ضوؤها إذا أشرقت وقام سلكانها ولذلك قيل: وقت الضحى كأن وجهه شمس الضحى.

وقيل: الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك.

والضحاء بالفتح والمد: إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف: إذا تلاها " طالعاً عند غروبها آخذاً من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر.

وقيل: إذا استدار فتلاها في الضياء والنور " إذا جلاها " عند انتفاخ النهار وانبساطه لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء.

وقيل: الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر كقولهم: أصبحت باردة: يريدون الغداة وأرسلت: يريدون المساء إذا يغشاها فتغيب وتظلم الآفاق فإن قلت: الأمر في نصب إذا معضل: لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: مررت أمس بزيد واليوم عمرو.

وإما ان تجعلهن للقسم فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه.

قلت: الجواب فيه أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطراحاً كلياً كان لها شأن خلاف شأن

الباء حيث أبز معها الفعل وأضمر فكانت الوار قائمة مقام الفعل والباء سادة مسدهما معاً والواوات العواطف نوائب عن هذه الوار فحققن أن يكن عوامل على الفعل والجار جيمعاً كما تقول: ضرب زيد عمراً وبكر خالداً فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما.

جعلت ما مصدرية في قوله: " وما بناها " " وما طحاها " وما سواها " وليس بالوجه لقوله: " فألهمها " وما يؤدي إله من فساد النظم والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصيفة كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها وفي كلامهم: سبحان ما سخركن لنا.

فإن قلت: لن نكرت النفس قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يريد نفساً خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم كأنه قال: وواحدة من النفوس.

والثاني: أن يريد كل نفس وينكر للتكثير على الطريقة المذكورة في قوله: {علمت نفس} التكوير: 14.

ومعنى إلهام الفجور والتقوى: إفهامهما وإعقالهما وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتكينه من اختيار ما شاء منهما بدليل قوله: " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى.

والتدسية: النقص والإخفاء بالفجوز.

وأصل دسى: دسس كما قيل في تقضض: تقضى.

وسئل ابن عباس عنه فقال: أتقرأ: {قد أفلح من تزكى} الأعلى: 14 {وقد خاب من

حمل ظلما} طه: 111.

وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ودسى لله تعالى وأن تأنيث الراجع إلى من لأنه في معنى النفس: فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدراً هو بريء منه ومتعال عنه ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه فإن قلت: فأين جواب القسم قلت: هو محذوف تقديه: ليدمدمن الله عليهم أي: على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً.

وأما {قد أفلح من زكاها} فكلام تابع لقوله: {فألهمها فجورها وتقواها} على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فمقروها فد مدم عليهم ربهم بنزبهم فسواها ولا يخاف عقباها " الباء في " بطغواها " مثلها في: كتبت بالقلم

والطغوى من الطغيان: فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بان قلبوا الياء واواً في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا: امرأةخزيا وصديا يعني: فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول: ظلمني بجزءته على الله.

وقيل كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى كقوله: " فأهلكوا بالطاغية " الحاقة: 5 وقرأ الحسن: بطغواها بضم الطاء كالحسنى والرجعى في المصادر " إذ انبعث " منصوب بكذبت.

او بالطغوى.

ويجوز أن يكونوا جماعة والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وكان يجوز أن يقال: أشقوها كما تقول: أفاضلهم.

والضمير في: لهم " يجوز أن يكون للأشقين والتفضيل في الشقاوة لأن من تولى العقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ.

و " ناقة الله " نصب على التحذير كقولك الأسد الأسد والصبي الصبي بإضمار: ذروا أو حذروا عقرها " وسقياها " فلا تزووها عنها ولا تستأثروا بها عليها " فكذبوه: فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا " فدمدمعليهم " فأطلق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة: إذا ألبسها الشحم " بذنبهم " بسبب ذنبهم.

وفيه إنذار عظيم بعاقبه الذنب فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر " فسواها " الضمير للدمدمة أي: فسواها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم " ولا يخاف عقباها " أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف كل معاقب من الملوكفيبقى بعض الإبقاء.

ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى: فسواها بالأرض.

أو في الهلاك ولا يخاف عقبى هلاكها.

وفي مصاحف أهل المدينة والشأم: فلا يخاف.

وفيقراءة النبي صلى اله عليه وآله وسلم: ولم يخف.

عن رسول الله صلى اله عليه وسلم: من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر.

سورة الليل

مكية وآياتها إحدى وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

{والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى} المغشي: إما الشمس من قوله: {والليل إذا يغشاها} الشمس: 4 وإما النع هار من قوله: {يغشي الليل النهار} الرعد: 3 وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله: {إذا وقب} الفلق: 3.

" تجلى " ظهر بزوال ظلمة اليل.

أو تبين وتكشف بطلوع الشمس " وما خلق " والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد وقي: هما آدم عليه السلام وحواء.

وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: والذكر والأنثى.

وقرأ ابن مسعود: والذي خلق الذكر والأنثى.

وعن الكسائي: وما خلق الذكر والأنثى بالجر على أنه بدل من محل " ما خلق " بمعنى: وما خلقه الله أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى.

وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لا نفراده بالخالق.

إذ لا خالق سواه.

وقيل: إن الله لم يخلق خلقاً من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى.

والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكراً ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً: كان حانثاً لأنه في الحقيقة إما ذكراً أو انثى وإن كان مشكلاً عندنا شتى جمع شتيت أي: إن مساعيكم أشتات مختلفة وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

{فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى} " أعطى " يعني حقوق ماله " واتقى " الله فلم يعصه " وصدق بالحسنى " بالخصلة الحسنى: وهي الإيمان.

أو بالملة الحسنى: وهي مله الإسلام او بالمثوبة الحسنى: وهي الجنة " فسنيسره لليسرى " فسنهيؤه لها من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: كل ميسر لما خلق له والمعنى فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعةأيسر الأمور عليه وأهونها من قوله {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} النعام: 125.

{وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسر لليسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى " واستغنى} وزهد فيما عند الله كأنه مستغنى عنه فلم يتقه.

أو أستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة لنه في مقابلة " واتقى ".

{فسنيسره للعسرى} فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعس شيء عليه وأشده من قوله: {يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء} الأنعام: 125 أو سمى طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليسر وطريقة الشر العسرى لأن عاقبتها العسر.

أو أراد بهما طريقي الجنة والنار أي: فسنهيهما في الآخرة للطريقين.

وقيل: نزلنا في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبي سفيان بن حرب " وما يغنى عنه " استفهام في معنى الإنكار.

أو نفي " تردى " تفعل من الردى وهو الهلاك يريد: لموت.

أو تردى في الحفرة إذا قبر أو تردى في قعر جهنم.

{إن علينا للهدى وإن لنا للأخرة والأولى} {إن علينا للهدى} إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع {وإن لنا للأخرة والأولى} أي: ثواب الدارين للمهتدي كقوله:

{وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} العنكبوت: 27 {فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى} وقرأ أبو الزبير: تتلظى فإن قلت: كيف قال: " لا يصلاها إلا الأشقى.

وسيجنبها الأتقى " وقد علم أن كل شقي يصلاها وكل تقي يجنبها لا يختص بالصلي أشقى الأشقياء ولا بالنجاة أتقى الأتقياء وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى فما تصنع بقوله: " وسيجنيها الأتقى " فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة لا الأتقى منهم خاصة قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتنا قضين فقيل: الأشقى وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له.

وقيل: الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له.

وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف وأبو بكر رضي الله عنه " " يتزكى " من الزكاء.

أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة.

أو يتفعل من الزكاة.

فإن قلت: ما محل يتزكى قلت: هو على وجهين: إن جعلته بدلاً من " يؤتى " فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلة والصلات لا محل لها وإن جعلته حالاً من الضمير من " يؤتى " فمحله النصب " ابتغاء وجه ربه " مستثنى من غير جنسه وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه كقولك: مافي الدار أحد إلا حماراً.

وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع: على لغة من يقول: ما في الدار احد ألا حمار وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم: أضحت خلاء قفاراً لا أنيس بها إلا الجاذر والظلمان تختلف وقول القائل وبلدةٍ ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس ويجوز أن يكون " ابتغاء وجه ربه " مفعولاً له على المعنى لن معنى الكلام: لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة " ولسوف يرضى " موعد بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه.

وعن رسول الله صلى اله عليه وسلم: من قرأ سورة والليل أعطاه الله حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر.

سورة الضحى

مكية وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

{والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى} لمراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي شعاعها.

وقيل: إنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجداً لقوزله: {وأن يحشر الناس ضحى} طه: 59 وقيل: أريد بالضحى: النهار بيانه قوله: {أن يأتيهم بأسنا ضحى} الأعراف: 98 في مقابلة بياتاً.

" سجى " سكن وركد ظلامه.

وقيل: ليلة ساجية ساكنة الريح.

وقيل معناه سكون الناس والأصوات فيه وسبحا البحر: سكنت أمواجه.

وطرف ساج: ساكن فاتر ما ودعك جواب القسم.

ومعناه: ما قطعك قطع المودع.

وقرئ بالتخفيف يعني: ماتركك.

قال: وثم ودعنا آل عمرٍو وعامرٍ فرائس أطراف المثقفة السمر والتوديع: مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك.

روي: أن الوحي قد تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه.

وقيل: أن أم جمل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما رأى شيطانك إلا قد تركك فنزلت.

حذف الضمير من " قلى " كحذفه من الذاكرات في قوله: {والذاكرين الله كثيراً والذاكرات} الأحزاب: 35 يريد: والذاكراته ونحوه: فآوى فهدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

{وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى} فإن قلت: كيف اتصل قوله: {وللآخرة خير لك من الأولى} بما قبله قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي: أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه: أخبره ان حاله في الآخرةأعظم من ذلك وأجل وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين إعلاء مراتبها

بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية {ولسوف يعطيك ربك فترضى} موعد شامل لما أعطاه الله في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً والغلبة على قريظة ولنضير وإجلائهم وبث عساكره وسارياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالكالجبابرة وأنهيهم من كنوز الأكاسرة وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشو الدعوة واتيلاء المسلمين ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك.

فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على سوف قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة والمبتدأ محذوف.

تقديره: ولأنت سوف يعطيك كما ذكرنا في: لا أقسم أن المعنى: لأنا أقسم وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون

التاكيد فبقي أن تكون لام ابتداء ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتإ وخبر وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد واالتأخير قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تاخر لما في التأخير من المصلحة.{ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى}

عدد عليه نعمه وأياديه وانه لم يخله منها من أول تربيه وابتداء نشءه ترشيحاً لما أراد به ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة: ولا يضيق صدره ولا يقل صبره.

و " ألم يجدك " من الوجود الذي يمعنى العلم: والمنصوبان مفعولا وجد.

والمعنى: ألم تكن يتيماً وذلك أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين فكلفه عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته.

ومن بدع التفاسير: أنه من قولهم: درة يتيمة وأن المعنى: ألم يجدك واحداً في قريش عدلم النظير فآواك.

وقرئ: فآوى وهو على معنيين: إما من اواه بمعنى آواه.

سمع بعض الرعاة يقول: أين آوي هذه الموقسه وإما من أوى له: إذا رحمه " ضالاً " معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع كقوله: " ماكنت تدري ما الكتاب " الشورى: 52.

وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة فرده أو جهل إلى عبد المطلب.

وقيل: أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب.

وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب فهداك: فعرفك القرآن والشرائع.

أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك.

ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية فنعم وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر والجهل بالصانع {ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء} يوسف: 38 وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار ان يسبق له كفر " علائلاً " فقيراً ز وقرئ: عيلاً كما قرئ: سيحات وعديماً " فأغنى " فأغناك بمال خديجة أو بما أفاء عليك من الغنائم.

قال عليه الصلاة والسلام: جعل رزقي تحت ظل رمحي وقيل: قنعك وأغنى قلبك " فاما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهرن وأما بنعمة ربك فحدث " " فلا تقهر " فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه.

وفي قراءة ابن سمعود: فلا تكهر وهو أن يعبس في وجهه.

وفلان ذو كهرورة: عابس الوجه.

ومنه الحيدث: فبأبي وأمي هو ما كهرني.

النهر ن والنهم: الزجر.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: إذا رددت السائل ثلاثاً فلا يرجع فلا عليك أن تزبره وقيل: أما إنه ليس بالسائل المستجدي ولكن طالب العلم: إذا جاء فلا تنهره.

التحديث بنعمة الله: شكرها وإساعتها يريد: ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك.

وعن مجاهد: بالقرآن فحدث: أقرئه وبلغ ما أرسلت به.

وعن بعبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة حيراً: قرأت كذا وصليت كذا فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا قال: يقول الله تعالى " وأما بنعمة ربك فحدث: وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله.

وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره وأمن على نفسه الفتنة.

والستر أفضل.

ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة: لكفي به.

وفي قراءة علي رضي الله عنه: فخبر والمعنى: أنك كنت يتيماًن وضالاً وعائلاً فآوالك الله وهداك: وأغناك فمهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنسنعمة الله عليك في هذه الثلاث.

واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوة فقد ذقت اليتم وهوانه ورأيت كيف فعل الله بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فاغناك بعد الفقر وحدث بنعمة الله كلها ويدخل تحته هدايته الضلال وتعلمه الشرائع والقرآن مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل.

سورة الشرح

مكية وآياتها ثمانٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح وإيجابه فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك ولذلك عطف عليه: وضعنا: اعتباراً للمعنى.

ومعنى: شرحنا صدرك: فسحناه حتنوسع هموم النبوة ودعوة الثقلين جميعاً.

أو حتى احنمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم: أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل.

وعن الحسن: مليء حكمة وعلماً.

وعن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: ألم نشرح لك بفتح الحاء.

وقالوا: لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها والوزر الذي أنقض ظهره - أي: حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقلهمثل لما كان يثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغمه من فرطاته قبل النبوةز أومن جهله بالأحكام والشرائع.

أو من تهلكه على إسلام أولي العناد من قومه وتلهفه.

ووضعه عنه: أن غفر له أو علم الشرائع أو مهدعذره بعد ما بلغ وبلغ.

وقرأ أنس: وحللنا وحططنا.

وقرأ ابن مسعود: وحللنا عنك وقرك.

ورفع ذكره: أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب وفي غير موضع من القرآن {والله ورسوله أحق أن يرضوه} التوبة: 62 {ومن يطع الله ورسوله} النساء: 13 {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} المائدة: 92 وفي تسمية رسول الله ومنه ذكره في كتب الأولين والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به فإن قلت: أي فائدة في زيادة لك والمعنى

مستقل بدونه قلت: في زيادة لك ما في طريقة الإبهام والإيضاح كأنه قيل: ألم نشرح لك ففهم أن ثم مشروحاً ثم قيل: صدرك فاوضح ما علم ميهما وكلذلك " لك ذكرك " ز " عنك وزرك " فإن مع العسشر يسراً إن مع العسر يسراً " فإن قلت: كيف تعلق قوله: " فإن مع العسر يسراً " بما قبله قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فذكره ما أنعم به عليه من جلايل النعم ثم قال: " فإن مع العسر يسراً " كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسراً.

فإن قلت: " إن مع " للصحبة فما معنى اصطحاب اليسر والعسر قلت: أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذيكانوا فيه بزمان قريب فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادجة في التسلية وتقوية القلوب.

فإن قلت: ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين وقدروي مرفوعاً: أنه خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو يضحك وقول: لن يغلب عسر يسرين قلت: هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء وان موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول في أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى كما كرر قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} الطور: 11 لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب وكما تكرر المفرد في قولك: جاءني زيد زيد وأن تكون الولى عدة بأن العسر مردوف بيسر لا محالة والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بير فهما يسران على تقدير الاستئناف وإنما كان العسر واحداً لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو لأن حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالاً إن مع زيد مالا.

وإما أن يكون للجنس الذي علمه لك كل أحد فهو هو أيضاً.

وأما اليسر فمنكر متناول لعض الجنس فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر فقد تناول بعضاً غير البعض الول بغير إسكال.

فإن قلت: فما المراد باليسرين قلت: يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم في أيام الخلفاء وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى: " قل هل تربصون بنا غلا إحدى الحسنيين " التوبة 52 وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب.

فإن قلت: فما معنى هذا التنكير قلنت: التفخيم كأنه قيل: إن مع العسر يسراً عظيماً وأي يسر وهو في مصحف ابن مسعود مرة واحدةز فإن قلت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عله إنه لن يغلب عسر يسرين قلت: كأنه قصد باليسرين:

{فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب} فإن قلت: فكيف تعلق قوله: {فإذا فرغت فانصب} بما قبله قلت: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآنفة بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها وأن يواصل بين بعضها وبعض ويتابع ويحرص على أن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى.

وعن ابن عباس: فغذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء.

وعن الحسن: فإذا فرت من الغزو فاجتهد في العبادة.

وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك.

وعن الشعبي: انه رأى رجلاً يشيل حجراً فقال: ليس بهذا أمر الفارغ وقعود الرجل فارغاً من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه: من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة ولقد قال عمر رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سهلاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة وقرأ أبو السمال: فرغت - بكسر الراء - وليست بفصيحة.

ومن البدع: ما روى عن بعض الرافضة أنه قرأ: فانصب بكسر الصاد أي: فانصب علياً للإمامة ولو صح هذا للرافضي لصح للناصبي أن يقرأ هكذا ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي وعداوته {وإلى ربك فارغب} واجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه.

وقرئ: فرغب أي: رغب الناس إلى طلب ما عنده.

من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني.

سورة التين

مكية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

{والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين} أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة وروي: أنه

أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه: كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من لجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها.

فغنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس.

ومر معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيباً واستك به وقال: سمعت ريول الله صلى الله عليه وسلم يقول: نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركى يطيب الفم ويذهب بالحفرة.

وسمعته يقول: هي سواكي

وسواك النبياء قبلي وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو تينكم هذا وزيتونكم.

وقيل: جبلان من الأرض المقدسة ياقل لهما بالسريانية: طورتينا وطورزيتا لأنهما منبتا التين والزيتون.

وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمذان و الزيتون جبال الشام لأنها منابتهما كأنه قيل: ومنابت التين والزيتون.

وأضيف الطور: وهو الجبل إلى سنين: وهي البقعة.

ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالوار والياء والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب.

والبلد: مكة حماها الله والأمين من امن الرجل أمانة فهو أمين.

وقيل: أمان كما قيل: كزام في كريم.

وأمانته: ان يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه.

ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل كما وصف بالأمن في قوله تعالى {حرم آمنا} القصص: 57 بمعنى ذي أمن: ومعنى القسم بهذه الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى النبياء والصالحين.

فمنبت التين والزيتون مهاجر غبراهيم ومولد عيسى ومنشؤة والطور: المكان الذي نودي منه موسةى.

ومكة: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه: {في أحسن تقويم} في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه.

ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية: أن رددناه أسفل من سفل خلقاً ونركيباً يعني: أقبح صورة وأشوهه خلقة وهم أصحاب النار أو أسفل من سفل من أهل الدركات.

او ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل في حسن الصورة والشكل: حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله وابيض شعره بعد سواده وتشنن جلده وكان بضا وكل سمعه وبصره وكانا حديدين وتغير كل شيء منه: فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف وقرأ عبد الله: أسفل السافلين.

فإن قلت: فكيف الاستثناء على المذهبين قلت: هو على الأول متصل ظاهر الاتصال وعلى الثاني: منقطع.

يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم.

فغن قلت: " فما يكذبك " من المخاطب به قلت: هو خطاب للإنسان على طريقة الا لتفات أي: فما يجعلك كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل يعني انك تكذب إذا كذبت بالجزاء لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب فأي شيء يطرك إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء.

والباء مثلها في قوله تعالى: {الذين يتولونه والذين هم بهم مشركون} النمل: 1010 ولمعنك ان خلق الإنسان من نطفة وتويمه بشراً سوياً وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل وستوي ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر: لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق وأن من قدر من الإنسان على هذا كله: لم يعجز عن إعادته فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع.

وقيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم " أيس الله بأحكم الحاكمين " وعي للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا قرأها قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين: العافية واليقين ما دام في دار الدنيا وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة.

سورة العلق

مكية و آياتها تسع عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

{اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علقٍ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سوزرة نزلت وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم.

محل " باسم ربك " النصب على الحال أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك قل: بسم الله ثم اقرأ.

فإن قلت: كيف قال: " خلق " فلم يذكر له مفعولاً ثم قال: " خلق الإنسان " قلت: هو على وجيهين: إما أن لايقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه.

وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلقن فليس بعض المخلوقات أولى بتقيره من بعض.

وقوله: " خلق الإنسان " تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض.

ويجوز أن يراد: الذي خلق الإنسان كما قال: {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان} الرحمن: 1 - 2 - 3 فقيل: " الذي خلق " مبهماً ثم فسره بقوله: {خلق الإنسان} تفخيماً لخلق الإنسان.

ودلالة على عجيب فطرته.

فغن قلت: لم قال " من علق " على الجمع وإنما خلق من علقة كقوله: {من نطفة ثم من علقة} غافر: 67 قلت: لأن الإنسان في معنى الجمع كقوله: {إن الإنسان لفي خسر} العصر: 2 " الأكرم " الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم بنعم على عباده النعم التي لا تحصى ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم فما لكرمه غاية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: {الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} فدل على

كمال كرمه بأنه علم بعباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة وللا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به.

ولبعضهم في صفة القلم: ورواقم رقشٍ كمثل أراقم قطف الخطا نيالةٍ أقصى المدى سود القزوائم ما يجد مسيرها إلا إذا لعبت بها بيض المدى وقرأ ابن الزبيرك علم الخط بالقلم.

" كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى أرءيت الذي ينهى عبداً إذا صلى أرءيت إن كان على الهدى أو امر بالتقوى أرءيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته بالناصية ناصية كذبةٍ خاطئةٍ فليدع ناديه سندع البانيه كلا لا تطعه واسجد واقترب " " كلا " ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه " أن رءاه " أن رأى نفسه.

يقال: في أفعال القلوب: رأيتني وعلمتني وذلك بعض خصائصها.

ومعنى الرؤية العلم ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين.

و " استغنى " هو المفعول الثاني " إن إلى ربك الرجعى " واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

والرجعى: مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع.

وقيل: نزلت في أبي جهل.

وكذلك " أرءيت الذي ينهى " وروي: أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتزعم أن من استغنى طغلى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل جبريل فقال: إن شئت فعلنا ذلك قم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله ليه وسلم عن الدعاء إيقاء عليهم.

ورويعنه لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قالزا: نعم.

قال: فو الذي يحلف به لئن رأيته توطأت عنقه فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا له: مالك يا أبا الحكم فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة فنزلت " أرءيت الذي ينهى " ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فما ينهى عنه من عبادة الله.

أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن " ألم تعلم بأن الله يرى " ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك.

وهذا وعيد.

فغن قلت: ما متعلق أرأيت قلت: الذي ينهى مع الجملة الشرطية وهما في موضع المفعولين.

فإن قلت: فأين جواب الشرط قلت هو محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف للالة ذكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قلت: فكيف صح أن يكون " ألم يعلم " جواباً للشرط قلت: كما صح في قولك: إن اكرمتك أتكرمني وإن احسن إليك زيد هل تحسن إليه فإن قلت: فما رأيت الثانية وتوسطها بين مفعول أرأيت قلت: هي زائدة مكررة للتوكيد.

وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة " كلا " ردع لأبي جهل وخسوء له عن عبادة الله تعالى وامره بعبادة اللات ثم قال " لئن لم ينته " عما هو فيه " لنسفعا بالناصية " لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار.

والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة.

قال عمرو بن معد يكرب: قوم إذا يقع الصريخ رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع وقرئ: لنسفعن بالنون المشددة.

وقرأ بن مسعود: لأسفعا.

وكتبتها في المصحف بالألف على حكم الوقف ولما علم أنها ناصية المذكرو اكتفى بلام العهد عن الإضافة " ناصية " بدل من الناصية وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت فاستقلت بفائدة.

وقرئ: ناصية على: هي ناصية وناصية بالنصب.

وكلاهما على الشتم.

ووصفها بالكذب و الخطأ على الإسناد المجازي.

وهما في الحقيقة لصاحبها.

وفيه من الحسن والجزالة ماليس في قولك: ناصية كاذب خطائ.

والنادي: المجلس الذي ينتدي فيه القوم.

أي: يجتمعون.

والمراد: اهل النادي.

كما قال جرير لهم مجلس صهب السبال أذلة وقال زهير: وفيهم مقامات حسان وجوههم والمقامة: المجلس.

روي: أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال: ألم أنهك فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزلت.

وقرأ ابن أبي عبلة: سيدعى الزبانية على البناء للمفعول والزبانية في كلام العرب: الشرط الواحدة زبنية كعفرية من الزبن: وهو الدفع.

وقيل: زبني وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير للنسب كقولهم أمسى وأصله: زباني فقيل: زبانية على التعويض والمراد: ملائكة العذاب.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم

لو دعا ماديه أخذته الزبانية عياناً " كلا " ردع لأبي جهل " لا تطعه " أي أثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله: " فلا تطع المكذبين " القلم: 8 " واسجد " ودم على سجودك ن يريد: الصلاة " واقترب " وتقرب إلى ربك.

وفي الحديث: أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد.

من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله.

سورة القدر

مكية وقيل: مدنية وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنا أنزلنه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل االملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر} عظم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره والثاني: انه جاء بضميره دون أسمه الظاهر شهادة له بالناهة والاتسغناء عن التنبيه عليه والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فه.

وروي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى المساء الدنيا.

وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزله على رسول اللله صلى الله عليه وسلم نجوماً في ثلاث وعشرين سنة.

وعن الشعبي: المعنى إنا ابتدانا إنزاله في ليلة القدر واختلفوا في وقتها فاكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها.

وأكثر القول أنها السابعة منها ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحييمن يريدها الليالي الكثيرة: طلباً لموافقتها فتكثر عبادته وتضاعف ثوابه وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها.

ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير المور وقضائها من قوله تعالى: {فيها يفرق كل أمر حكيم} الدخان: 4 وقيل: سميت بذلك لخطرها وسرفها على سائر الليالي {وما أدراك ما ليلة القدر} يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ثم بين له ذلك بأنها خير من ألف شهر وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها من تنزل الملائكة والروح وفصل كل أمر حكيم وذكر في تخصيص هذه المدة: ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إيهم أهمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي.

وقيل: إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حت يعبد الله ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد " تنزل " إلى السماء الدنيا وقيل: إللى الأرض " والروح " جبريل.

وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة " من كل أمر " أي: تنزل من أجل كل أمر قضاء الله لتلك السنة إلى قابل.

وقرئ: من كل أمرئ ي: من أجل كل إنسان.

وقيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة " سلم هى " ما هي إلا سلامة أي: لا يقدر الله فيهاإلا السلامة والخير ويقضي في غيرها بلاء وسلامة.

او: ما هي ألا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين.

قرئ: مطلع بفتح اللام وكسرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر.

سورة البينة

مكية وقيل: مدنية وأياتها ثمانٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

{لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهره فيها كتاب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكوة وذلك دين القيمة إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لاننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه قم قال: {وما تفرق الذين أوتوا الكتاب} يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق: إذا جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ونظيره في الكرلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن

الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار: يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً.

وانفكاك الشيء.

ان يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة.

و " البينة " الحجة الواضحة.

" رسول بدل من البينة.

وفي قراءة عبد الله: رسولا حالاً من الينة " صحفا " قراطيس " مطهرة " من الباطل "

فيها كتاب " مكتوبات " قيمة " مستقيمة ناطقة بالحق والعدل والمراد بتفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه.

أو تفرقهم فرقاً فمنعهم من آمن ومنهم من أنكر وقال: ليس به ومنهم من عرف وعاند فإن قلت لم جمع بين اهل الكتاب والمشركين أولاً قم أفراد أهل الكتاب في قوله " وما تفرق الذين أوتوا الكتاب " قلت: لأنهم كانوعلى علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف " وما أمروا " يعيني في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ولكنهم حرفوا وبدلوا " ذلك دين القيمة " أي " دين الملة القيمة وقرئ وذلك الدين القمية على تأويل الذين بالملة.

فإن قلت: ما وجه قوله: " وما أمروا إلا ليعبدوا الله " قلت معناه: وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة.

وقرأ ابن مسعود: " إلا أن يعبدوا " بعنى: بأن يعبدوا.

قرأ نافع: " البريئة " بالهمز والقراء على التخفيف.

والنبي والبرية: مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل وقرىء: " خيار البرية " جمع خير كجياد وطياب: في جمع جيد وطيب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلاً ".

سورة الزلزلة

مدنية وقيل: مكية وآياتها ثمانٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا زلزلت الأرض زلزالها واخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} زلزالها قرئ: بكسر الزار وفتحها فالمكسور: مصدر والمفتوح: اسم وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف.

فإن قلت: ما معنى زلزالها بالإضافة قالت: معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة وهو مشيئة الله وهو الزلوال الشديد الذي ليس بعده.

ونحوه قولك: اكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانته تريد: نا ستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه.

الأثقال: جمع ثقل.

وهو متاع البيت وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أثاقلاً لها " وقال الإنسان ما لها " زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها وذلك عن النفخة الثانية خين تزلزل ولفظ أمواتها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون: " من بعثنا من مرقدنا " يس: 52.

وقيل: هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث فأما المؤمن فيقول: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} يس: 52 فإن قلت : ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها قلت: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم بمقام التحديث باللسان حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم تلفظ الأموات وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه.

وقيل: ينطقها الله على الحقيقة.

وتخبر بما عمل عليها من خير وشر.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها.

فغن قلت: إذا ويومئذ ما ناصبهما قلت " يومئذ بدل من إذا وناصبهما " تحدث " ويجوز أن ينتصب إذا بمضمر و " يومئذ " بتحدث.

فإن قلت: أين مفعولا تحدث قلت حذف أولهما والثاني: أخبارها وأصله تحدث الخلق أخبارها إلا أن المصقود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً لليوم.

فإن قلت: بم تعلقت الباء في قوله: " بأن ربك " قلت: بتحدث معناه: تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها بالتحديث.

ويجوز أن يكون المعنى: يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخلارها على أن تحديثها بأن ربك أو حى لها: تحديث بأخبارها كما تقول: نصحتني كل نصيحة بأن نسحتني في الدين.

ويجوز أن يكون " بأن ربك " بدلاً من " أخبارها " كأنه قيل: يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا " أوحى أوحى لها القرار فاستقرت وقرأ ابن مسعود: تنبئ أخبارها.

وسعيد بن جبير: تنبئ بالتخفيف يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف " أشتاتاً " بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين.

أو يصدرون عن الموقف أشتاتاً بتفرق بهم طريقا الجنة والنار ليروا جزاء أعمالهم.

وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ليوا بالفتح.

وقرأ ابن عباس وزيد بن علي: يره باضم.

ويحكى أن أعرابياً أخر " خيراً يره " فقيل له: قدمت وأخرت فقال: خذا بطن هرش أو قفاها فإن كلا جانبي هرش لهن طريق والذرة النملة الصغيرة وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء فإن قلت: حسنات المافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن مغفرة باجتناب الكبائر فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر منم الخير والشر قلت: المعنى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً: من فريق السعداء.

ومن يعمل مقال ذرة شراً: من فريق الأشقياء لأنه جاء بعد قوله: " يصدر الناس أشتاتاً " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مران كان كمن قرأ القرآن كله

سورة العاديات

مكية وقيل: مدنية وآباتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

{والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير}

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون وعن ابن عباس أنه حكاه فقال: أح أح.

قال عنترة: والخيل تكدح جين تض - بح في حياض الموت ضبحا وانتصاب ضبحا على: يضبحن ضبحا او بالعاديات كأنه قيل: والضابحات لأن الضبح يكون مع العدو.

أو على الحال أي: ضابحات " فالموريات " توري نار الحباحب وهي ما ينقدح من حوافرها " قدحاً " قادحات صاكات بحوافرها الحجارة والقدح: الصك.

والإبراء: إخراج النار.

تقول: قدح فأورى وقدح فأصلد وانتصب قدحاً بما انتصب به ضبحا " فالمغيرات " تغير على العدو " صبحاً " في وقت الصبح " فأثرن به نفعاً " فهيجنا بذلك الوقت غباراً "فوسطن به " بذلك الوقت أو بالنفع أي: وسطن النقع الجمع أو فوسطن ملتبسات به " جمعاً " من جموع الأعداء ووسطه بمعنى توسطه وقيل: الضمير لمكان الغارة وقيل: للعدو الذي دل عليه " والعاديات " ويجوز أن يراد بالنقع: الصياح من قوله عليه الصلاة والسلام: مالم يكن نقع ولا لقلقة وقول لبيد: فمتى ينقع صراخ صادق أي: فهيجن في المغار عليهم صياحاً وجلبة.

وقرأ أبو حيوة: فأثرن بالتشديد بمعنى: فأظهرن به غباراً لأن التأثير فيه معنى الإظهار.

أوة قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة وقرئ: فوسطن بالتشديد للتعدية.

والباء مزيدة للتوكيد كقوله: {وأتوا به} البقرة 25 وهي مبالغة في وسطن.

وعن ابن عباس: كنت جالساً في الحجر فجاء رجل فسألني عن " والعاديات ضبحاً " ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت: فقال: ادعه لي فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لاعلم لكك به والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير وفرس للمقداد " العاديات ضبحاً " الإبل من عرفة إلى المزدلفة ومن المزلفة إى منى فإن صحت الرواية فقد استعير الضج للإبل كما استعير المشافر والحافر للإنسان والشفتان للمهر والثغر للثورة وما أشبه ذلك.

وقيل: الضبح لا يكون إلا للفرس والكلب والثعلب.

وقيل: الضبح بمعنى الضبع يقال: ضبحت الإبل وضبعت: إذا مدت أضباعها في السير وليس بثبت.

وجمع: هو المزدلفة.

فإن قلت: علام عطف فأثرن قلت: على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه لأن المعنى: واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن الكنود: الكفور وكند النعمة كنوداً ومنه سمي كندة لأنه كند أباه ففارقه.

وعن الكلبي: الكنود بلسان كندة: العاصي وبلسان بني مالك: البخيل وبلسان مضر وربيعة: الكفور يعني: أنه لنعمة ربه خصوصاً لشديد الكفران لأن تفريطه في شكر نعمة غير الله تفريط قريب لمقاربة النعمة لأن أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ثم إن عظماها في جنب أدنى نعمة الله قليلة ضئيلة وإنه وإن الإنسان على ذلك على كنوده لشهيد يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره.

وقيل: وإن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد الخير المال من قوله تعالى: {إن ترك خيراً} البقرة 180 والشديد: البخل الممسك.

يقال: فلان شديد ومتشدد.

قال طرفة: أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد يعني: وإنه لأجل حب المال وأن إنفاقه يثقل عليه: لبخيل ممسك.

أو أراد بالشديد: القوي وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس.

تقول: هو تشديد لهذا الأمر وقوي له: إذا كان مطيقاً له ضابطاً.

أو أراد: أنه لحب الخيرات غير هش منبسط ولكنه شديد منقبض بعثر بعث: وقرئ: بحثر وبحث وبحثر وحصل: على بنائهما للفاعل وحصل: بالتخفيف ومعنى حصل جمع في الصحف أي: أظهر محصلاً مجموعاً وقيل: ميز بين خيره وشره ومنه قيل للمنخل: المحصل.

ومعنى علمه بهم يوم القيامة: مجازاته لهم على مقادير أعمالهم لأن ذلك أثر خبره بهم.

وقرأ أبو السمال: {إن ربهم بهم يومئذ خبير}عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة والعاديات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً ".

سورة القارعة

مكية وآياتها 11

بسم الله الرحمن الرحيم

{القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية}.

الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارقة أي: تقرع {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث} شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار.

قال جرير: إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألواناً لأنها ألوان وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها وقرأ ابن مسعود: كالصوف.

الموازين: جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله.

أو جمع ميزان وثقلها: رجحانها ومنه حديث أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته له: " وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة بإتباعهم الحق وثقلها في الدنيا وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل وإنما خفت موازين من خفت موازينه لإتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف " فأمه هاوية " من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة: هوت أمه لأنه إذا هوى أي: سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً قال: فكأنه قيل: وأما من خفت موازينه فقد هلك.

وقيل: هاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة لهوي أهل النار فيها مهوى بعيداً كما روي: يهوي فيها سبعين خريفاً أي: فمأواه النار.

وقيل: للمأوى: أم على التشبيه لأن الأم مأوى الولد ومفزعه.

وعن قتادة: فأمه هاوية أي: فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً هيه ضمير الداهية التي دل عليها قوله: " فأمه هاوية " في التفسير الأول.

أو ضمير هاوية والهاء للسكت وإذا وصل القارئ حذفها.

وقيل: حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج لأنها ثابتة في المصحف.

وقد أجيز إثباتها مع الوصل.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة"

سورة التكاثر

مكية وآياتها 8

بسم الله الرحمن الرحيم

{ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون}

ألهاه عن كذا وأقهاه: إذا شغله.

والتكاثر التباري في الكثرة والتباهي بها وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر وهؤلاء: نحن أكثر.

روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرتهم بنو سهم.

والمعنى: أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات: عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكماً بهم.

وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم.

والمعنى: ألهاكم ذلك - وهو مما لا يعنيكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم - عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعني من كل مهم.

أو أراد ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم.

منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت لا هم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم.

وزيارة القبور: عبارة عن الموت.

قال: لن يخلص العام خليل عشراً ذاق الضماد أو يزور القبرا وقال: زار القبور أبو مالك فأصبح ألأم زوارها وقرأ ابن عباس: أألهاكم على الاستفهام الذي معناه التقرير كلا ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه سوف تعلمون إنذار ليخافوا فيتنبهوا من غفلتهم.

والتكرير: تأكيد للردع والإنذار عليهم.

وثم دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله وإن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم.

ثم كرر التنبيه أيضاً وقال: لو تعلمون محذوف الجواب يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وكلتم بعلمها هممكم: لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه ولكنكم ضلال جهلة ثم قال: " ترون الجحيم " فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به وقد مر ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه وهو جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد وأن ما أوعدوا به ما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفاً بثم تغليظاً في التهديد وزيادة في التهويل.

وقرئ: لترؤن بالهمز وهي مستكرهة.

فإن قلت: لم استكرهت والواو المضمومة قلبها همزة قياس مطرد قلت: ذاك في الواو التي ضمتها لازمة وهذا عارضة لالتقاء الساكنين.

وقرئ: لترون ولتروها: على البناء للمفعول " عين اليقين " أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته.

ويجوز أن يراد بالرؤية: العلم والإبصار " عن النعمي " عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه.

فإن قلت: ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه فما من أحد إلا وله نعيم قلت: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب لا يعبأ بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل وكان ناهضاً بالشكر: فهو من ذاك بمعزل وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى: أنه أكل هو وأصحابه تمراً وشربوا عليه ماء فقال: " الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ".

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ ألهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا وأعطي من الأجر كأنما قرأ ألف آية ".

سورة العصر

مكية وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

{والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}
أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله تعالى: {والصلاة الوسطى} صلاة العصر في مصحف حفصة.

وقوله عليه الصلاة والسلام: " من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله " ولأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم.

أو أقسم بالعيش كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة.

أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

والإنسان: للجنس.

والخسر: الخسران كما قيل: الكفر في الكفران.

والمعنى: أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم لأنهم فوقعوا في الخسارة والشقاوة " وتواصوا بالحق " بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة " وتواصوا بالصبر " عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلو الله به عباده.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر".

سورة الهمزة

مكية وآياتها تسع

بسم الله الرحمن الرحيم

{ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة}
الهمز: الكسر كالهرم.

واللمز: الطعن.

يقال: لمزه لهزه طعنه والمراد: الكسر من أعراض الناس والغض منهم واغتيابهم والطعن فيهم وبناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها.

ونحوهما: اللعنة والضحكة.

قال: وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة وقرئ: ويل للهمزة اللمزة.

وقرئ: ويل لكل همزة لمزة بسكون الميم: وهو المسخرة الذي يأتي بالأوابد والأضانحيك فيضحك منه ويشتم.

وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة.

وقيل: في أمية بن خلف.

وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضه منه.

ويجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه الذي بدل من كل.

أو نصب على الذم.

وقرئ: جمع بالتشديد وهو مطابق لعدده.

وقيل: عدده جعله عدة لحوادث الدهر.

وقرئ: وعدده أي: جمع المال وضبط عدده وأحصاه.

أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه من قولك: فلان ذو عدد وعدد: إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم.

وقيل: وعدده معناه: وعده على فك الإدغام نحو: ضننوا.

أخلده وخلده بمعنى أي: طول المال أمله ومناه الأماني البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته طول أمله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت.

أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض: عمل من يظن أن ماله أبقاه حياً.

أو هو تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم فأما المال فما أخلد أحداً فيه وروي أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار.

وقيل: عشرة آلاف.

وعن الحسن: أنه عاد موسراً فقال: ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم ولا تفضلت بها على كريم قال: ولكن لماذا قال: لنبوة الزمان وجفوة السلطان ونوائب الدهر.

ومخافة الفقر.

قال: إذن تدعه لمن لا يحمدك وترد على من لا يعذرك كلا ردع له عن حسبانه.

وقرئ: لينبذان أي: هو وماله.

ولينبذن بضم الذال أي: هو وأنصاره.

ولينبذنه في الحطمة في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها.

ويقال للرجل الأكول: إنه لحطمة.

وقرئ: الحاطمة يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى لا تصل إلى صدروهم وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يمسه فكيف إذا أطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه.

ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة.

ومعنى إطلاع النار عليها: أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها.

أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها مؤصدة مطبقة.

قال: تحن إلى أجبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء موصدة وقرئ: في عمد بضمتين.

وعمد بسكون الميم وعمد بفتحتين.

والمعنى: أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق.

ويجوز أن يكون المعنى: إنها عليهم مؤصدة موثقين في عمد ممدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص.

اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه ".

سورة الفيل

مكية آياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

{ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول} روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بني كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً فأغضبه ذلك.

وقيل: أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها ليلاً فأغضبه ذلك.

وقيل: أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيماً واثنا عشر فيلاً غيره.

وقيل: ثمانية وقيل: كان معه ألف فيل وقيل كان وحده فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيرها من الجهات هرول فأرسل الله طيراً سوداً.

وقيل: خضراً وقيل: بيضاً مع كل طائر حجر في منقاره وحجران فر رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل ودوى أبرهة فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائره يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه.

وقيل: كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة وقيل: بثلاث وعشرين سنة.

وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان.

وفيه أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه فيها فجهره وكان رجلاً جسيماً وسيماً.

وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم.

وشرفكم في قديم الدهر فألهاك عنه ذود أخذ لك فقال أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول: لاهم إن المرء يم نع رحله فامنع حلالك لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً محالك يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحو اليمن فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي ببحرية ولا تهامية.

وفيه أن أهل مكة قد احتووا على أموالهم وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجور وكان سبب يساره.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سئل عن الطير فقال: حمام مكة منمها.

وقيل: جاءت عشية ثم صبحتهم.

وعن عكرمة: من أصابته جدرته وهو أول جدري ظهر.

وقرئ: ألم تر بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم: والمعنى: أنك رأيت أثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة فقامت لك مقام المشاهدة.

وكيف في موضع نصب بفعل ربك لا بألم تر لما في كيف من معنى الاستفهام.

في تضليل في تضييع وإبطال.

يقال: ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً.

ومنه قوله تعالى: {وما كيد الكافرين إلا في ضلال} غافر 25 وقيل: لامرئ القيس: الملك الضليل لأنه ضلل ملك أبيه أي: ضيعه يعني: أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه وكادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم.

أبابيل حزائق الواحدة: إبالة.

وفي أمثالهم: ضغث على إبالة وهي: الحزمة الكبيرة شبهت الحزقة من الطير في تضامها بالإبالة.

وقيل: أبابيل مثل عباديد وشماطيط لا واحد لها وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: يرميهم أي: الله تعالى أو الطير لأنه اسم جمع مذكر وإنما يؤنث على المعنى.

وسجيل: كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجيناً علم لديوان أعمالهم كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال لأن العذاب موصوف بذلك وأرسل عليهم طيراً {فأرسلنا عليهم الطوفان} الأعراف 133 وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين يطبخ الآجر.

وقيل: هو معرب من سنككل.

وقيل: من شديد عذابه ورووا بيت ابن مقيل: ضرباً تواصت به الأبطال سجيلا وإنما هو سجينا والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه وشبهو بورق الزرع إذا أكل أي: وقع فيه الأكال: وهو أن يأكله الدود.

أو بتبن أكلته الدواب وراثته ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن كقوله: {كانا يأكلان الطعام} المائدة 75 أو أريد: أكل حبه فبقي صفراً منه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ ".

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

{لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف} لإيلاف قريش متعلق بقوله: فليعبدوا أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين فإن قلت: فلم دخلت الفاء قلت: لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم على معنى: أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة.

وقيل: المعنى: عجبوا لإيلاف قريش.

وقيل: هو متعلق بما قبله أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش وهذا بمنزلة التضمين في الشعر: وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح غلا به وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل.

وعن عمر: أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب.

وقرأ في الأولى: والتين.

والمعنى أنه أهل الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم فلا يجترئ أحد عليهم وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلافاً: إذا ألفته فأنا مؤلف.

قال: من المؤلفات الرهو غير الأوارك وقرئ: لئلاف قريش أي: لمؤالفة قريش.

وقيل: يقال: ألفته إلفاً وإلافاً.

وقرأ أبو جعفر: لإلف قريش وقد جمعهما من قال: زعمتم أن إخواتكم قريش لهم إلف ولين لكم إلاف وقرأ عكرمة: ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف.

وقريش: ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش: وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار.

وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: بم سميت قريش قال: بداية في البحر تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى.

وأنشد: وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشاً والتصغير للتعظيم.

وقيل: من القرش وهو الكسب: لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً بعظيم النعمة فيه ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به كما نصب يتيماً بإطعام وأراد رحلتي الشتاء والصيف

كلوا في بعض بطنكم.

وقرئ: رحلة بالضم وهي الجهة التي يرحل إليها: والتنكير في جوع وخوف لشدتهما يعني: أطعمه بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم.

وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم.

وقيل: ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه.

ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف من أن تكون الخلافة في غيرهم.

و قرئ: من خوف بإخفاء النون.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها ".

سورة الماعون

مكية وقيل: مدنية وآياتها سبع

بسم الله الرحمن الرحيم

{أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون} قرئ: أريت بحذف الهمزة وليس بالاختيار لأن حذفها مختص بالمضارع ولم يصح عن العرب: ريت ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام.

ونحوه: صاح هل ريت أو سمعت براع رد في الضرع ما قرى في الحلاب وقرأ ابن مسعود أرأيتك بزيادة حرف الخطاب كقوله: " أرأيتك هذا الذي كرمت علي " الإسراء 2 والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه فذلك الذي يكذب بالجزاء هو الذي يدع اليتيم أي: يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة.

وقرئ: يدع أي: يترك ويجفو.

ولا يحض ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك فحين أقدم عليه: علم أنه مكذب فما أشده من كلام وما أخوفه من مقام.

وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ثم وصل به قوله فويل للمصلين كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع

وإخبات ولا اجتناب لما يكره فيها: من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السور وكما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم.

والمعنى: أن هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة - التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام - علماً على أنهم مكذبون بالدين.

وكم ترى من المتسمين بالإسلام بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة فيا مصيبتاه.

وطريقة أخرى: أن يكون فذلك عطفاً على الذي يكذب إما عطف ذات على ذات أو صفة على صفة ويكون جواب أرءيت محذوفاً لدلالة ما بعده عليه كأنه قيل: أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين أنعم ما يصنع ثم قال: فويل للمصلين أي: إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين على معنى: فويل لهم إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكين أموالهم.

فإن قلت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذب وهو واحد قلت: معناه الجمع لأن المراد به الجنس.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: عن صلاتهم وبين قولك: في صلاتهم قلت: معنى: عن: أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفاوت إليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين.

ومعنى في: أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم.

وعن أنس رضي الله عنه: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم.

وقرأ ابن مسعود: لاهون فإن قلت: ما معنى المراآة قلت: هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرى الناس علمه وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام: " ولا غمة في فراض الله " لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت فوجب إماطة التهمة بالإظهار وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفي لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جملاً وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثني عليه بالصلاح.

وعن بعضهم: أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص.

ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود ".

الماعون الزكاة قال الراعي: قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا وعن ابن مسعود: ما يتعاور في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها.

وعن عائشة الماء والنار والملح وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعرت عن اضطرار وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة أرأيت غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً ".

سورة الكوثر

مكية وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا أنطيناك بالنون.

وفي حديثه صلى الله عليه وسلم: " وانطوا الثبجة " والكوثر فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة.

وقيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك قالت: آب بكوثر.

قال: وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا وقيل الكوثر نهر في الجنة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال: " أتدرون ما الكوثر إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير " وروي في صفته: أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء.

وروي: لا يظمأ من شرب منه أبداً أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرؤوس الذين لا يزوجون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو أقسم على الله لأبره.

وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير فقال له سعيد بن جبير: إن ناساً يقولون: هو نهر في الجنة! فقال: هو من الخير الكثير.

والنحر: نحر البدن وعن عطية: هي صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى.

وقيل: صلاة العيد والتضحية.

وقيل: هي جنس الصلاة.

والنحر: وضع اليمين على الشمال والمعنى: أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لهم في النحر للأوثان إن من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم هو الأبتر لا أنت لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك وذكرك مرفوع على المنابر والمنار وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر

الدهر يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف فمثلك لا يقال له أبتر: وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة وإن ذكر باللعن.

وكانوا يقولون: إن محمداً صنبور: إذا مات ذكره.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل وقد سماه الأبتر والأبتر: الذي لا عقب له.

ومنه الحمار الأبتر الذي لا ذنب له.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر أو يقربونه ".

سورة الكافرون

مكية وهي ست آيات ويقال لها ولسورة الإخلاص: المقشقشتان أي المبرئتان من النفاق

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين}.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون.

روي أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال: " معاذ الله أن أشرك بالله غيره " فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم.

فأيسوا.

لا أعبد أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن لا لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال ألا ترى أن لن تأكيد فيما تنفيه لا.

وقال الخليل في لن: إن أصله لا أن والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي " ولا أنا عابد ما عبدتم " أي: وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الإسلام " ولا أنتم عابدون ما أعبد " أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته

فإن قلت: فهلا قيل: ما عبدت كما قيل: ما عبدتم قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

فإن قلت: فلم جاء على ما دون من قلت: لأن المراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق.

وقيل: إن ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي " لكم دينكم ولي دين " لكم شرككم ولي توحيدي.

والمعنى: أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافاً ولا تدعوني إلى الشرك.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر ".

سورة النصر

نزلت بمنى في حجة الوداع فتعد مدنية وهي آخر ما نزل من السور

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً} إذا جاء منصوب بسبح وهو لما يستقبل.

والأعلام بذلك قبل كونه من النبوة.

روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

فإن قلت: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه قلت: النصر الإغاثة والإظهار على العدو ومنه: نصر الله الأرض غاثها.

والفتح حتى عطف عليه قلت: النصر الإغاثة والإظهار على العدو.

ومنه: نصر الله الأرض غاثها.

والفتح: فتح البلاد والمعنى نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على العرب أو على قريش وفتح مكة وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم.

وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة ثم خرج إلى هوازن وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده " ثم قال: " يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم " قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئاً فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الإسلام في دين الله في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه} آل عمران 85.

أفواجاً جماعات كثيفة كانت تدخل في القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنه بكى ذات يوم فقيل له.

فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " دخل الناس في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً " وقيل: أراد بالناس أهل اليمن.

قال أبو هريرة: لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن: قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية " وقال: " أجد نفير ربكم من قبل اليمن ".

وعن الحسن: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال.

وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر.

وقرئ: يدخلون على البناء للمفعول.

فإن قلت: ما محل يدخلون قلت: النصب إما على الحال على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت أو هو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت.

{فسبح بحمد ربك} فقل سبحان الله: حامداً له أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم واحمده على صنعه.

أو: فاذكره مسبحاً حامداً زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك.

أو فصل له.

روت أم هانيء: أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات وعن عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: " سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك " والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين: من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية ليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ولأن الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس فهو عبادة في نفسه.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " إني لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة " وروي: أنه لما قرآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه استبشروا وبكى العباس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما يبكيك يا عم " قال: نعيت إليك نفسك.

قال: " إنها لكما تقول " فعاش بعدها سنتين لم ير فيهما ضاحكاً مستبشراً وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد أوتي هذا الغلام أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا ".

وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبائنا من هو مثله فقال إنه ممن قد علمتم.

قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن وقول الله تعالى: {إذا جاء نصر الله} ولا أراه سألهم إلا من أجلي فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه فقلت: ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم ثم قال: كيف تلومونني عليه بعدما ترون وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال: " يا بنتاه إنه نعيت إلي نفسي فبكت فقال: لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقاً بي.

وعن ابن مسعود أن هذه السورة تسمى سورة التوديع.

كان تواباً أي: كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين تواباً عليهم إذا استغفروا فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سورة المسد

مكية وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

{تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد} التباب: الهلاك.

ومنه قولهم: أشابة أم تابة أي: هالكة من الهرم والتعجيز.

والمعنى: هلكت يداه لأنه فيما يروى: أخذ جحراً ليرمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتب وهلك كله.

أو جعلت يداه هالكتين.

والمراد: هلاك جملته كقوله تعالى: {بما قدمت يداك} الحج 10 ومعنى: وتب: وكان ذلك وحصل كقوله: جزاني جزاه الله شر جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وقد تب وروي: أنه لما نزل {وأنذر عشيرتك الأقربين} الشعراء 214 رقى الصفا وقال: يا صباحاه فاستجمع إليه الناس من كل أوب.

فقال: يا بني عبد المطلب يا بني فهر إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بني يدي الساعة فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا فنزلت.

فإن قلت: لم كناه والتكنية تكرمة قلت: فيه ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما ولذلك تجري الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية عطف بيان فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من علميه ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب كما قيل: علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع ولفيتة بن قاسم أمير مكة ابنان أحدهما: عبد الله بالجر والآخر عبد الله بالنصب.

كان بمكة رجل يقال له: عبد الله بجرة الدال لا يعرف إلا هكذا.

والثاني: أنه كان اسمه عبد العزي فعدل عنه إلى كنيته.

والثالث: أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حلاه كنيته فكان جديراً بأن يذكر بها.

ويقال: أبو لهب كما يقال: أبو الشر للشرير.

وأبو الخير للخير وكما كنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا المهلب: أبا صفرة بصفرة في وجهه.

وقيل: كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما فيجوز أن يذكر بذلك تهكماً به وبافتخاره بذلك.

وقرئ: أبي لهب بالسكون.

وهو من تغيير الأعلام كقولهم: شمس بن مالك بالضم.

ما أغنى استفهام في معنى الإنكار ومحله النصب أو نفي وما كسب مرفوع وما موصولة أو مصدرية بمعنى ومكسوبه أو: وكسبه.

والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله يعني: رأس المال والأرباح.

أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها وكان ذا سابياء.

أو ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه.

أو ماله التالد والطارف.

وعن ابن عباس: ما كسب ولده.

وحكي أن بني أبي لهب احتكموا إليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع فغضب فقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: " إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه " وعن الضحاك: ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعني كيده في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن قتادة: عمله الذي ظن أنه منه على شيء كقوله: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل} الفرقان 23 وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي.

سيصلى قرئ: بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً والسين للوعيد أي: هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وامرأته هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: كانت تمشي بالنميمة ويقال: للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم أي: يوقد بينهم النائرة ويورث الشر.

قال: من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب جعله رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر ورفعت عطفاً على الضمير في سيصلى أي: سيصلى هو وامرأته.

وفي جيدها في موضع الحال أو على الابتداء وفي جيدها: الخبر.

وقرئ: حمالة الحطب بالنصب على الشتم وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل.

وقرئ: حمالة الحطب وحمالة للحطب بالتنوين بالرفع والنصب.

وقرئ: ومريته بالتصغير.

المسد: الذي قتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان أو جلد أو غيرهما.

قال: ومسد أمر من أيانق ورجل ممسود الخلق مجدوله.

والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون: تخسيساً لحالها وتحقيراً لها وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في بيت العز والشرف.

وفي منصب الثروة والجدة.

ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب فقال: ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي أم ما تعير من حمالة الحطب غراء شادخة في المجد غرتها كانت سليلة شيخ ناقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى: أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك فلا تزال على ظهوها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع وفي جيدها حبل من ما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة ".

سورة الإخلاص

مكية وقيل: مدنية وآياتها أربع

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد} هو ضمير الشأن والله أحد هو الشأن كقولك: هو زيد منطلق كأنه قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له.

فإن قلت: ما محل هو قلت: الرفع على الابتداء والخبر الجملة.

فإن قلت: فالجملة الواقعة خبراً لا بد فيها من راجع إلى المبتدأ فأين الراجع قلت: حكم هذه

الجملة حكم المفرد في قولك: زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى وذلك أن قوله: الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق فإن زيداً والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد من مما يصل بينهما.

وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعونا إليه فنزلت: يعني: الذي سألتموني وصفه هو الله وأحد: بدل من قوله الله.

أو على: هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله وحد.

وقرأ عبد اله وأبي: هو الله أحد بغير قل وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: الله أحد بغير قل هو وقال من قرأ: الله أحد كان بعدل القرآن.

وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد.

وقرئ: أحد اله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف.

ونحوه: ولا ذاكر الله إلا قليلاً والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين.

والصمد فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده وهو السيد المصمود إليه في الحوائج.

والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

لم يلد لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبه فيتوالدا.

و قد دل على هذا المعنى بقوله: {أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة} الأنعام 101.

ولم يلد لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد أي: لم يماثله ولم يشاكله.

ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للصاحبة: سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته فقوله: هو الله إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام.

وفي ذل وصفه بأنه حي سميع بصير.

وقوله أحد وصف بالوحدانية ونفي الشركاء.

وقوله: الصمد وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه: فهو غني.

وفي كونه غنياً مع كونه عالماً: أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه.

وقوله: لم يولد وصف بالقدم والأولية.

وقوله: لم يلد نفي للشبه والمجانسة.

وقوله: ولم يكن له كفواً أحد تقرير لذلك وبت للحكم به فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه.

وقرئ: كفؤا بضم الكاف والفاء.

وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء: فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصر متنها وتقارب طرفيها قلت: لأمر ما يسود من يسود وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله فيها: إن علم التوحيد من الله تعالى بمكان وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم: يشرف بشرفه ويتضع بضعته ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز فما ظن بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق دونه ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلوه من خشيته وبعده من النظر لعاقبته.

اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك القائلين بعدلك وتوحيدك الخائفين من وعيدك.

وتسمى سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين وروي أبي وأنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد " يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سمع رجلاً يقرأ: قل هو الله أحد فقال: وجبت.

قيل: يا رسول الله وما وجبت قال: وجبت له الجنة.

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد} الفلق والفرق: الصبح لأن الليل يفلق عنه ويفرق: فعل بمعنى مفعول.

يقال في المثل: هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح.

ومنه قولهم: سطع الفرقان إذا طلع الفجر.

و قيل: هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب عن النوى وغير ذلك.

وقيل: هو واد في جهنم أو جب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق والجمع: فلقان.

وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق فقيل: وما الفلق قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره من شر ما خلق من شر خلقه.

وشرهم: ما يفعله المكلفون من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارة بعضهم بعضاً من ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وغير ذلك وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهش واللدغ والعض كالسباع والحشرات وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

والغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى: {إلى غسق الليل الإسراء} 78 ومنه: غسقت العين امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة: امتلأت دماً.

ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء ويقال: وقبت الشمس إذا غابت.

وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وقبت قال: هذا حين حلها يعني صلاة المغرب.

وقيل: هو القمر إذا امتلأ وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فأشار إلى القمر فقال: " تعوذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب ".

ووقوبه: دخوله في الكسوف واسوداده.

ويجوز أن يراد بالغاسق: الأسود من الحيات: ووقبه: ضربه ونقبه.

والوقب: النقب.

ومنه: وقبة الثريد والتعوذ من شر الليل لأن انبثاثه فيه أكثر والتحرز منه أصعب.

ومنه قولهم: الليل أخفى للويل.

وقولهم: أغدر الليل لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه. أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به.

فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرهن. قلت: فيها ثلاثة أوجه، أحدها: أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك. والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس عند نفثهن ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: {إن كيدكن عظيم} [يوسف 28] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد. أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهم يسحرونهم بذلك إذا حسد أي إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه: من بغي الغوائل للمحسود لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره.

وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد.

ويجوز أن يراد بشر الحاسد: إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره.

فإن قلت: قوله: من شر ما خلق تعميم في كل ما يستعاذ به.

وقالوا: شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر.

فإن قلت: فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه قلت: عرفت النفاثات لأن كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم.

"لا حسد إلا في اثنتين " وقال أبو تمام

وقال: إن العلا حسن في مثلها الحسد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها ".

سورة الناس

مكية وقيل: مدنية وآياتها ست

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس} قرئ: قل أعوذ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ونحوه.

{فخذ أربعة} البقرة 260 فإن قلت: لم قيل برب الناس مضافاً إليهم خاصة قلت: لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي تملك عليهم أمورهم وهو إلاههم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم.

فإن قلت: ملك الناس إله الناس ما هما من رب الناس قلت: هما عطف بيان كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق: بين بملك الناس ثم زيد بياناً بإله الناس لأنه يقال لغيره: رب الناس كقوله: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} التوبة 31 وقد يقال: ملك الناس.

وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان.

فإن قلت: فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة قلت: لأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار دون الإضمار الوسواس اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة.

وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال.

والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوس في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه: أو أريد ذو الوسواس والوسوسة: الصوت الخفي ومنه: وسواس الحلي.

والخناس الذي عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس وهو التأخسر كالعواج والبتات لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولي فإذا غفل وسوس إليه.

الذي ويوسوس يجوز في محله الحركات الثلاث بالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين.

من الجنة والناس بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان: جنى وإنسي كما قال: {شياطين الإنس والجن} الأنعام 112 وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس ويجوز أن يكون من متعلقاً بيوسوس ومعناه: ابتداء الغاية أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الناس وقيل: من الجنة والناس بيان للناس وأن اسم الناس ينطلق على الجنة واستدلوا بنفر ورجال في سورة الجن.

وما أحقه لأن الجن سموا جنا لاجتنانهم والناس ناساً لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار كما سموا بشراً ولو كان يقع الناس على القبليلين وصح ذلك وثبت: لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبعده من التصنع.

وأجود منه أن يراد بالناس: الناسي كقوله: {يوم يدع الداع} القمر 6 وكما قرئ {من حيث أفاض الناس} البقرة 99 ثم يبين بالجنة والناس لأن الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد أنزلت علي سورتان ما أنزل مثلهما وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما " يعني: المعوذتين.

ويقال للمعوذتين: المقشقشتان.

قال عبد الله الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة التامة وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامة من كل ما يكلم الدين ويثلم اليقين أو يعود في العاقبة بالندم أو يقدح في الإيمان المسوط باللحم والدم وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر ووضع الخد لجلاله الأعظم الأكبر مستشفعاً إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام متوسلاً بالتوبة الممحصة للآثام وبما عنيت به

الإنس ويجوز أن يكون من متعلقاً بيوسوس ومعناه: ابتداء الغاية أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الناس وقيل: من الجنة والناس بيان للناس وأن اسم الناس ينطلق على الجنة واستدلوا بنفر ورجال في سورة الجن.

وما أحقه لأن الجن سموا جنا لاجتنانهم والناس ناساً لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار كما سموا بشراً ولو كان يقع الناس على القبليلين وصح ذلك وثبت: لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبعده من التصنع.

وأجود منه أن يراد بالناس: الناسي كقوله: {يوم يدع الداع} القمر 6 وكما قرئ: {من حيث أفاض الناس} البقرة 99 ثم يبين بالجنة والناس لأن الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد أنزلت علي سورتان ما أنزل مثلهما وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما " يعني: المعوذتين.

ويقال للمعوذتين: المقشقشتان.

قال عبد الله الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة التامة وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامة من كل ما يكلم الدين ويثلم اليقين أو يعود في العاقبة بالندم أو يقدح في الإيمان المسوط باللحم والدم وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر ووضع الخد لجلاله الأعظم الأكبر مستشفعاً إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام متوسلاً بالتوبة الممحصة للآثام وبما عنيت به

من مهاجرتي إليه ومجاورتي ومرابطتي بمكة ومصابرتي على تواكل من القوى وتخاذل من الخطأ ثم أسأله بحق صراطه المستقيم وقرآنه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين في عمل الكشاف عن حقائقه المخلص عن مضايقه المطلع على غوامضه المثبت في مداحضه الملخص لنكته ولطائف نظمه المنقر عن نقره وجواهر علمه المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه مع الإيجاز الحاذف للفضول وتجنب المستكره المملول ولو لم يكن في مضمونه

إلا إيراد كل شيء على قانونه لكفي به ضالة ينشدها محققة الأخبار وجوهره يتمنى العثور عليها غاصة البحار وبما شرفني به ومجدني واختصني بكرامته وتوحدني من ارتفاع على يدي في مهبط بشاراته ونذره ومتنزل آياته وسوره من البلد الأمين بين ظهراني الحرم وبين يدي البيت المحرم حتى وقع التأويل حيث وجد التنزيل: أن يهب لي خاتمة الخير ويقيني مصارع السوء ويتجاوز عن فرطاتي يوم التناد ولا يفضحني بها على رؤوس الأشهاد ويحلني دار المقامة من فضله بواسع طوله وسابغ نوله إنه هو الجواد الكريم الرؤوف الرحيم.